

تاريخ الآداب العربية

الجزء الأول

العصر الجاهلي

فهرسة أثناء النشر: إعداد الشئون الفنية

اسم الكتاب: تاريخ الآداب العربية، العصر الجاهلي ج(١)

اسم المؤلف: محمد أسامة

تصنيف الكتاب: تاريخ أدبي

القاهرة. دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

عدد الصفحات: ٤١٠

رقم الإيداع: ٩٩٦٩ / ٢٠٢٣

الترقيم الدولي: ١ - ٦٠٨ - ٩٩٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨



تحقيق علمي وتدقيق لغوي: أ/حسن الحضري.

تصميم الغلاف: منى الموجي

التنسيق الداخلي: محمد أسامة

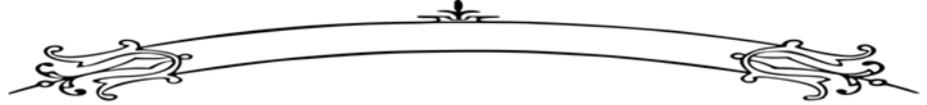
رقم الطبعة: الطبعة الأولى

المدير العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com



حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي وهبنا الإسلام دينًا، ورزقنا القرآن منهجًا وسبيلًا، وجعل منه لنا ضياءً منيرًا، وشرَّفنا بحمل رسالته، والعناية بلغته، والصلاة والسلام على أشرف الحلق والمرسلين سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، وقد أدَّى الأمانة، وبلَّغ الرسالة، ونصح الأمة، وتركها على محجة واضحة، أما بعد:

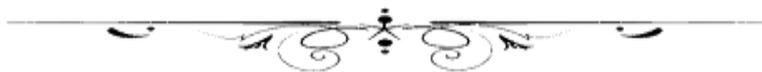
فهذا هو كتابي "تاريخ الآداب العربية" بجميع أجزائه وفصوله وأبوابه، وقد رتَّبته بحيث تكون موضوعاته شاملة، وأجزاؤه جامعة، وقمت بوضع ما بوسعي من معارف وعلوم وأدبيات؛ حتى يكون الكتاب جامعًا لتاريخ الأدب العربي منذ عصر الجاهلية حتى أيامنا هذه.

وقد دفعني إلى تأليف هذا الكتاب -رغم قِدَم الفكرة- أسبابٌ عديدة؛ أولها رغبتى ومحبتى للتأليف بشكل عامٍّ، وكذلك رغبتى في أن أضع كل معارفي وعلومى في كتاب يستفيد منه غيرى، فضلًا عن رغبتى القوية في خدمة التراث وحمايته، من خلال حماية لغته والاهتمام بعلومها وثقافتها وأدبها؛ في عصرٍ تزايد فيه هجوم العلمانيين على التراث وعلى كل ما هو إسلامي، ولجوء عدد منهم إلى الطعن في ثوابت الإسلام والتاريخ والثقافة؛ بإثارة الشبهات وإذاعة ما لم تثبت صحَّته من أخبارٍ؛ بُغية سُلخ الأمة عن تراثها، وفصلها عن تاريخها، فلا تجد الأمة ما تفتخر به، أو تجتهد من أجله؛ لذا كان وضعي لكتاب "تاريخ الآداب العربية" أولى محاولاتى لتأليف كتابٍ عن الثقافة العربية والتراث، متحدِّثًا عن لغته حتى يكون العربي دائمًا فخورًا بتراثه، سعيدًا بثقافته، والحديث عن اللغة بذاتها رغم أنه جزء صغير من تراثنا العملاق؛ إلا أنه في غاية الأهمية؛ نظرًا إلى ما للغة من أهميةٍ في حياة الشعوب، ولأنها الباب الأول لحفظ التراث والعلوم والتاريخ وتدوين ذلك كله، ولا سيَّما اللغة العربية التي شرَّفها الله بأن جعلها لغة القرآن، ورسالة الإسلام.

ورغم أن كثيرًا من الأدباء والأساتذة قد سبقوني إلى تلك الفكرة، وبحثوا قبلي في هذا الموضوع، ومنهم من كان بحثه وافياً جامعاً، تاماً شاملاً؛ مثل الدكتور شوقي ضيف، وحنّا الفاخوري، وعمرو فروخ، ومصطفى صادق الرافعي، وجرجي زيدان، وبروكلمان؛ فإنني ما زلت أرى أن هناك سعة ومجالاً لوضع كتاب آخر يتحدث عن نفس الموضوع ويتطرق إلى جوانب مختلفة بمنهج مختلف؛ فمن الكتب السابقة ما اهتم واكتفى بتاريخ الأدب والأدباء ولم يورد لهم نصوصاً وافية؛ من باب الإيجاز، ومنها ما أورد نصوصاً وافية ولكن لم يقدم شرحاً فنيًا لتطورات الأدب في كل عصر، ومنها ما اهتم بشرح التطورات الفنية لكل عصر دون أن يورد نصوصاً كاملة؛ بل اكتفى بنصوص صغيرة كدلالة على وصفه وكلامه، ومنها ما أسهب في التعليق على النصوص، ومنها ما تجاوز عن هذا الجانب؛ وذلك كله بسبب اختلاف كل كاتب في منهجه وأسلوب بحثه وهدفه من مؤلفه، لذا فقد قررت تصنيف هذا الكتاب تحت اسم "تاريخ الآداب العربية"؛ ليكون شارحاً لتاريخ الأدب منذ العصر الجاهلي حتى أيامنا هذه، مع تقديم نبذة موجزة عن الأحوال التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية في كل عصر، ثم دراسة الخصائص الفنية للشعر وللنثر بشيء من الإيجاز والشواهد، ثم ذكر من اشتهر من أدباء تلك الحقبة من شعراء وكتاب وخطباء وغيرهم، وإيراد نماذج مستفيضة من أشعارهم، وليس الاكتفاء بمقطوعات صغيرة؛ وذلك حتى يتعرّف القارئ على تاريخ الأدب والأديب، ويتذوق الأدب وحلاوة النص في الوقت ذاته، فيكون البحث تاماً شاملاً مستوفياً لكل معانيه وجوانبه.

وبعد ترتيب وتدقيق؛ رأيت أن أقسم هذه المجموعة المسماة بـ"تاريخ الآداب العربية"؛ إلى خمسة أجزاء في وثمانية أبواب؛ أما الجزء الأول فهو مختص بالعصر الجاهلي شعراً ونثراً، بالإضافة إلى مقدمة تمهيدية عن اللغة والأدب، وأما الجزء الثاني فيشمل عصريين من عصور الأدب؛ هما: عصر صدر الإسلام ثم العصر الأموي، وأما الجزء الثالث فيتضمن العصر العباسي، بينما يشمل الجزء الرابع عصر الإمارات المستقلة التي عاصرت العصر العباسي،

والتي تليه؛ ويشتمل على ثلاثة أبواب؛ هي: الأدب في الأندلس، والأدب في المغرب العربي، ثم أدب في عصر الإمارات التركية؛ أما الجزء الخامس فيتضمن عصر الأدب العربي في عصر النهضة الحديثة حتى عام ١٤٤٢هـ/٢٠٢٠م. وقد اعتمدت في كتابي هذا على ما انتهيت إليه من كتب سابقة في هذا الموضوع، بالإضافة إلى كتب أدبية عديدة ومُجمَّعات شعرية مختلفة؛ ذكرت أسماءها في المراجع آخر الكتاب؛ لتكون مصادر لما أورده من نصوص، وقد اعتنيت أشد العناية بكتابة مصادر كل المعلومات المقتبسة، وكل الآراء الأدبية؛ إلى مصادرها في الهامش؛ من باب الأمانة في النقل، ومن باب فتح المجال لمن أراد التوسع في القراءة بالمجال الأدبي، بالإطلاع على المزيد من الكتب والمؤلفات الأدبية.



تمهيد

مفهوم الأدب وتاريخ اللغة العربية

العرب

(أصلهم ونشأتهم وفروعهم وأنسابهم)

الساميون:

الساميون، أو الشعوب السامية؛ هو مصطلح يطلق على الشعوب التي انحدرت من نسل "سام بن نوح -عليه السلام- أحد أبنائه الثلاثة الذين نجوا من الطوفان، وترتبط تلك الشعوب مع بعضها بعضاً بعدة روابط جغرافية وتاريخية وثقافية ولغوية، ومن المعروف أن شعوب الأرض قد انحدرت جميعها من ذرية نوح -عليه السلام- وأبنائه الثلاثة؛ وهم: "سام" و"حام" و"يافت"، بالإضافة إلى ولد رابع هو "كنعان"، وهذا لم يؤمن بأبيه، فهلك في الطوفان ولم يعقب، ولهذا يُطلق على نوح -عليه السلام- لقب أبي البشر الثاني؛ إذ إن الكافرين زمن نوح قد هلكوا في الطوفان، وأما المؤمنون من غير نسله -عليه السلام- فلم يعقبوا وانقطع نسلهم، وهذا مصداقاً للآية الكريمة {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}١

فأما "سام" فهو أبو شعوب العرب والعبانيين والأشوريين والأكراد والأرمن والكنعانيين والعماليق والبابليين والفرس والسريان، وهذه الشعوب سكنت في جزيرة العرب والشام والعراق وبلاد فارس وآسيا الصغرى ومصر، وانتشروا قديماً في عموم جنوب شرق آسيا.

وأما "حام" فهو أبو شعوب الهند والأحباش والقبط والنوبة والقوط والأفارقة والبربر والأمازيغ والزنج والسودان.... أما شعوب الهند والسند فقد سكنت في جنوب وأواسط آسيا فيما يُعرف بشبه القارة الهندية، وأما بقية الحاميين فقد سكنوا في مصر وسائر بلاد أفريقيا.

١ سورة الصافات: ٧٧.

وأما "يافيث" فهو أبو شعوب الترك والروم واليونان والإغريق، ويدخل في جنس الترك كل من: القبجاق والتتر والمغول والغز والغور والشركس والروس، بالإضافة إلى الصين؛ وهذه هي الشعوب سكنت في شرق وشمال وسط آسيا، وأما شعوب الروم والفرنجة واليونان والإغريق فوهؤلاء سكنوا في بلاد أوروبا، ومن أبناء "يافيث" شعبا "يأجوج" و"مأجوج"، وقد ذُكرت قصتهما في القرآن مع ذي القرنين.

وقد وُلد لـ"سام" كلُّ من: "عابر" و"عليم" و"أشودز" و"أرفخشذ" و"لاوذ" و"إرم".^١ وليس بين أيدينا قولٌ ثابتٌ حول الموطن الأصلي الذي نشأ فيه الساميون ومن أين ترعرعوا وكيف انتشروا؛ إذ إن هذا كله حدث في عصور غابرة تمتد إلى ما قبل التاريخ، فلا يمكن الجزم فيه بقول ثابت، وتتعدّد النظريات والأقوال من قِبَل المؤرخين الذين تعقّبوا الآثار واستنطقوا الجمادات، ويرجّح أن جزيرة العرب هي موطنهم الأصلي وأنهم لما تكاثروا أخذوا يهاجرون منها على دفعات متتالية في أزمنة مختلفة لأسباب مناخية وجغرافية، وهناك من زعم أن موطن الساميين الأصلي في بلاد العراق ومنها انتشروا؛ وذلك استنادًا إلى بعض الآثار السامية القديمة التي وجدوها، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وعليه فقد هاجرت أعداد من تلك الشعوب السامية من جزيرة العرب إلى بلاد الشام والعراق على فترات متفاوتة، وكوّنوا عدّة حضارات وممالك شهيرة؛ مثل الحضارة السومرية التي ما لبثت أن تطورت إلى مملكة قوية في العصر القديم، حكمت أجزاء من الشام والعراق والجزيرة؛ وكذلك مملكة بابل التي اشتهر من بين ملوكها الملك حمورابي الشهير الذي أصدر التشريع القانوني المعروف بشريعة حمورابي؛ والدولة الآشورية التي حكمت أجزاء واسعة من بلاد آسيا الصغرى ومصر؛ والدولة الكلدانية التي اشتهر من بين حكامها "نبوخذ نصر"

^١ انظر: تاريخ ابن خلدون- ديوان المبتدئ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون (٨/٢)، باب: أخبار العرب وأجيالهم ودولهم. تحقيق: خليل شحادة، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

(يختنصر) الذي غزا اليهود وخرَّب بيت المقدس؛ فضلاً عن إمارات أخرى أسسها الكنعانيون والآراميون والعبريون والفينيقيون إلى جانب بعض الممالك العربية التي قامت في الشمال؛ مثل مملكة الأنباط، ومملكة تدمر وعدة ممالك أخرى في جنوب جزيرة العرب، وقد ازدهرت تلك الممالك من الناحية الحضارية وعنوا بالطب والعمارة والفلك والرياضيات والاقتصاد والتجارة وفنون الأدب! أما العرب فقد سكنوا في شبة الجزيرة العربية وكانت لهم طبائعهم وخصائصهم وحضارتهم وممالكهم، وكانوا كذلك على اتصال وثيق مع إخوانهم وأبناء عموماتهم من الشعوب السامية التي انحدرت كلها من أرومة واحدة.

العرب:

العرب في الأصل هم أحد الشعوب السامية التي انحدرت هي وأخواتها من أرومة واحدة، وحديثاً يُعرف العربي بأنه هو كل من كانت العربية لغته الأم مهما كان أصله، وأصبحت العروبة هي طابعه وثقافته ولغته؛ وهو تعريف حديث نظراً إلى أن هناك من شعوب الأرض غير العربية؛ التي تأثرت بالثقافة العربية واندمجت فيها بفضل انتشار الإسلام فتعرَّبت، وتنتشر شعوب العرب في عموم بلاد الشرق الأوسط في جزيرة العرب (موطنهم الأصلي)، وبلاد الشام والعراق وشمال أفريقيا فيما يُعرف جغرافياً بالوطن العربي، وفيهم كذلك أقليات معتبرة في سائر البلاد الإسلامية؛ كبلاد الهند وباكستان وتركيا وسائر بقاع أواسط آسيا، وأقليات أخرى أقل عدداً منتشرة في أفريقيا وأوروبا والأمريكتين.

وينقسم العرب إلى قسمين رئيسيين:

١- العرب البائدة: هم القبائل العربية القديمة التي هلكت وانقرضت في غابر الزمن وليس لها وجود الآن؛ مثل قبيلة عاد وعبيل وثمود وجديس (من نسل إرم بن سام)، ووبار وطسم والعماليق وأميم

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٢١-٢٤)، طبعة: دار المعارف.

وجاسم (من نسل لاوذ بن سام)، وجرهم (من نسل أرفخشذ)؛ وهؤلاء لم يصلنا شيء من أخبارهم إلا ما أنبأ عنه القرآن الكريم فيمن أهلكهم الله بذنوبهم وتكذيبهم لأنبيائهم، وبعض الآثار القديمة النادرة التي تدل على وجودهم؛ مثل آثار مدائن صالح قرب مدينة العلا الحجازية.

٢- العرب الباقية: وهم العرب الباقون إلى الآن.

وبدورهم ينقسم العرب الباقية إلى ثلاثة فروع؛ وهي:

١- العرب القحطانية (اليمنية):

وهم العرب العاربة (العرب الأصليون)، وهم ينسبون إلى جددهم "يعرب ابن قحطان" من نسل "أرفخشذ بن سام بن نوح"، وموطنهم الأصلي اليمن، ولما كثرت عددهم؛ هاجروا وانتشروا في جزيرة العرب، وهم ينقسمون إلى شعبين عظيمين: كهلان وحِمَيْر؛ أما كهلان فانحدرت منها قبائل طيء وهمدان (بطون حاشد وبكيل)، ومذحج وعاملة وجذام ولخم والأزد (الأوس والخزرج وغسان)، ولحيان وكندة؛ وأما حمير فقد انحدرت منها قضاة (على قول)، وكتب وعذرة وخولان وتنوخ.

٢- العرب العدنانية:

ويُعرفون بالعرب المستعربة؛ أي: الذين اكتسبوا اللسان العربي وأخذوه من شعوب قحطان، وجددهم الأعلى هو عدنان من أعقاب إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام- وهو أيضاً من نسل "أرفخشذ"، وهذا يعني أن العرب العدنانية والقحطانية ينتسبون جميعاً إلى "أرفخشذ بن سام بن نوح".

ويُعرفون كذلك بالـ"نزارية"؛ نسبة إلى "نزار بن معد بن عدنان" الذي انحدرت منه البطن الأعظم من قبائل العدنانيين، وموطنهم الأصلي مكة المكرمة، ولما كثرت عددهم؛ هاجروا من مكة وانتشروا في مختلف بقاع جزيرة العرب، ولا سيَّما في الشمال، باستثناء قبيلة "قريش" إحدى بطون "كنانة" التي استقرت في الحرم؛

١- انظر: تاريخ ابن خلدون (٢/٨-٩)،

ويبدأ تاريخ العرب العدنانية منذ حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، ولكن العرب لم يفيضوا في تاريخهم إلا مع بداية التاريخ المسيحي؛ أي: نحو سبعة قرون قبل الهجرة، ويعرف هؤلاء بعرب الشمال.

وقد وُلد لـ"عدنان" كل من "معد" و"عك"، وقيل: بقيت من "عك" بقيّة إلى الإسلام، أما "معد" فهو من انحدر منه البطن الأعظم، وقد وُلد له كلٌّ من: "قنص" و"نزار"، وقد انحدر أغلب النسل العربي من "نزار"، وله أربعة أولاد؛ هم: مضر وربيعة وإياد وأنمار، وقد كثر النسل في ولدين منهما؛ هما مضر وربيعة، وبناء عليه ينقسم السواد الأعظم من العرب العدنانية إلى فرعين رئيسيّين؛ هما:

- العرب المضرية: وهم أبناء مضر بن نزار، وينقسمون إلى فرعين عظيمين هما: إلياس وقيس عيلان؛ أما قيس عيلان -وهم كثر- فقد انحدرت منه بطون هوازن وسليم وثقيف وغطفان (عبس وذبيان) وصعصعة (نمير وكلاب وعقيل)، وأما إلياس فقد انحدرت منه تميم ومزينة وخزاعة ومدركة، ومن مدركة تفرّعت هذيل وخزيمة (أسد وكنانة)، ومن بطون كنانة تفرّعت قريش.

- العرب الربيعية: وهم أبناء ربيعة بن نزار، ومن أشهر قبائلهم: جديلة وعنزة ووائل، ومن وائل بن جديلة تفرّعت تغلب ويشكر وبكر (شيبان وذهل وحنيفة وعجل).^٢

وبجانب هذين الفرعين الكبيرين نجد قبيلة "إياد" التي تنحدر من أخيهما الثالث إياد بن نزار، وقبيلة "قضاة" (على قول)؛ أما أنمار وقنص فلم يشتهر نسلهما.

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/٣٤-٣٥)، طبعة: دار الكتاب العربي.

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٨٧).

^٣ -مخطوط علي حسين الحارثي من كتاب القبائل العربية وأنسابها، د. إحسان.

^٤ -قضاة قبيلة عربية مختلف في نسبها؛ قيل: إنها في عداد القبائل الفحطانية؛ وقيل: إنها تُنسب معد ابن عدنان أخي نزار.

٣- العرب المحدثه:

ويقصد بهم الأقوام غير العربية؛ التي لا تمتُّ من حيث الأصل إلى النسب العربي القديم؛ كشعوب الفرس والقبط والسرّيان والأمازيغ؛ التي دخلت تحت سيادة الحكم العربي الإسلامي إبان الفتح، وهي ليست عربية الأصل؛ ولكنها ومع انتشار الإسلام تعرّبت وصارت العربية ثقافتها وطابعها ولغتها الأم، فدخلوا في غمرة العرب.

موطن العرب:

تعتبر جزيرة العرب التي تقع في أقصى جنوب غرب آسيا هي موطنهم الأصلي، وأُطلق عليها مصطلح "شبة جزيرة"؛ لأن الماء يحيط بها من ثلاث جهات؛ فمن الشرق يحيطها الخليج العربي، ومن الجنوب يحيطها بحر العرب الذي هو جزء من المحيط الهندي، ومن الغرب بحر القلزم الذي يفصل بينها وبين أفريقيا، بينما تحدّها من الشمال بلاد العراق والشام التي هي منفذ جزيرة العرب البري إلى سائر الأصقاع، وتنقسم أقاليم جزيرة العرب إلى عدة أقاليم رئيسية؛ هي:

١- اليمن: وتقع في الركن الجنوبي الغربي في جزيرة العرب، وهي أصل العرب وأقدم موطن لهم، زاد من أهميتها أنها ذات موقع إستراتيجي مهم؛ حيث كانت قبلةً لتجارة العرب قديمًا، وكانت قريبة من الحبشة؛ حيث كان تجار العرب ينتقلون من خلال اليمن إلى الحبشة عن طريق مضيق باب المندب، وكانت اليمن قديمًا مهدًا للعديد من الحضارات والممالك العامرة، ويلحق باليمن إقليم آخر مجاور له في جنوب جزيرة العرب هو حضرموت.

٢- الحجاز: وهو هذا الإقليم الممتد في غرب جزيرة العرب من الشام في أقصى الشمال حتى مشارف اليمن جنوبًا، بمحاذاة بحر القلزم الذي يفصله عن أفريقيا، وتحجزه عن باقي جزيرة العرب سلسلة جبال الحجاز التي تمتد من الشمال إلى الجنوب، وامتاز أهلها بالتحضر والتجارة، وأشهر حواضرها

مكة والطائف ويثرب (المدينة المنورة) وخيبر وتبوك، ويطلق على ساحلها المطل اسم تهامة.

٣- اليمامة: وتشمل أواسط جزيرة العرب، ويغلب عليها الطابع البدوي، وتسمى الآن بإقليم نجد.

٤- البحرين: وتشمل الجانب الشرقي المطل على الخليج العربي، وتسمى الآن بالإساء بينما يطلق حديثاً اسم البحرين على جزيرة صغيرة شرقي جزيرة العرب.

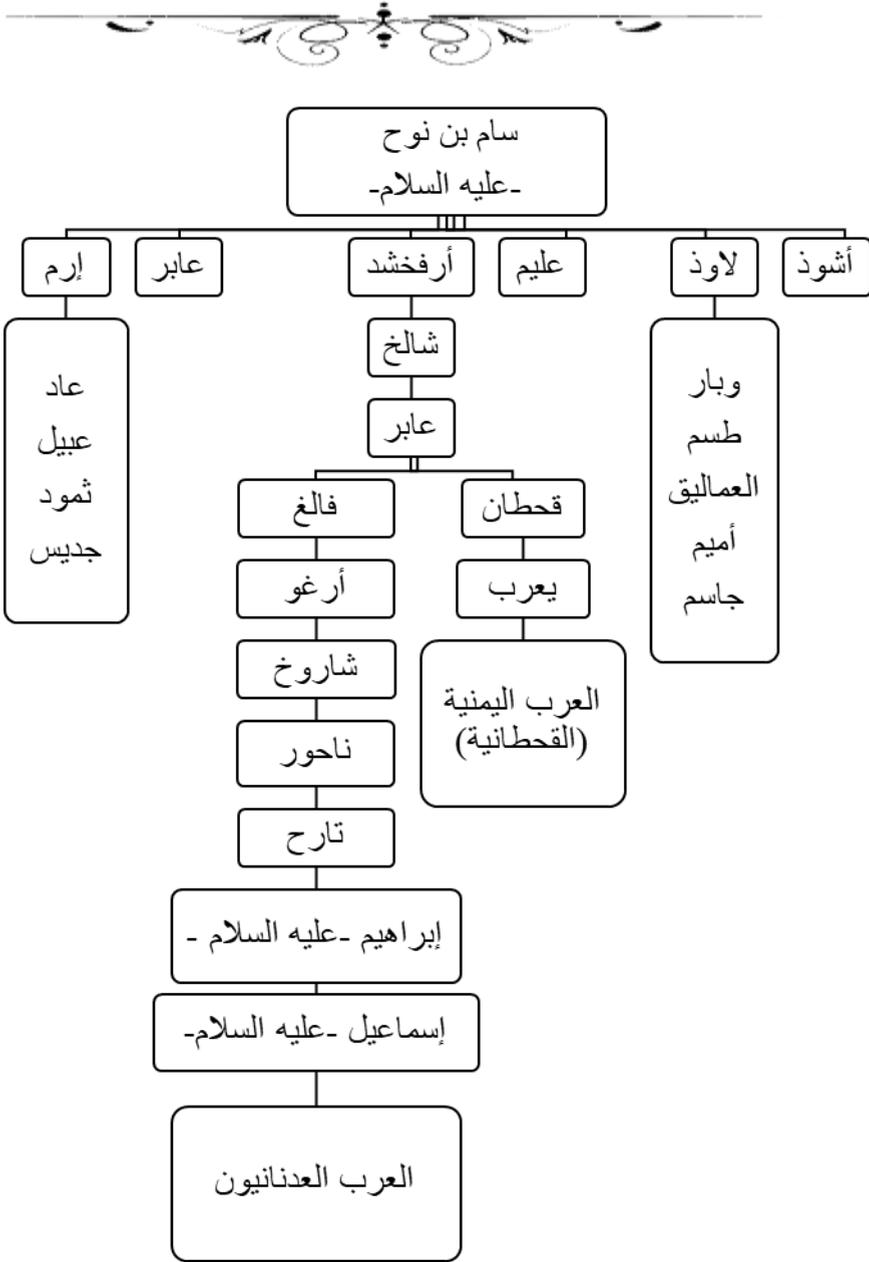
٥- إقليم عمان: ويشمل الركن الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب.

أما بعد انتشار العرب بعد الإسلام فقد اتسع موطنهم الجغرافي ليصير بقعة واسعة تمتد بين الخليج العربي وبلاد فارس شرقاً، والمحيط الأطلسي غرباً، ويحدها البحر الأبيض المتوسط مع الأناضول شمالاً، بالإضافة إلى بحر العرب وأواسط أفريقيا جنوباً؛ فيما يعرف جغرافياً بالوطن العربي أو منطقة الشرق الأوسط، وينقسم إلى إقليمين كبيرين؛ هما:

١- الجانب الآسيوي: ويشمل جزيرة العرب والعراق والشام ويمتد إلى الأهواز وحدود الأناضول.

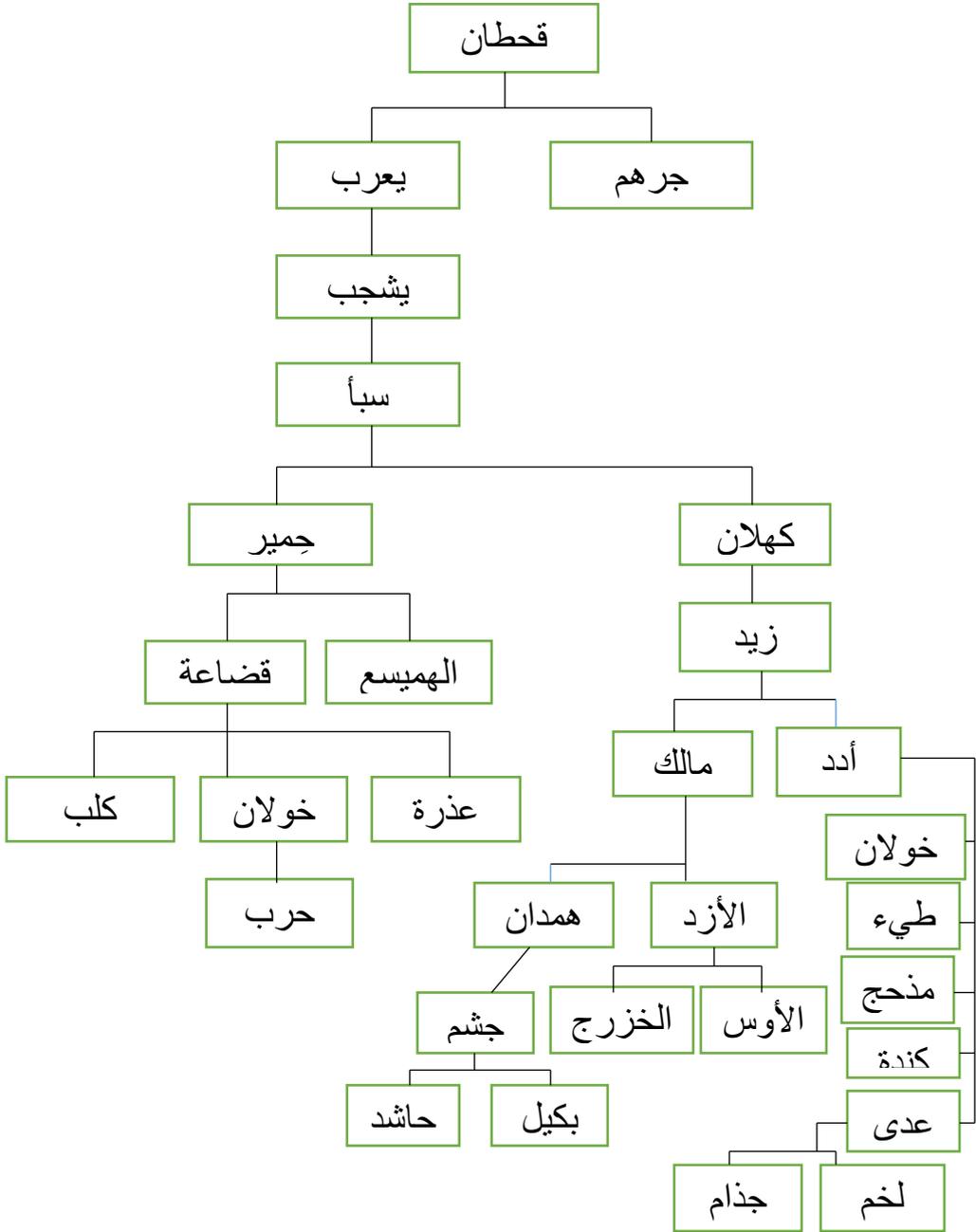
٢- الجانب الأفريقي: ويشمل بلاد حوض النيل (مصر والسودان) وشرق أفريقيا وبلاد المغرب العربي.





(مخطط يوضح أصل العرب القحطانية والعدنانية)

(مخطط توضيحي لأنساب القبائل القحطانية)^١



^١ رسم توضيحي، أُخذ من سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب لأبي الفوز البغدادي السويدي؛ ومخطط علي حسين الحارثي من كتاب القبائل العربية وأنسابها.

تاريخ اللغة العربية

(نبذة عن اللغات القديمة وتاريخ اللغة العربية وبعض خصائصها)

تعريف ونشأة اللغة:

تعريف اللغة: هو أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم!
نشأة اللغة: اختلف علماء اللغات في كيفية نشأة اللغة في حياة الإنسان البدائي القديم، وليس بين أيدينا إلا مجموعة فرضيات نظرية تعتمد على مجرد اجتهادات مرسلة ولا تستند إلى حقيقة علمية أوتاريخية ثابتة؛ إذ إنَّ هذه كلها عصور لم يدركها التاريخ البشري، وقد كانت هناك العديد من الفرضيات حول نشأة اللغة وكيفية تكوُّنها؛ أشهرها ما ذهب إليه فريق من الباحثين؛ بما يسمى بنظرية الإلهام والتوقيف؛ وهي تعني أن اللغة وحيُّ وإلهامٌ من الله إلى الإنسان الأول، وأن الإنسان البدائي ظهر متكلمًا وإن كانت لغته أخذت تتطور مع مرور الوقت، ويذهب إلى هذا الرأي مذهب "أفلاطون" من القدماء؛ وسلك فيه عدد كبير من الباحثين؛ كأحمد بن فارس وأبي الحسن الأشعري والخفاجي والجاحظ، وربما يعضد فرضية أن اللغة وحيُّ من الله إلى لإنسان الأول؛ ما ورد في القرآن الكريم {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}١ وقوله تعالى {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}٢؛ وهو ما قد يعني أنه مع وجود الإنسان الأول كانت هناك كلمات وأسماء تذهب إلى أن اللغة بالفعل وحيُّ وتوقيف، والله أعلم.

١ انظر: الخصائص، ابن جني (١/ ٣٤)، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.

٢ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ٣٩).

٣ سورة البقرة: ٣١.

٤ سورة البقرة: ٣٧.

وهناك فرضية أخرى تذهب إلى أن اللغة تطوَّرت طبيعي مع مرور عمر الإنسان، بدأت بمحاكاة الإنسان الأول لأصوات ومظاهر الطبيعة؛ كأصوات الحيوانات والطبيعة والتي تُحدثها الأفعال وقت وقوعها، ثم بدأ الإنسان يتطوَّر عقلياً وحضارياً ويمتدي إلى الألفاظ الدالة على محاكاة تلك المظاهر؛ وهو ما يسمى بنظرية محاكاة أصوات الطبيعة، وهذا المذهب هو مذهب وضعيّ يقتضي أن اللغة درس طويل مفاده التواطؤ والاصطلاح، وهي فرضية مال إليها عدد آخر من العلماء؛ من بينهم قديماً "ديودورس" و"شيشرون"، وذهب هذا المذهب أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني وطائفة من المعتزلة؛ وقد ذهب ابن جني في تفسير الآيات السابقة مذهباً آخر، والله أعلم.

وهناك فرضية ثالثة أخرى؛ كـنظرية الاتفاق والمواضعة والاصطلاح، وهي تقتضي أن اللغة ابتدعت واستُحدثت بالتواضع والاتفاق؛ وهي فرضية أضعف من الفرضيتين السابقتين^١.

نبذة عن اللغات القديمة:

تعتبر مادة البحث عن أصل اللغات القديمة، أو ما عرف بأهمات اللغات؛ من الأمور الصعبة التي حاول الباحثون فيها أن يعثروا على بعض المعلومات من خلال تتبع الآثار واستنطاق الجمادات وتعقب الصلّات والمتشابهات بين اللغات المختلفة، ويرجع تاريخ أهمات اللغات إلى فترة سحيقة في التاريخ، اختلّف في تقديرها، ترجع إلى آلاف الأعوام، والعلماء يقسمون اللغات إلى ثلاثة أصول؛ هي: الآرية والسامية والطورانية، وقد تطوّرت هذه اللغات وأخذت تنفصل عن بعضها شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن وتشعب الناس في الأرض، فاستقل كل قوم بلغتهم، وتحوّلت كل لهجة خاصة إلى لغة مستقلة بذاتها.

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٣٩).

^٢ أنظر الخصائص، ابن جني: باب أصل اللغة إلهام أم اصطلاح، طبعة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.

فأما الآرية فهي أم السنسكريتية واللاتينية واليونانية، وأما السنسكريتية فقد تفرّعت منها الهندية والأفغانية والكردية والبخارية، وعُرفت باللغات الجنوبية، وأما اللغة اللاتينية فهي أم اللغات الأوروبية؛ كالفرنسية والإيطالية والإسبانية والإنجليزية والألمانية، وقد بقيت اللاتينية لغة أوربا ردحًا طويلًا من الزمن، حتى ذهبت وحلّت محلّها تلك اللغات المحلية، فلم يبقَ منها غير آثارها القديمة. وأما اللغات الطورانية فتشمل اللغات الآسيوية؛ كالتركية والمغولية، ولغات كثيرة ربما لا يربط بينها أصل ولم تدخل في اللغتين السابقتين! وأما اللغة السامية والتي نحن بصددّها؛ فقد تفرّعت إلى ثلاثة فروع:

- ١- الأرامية: وهي أصل الكلدانية والآشورية والسريانية.
- ٢- الكنعانية: وهي أصل العبرانية والفينيقية.
- ٣- العربية: وتشمل لهجات مختلفة تكلم بها عرب الجنوب وعرب الشمال، ويرجّح أنها أقرب اللغات السامية إلى اللغة الأم؛ لأنها بانعزالها عن العالم سلّمت مما أصاب غيرها من التطور والتغيير، وما لبث أن ثبّتها القرآن الكريم فجعلها حية باقية إلى يوم القيامة.

ولعل اللسان البابلي القديم هو ذلك الأصل السامي الذي تفرّعت عنه كل تلك اللغات السامية الأخرى؛ استنادًا إلى الآثار القديمة التي تركتها دولة حمورابي البابلية^٣.

وتُصنّف لغات العالم من حيث الاستعمال والتّرك إلى ثلاث طبقات؛ هي: (لغات بائدة)؛ وهي تلك اللغات التي نُسيّت بذهاب الأقوام الذين يتحدثون بها ولم تترك أثرًا يذكر؛ و(لغات مهجورة)؛ وهي اللغات التي ترك الناس الحديث بها

١- انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٤٥/١).

٢- انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٣-١٤)، طبعة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

٣- انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٥١/١).

ولكن بقيت آثارها محفوظة في المعابد والنقوش والكتب القديمة؛ مثل اللغة السريانية واللاتينية؛ و(لغات حيّة) وهي اللغات التي يتحدث بها الناس الآن!

نشأة اللغة العربية:

اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية التي تفرّعت هي وأخواتها من أصل واحد، ولم يدرك التاريخ مسامرة تفرّع تلك اللغات وتطورها من الأصل السامي، وإن كان أحبار اليهود هم أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه، ولكن بقيت تقديراتهم خاضعة للظنّة حتى أثبت صحّتها العلماء في العصور الحديثة، فصارت حقيقة لا إبهام فيها ولا شك!

وليس من اليسير الكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية القديمة، وقد اجتهد الباحثون في تعقب ذلك عن طريق تتبّع الآثار القديمة والنقوش الحجرية التليدة واستنطاق الجمادات، ورغم العثور على الكثير من تلك الآثار والنقوش إلا أنها لا تزال أقل من أن تثبت حقيقة واضحة أو معلومة مؤكدة، والأقرب أن العرب القدماء في العصور السحيقة مع بدايات التاريخ القديم كانوا يخالطون إخوانهم من البابليين وغيرهم من الساميين، وكانت لغتهم من السامية الأم أو البابلية القديمة بمثابة العامية من الفصحى، ومع مرور الزمن وتباعُد المسافات بين قدماء العرب وإخوانهم من الساميين والبابليين، واستقرارهم في شبه جزيرتهم؛ بدأت لغتهم تتباين مع تقادم الوقت وتباعُد عن اللغة السامية الأم، حتى استقلّت تمامًا، وانفتقت حينها اللغة العربية، ويذهب الطبري أن عمليًّا - وهو أبو العمالقّة- من قبائل العرب البائدة من نسل لاوذ بن سام بن نوح؛ أول من تحدث العربية، وقيل: بل يعرب بن قحطان جد العرب القحطانية؛ وإليه

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/٣٥)، طبعة: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ١٣).

^٣ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/٥٣).

^٤ انظر: القرآن الكريم يحدد ماهية الأدب، حسن عبد الفتاح الحضري (ص ١٤-١٦)، طبعة: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م؛ نقلًا عن آخرين.

تُنسَب اللغة العربية، وليس بأيدينا ما يؤكد صحة هذا القول أو ذلك بشكل قاطع، ولكن من خلال تتبُّع التواريخ القديمة نجد أن تاريخ بعض القبائل البائدة قد سبق يعرب، لهذا ربما كان عمليق فعلاً هو أول من انفتق لسانه عن العربية القديمة التي تحدث بها العرب البائدة، بينما كان يعرب مرحلة تطور في تاريخ اللغة العربية وهو من انفتق لسانه عن العربية الجنوبية التي كانت لغة أهل اليمن.

أقسام اللغة العربية:

تنقسم اللغة العربية على مدار تاريخها إلى ثلاث لغات أصلية؛ هي:

- ١- لغة العرب البائدة: وهي اللغة التي تحدث بها العرب البائدة في غابر الزمن؛ كقبائل عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل والعمالقة؛ وقد اندثرت هذه اللغة باندثار تلك القبائل ولم تصلنا.
 - ٢- اللغة العربية الجنوبية: وهي لغة شعوب قحطان من عرب اليمن، وقد ازدهرت تلك اللغة قديماً في جنوب جزيرة العرب ومَرَّت بعدة مراحل ولهجات مختلفة؛ كالسبئية والحضرية والقتبانية والحضرية والمعينية، ختاماً باللهجة الحميرية التي تعتبر آخر مراحل تطورها وازدهارها، وكان لكل إقليم من اليمن لسان مختلف؛ كالمسند (لغة في اليمن)، والزبور (لغة حضرموت وبعض اليمن)، والرشق (لغة عدن والجند)، والحويل (لغة مهرة والشحر)، والزقزقة (لغة الأشعريين)!
- وظلت اللغة الحميرية ماثلة إلى قريب من ظهور الإسلام، وقد عثر الباحثون على نقوش كثيرة نحو سبعة آلاف نقش ترجع إلى المعينيين

^١ انظر: المصدر السابق (ص ١٩).

^٢ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (٤٢/١)، طبعة: دار الفكر.

والسبئيين والقتبانين والجميريين وغيرهم؛ من بينها ما كُتِبَ على قبر
امريء القيس بن عمرو اللخمي ملك الحيرة، وهذا نصه:

"تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج
وملك الأسدين ونزور وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وحاء
يزجو في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدي هلك
سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول بلسعد ذو ولده".

وترجمتها باللغة العربية الفصحى:

"هذا قبر امريء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم، الذي تقلد
التاج وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم، وهزم مذحج إلى
اليوم، وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر، وأخضع معدًا
واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم، فلم
يبلغ ملكًا مبلغه إلى اليوم، هلك سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من
أيلول، وفق بنوه للسعادة".

٣- اللغة العربية الشمالية (الفصحى): وهي لغة قبائل العرب العدنانية
(عرب الشمال)، وأول من انفتق لسانه عن هذه اللغة هو إسماعيل ابن
إبراهيم -عليهما السلام- حيث عاش وترعرع مع قبائل جرهم القحطانية،
فأخذ لغتهم العربية القديمة، وتأثر أيضًا بالأصل العبراني والنبطي، فانفتق
لسانه عن هذه اللغة المبينة والمسماة حاليًا بالفصحى؛ وتشمل اللغة
العربية الشمالية عدة لهجات مختلفة تبعًا للقبائل التي تشعبت وانتشرت
في مختلف أنحاء الجزيرة العربية، ولا سيّما في الشمال، ومن المؤكد أنها هي
الأخرى مرّت بمراحل عدة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن، ولكن ليس
بأيدينا ما يساير هذا التطور سوى نصوص ترجع إلى القرن الثالث بعد

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، طبعة دار التقوى، القاهرة (٥٠/١).



الميلاد إلى القرن الخامس، وما ذُكر من شعر العرب وحِكْمِهِمْ! أي: بعد ميلادها بعدة قرون حيث كانت اللغة العربية قد وصلت إلى درجة من النضج والاكتمال، وما لبث أن نزل القرآن بذلك اللسان العربي الفصيح فثبَّتْها وضمن لها البقاء إلى يوم القيامة.

وبين اللغة العربية الجنوبية والشمالية فارق كبير في الأفعال والأوضاع والتصريفات والإعراب، حتى قال أبو عمر بن العلاء: "ما لسان حِمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا"؛ ومن بين الأمثلة الطريفة على الخلاف الواسع بين اللغتين؛ أنَّ رجلاً من بني عامر بن صعصعة دخل على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فقال له الملك: تُبُّ -أي: "اقعد" بلغة الجنوب- فقال: ليعلم الملك أني سامع مطيع، ثم وثب من السطح؛ فقال الملك: ما شأنه؟ قالوا: أبیت اللعن؛ إنَّ "ثب" في كلام نزار "القفز"، فتعجَّب الملك وقال: عربيتنا غير عربيتهم^٣.

مراحل تهذيب اللغة العربية:

وقد مرَّت اللغة العربية بمراحل تهذيب ثلاثٍ حتى انتهت إلى ما انتهت إليه اليوم، على النحو الآتي:

- التهذيب الأول: (غلبة العربية الشمالية على العربية الجنوبية): فمن المعروف تاريخياً أن القبائل القحطانية لما تكاثرت عددها في اليمن؛ هاجرت منهم عدة قبائل إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربية، ومنهم من بلغ أقصى الشمال، فاختلطوا بالعرب العدنانية، وحدث تقارب بين اللغتين المتباعدتين، وكانت أسباب النهضة والنمو الحضاري قد اتفقت للعدنانيين،

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٤٥).

^٢ انظر تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات. دار المعرفة بيروت (ص ١٦)، وانظر تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري، طبعة دار التقوى، القاهرة. ص ٤٦/١

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ١٣٠).

فبدأت لغتهم الشمالية تتغلب على جارتها الجنوبية، واعتدل إليها لسان الكثير من القبائل القحطانية حتى صاروا يتكلمون بلغة عرب الشمال. أما اللغة الحميرية فقد ظلت مزدهرة حيناً في اليمن، ثم بدأت تضعف وتضمحل مع تدهور أحوال الدولة الحميرية ثم زوالها؛ حيث أغار عليها الأحباش ومن بعدهم الفرس، واحتلوا اليمن زمنًا، فضعف الحميريون ثم انتهوا واندرت لغتهم معهم، وغزتها العربية الشمالية في عقر دارها، فلم يبق من العربية الجنوبية إلا آثارها المنقوشة وكلمات يسيرة في كلام عرب اليمن وبعض اللهجات المحلية لسكان تلك المناطق في اليمن ونجران؛ مثل كلمة "با" بدلًا من "آل" عند الانتساب للقبائل.

- التهديب الثاني: (غلبة لهجة قريش): حيث إن القبائل العدنانية كانت قد تشعبت في مختلف أرجاء الجزيرة العربية بعدما كثر عددهم، وبالتالي أخذت لهجاتهم تتنوع وتتعدد، وصار لكل قبيلة لهجتها الخاصة، وما هي حتى بدأت لغة قريش تطغى على تلك اللهجات جميعاً؛ لما كان ما بين تلك القبائل من اتصال واختلاط عن طريق الأسواق التي تقام في مختلف الأوقات من العام؛ كسوق ذي المجاز ومجنّة وعكاظ، ونكتفي بالإشارة إلى أهمها وأعظمها أثرًا في اللغة؛ وهو سوق عكاظ الذي كان يقام بين مكة والطائف في ذي القعدة قبل الحج، وكانت العرب تذهب إلى عكاظ للمفاخرات والمنافرات ومفاداة الأسرى، والتحكيم في الخصومات، ولإلقاء الخطب والأشعار، ولما ينقضي السوق ينتقلون إلى مكة لأداء الحج، فكانت قريش تستقبلهم وتحسن وفادتهم، وكانت العرب بدورهم توقّرهم؛ لمكانتهم من الحرم، وكان القرشيون يسمعون لغاتهم ويتخيرون من ألفاظهم أحسنها، ومن كلماتهم أصفهاها، ويديرون على ألسنتهم أعذبها؛ فضلًا عن رحلات تجار قريش التجارية في الشمال والجنوب، وأهمية مكة السياسية والدينية والتجارية بالنسبة للعرب، وبهذا ارتقت لغة قريش ولاحت فصاحتهم،

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/٦٣).

وقويّت سليقتهم، وصارت عربيّتهم أنضح لسائناً وأفصح قولاً، وأخذتها عنهم سائر القبائل، فسادت فيهم اللهجة القرشية، فجعلوها لغة رسمية في أشعارهم وخطبهم ووفودهم، وغلبت على سائر لهجاتهم الأخرى، فتحولت لهجات القبائل المختلفة إلى مجرد لهجات محلية أقل فصاحة من اللهجة القرشية، حتى قيل: قريش أفصح العرب؛ وزاد من فصاحتهم بُعدهم عن بلاد العجم وعدم مخالطتهم لهم مخالطة دائمة، بخلاف القبائل التي كانت تعيش على تخوم ممالك الفرس والروم؛ فكانت أقل فصاحة؛ لمخالطتهم الأعاجم، فلم تكن لغتهم تامة الملكة. ويُرجَّح أن هذا التهذيب ربما حدث قبل قرن أو قرن ونصف من مولد النَّبي ﷺ؛ استناداً إلى ما وصلنا من أشعار العرب وخطبهم؛ التي كان تغلب عليها لهجة قريش؛ ويُعتبر هذا القرن السابق لبعثة النَّبي ﷺ فترة تطوُّر مهمّة للغة العربية الفصحى.

ومن ضمن الأمثلة على لهجات القبائل المختلفة؛

- (١) الكشكشة: في ربيعة ومضر؛ وهي إضافة شين بعد كاف الخطاب في المؤنث؛ كقولهم: (رأيتكش، بكش، وعليكش) بدلاً من (رأيتك، بك، عليك).
- (٢) الكسكسة: وهي إضافة سين بعد كاف الخطاب في المذكور؛ تمييزاً عن المؤنث؛ كقولهم: (رأيتكس، بكس، وعليكس).
- (٣) الشنشنة: في لغة اليمن؛ يجعلون الكاف شيئاً مطلقة؛ كقولهم: (لبَّيش) بدلاً من (لبَّيك).
- (٤) العنعنة في لغة تميم وقيس: يضعون العين بدلاً من الهمزة في بدء الكلمة؛ كقولهم: (عسلم، عذن) بدلاً من (أسلم، إذن).

^١ انظر: تاريخ آداب العرب. مصطفى صادق الرافعي (١/٧٦)، طبعة دار الكتب العلمية.

^٢ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/٩٤-٩٦).

- 
- (٥) الفحفة في لغة هذيل: يجعلون الحاء عينًا؛ كقولهم (عَتَّى) بدلًا من (حَتَّى).
- (٦) العججة في لغة قضاة: يجعلون الياء المشددة جيمًا؛ كقولهم (الراعج) بدلًا من (الراعي).
- (٧) الوتم: وهو في لغة اليمن؛ يجعلون السين تاء؛ كقولهم (النات) بدلًا من (الناس).
- (٨) الوكم: وهو في لغة ربيعة؛ يكسرون كاف الخطاب في الجمع؛ في قولهم (عليكم، بكم) بدلًا من (عليكم، بكم).
- (٩) الوهم: وهو في لغة كلب؛ يكسرون هاء الغيبة؛ في (منهم، عنهم، بينهم) بدلًا من (منهم، عنهم، بينهم).
- (١٠) الاستنطاء: في لغة بكر وهذيل والأزد؛ وهي وضع النون مكان العين؛ كقولهم (أنطيناك) بدلًا من (أعطيناك).
- (١١) التلتلة: في لغة بهراء من تميم؛ يكسرون أحرف المضارعة فيقولون: (نفعل، نخشى).
- (١٢) القُطعة: في لغة طيء؛ يعني قطع اللفظ قبل تمامه؛ كقولهم (أبو الحكا) بدلًا من (أبو الحكم).
- (١٣) اللخلخانية: في لغة عرب عمان؛ ي حذفون بعض الحروف اللينة؛ كقولهم (مشا الله) بدلًا من (ما شاء الله).
- (١٤) الطمطممانية: من بقايا لغة حمير؛ يبدلون لام التعريف ميمًا، وعليه ذكر حديث النَّبِيِّ ﷺ "ليس من امرئ امصوم في امسفر"؛ أي: "ليس من البرالصوم في السفر"!

١ أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٤ برقم ١٩٤٦)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، طبعة: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

وتتنوع هذه اللهجات ما بين اختلاف في الحروف أو الضمائر أو في الحركات؛ كقول "لئيم" بدلاً من "لئيم"؛ بكسر اللام في لغة تميم، وأيضاً تبديل تاء الجمع هاء في لغة طيء؛ كقولهم (بناه) بدلاً من (بنات)، وقلب الياء ألفاً؛ كقولهم (رضاً) بدلاً من (رَضِي)، وحذف الألف المقصورة في لغة هذيل عند إضافة ياء المتكلم؛ مثل (عَصِي) بدلاً من (عصاي)، وتبديل همزة إسم الإشارة في لغة ربيعة؛ في قولهم (أولالك) بدلاً من (أولئك)، وتسكين الاسم المنون؛ نحو (رأيت خالد) بدلاً من (خالدًا)، وفي لغة الأزد يبدلون التنوين بحرفه الموافق له؛ نحو (خالدو) بدلاً من (خالد)، وفي لغة خثعم وكنانة يقولون: (إلاك) بدلاً من (إليك)؛ بقلب الياء ألفاً، وحذف نون "من" الجازة؛ كقول (م الأسر) بدلاً من (الأسر)، وقول (لديه) بدلاً من (لديه)، و قول (لك) بدلاً من (لك)؛ ومنهم من يجعل الكاف جيمًا؛ كقولهم (الجعبة) بدلاً من (الكعبة)، ومن يجعل التاء طاء؛ كقول (أفلطني) بدلاً من (أفلتني)، والهمزة بدل العين في (لألني) بدلاً من (لعلني)، وكلمة "نعم" نراها (نعم، نعم، نَحَم)، ومنهم من يجعل هاء التأنيث تاء؛ كقول (آيت) بدلاً من (آية)؛ وأمثلة عديدة لا حصر لها، تحفل بها كتب الأدب، وليس بوسعنا ذكرها جميعًا؛ إنما ذكرنا منها أمثلة للإشارة إلى ما بين اللهجات العربية من اختلاف وتباين.

- **التهذيب الثالث: (القرآن الكريم)** تأثر العرب بالقرآن وبيانه، فكان له فضل كبير وأثر في تهذيب اللغة العربية؛ إذ قام باستبعاد الكلمات الوعرة والألفاظ الوحشية والخشنة، وأضاف ألفاظاً جديدة؛ مثل "الإيمان" و"التقوى"، فكان له دور في تهذيب لغة العرب سواء من ناحية الكلمات والألفاظ أو من ناحية المعاني والأساليب والفكر، وكان للإسلام أثرٌ في ترقيق طباع العرب وتليين قلوبهم، فزالت الخشونة من لغتهم، وقد تأثر العرب ببلاغة القرآن وروعة بيانه وهجروا ما كانوا عليه واثتموا ببلاغة القرآن، فاختلفت الألفاظ الوعرة والكلمات الصعبة، وأبعد القرآن اللغة العربية عن أساليب الجفاء والغلظة والوعورة، وجعل أساليبها وكلماتها تميل إلى العذوبة والسلاسة، فكان تهذيباً لفظياً ومعنوياً، بينما اندثرت سائر لهجات

القبائل الأخرى بزول القرآن على لغة قريش، فلم يبقَ منها إلا نذر يسير،
وهذا التهذيب الثالث الذي أتمّه القرآن، وكذلك السُنَّة النبوية؛ تكتمل
مراحل تهذيب اللغة العربية لتصل إلينا بهذه الصورة الناضجة الرائعة
المكتملة التي نراها اليوم.

مميزات وخصائص اللغة العربية:

وتمتاز اللغة العربية بمميزات عديدة؛ فهي أقدم اللغات الحيّة، وهي أكثر
أخواتها الساميات مفرداتٍ، وأتمّها معنًى، وأرقاها بياناً، وأحسنها أسلوباً؛
وتمتاز اللغة العربية بدقة تعبيرها، واتساع مداركها، وتعدّد معانيها، وهي تتسع
لجميع أساليب الكنايات والمجاز وكل أنواع البديع، إلى جانب ما تمتلكه من ثروة
لفظية هائلة، فترى الشيء الواحد يعبر عنه بأكثر من لفظ؛ مثل (انكشف)
يعبر عنها بأكثر من صيغة؛ نحو: بدا، ظهر، لاح، تكشّف، انقشع، انجلى؛
وكذلك كلمة (خَمِر) يعبر عنها بعدة مفردات أخرى؛ مثل: خمرة، نبيذ، سلاف،
سلافة، رحيق، صهباء، مدام، راح، قهوة؛ وكلمة (أسد) يقابلها: غضنفر،
ليث، سبع، ضرغام، حيدرة؛ وغير ذلك الكثير والكثير؛ وتجد العكس أيضاً؛
فترى الكلمة الواحدة لها معانٍ متعددة؛ مثل كلمة (عين) تعني عين الإنسان -
أي: بصره- وتعني نبع الماء -أي: المكان- الذي يتدفق منه الماء من باطن الأرض،
وتعني الأهل، وتعني أصل الشيء أو نفسه؛ كأن يقال: هو عينه؛ وتعني كذلك
الجاسوس، وتعني طليعة الجيش أو رئيس الجيش؛ حينما يقال: عين الجيش؛
وتعني كذلك الشمس، وتعني الجماعة من الناس؛ كأن يقال: عينٌ من الناس؛
وتعني ما ضرب نقدًا من الدنانير، وتعني كبير القوم وشريفهم، وتعني الحاضر
من كل شيء؛ وربما تجد كلمة لها معنيين متضادّان مثل كلمة (أدنى)؛ فمعناها:
أقل منزلة، ومعناها الآخر: أقرب منزلة؛ أي: أعلى، وهو عكس المعنى الأول،
ويُعرف المراد من الكلمة من معنى سياق الجملة.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/٣٥-٣٦).

وقد أتاحت هذه الثروة اللفظية الهائلة التي تتمتع بها اللغة العربية للأدباء التوسع في الوصف، والافتنان في التعبير، والتوسع في التشبيهات والاستعارات والكنيات؛ حيث بلغوا في هذا أفاقاً بعيدة في خيالهم وإبداعهم منذ عصر جاهليتهم، وأمکنهم هذا من التلاعب بالألفاظ والمفردات إلى حدٍ بعيدٍ، فظهرت بجانب تلك الفنون المعنوية مُحسِّنات لفظية مثل السجع والجناس والطباق والمقابلة والتورية وغيرها من عناصر البلاغة الأدبية التي سنشير إليها في موضع منفصل وهذا كله يدل على غنى اللغة العربية واتساع نطاقها.

وتمتاز اللغة العربية بأن لألفاظها المختلفة وقعاً على الأذن له تأثيره الموسيقي الذي يؤثر في النفس؛ سواء كان نثرًا أو شعرًا؛ كما أن اللسان العربي قادرٌ على نطق كل الحروف والحركات، بخلاف لغات أخرى لا يقدر لسانها على نطق بعض الحروف، فالعربية هي اللغة الوحيدة التي تنطق بحرف الضاد، وقد أثبتت اللغة العربية أنها قادرة على مواكبة العصر ومظاهر الحداثة فاستوعبت المخترعات الحديثة والآلات وواكبت التطور، وقد حملت قبل ذلك معاني القرآن الكريم فزادها بذلك شرفاً ورفعة.

وقد دخل إلى اللغة العربية بعضٌ من الألفاظ الأعجمية؛ مثل (الإبريق، القصعة، السكرجة، السنجاب، القاقم، الديباج، السندس، الياقوت، النسرین، السوسن، البنفسج، الياسمين، الجلنار، الزنجبيل، القرفة، النرجس، الياسمين، المسك، العنبر، الكافور، الصندل، القرنفل) من لغة الفرس، و(كفلين، المشكاة، الهرج، المنبر، النفاق، برهان، المصحف، الحواری) من لغة الحبشة، و(الحج، الكاهن، عاشوراء) من العبرانية، و(الفردوس، القسطاس، والبطاقة، والقنطار، والبطريق، والتریاق، والقنطرة) من اليونانية واللاتينية؛ وعدة كلمات أخرى، بيّد أن هذه الكلمات

^١ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/ ٦١)، طبعة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣م.

^٢ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/ ٣٨-٤٠)، طبعة: دار الفكر.

التي اقتبسها العرب من العجم قد اتسعت لها اللغة العربية فتعرّبت وأخذت
حُكم العربية.

الكتابة العربية:

عرف العرب الكتابة، وليس صحيحًا أنها لم تكن موجودة باعتبار أن العرب كانوا في معظمهم أميين؛ إذ تدل الآثار والنقوش التي وُجدت في الجزيرة العربية أن العرب عرفوا الكتابة منذ بداية تاريخهم؛ فقد استعملت في كتابة العهود والمواثيق، وكذلك احتاجت إليها الممالك القديمة في المراسلات بينها، لكنها على وجودها كانت غير شائعة؛ بل قاصرة فقط على الحواضر وبعض المناحي، وقد عثر علماء الساميات على آثارٍ لِنُقوش وكتابات قديمة لعدّة لهجات عربية كُتبت بالخط المسند الجنوبي الذي كُتبت به أغلب اللهجات العربية القديمة!

علاقة اللغة العربية باللغات الأخرى:

رغم انعزال اللغة العربية في جزيرة العرب قبل الإسلام؛ فإن هذا لم يمنع من أنها تأثرت إلى حدٍ ما ببعض اللغات المقاربة والمجاورة لها؛ فنرى أن العربية الجنوبية لغة اليمن بحكم موقعها الجغرافي في الجنوب قد تأثرت باللغة الحبشية، وبين اللغة العربية الجنوبية واللغة الحبشية صلات قوية، بينما تأثرت اللغة العربية الشمالية لغة العدنانيين بالأرامية؛ بحُكم أنهما كانتا متجاورتين؛ فالأنباط والتدمريون -وهم من الممالك العربية في الشمال- كانوا يكتبون العربية بحروف آرامية؛ إذ إنّ الحروف العربية لم تكن قد وُضعت يومئذ!

وقد تعمّق علماء السامية في البحث، وتعقّبوا الآثار القديمة واكتشفوا وجود صلات قوية ومتشابهات عديدة في الكلمات والضمائر، بين اللغات السامية التي نشأت من أصل واحدٍ، ممّا يدعم النظرية القائلة بأن الألفاظ التي قيل بأنها

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ١٣٩ و ٤٢٥).

^٢ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ٢٧٠).

ألفاظ أعجمية أو دخيلة على اللغة العربية وأن العربية أخذتها من لغات أخرى كالآرامية والسريانية؛ هي في الأصل ألفاظ مشتركة ترجع إلى اللغة السامية الأم، فلا يُقال: إن العرب أخذوها من السريان أو إن السريان أخذوها من العرب؛ بل هي من الكلمات السامية القديمة التي انفتقت عنها كل تلك اللغات، وربما قل استعمالها في اللغة العربية أو تم إهمالها فظنَّ بأنها دخيلة.

وحديثاً، وتبعاً لانتشار الحضارة العربية؛ نجد للغة العربية تأثيراً كبيراً على اللغة الإسبانية؛ حيث أخذ الإسبان العديد من الكلمات العربية في لغتهم كأثر من أثار الحكم العربي للأندلس قديماً، وظهرت كذلك لغة كتابية أخرى تُدعى "الخميادو"، وهي عربية بحروف إسبانية، وتلك ظهرت بعد خروج المسلمين من الأندلس وإجبار مَنْ بقي فيها على التنصر؛ وتُعتبر اللغة العربية اللغة الأم للغة المالطية؛ حيث إن العرب حكموا جزيرة مالطا جنوب إيطاليا ردهاً من الزمن، وللغة العربية تأثيرٌ على اللغة الإنجليزية؛ إذ أخذت عنها الإنجليزية بعض الألفاظ والمصطلحات، والعكس صحيح، وهناك أيضاً تأثيرٌ للعربية على لغات أخرى كالفارسية والتركية والفرنسية والبرتغالية.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ١٠٤).

الأدب العربي

(تعريفه وأركانه وعصوره وأقسامه: الشعر والنثر)

المقصود بالأدب:

الأدب هو الكلام البليغ من بديع القول، المشتتمل على الأخيطة والمعاني، المؤثر في النفوس، الصادر عن عاطفة؛ سواء كان شعراً أو نثراً. وهذا هو التعريف الأخص والأضيق معنئ، يقتصر فقط على الشعر والنثر بكل فروعهما، إلا أن هناك تعريفاً أعمّ وأوسع لمعنى الأدب، يشتمل على جميع أصناف المعارف الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية وعلوم اللغة والبلاغة والتاريخ والأخبار والأنساب، بل قد يشمل التأنق في المجلس والمأكل والمشرب، وحسن الخلق، حتى الغناء، وكل ما فيه افتنان وارتقاء؛ لأن الأدب عموماً يتوافق مع الارتقاء والسمو، غير أن العادة جرت على قصر كلمة "أدب" على الشعر والنثر فقط في أغلب الأحوال؛ حيث يُطلق عليها عادة وصف "أدب خالص".

وفيما يبدو أن إطلاق كلمة "أديب" على الشعراء والكتاب والخطباء جاء متأخراً، ولم تعرف كلمة "أديب" بهذا المعنى في العصور الأولى من تاريخ العرب، وإنما كان في القرون الأولى للإسلام مجموعة تُعرف بالمؤدبين؛ هم مجموعة من المعلمين قد ترقّعوا عن تعليم العامة إلى تعليم الخاصة من أبناء الخلفاء والأمراء والملوك؛ حيث كان الخلفاء من بني أمية ومن بني العباس يعتنون بتأديب أولادهم بغاية تعليمهم وتثقيفهم وتأهيلهم؛ حتى يكونوا على علم ودراية وكفاءة لإدارة شؤون الدولة، وكان الخلفاء ولا سيما في القرون الأولى للإسلام يرسلون أولادهم إلى هؤلاء المؤدبين فيعلمونهم ما بوسعهم من علوم الدين والتاريخ والأخبار وأشعار العرب وأخبارهم وأنسابهم والجغرافيا والفلك

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٢٣/١).

والحساب وغيرها من العلوم، فلما تفرعت العلوم وتشعبت؛ صار الشعراء والكتاب والخطباء يختصون بهذا اللقب.

تعريف البلاغة وعلومها:

البلاغة هي إدراك الغاية وبلوغ القدرة على الإقناع والتأثير في الآخرين، وإيصال معنى الخطاب كاملاً إلى المتلقي بأسلوب راقٍ ولفظٍ حسنٍ وعبارة صحيحة وأثر طيب، وقد قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل؛ وقال اليوناني: البلاغة هي تصحيح الأقسام واختيار الكلام؛ وقال الرومي: البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة؛ وعرفها الهندي بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة والبصر بالحجة؛ وكلها تعريفات مختلفة تصبُّ في قالب واحد يحدد ماهية البلاغة وخصائصها وسماتها. وتنقسم علوم البلاغة إلى ثلاثة فروع؛ هي:

- علم البيان: وهو إظهار المعنى وإيضاح ما كان مستوراً^١.
- علم المعاني: وهو العلم المختص بعنصر المعاني والأفكار، والمعاني هي الصور الذهنية التي تُوضع لها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل^٢.
- علم البديع: وهو العلم المختص بعنصر صياغة الكلمات والجمل وحسن تنظيمها وتنسيقها؛ وتنقسم المحسنات البديعة إلى قسمين: محسنات معنوية، ومحسنات لفظية.

الغرض من دراسة الأدب:

لدراسة الأدب فوائد جمّة وأغراض عديدة؛ من بينها معرفة ذخائر العربية ونفائسها وأسرارها، وما حوته من بدائع وكنوز، ولتستمتع النفس بفننه الجميل،

^١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (١/٩١-٩٢)، طبعة: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.
^٢ انظر: التعريفات، الجرجاني (ص٤٧)، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
^٣ انظر: المصدر السابق (ص٢٢٠).

ولتتم الاستفادة من مداركه وتجاربه، ولكي يكون للمتلحم القدرة على الكلام البليغ الذي يصبح معه قادرًا على التعبير، قادرًا على الاقناع والتأثير وإبلاغ الحجة، فقد يكون للكلمة أحيانًا صدى واسع وأثر بالغ إذا كانت بليغة، وقد يكون الكلام البليغ أمضى في كثير من الأحيان من قوة السلاح والحرب، وسنتعرف على كثير من المواقف التي تأثرت كثيرًا ببدائع القول، فكم من قصيدة خلّدت حدثًا عظيمًا، وكم من خطبة غيرت مجرى التاريخ؛ فقمعت فتنة، وأنهت ثورات، وحرّكت جيوشًا، وكم من رسائل بديعة كان لها دور في إنهاء بعض حركات التمرد، وأخرى كان لها تأثير عظيم على سامعها بدرجة أو بأخرى، واللغة العربية واسعة في معانيها، متمدة في آفاقها ومداركها، والحفاظ عليها سبيل للحفاظ على تراث الأمة وثقافتها ووحدتها وثمار ما جنته من فنونها وعلومها وتاريخها وأدابها، فإذا حُرمت الأمة من ثقافتها، وانسلخت من تراثها، فإنها تفقد رقيها، وتخسر عزّها ومنزلتها، ولا تكون لها منزلة بين الأمم، فكان هذا الكتاب سبيلًا للردّ على كل من يحاول مهاجمة التراث العربي والإسلامي والطعن والتشكيك فيه وفي رموزه وقادته وعلمائه وتاريخه، فضلًا عن أن دراسة الأدب والتعمق في أسرار اللغة تكون سبيلًا لفهم القرآن بشكلٍ صحيح؛ إذ يستشعر المرء بيانه، ويدرك بلاغته، فيتيسر له فهم معانيه.

عناصر الأدب:

وللأدب عناصر أربعة؛ هي!

- (١) الأفكار: والتي تمثل عنصر الجانب العقلي لموضوع الكاتب أو الأديب؛ حيث يأتي بمجموعة من الأفكار المرتبة لبناء الموضوع الذي يريد التحدث عنه.
- (٢) العاطفة: أي الشعور الذي يثيره الموضوع في نفس الكاتب أولًا، ثم في نفوس مستمعيه وقُرّائه، ومدى صدق العاطفة يحدد إلى درجة بعيدة

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، طبعة دار التقوى. القاهرة، مصر (١٥/١).

جودة النص؛ كون العاطفة ركنًا مهمًا وعنصرًا أصيلاً من عناصر الأدب.

- (٣) الخيال: وهو القدرة على النظر إلى الأشياء نظرة قوية وعميقة، ويتجسد ذلك في قدرة الكاتب على التصوير الفني والابتكار البديع والاستعارات البليغة فتمثّل الأشياء في صورٍ وظلال؛ فكلها من العناصر الأدبية التي تنضوي تحت هذا العنصر وترتقي بجودة النص.
- (٤) الألفاظ والتراكيب: وهو العنصر الفني الذي يجسّد نوع التأليف والأسلوب.

مذاهب الأدب:

تعددت المذاهب الأدبية التي انتهجها الأدباء على مدار تاريخهم؛ فمن أشهر تلك المذاهب (المذهب الكلاسيكي)؛ الذي يميل إلى الجانب العقلي وشرح الفكرة بأسلوب واقعي، لذا يُطلق عليه المذهب الواقعي، وهناك أيضًا (المذهب الرومانسي)؛ الذي هو عكس المذهب الأول؛ فتراه يميل إلى الجانب العاطفي والتحرر من الجانب العقلي والواقعي، ويمتاز بالإغراق في الخيال والعواطف والانفلات من الواقع، وهناك (المذهب الرمزي)؛ وهو التعبير عن الفكرة بشكل غير مباشر، بدون تصريح أو إفصاح، والاكتفاء بالإشارة والتلميح والإيحاء إلى الفكرة بأسلوب لا يخلو من الغموض أحيانًا؛ حيث يخشى الكاتب من الإفصاح عن رأيه لأسباب دينية أو سياسية أو غير ذلك، وهناك مذاهب متعددة ذات نزعات سياسية ووطنية ودينية واجتماعية تشكّل كلها أغراض ومذاهب الأدب.

أقسام الأدب:

وفق المعنى الدارج للأدب فهو ينقسم إلى قسمين؛ هما: الشعر والنثر؛ أما (الشعر) فهو الكلام الفصيح الموزون المُقَفَّى الذي يصوّر العاطفة ويعبّر عن صور الخيال والبديع!

وينقسم الشعر إلى أربعة فروع؛ هي:

(١) الشعر الغنائي: وهو أن ينظم الشاعر قصيدة عن غرض ما؛ كالمدح والرثاء والحكمة والغزل والفخر والهجاء، وربما لأغراض دينية وسياسية ووطنية واجتماعية، وأغلب الشعر العربي من هذا القبيل.

(٢) الشعر الملحمي (القصصي): وهو الشعر الذي يروي سيرة وقصصًا وأخبارًا وبطولات قد تكون حقيقية أو أسطورية، وهذا اللون استُحدث في العصور المتأخرة وأخذ من الآداب الغربية، وهو قليل في الشعر العربي.

(٣) الشعر المسرحي (التمثيلي): وهو عبارة عن قصائد شعرية تُعد من أجل إلقاءها على ألسنة شخصيات ناطقة على المسرح في مشاهد تمثيلية، وهذا النموذج استُحدث في العصور المتأخرة، وهو قليل جدًا في الشعر العربي.

(٤) الشعر التعليمي: وهو أن ينظم الشاعر فيه علمًا من العلوم بغية شرحه وتسهيل حفظه، وقد استحدث في العصر العباسي، ولكن هذا اللون لا يعتبر من الأدب البتة؛ إذ ليس فيه من عناصر الشعر غير الوزن والقافية، ويفتقر إلى عناصر الأدب الأخرى كالعاطفة والخيال والأفكار.

أما النثر فهو الكلام البليغ المرسل الذي لا يتقيّد بالوزن، ويصوّر العاطفة، والنثر يكون على ضربين؛ أما الضرب الأول فهو (النثر العادي) الذي يُقال في لغة

^١ انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشائيات لغة الأدب، أحمد الهاشمي (٢/ ٢٤)، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، طبعة: مؤسسة المعارف، بيروت.

الخطاب أو الكتابة العادية أو حتى العلمية البحتة؛ وهذا ليس من الأدب ولا يمتُّ له بصلة؛ أما الضرب الثاني فهو (النثر الفني) الذي يرتقي فيه أصحابه إلى لغةٍ فيها فنٌّ ومهارةٌ وبلاغةٌ؛ وهو الضرب المعنيُّ بدراسته.

والنثر الفني قسمان؛ هما:

١- النثر الأدبي: وهو أدب خالص تنقسم فنونه إلى فرعين؛ هما: فنون كلامية، وفنون كتابية؛ فأما الفنون الكلامية فتتمثل في الخطابة والوصايا والقصص والأخبار المروية والمناظرات الكلامية، بالإضافة إلى الحكم والأمثال، وأما الفنون الكتابية فتتمثل في الرسائل بكل أنواعها والتوقيعات والمقالات والمناظرات الكتابية والقصص المؤلفة بشتى صورها.

٢- النثر التأليفي: وهو النثر الذي يتضمَّن كتب الطبقات والتراجم والتاريخ، ويطلق أبواباً عدَّة في الثقافة العربية والأدبية والعلمية، وربما يشتمل النثر التأليفي على موضوعات قد لا تمتُّ بصلة إلى الأدب أحياناً ولكن الكاتب يرويها بأسلوب أدبي فني، لذا تدخل أفي نطاق الأدب؛ ومن أشهر الكتب في النثر التأليفي كتب: "الحيوان" و"البيان والتبيين" للجاحظ، و"العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي، و"الأغاني" للأصفهاني؛ وغيرها من الكتب التي تحكي عن الأخبار والتواريخ والآداب والثقافة.

والفارق بين النثر التأليفي والنثر العلمي هو أن النثر التأليفي تتم فيه صياغة الموضوعات بشكل أدبي فني، بخلاف النثر العلمي أو العادي الذي لا يُعتد فيه بهذا الجانب فلا يدخل في نطاق الأدب.

أوزان الشعر وعروضه:

الفارق الرئيس بين الشعر والنثر هو أن الشعر كلام موزون، ويحدّد ذلك الجرس أو الإيقاع الموسيقي في الشعر أمران؛ هما: الوزن، والقافية؛ أما الوزن فهو إيقاع العبارة في الشعر على مجموعة منتظمة من التفعيلات،

^١ انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف (ص ١٥)، طبعة: دار المعارف، الطبعة الثالثة عشرة.



وهذه التفعيلات هي (فعلون، فاعلن، مفاعيلن، مفاعلتن، متفاعلن، مفعولات، مستفعلن، مستفع لن، فاعلاتن، فاع لاتن)، ويكون بيت الشعر على شطرين يطلق عليهما: الصدر والعجز؛ أما أوزان الشعر فهي ستة عشر وزنًا؛ هي (الطويل، المديد، البسيط، الوافر، الكامل، الهزج، الرجز، الرمل، السريع، المنسرح، الخفيف، المضارع، المقتضب، المجتث، المتقارب، المتدارك)، وهذه هي الأوزان الشعرية المعروفة في الجاهلية، وقد أُطلق على تلك الأوزان اسم "بحور"، ولكلٍ منها صور مختلفة، وتستعمل كل تلك البحور ما يتبعها من التفعيلات المذكورة وفق نظام دقيق يختلف من بحر إلى بحرٍ، وقد حاول بعض الشعراء في العصور التالية إضافة بعض البحور المخترعة ولكن بقيت تلك البحور الجاهلية هي السائدة.

أما القافية فهي المقطع الأخير من كلام البيت، بين آخر حرفين ساكنين مع الحرف المتحرك الذي قبل أولهما، وأما الروي فهو الحرف الذي يختتم به بيت القصيدة فتُنسَب له، ويكون عادة حرفًا ثابتًا موحدًا في كل القصيدة، فيقال: قصيدة همزيّة أو بائيّة أو عينيّة أو لاميّة، ولكن بعض الشعراء في العصور التالية قد أحدثوا نظمًا عديدة للتقفية والروي سنشرحها في موضعها إن شاء الله؛ ويُعرف هذا العلم الذي يبحث في أوزان الشعر وعروضه بـ"علم العروض" الذي أسسه العالم الجليل الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ وهو علم واسع غني بالتعاريف والمصطلحات والمعارف، لا يتسع له المقام هنا، فنكتفي فيه بإمامة موجزة بغية التعريف بالشعر وخصائصه وسماته.

تاريخ الأدب العربي وعصوره:

تاريخ الأدب هو العلم الذي يبحث في ظروف الأدب وأحوال اللغة وما قدّمه الأدباء من فنون وأشعار وأعمال أدبية على مر العصور، وتسهيلاً لدراسة تاريخ الأدب تم تقسيم عصوره وفقاً للظروف التاريخية والأحداث السياسية وما تلقّيه من آثار اجتماعية وحضارية وثقافية؛ إلى عدة عصور وهي:

(١) **العصر الجاهلي:** وهو الفترة التي سبقت البعثة النبوية بقرابة قرن أو يزيد من الزمان؛ وفقاً لأقدم النصوص التي وصلتنا.

(٢) **عصر صدر الإسلام:** وهو المدة التي بدأت منذ البعثة النبوية لمحمد ﷺ، وتنتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين سنة ٤١هـ/٦٦١م، ودامت حوالي نصف قرن.

(٣) **العصر الأموي:** وهو العصر الذي بدأ مع قيام الدولة الأموية سنة ٤١هـ/٦٦١م، وينتهي مع سقوط دولة بني أمية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، وتمتد قرابة التسعين سنة.

(٤) **العصر العباسي:** وهو المدة التي بدأت منذ بدء الخلافة العباسية في العراق سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وانتهت بسقوط بغداد ونهاية الدولة العباسية على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وهي حقبة طويلة تمتد زهاء خمسة قرون، وتعتبر تلك الحقبة هي العصر الذهبي للحضارة الإسلامية وللأدب العربي رغم كثرة الأحداث السياسية المضطربة، ونظراً إلى طول تلك الحقبة فقد تمّ تقسيمها إلى عدة مراحل وفقاً للظروف السياسية والثقافية لكل مرحلة، وعاشت في ظلّها آداب مستقلة في المغرب وبلاد الأندلس.

(٥) **عصر الدول التركية (المتتابعة):** وتبدأ منذ سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حتى بدء عصر النهضة سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م بولاية محمد علي باشا على مصر؛ وهي مدة طويلة تمتد قرابة ستّة



قرون، وقد مرَّ هذا العصر بمرحلتين؛ هما: الحقبة المغولية أو العصر المملوكي، ثم العصر العثماني.

(٦) عصر النهضة الحديث: الذي بدأ منذ عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م، حتى أيامنا الحاضرة في القرن الخامس عشر الهجري/ الحادي والعشرين الميلادي.

عناصر البلاغة الأدبية

(في البيان والمحسنات البديعة)

ذكرنا أن الفارق بين النصوص الأدبية -شعراً أو نثراً- وبين النصوص العادية؛ هو أن النصوص الأدبية يتم كتابتها بأسلوب فني تتم فيه العناية بعناصر البلاغة والبيان والبديع، وهذه القيم الفنية هي الفيصل بين النص الأدبي والنص العادي، وهي التي تحدد مدى حسن وجودة النص، حتى الشعر نفسه إذا اختلَّ فيه عنصرٌ من تلك العناصر فإنه لا يُعتبر أدباً؛ وسنعرض في هذا الجانب بعض المعايير الفنية بشيء من الإيجاز، بالإضافة إلى بعض التعريفات الفنية الخاصة بالشعر.

الفصاحة:

فصاحة الكلمة تعني خُلُوها من أربعة عيوب؛ هي: تنافر الحروف، وغرابة الاستعمال، ومخالفة القياس، والكراهة في السمع!

عناصر علم البيان:

يتحقق إيضاح المعنى في الكلمة بعدة عناصر بلاغية؛ من أهمها:

- التشبيه: وهو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب عن الآخر؛ كأن يقال:

فلان كالأسد؛ ففلان هو المشبَّه، والأسد هو المشبَّه به، ووجه الشبه

هو القوة؛ والتشبيه من العناصر البيانية التي لها أثر حسن في

البلاغة!

١ انظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي (ص ٢٠)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د.

يوسف الصميلي، طبعة: المكتبة العصرية، بيروت.

٢ كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري (ص ٢٣٩)، تحقيق: علي محمد الجاوي- محمد أبو الفضل

إبراهيم، طبعة: المكتبة العصرية، بيروت.

- المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له؛ لعلاقة مع قرينة؛ كقوله تعالى {وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ}؛ فجعل للصدق لسانٌ يدل عليه، ويعني ذكرًا حسنًا.
- الكناية: لغةً هي ما يتكلم به الإنسان ويريد غيره، أو هي إطلاق اللفظ يراد منه معنى غير المعنى المصرح به، أو هي التعبير عن المعنى تلميحًا لا تصريحًا؛ كقوله تعالى {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}؛
- الاستعارة: هي تسمية الشيء باسم غيره؛ كقوله تعالى {وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}؛ أو هي تشبيه حُذِفَ منه المشبَّه به.
- الإيجاز: هو التعبير عن المعنى باختصار وبأقل عدد من الكلمات.
- الإطناب: عكس الإيجاز؛ فهو التعبير عن المعنى بإسهاب واستفاضة وبعدهد أكبر من الكلمات.

المحسنات البديعية:

- وتتوزع عناصر علم البديع بين فرعين: محسنات معنوية، ومحسنات لفظية؛ أما المسححات المعنوية فمن بينها:
- الطباق: وهو إيراد كلمتين متضادتين في المعنى؛ مثل (الليل والنهار، العدل والظلم، الشمس والقمر، الجنة والنار، الجد واللعب).
- المقابلة: وهو إيراد جملتين متضادتين في المعنى؛ كقول جرير:

وباسط خيرٍ فيكُم بيمينه وقابض شرٍ عنكُم بشماله

^١ انظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي (ص ٢٥١).

^٢ سورة الشعراء: ٨٤.

^٣ انظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي (ص ٢٨٨).

^٤ سورة الزمر: ٦٧.

^٥ سورة الإسراء: ٢٤.

- التورية: هي أن يذكر المتكلم لفظاً له معنيان؛ أحدهما قريب ظاهر غير مراد، والآخر بعيد غير ظاهر وهو المراد.

- الازدواج: وهو إيراد عبارات لها نفس الإيقاع الوزني؛ كقول الجاحظ (ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغموم على قلبه، واستكمال الحزن في جوفه، وكثرة مضضه ووسواس ضميره...)؛ بدءاً من "تراكم الغموم" تجد عبارات مترادفة لها نفس الإيقاع الوزني. وأما المحسنات اللفظية فأشهرها:

- السجع: وهو من أشهر الحلي اللفظي الذي ولع به الأدباء في العصور القديمة والحديثة، ويعني تقسيم الكلام إلى جمل وعبارات تنتهي بحرف واحد؛ كقوله تعالى {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} فهذه آيات قرآنية تنتهي بحرف واحد هو الألف المقصورة، وهذا الفن موطنه الأصلي في النثر، والفارق بينه وبين الإزدواج أن الإزدواج لا يشترط أن تختتم فيه الجمل المتوالية بنفس الحرف، ويُستحسن هذا اللون كثيراً؛ لأنه يكون له جرس موسيقي وإيقاع رقيق في أذن السامع، لكن المبالغة في استعماله تعتبر تكلفاً وثقلاً يجعل المعنى سطحياً مهملاً، لذا فالأفضل منه ما استُعمل بقدرٍ دون تكلفٍ.

- الجناس: وهو إيراد كلمتين متطابقتين في الحروف، مختلفتين في المعنى؛ وهو نوعان: (الجناس التام) وهو التطابق التام في كل الأحرف؛ كقوله تعالى {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ^٣ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ}؛ فالساعة في الموضع الأول

١ انظر: الرسائل، الجاحظ (٣/ ٥)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، طبعة: مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٢ سورة عبس: ١-٤.

٣ سورة الروم: ٥٥.

تعني يوم القيامة، وفي الموضع الثاني تعني مدة قصيرة من الوقت،
ويقول أبو تمام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعْبِ

فكلمة "حد" الأولى تعني طرف السيف، وكلمة "حد" الثانية تعني
الفارق أو الفيصل.

وأما (الجناس الناقص) فهو إيراد لفظين مختلفين في حرف واحد
فقط، بينما تتشابه سائر الحروف؛ مثل (الحد والجد)، (همزة لمزة)،
(أوفى وأوفر) و(أعلى، وأغلى).

خاتمة الباب:

عينا في هذا الباب التمهيدي بعمل مقدمة تُعتبر مدخلا لفهم الأدب واللغة؛
حيث قمنا بإطلالة موجزة على أصل العرب ونشأتهم وفروعهم وأنسابهم، ومررنا
على تاريخ اللغة العربية وكيفية ظهورها ومراحل تطورها وازدهارها وأقسامها
ولهجاتها ومراحل تهذيبها، ختامًا بوضع مقدمة عن الأدب العربي وتعريفه ونشأته
وأغراضه وفنونه وأقسامه وتاريخه، مع الإمام ببعض عناصر البلاغة الأدبية،
وربما ذكرنا في هذا الفصل بعض التفصيلات التي قد لا تكون وثيقة الصلة
بمبحث تاريخ الآداب العربية؛ ولكن هدفنا منها في هذا الباب التمهيدي هو
إعطاء نبذة أو فكرة عن تاريخ العرب وتاريخ لغتهم، وبعض المصطلحات الفنية
التي مررنا عليه مرورًا موجزًا كي يتم الربط بين تلك المعلومات والعناصر وبين
الأدب العربي في نصوصه وتاريخه، فيساعد هذا على اكتمال الصورة عند
القارئ.

الباب الأول

الأدب في العصر الجاهلي

العصر الجاهلي

(تعريف العصر الجاهلي والبيئة الجغرافية للعرب وأحوالهم السياسية والدينية والاجتماعية)

التعريف بالعصر الجاهلي:

يعرف العصر الجاهلي بأنه تلك الفترة التي سبقت بعثة النبي ﷺ بحوالي قرن أو يزيد من الزمن، واستمرت حتى فتح مكة بعد ذلك، وقد اعتبرت تلك المدة بناء على معايير أدبية وفقاً لأقدم النصوص الأدبية التي وصلتنا، وتراوح مدتها من قرن إلى قرن ونصف تقريباً قبل البعثة؛ وفق التقديرات المختلفة، أما على الصعيد السياسي فلا يُعرف متى بدأ عصر الجاهلية بالتحديد؛ لكن الراجح أنه بدأ قبل ذلك ببضعة قرون؛ مع انتشار عبادة الأوثان بين العرب على يد عمرو ابن لُحَيِّ الخزاعي؛ الذي عاش قبل البعثة النبوية بعدة قرون على وجه التقريب؛ وهناك من المؤرخين من يُقسِّم هذا العصر إلى قسمين: الجاهلية الأولى، والجاهلية الثانية؛ ويعني بالجاهلية الثانية القرن الذي سبق مولد النبي ﷺ، وقد وصلنا الكثير من أخبار الجاهلية الثانية، أما الجاهلية الأولى فهي القرون التي سبقت تلك المدة والتي لم تصلنا عنها أخبار واضحة.

وسُمِّيت تلك الفترة بعصر الجاهلية؛ نسبة إلى الجهل؛ الذي هو ضد العلم وليس الجهل الذي ضد العلم؛ لأن عصر الجاهلية لم يخلُ من العلوم والمعارف، ورغم انتشار العديد من المفاسد ومن بينها عبادة الأوثان في تلك الفترة؛ فإنَّ هناك مزايا اجتماعية وأخلاقية وأدبية وعقلية عرفها العصر الجاهلي، وقد قدَّرها العلماء والمؤرِّخون وأخذوا منها الكثير.

البيئة الجغرافية:

البيئة العامة لموطن العرب كانت بيئة صحراوية قاسية جافة، يغلب عليها الحر ويقل فيها المطر، وهذا قد أورث العرب صبراً وجلدًا وقدرة على تحمُّل تكاليف

الحر وشظف العيش، حتى صارت الصحراء أو البادية طابعهم الذي تطبّعوا عليه، فظهر أثرها في أخلاقهم وطبائعهم ومزاجهم وعاداتهم، باستثناء بعض المناطق القليلة التي عُرفت بالخضرة والتحضر؛ مثل اليمن وبلاد ما بين النهرين؛ فكانت تلك البلاد ألطف جوًّا وأرقّ طبعًا وأبعدَ عن جفاف الصحراء، وعليه ينقسم العرب في معيشتهم وفق ظروفهم المعيشية والجغرافية إلى قسمين:

١- عرب البادية: وهم الذين كانوا يعيشون في البادية؛ حيث لا سكن لهم يقرّون فيه؛ بل كانوا يعيشون على الترحال متنقلين من أرض إلى أرض خلف منابت العشب ومصادر المياه؛ لأنهم كانوا يعتمدون على ما تنتجه مواشهم وأنعامهم، لذا عُرفوا بالاشتغال بالرعي، وأطلق عليهم أهل الوبر، وهم أغلب العرب.

٢- عرب الحضر: وهم الذين سكنوا المدن وعاشوا في بيوت مستقرة ثابتة؛ مثل مكة ويثرب والطائف وبعض مدن الحجاز؛ ومنهم من كوّن عدة ممالك وعاش بظليها، وعملوا بالتجارة وبعض الزراعة، ومنهم من رعى المواشي كذلك، وهؤلاء لم يبعد عنهم الطابع البدوي أيضًا؛ بل تأثروا بعموم الحياة البدوية التي تفرضها الصحراء، واتصلوا بالبدو وخالطوهم عن طريق الرحلات والتجارة، فتطبّعوا بطباع الصحراء وتأثروا بأخلاقها، باستثناء فئة قليلة من العرب ابتعدوا عن الحياة البدوية فارتقوا وتمدّنوا تمدّنًا كاملًا وكوّنوا عدة ممالك؛ كعرب اليمن والشام والعراق وعاشوا بظليها وهؤلاء على تحضّرهم وقوّتهم كانوا أقل العرب عددًا.

الأحوال السياسية:

كانت الأحوال السياسية مضطربة قلقلة؛ فالعرب على مدار تاريخهم القديم لم يتحدوا ولم يجتمعوا؛ بل عاشوا قبائل متفرقة متصارعة متنافرة لا يجمعها نظام ولا يوحدها موحد، فكانت الحياة القبلية هي السائدة، وكانت جزيرة

العرب دومًا عرضة للغزو من ممالك أخرى مجاورة؛ كالكلدان والفرس والروم والأحباش، ونجح هؤلاء في مدّ نفوذهم أحيانًا على بعض أطرافها؛ كاليمن والبحرين وإمارات الشمال، ولكن الثابت تاريخيًا أن جزيرة العرب بكاملها لم تخضع لأيّة سلطة سياسية خضوعًا كليًا تامًا.

ورغم الحياة القبلية للعرب فقد كوّنوا أيضًا عدة ممالك عامرة، ولا سيّما في اليمن؛ مثل مملكة معين ومملكة سبأ الشهيرة التي حكمت أجزاء واسعة من اليمن وحضرموت وجنوب الجزيرة، بل وسيطرت على الحبشة مدة من الزمن، وارتبطت تاريخيًا بسد مأرب الشهير وبالمملكة "بليقيس" التي وصلت في عهدها الدولة السبئية إلى ذروة مجدها ولمعانها السياسي، ولها أخبار مع سليمان عليه السلام، وقد عاشت تلك الدولة زمنًا طويلًا، ولما ضعفت؛ ظهرت على أطرافها ممالك أخرى مثل حضرموت وقتبان وأوسان، وقبيل الميلاء بقليل ظهرت مملكة حمير الشهيرة التي قضت على جميع الممالك السبئية، ومدّت نفوذها على مناطق واسعة في اليمن وحضرموت، وبلغ سلطانها الحجاز، وعُرف ملوكها حينًا باسم التّابعة، وبلغوا قدرًا من الذروة والمجد حقبة من الزمن إلى أن ضعفوا قبل البعثة واحتل الأحباش اليمن وأقصوا الحميريين، فاضطر سيف بن ذي يزن أحد ملوكهم إلى الاستعانة بالفرس من أجل طرد الأحباش، ونجح في تحقيق ذلك، ولكن نتج عن هذا أن خضعت اليمن وخضع الحميريون لسلطة الفرس، وما لبثوا أن زال أمرهم نهائيًا، ولما جاء النّبي ﷺ كانت اليمن تحت النفوذ الفارسي.

وفي الشمال قامت عدة ممالك؛ مثل مملكة الأنباط التي سيطرت على بعض أجزاء الشام وشمال الحجاز وسيناء، وكانت حاضرتهم مدينة البتراء؛ وكذلك مملكة "تدمر" التي حكمت الشام وحاربت الفرس؛ وهاتان قضى عليهما الروم، وفي القرن الذي سبق بعثة النّبي ﷺ برزت دولة المناذرة في الحيرة جنوبي العراق وكانت موالية للفرس؛ حيث أدرك ملوكهم أزدشير بن بابك صعوبة السيطرة على القبائل العربية التي تقيم على أطراف مملكته، إلا بأن يُملك عليها ملكًا من

العرب يكون ولاؤه لفارس، ومن هذا المنطلق شجّع الفرس حلفاءهم المناذرة اللخميّين على إقامة إمارتهم في الحيرة، ووعدهم بالنصرة والتأييد مقابل الولاء لهم؛ وكذلك دولة الغساسنة في الشام، وملوكهم من آل جفنة الذين غلبوا على بلاد الشام فاصطنعهم الروم لأنفسهم ومنحوهم مُلك العرب من ناحيتهم مقابل الولاء لهم أيضًا، فكانت دولتهم تابعة للروم، وكانت بين المناذرة والغساسنة عداوة ووقائع؛ حيث كان الروم والفرس أعداء لبعضهم البعض، وكان كل منهما يستعمل من والاهم من العرب من أجل حروبهم بالوكالة كي يحفظوا دماء جنودهم، وهذا يعني أن الدولتين لم تكونا مستقلتين استقلالاً تامًّا؛ بل كانتا مواليّتين للفرس والروم، وظلّتا على حالهما حتى الفتح الإسلامي.

وقامت أيضًا دولة كندة التي حكمت أجزاء واسعة في أواسط جزيرة العرب، وكانت معاصرة للمناذرة والغساسنة والجميريين، انتهت بمقتل ملكها حجر والد امرئ القيس، وظل العرب على اضطرابهم السياسي وتشتتهم القبلي وتفترقهم حتى جاء الإسلام.

أيام العرب وحروبهم:

نظرًا لأن العرب كانت تسودهم القبليّة فلا يوحدهم نظام ولا يجمعهم جامع، وكانوا متفرقين شعوبًا وقبائل؛ فقد وقعت بينهم عدة حروب ومعارك، خلّدتها الآثار وكتب التاريخ؛ من بينها:

- يوم حلّيمة: وكان بين المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وبين خصمه الحارث ابن أبي شمر ملك الغساسنة المعروف بالحارث الأعرج؛ وقصته أن المنذر بن ماء السماء قد بلغ مُلكُ المناذرة في عهده قدرًا من القوة والسطوة، وقام بعدة غارات على الغساسنة وكبدهم في حروبه خسائر فادحة، وقتل ولدين للحارث ملك غسان، فعزم الحارث على الثأر، وعبأ جيشه وسار به إلى مكانٍ يُدعى "مرج حلّيمة"، والتقى هناك بجيش المنذر بن ماء السماء، وجرى قتال عنيف انتهى بهزيمة المنذر وقتله، وسُمّيَ بيوم حلّيمة نسبة إلى ابنة الحارث بن أبي شمر؛ لأنها

كانت تحرّض المقاتلين في جيش أبيها على القتال! ويعتبر يوم حليلة من أشهر أيام العرب.

- حرب البسوس: وهي حرب دارت بين قبيلتي تغلب وبكر، وهم أبناء عمومة من بني وائل، وسبب هذه الحرب أن بكرًا وتغلب قد توخّدا معًا واختاروا عليهم كليب بن ربيعة التغلبي، وكان فارسًا شجاعًا من فرسان العرب، فملك على تغلب وبكر، بيد أنه ما إن ملك حتى طغى وتجبّر وأساء لأبناء عمومته البكريين، وقتل ناقه لامرأة تُدعى البسوس خالة جساس بن مرة البكري، وكانت في جواره، فأخذت جساسًا الحميّة وقتل كليبًا، فاشتعلت الحرب بين القبيلتين؛ حيث قاد تغلب "المهلهل سالم بن ربيعة" أخو كليب، وكان مثله فارسًا مغوارًا، وقد أقسم على الانتقام من بكر وإفنائهم جميعًا، واشتعلت حرب البسوس ودامت ردحًا طويلًا من الزمن، وقُتل من الحيّين نفرٌ كثيرٌ، وقُتل في أواخرها جساس بن مرة قاتل كليب، ولكن المهلهل لم يكتف، وواصل قتاله ضد البكريين، ومن فرط تهوُّره قتل بجير بن الحارث بن عباد، وكان بجير وأبوه قد اعتزلا الحرب، فلما قُتل بجير استشاط أبوه الحارث بن عباد غضبًا، وانضم إلى بكر، وكان فارسًا مغوارًا رغم شيخوخته وكِبَرِ سِنِّه، فقاتل معهم وهزم تغلب في يوم تحلاق اللِّمَم، وأسر المهلهل وجرَّ ناصيته، ثم أتبع انتصاره هذا بانتصارات أخرى، وأثنى في تغلب حتى طلبوا منه الصلح، فانتهت الحرب وأتمَّ الصلحَ بينهما ملكُ الحيرة عمرو بن هند.

- حرب داحس والغبراء: ودارت بين عبس وذبيان؛ وسبب الحرب أنه قد تمَّ إجراء سباق بين الخيل، كان فيه داحس حصان عبس، والغبراء فرس ذبيان، ويبدو أن داحسًا سبق الغبراء، فنصب له فتیان ذبيان كمينًا وأوقعوا به، فسقط عنه فارسه، فاشتعلت الحرب بين الفريقين ودامت أعوامًا طويلة، وقُتل

^١ انظر: تاريخ ابن خلدون (٢/ ٣٣٦)؛ الكامل في التاريخ، ابن الأثير (١/ ٤٨٨ - ٤٨٩)، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م؛ ويقال: بل قُتل المنذر بن ماء السماء في موقعة عين أباغ، وولده المنذر بن المنذر هو من قُتل أمام الغساسنة في مرج حليلة؛ والمؤرخون مختلفون في تقديم أحد اليوميين على الآخر، والأرجح ما ذكرناه.

من الحيّين كذلك نفرٌ كثيرٌ، وانتهت الحرب بأن تدخلَ رجلان من بني ذبيان هما: هرم بن سنان والحارث بن عوف، فدفعاً دية القتلى من الجانبين من مالهما الخاص حقناً للدماء!

- حرب الفِجَار: وهي حرب اشتعلت بين قبيلتي قريش وأحلافها من بطون كنانة، وهوازن وأحلافها من قيس عيلان؛ بسبب أن رجلاً من كنانة قتل رجلاً من هوازن؛ لخلافٍ بينهما، فاختصم الحيّان وحاول البعض إصلاح تلك الخصومة، فلم يفلحوا، وتكررت الاعتداءات، فاشتعلت الحرب بين الحيّين وقُتِل من قريش وهوازن نفرٌ كثيرٌ، وسُمّيت بحرب الفِجَار لما جرى بها من انتهاك للأشهر الحرم؛ والأشهر الحرم هي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وكان محرّماً فيها القتال، فانتَهك ذلك في تلك الحرب، وانتهت الحرب بعد أن سعى رجال من الطرفين للصالح ودفعِ الدية، وقد شهد رسول الله ﷺ جانباً من تلك الوقائع.

- يوم ذي قار: وسبب تلك الحرب أن كسرى أبرويز ملك فارس طلب من النعمان ابن المنذر بعضاً من نساء وبنات أهل بيته، فرفض النعمان هذا الطلب، واغتاز كسرى لهذا وعزم على استقدامه إلى عاصمته المدائن، فحبسه وقتله -وقيل: مات في سجنه- ولم يكتفِ كسرى بذلك؛ بل عزم على الانتقام من بني شيبان؛ لأن النعمان استودع فيهم أهله ونساءه وماله، ورفض زعيمها هانئ ابن مسعود الشيباني تسليم تلك الأمانات لعمال كسرى، فثار العرب من أجل كرامة النعمان ونُصرةً لبني شيبان، وتجمعت كل بطون بكر ودارت موقعة هائلة بين الفرس والعرب، انتهت بانتصار العرب انتصاراً عظيماً، وانهزم الفرس، وقد ورد يوم ذي قار على السنة الكثير من الشعراء، وهو من مفاخر العرب في الجاهلية، وقد اختلف المؤرخون في عام حدوثها، ومنهم من قال: إنها في عام بعثنة النبي ﷺ.

- حروب الأوس والخزرج: وكانوا أبناء عمومة يسكنون يثرب، واستمرت حربهم أعواماً، حتى انتهت بمقدم النبي ﷺ.

^١ أنظر الكامل في التاريخ لابن الأثير، ذكر أيام العرب في الجاهلية، أيام داحس والغبراء (٥٠٩/١)

وتحفل كتب التاريخ بالعديد من أيام العرب وحروبهم، وحفظت قصصًا كثيرة
مما جرى فيها من فروسية وأحداث اختلطت فيها الواقع بالأسطورة.

الأحوال الدينية:

كانت الديانة السائدة بين العرب قبل البعثة النبوية طيلة قرونٍ هي عبادة
الأوثان؛ حيث انتشرت الأصنام في جزيرة العرب، وكان لكل قبيلة صنمها الخاص
الذي تعبده، ومن بين أصنامهم التي كانت منتشرة: اللات وهبل ومناة والعزى وذو
الخلصة، وكانت العرب من قديم زمانهم على ملّة إسماعيل بن إبراهيم -عليهما
السلام- إلى أن جاء رجل يُدعى عمرو بن لُحَيّ الخزاعي، كان من سادات العرب،
وذهب إلى الشام في إحدى رحلاته، فوجد أهل الشام يعبدون الأصنام، فجلب
صنمًا منها إلى بلاد العرب فعبدّه، وتبعه في ذلك العرب، فتغيرت شريعة التوحيد
وانتشرت عبادة الأوثان بينهم منذ ذلك الحين، ولم يبقَ من شريعة إبراهيم -
عليه السلام- غير بعض الشعائر والمظاهر الشكلية؛ كحج بيت الله الحرام
وتقديم الذبائح، وقد اختلطت بعبادات شركية، وإلى جانب الأوثان نجد من
العرب من عبد الكواكب والشمس والقمر ومظاهر الطبيعة، ومنهم من تأثر
بالمجوسية تبعًا للفرس، وهم قلة.

وانتشرت كذلك اليهودية على نطاق محدود؛ حيث انتقلت جاليات يهودية من
الشام إلى جزيرة العرب، واستقروا في بعض بلاد الحجاز واليمن؛ مثل يهود خيبر
وقبائل قينقاع والنضير وقريظة في يثرب، وتأثر بشريعتهم بعض العرب؛ مثل ذي
نواس ملك حمير، والسموأل بن عادياص صاحب حصن الأبلق في تيماء.

وانتشرت كذلك النصرانية انتشارًا محدودًا، لكنها كانت أوسع نطاقًا من
اليهودية؛ حيث يقال: إن عيسى -عليه السلام- أرسل ابن ثلماء أحد حواريتيه
إلى جزيرة العرب لنشر دعوته؛ فضلًا عن اتصال اليمن بالحبشة النصرانية
ووقوعها تحت الاحتلال الحبشي زمنًا، ومخالطة عدد من القبائل العربية

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري نقلًا عن ابن هشام والطبري وابن خلدون (٧٢/١).

للنصارى في العراق والشام على أطراف جزيرة العرب، فشاعت النصرانية في جزيرة العرب ودانت بها عدة قبائل عربية؛ مثل تغلب وقضاة وغسان والمناذرة من بني لخم وجذام وكلب وقضاة وإياد، وعُرفت بجزيرة العرب أعداداً من الأديرة والكنائس والرهبان في اليمن ونجران وشمال الحجاز، ويعتبر هذا الانتشار المحدود للنصرانية تمهيداً لانتشار الإسلام فيما بعد؛ لأن شيوخها بين العرب جعلهم على بعضٍ من العلم بالرسالات السماوية، وكان منهم من ينتظر بعثة محمد ﷺ.

وإلى جانب تلك الشرائع نجد مجموعة قليلة كانت باقية على ملة إبراهيم عليه السلام؛ وهؤلاء تحفّوا وهجروا عبادة الأصنام ولم يؤمنوا بأيٍّ من تلك الملل؛ ولكنهم بسبب بُعد الزمن لم تكن لهم عبادات معينة؛ لانقطاع الصلة بينهم وبين إبراهيم -عليه السلام- وكانوا ينتظرون بعثة النبي محمد ﷺ، وكانوا يؤمنون بالبعث والحساب، ومن بين هؤلاء أمية بن أبي الصلت، وورقة بن نوفل، وزيد ابن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ إلا أنه من الواضح أن العرب عموماً لم يكونوا متعمقين في معتقداتهم الدينية، ولا سيما الوثنية فلا تجد للشعر الديني أثراً يُذكر في شعر الجاهلية، باستثناء أشعار قلة من الشعراء؛ كالنابغة الذبياني والسموأل وبعض المتحنفين كأمية بن أبي الصلت، وهو ما يفسر عدم مناهضتهم للإسلام بقوة حال ظهوره، وسرعان دخولهم فيه، باستثناء قريش التي عادت للإسلام أول أمرها لأسباب عصبية لا دينية.

الأحوال الاجتماعية والأخلاقية:

أبرز ما يميز الحياة الاجتماعية للعرب، وكانت قائمة عليه وقت جاهليتهم؛ هو نظام القبيلة؛ التي شكلت الركيزة الأساسية للحياة الجاهلية، وكان الرجل ينتمي إلى قبيلته إما بالنسب المباشر أو ربما بالولاء أو الحلف؛ حيث كان العرب

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٩٩).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٦٠).

يعطون للعصب القبلي اعتباراً فائقاً، وإذا انقسمت القبيلة إلى بطون وعشائر؛ كان الولاء عادة يكون للأقرب فالأقرب.

وقد عرفت عن العرب رغم جاهليتهم وما عاشوه من اضطراب وقلق وتنافر؛ الكثير من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة، وهي صفات فرضتها الصحراء وظروف الحياة البدوية القاسية، ومن بين أخلاقهم الحسنة المبالغة في الكرم، وحسن الضيافة، والوفاء بالعهود والوعود وعدم الغدر، وحماية الضعيف، وإغاثة المظلوم، وقد علمتهم ظروف الصحراء عدة خصال أخرى كالفرسية والشجاعة والإباء ورفض الضيم والذل والخنوع والهوان وطأطأة الرأس، وبلغ من ذلك أنهم كانوا أحياناً يدفعون حياتهم ثمناً للحفاظ على تلك المبادئ والأخلاق السامية. ويفضّلون الموت بشرفٍ في سبيلها، ويعدّون التخلي عن تلك المبادئ عاراً، ولنا في قصة وفاء السمائل، وما جرى بين الحارث بن عباد والمهمل بن ربيعة أمثلة على تلك القيم والمبادئ، كما كان من بين صفاتهم التي امتازوا بها احترام الجوار؛ فقد يجير المرء قاتل عمّه أو أبيه، فلا يصل إليه أحد بسوء؛ احتراماً لذلك الجوار.

على أنه مع تلك الخصال الحميدة كانت هناك خصال دنيئة؛ مثل الإسراف في شرب الخمر والميسر وواد البنات والنهب وقطع الطرق، والإفراط في الأخذ بالثأر، والتعصب القبلي، فكان الرجل يقف مع قريبه حتى لو كان على خطأ؛ انتصاراً للعصب القبلي.

وكانت المرأة لها مكانتها في الحياة الجاهلية، ولا سيّما الحرائر؛ فكان العرب يعتبرون العفة والعرض والشرف جزءاً من حياتهم، ويثمنون ذلك إلى درجة فائقة، وكانوا يحيطون نساءهم بما يسعهم من الحماية والصون، وكانت الحرائر -ولا سيما بنات الأشراف- يحظن بمنزلة سامية مرموقة، ويوجد إلى جانب الحرائر طبقات أقل تتمثل في الإماء والسبايا والقينات اللاتي يضربن على المزهر، وعاهرات يُعرفن بالزنا؛ ورغم اهتمام العرب بالعرض والشرف فقد

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، شوقي ضيف (١/٢٢).

تواجدت عدة عادات ذميمة تعلقت بالنساء في الجاهلية؛ كوأد البنات، والحرمان من الموارث، والاستبضاع^١، وانتشار النساء ذوات الرايات الحمر التي كانت تتخذها البغايا لفعل الرذيلة.

الأحوال الاقتصادية:

كانت التجارة هي أبرز وأشهر ما عمل به العرب في جاهليتهم؛ إذ كانت الطبيعة الصحراوية التي فُرضت عليهم؛ جعلتهم -بقسوتها وقلة مواردها- يعتمدون عليها كمصدر رئيسٍ للدخل، وساعدهم في ذلك موقع جزيرتهم الجغرافي الممتاز، وكانت بلاد الشام واليمن ومصر والهند من أكثر البلدان التي يرحل إليها العرب بفواقلهم من أجل البيع والشراء، ويجلبون ما يسعهم من الطيب والبخور والعاج والثياب والجلود والأسلحة والخمور والطعام، وكانوا يتخذون في سيرهم طرقًا عرفوها، وإلى جانب التجارة نجد بعض العرب قد عملوا بالزراعة في بعض البلدان ذات الطابع الخصب؛ مثل خيبر ويثرب والطائف واليمن، لكنها كانت أقل انتشارًا من التجارة؛ بسبب غلبة الطابع الصحراوي على أغلب الجزيرة، ÷ وقلة الأمطار وانعدام الأنهار؛ وعُرف عن العرب بعض الأعمال الحرفية والصيد والغزل، بينما كانت الحياة الاقتصادية للبدو قائمة على رعي الأغنام.

الجانب العقلي والعلمي:

قد يظن بعض الناس أن عصر الجاهلية كان خاليًا من العلوم والمعارف، وهذا ليس صحيحًا؛ بل على العكس؛ فقد كان عصر الجاهلية مليئًا بالعلوم والمعارف المختلفة، وإنما عني بالجهل في هذا العصر؛ ما هو ضد العلم وليس ما هو ضد العلم؛ ومن أشهر العلوم التي اشتهر بها العرب في جاهليتهم علم الأنساب؛ فقد كان العرب يحفظون أنسابهم بدقة، وكذلك علم النجوم والفلك؛ حيث اعتمد

١ الاستبضاع: كان الرجل أحيانًا في الجاهلية يرسل زوجته إلى فارس يعجب به فيطلب منها أن تعاشره حتى تحمل منه ثم تعود إلى زوجها فلما تلد ينسب هذا الولد إليه وهي عادة شاذة في العرب أنكرها فيما بعد الإسلام انظر: تاريخ الأدب العربي، عمرو فروخ، دار نور القلم للطباعة والنشر (٦٠/١).

العرب على مواقع النجوم في رحلاتهم لتحديد مواقعهم واتجاهاتهم وسط تلك الصحراء الخالية، وعرفوا أسماء بعض النجوم والأبراج ومنازل القمر؛ واشتهروا كذلك بعلم الفراسة (وهي الاستدلال بالنظر إلى وجه الإنسان على ما أضمره في نفسه)؛ والقيافة (وهي الاستدلال من الآثار على الأشخاص؛ وهو علم مشهور لدى العرب في الجاهلية، وهي نوعان: قيافة بشر، وقيافة أثر؛ فأما قيافة البشر فهي الاستدلال من خلال الوجه والملامح والأعضاء على أصل صاحبها، وأما قيافة الأثر فهي الاستدلال على أصل الشخص من أثر أقدامه وخطواته وآثار الحوافر والسَّير؛ وكان العرب يستعلمون علم القيافة كي يعرفوا أصل الشخص ونسبه وقبيلته، ولها دور في الأخذ بالثأر)، والعيافة (وهي الاستدلال بملاحظة حركة الطيور واتجاهاتها؛ فإن سارت يمنة تفاءلوا، وإن سارت يسرة تشاءموا)؛ والحكمة وعلم الرواية للأخبار والشعر؛ حيث كان العرب شغوفين بشدة إلى القصص وأخبار الماضين وما يُحكى عن حروب العرب وأيامهم، واشتهر بذلك عدد من الرواة والقصاصين، وكذلك عرف العرب على نطاق محدود الكتابة والقراءة، وأدركوا أيضًا شيئًا من علم الطب والأعشاب والعقاقير، واشتهر بعض الأطباء؛ مثل الحارث بن كلدة وابن حزيم ولقمان الحكيم.

وتدل الآثار القديمة لبقايا سد مأرب وقصور المناذرة في الحيرة وبعض الآثار السبئية والجميرية في اليمن؛ على أن العرب قد أدركوا حظًا من علم البناء والهندسة والعمارة والزراعة، ومن الملاحظ أن أغلب تلك العلوم كان يغلب عليها الطابع البدائي وعامل الخبرة والتجربة الأولية وليس عنصر البحث والدراسة؛ فقد اقتص العرب المتمدنون دون البدو بعلم الهندسة لحاجتهم إلى

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (٧٥/١).

^٢ انظر: المصدر السابق.

^٣ انظر: المصدر السابق.

^٤ انظر: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٨٥).

^٥ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (٧٦/١).

بناء القصور والسدود، بينما اختص عرب البادية أكثر بعلوم الفلك والنجوم؛
لاحتياجهم إليها في سفرهم وترحالهم، وقد نمت بعض تلك العلوم من الخارج؛
كعلم الطب الذي أُخذ من البابليين وقدماء المصريين^١

وقد عرف العرب كذلك الكهانة والعرافة والتنجيم؛ أما الكهانة فهي التنبؤ
بالأخبار المستقبلية، وكان بعض العرب يصدِّقون تلك الأمور ويذهبون إلى
الكهنة يستشيرونهم فيما يعرض عليهم من أمور وقرارات وحوادث، واشتهر عدد
من الكهان؛ مثل عرّى سلمة وخنافر بن التوأم الحميري، وسواد بن قارب
الدوسي؛ ومن الكاهنات زرقاء اليمامة، وطريفة الكاهنة اليمانية؛ وكان كل كاهنٍ
منهم يدّعي أن له تابِعًا من الجن ينقل له الأخبار، وكانت عباراتهم لا تخلو من
الإغراب والإيهام والسجع؛ والظاهر أن الكهانة كانت من العلوم الدخيلة التي
أخذها العرب من الأمم الأخرى^٢. وأما العرافة فهي استكشاف الأخبار الماضية،
وأما التنجيم فهو محاولة الاستدلال من الظواهر الفلكية على الحوادث
الأرضية؛ وتلك العلوم الثلاثية أبطلها الإسلام.

وهذه نبذة عن أهم علوم العرب في الجاهلية، مما يدل على أن العرب في
جاهليتهم كانت لهم معارف وعلوم وحضارة ولكن كان يغيب عنهم الحِلم
والتنظيم والترتيب، فلم يجمعهم نظام للحكم إلى أن جاء الإسلام فأقر تلك
المحاسن التي هم عليها ونهى عن المفاصد التي كانت تحول بينهم وبين غايتهم.

أسواق العرب:

وكان للعرب أسواقهم في الجاهلية، تُعقد في مختلف المواسم التجارية من العام
في أماكن مختلفة، ولعبت تلك الأسواق دورًا مهمًّا في حياة العرب السياسية

^١ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/٢٠٤-٢٠٥).

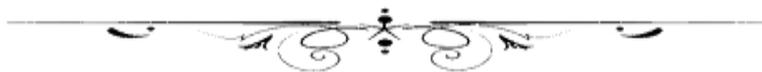
^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/١٠٢-١٠٣) وأنظر أسماء الكهان: تاريخ الأدب العربي،
شوفي ضيف، (١/٤٢١)

^٣ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/٢١٧).

والاجتماعية والأدبية؛ فكانت العرب من شتى القبائل ترتحل إلى تلك الأسواق من أجل التجارة والبيع والشراء، وكانت القوافل تنقل إليها لتنقل ما تحمله من البضائع والمنتجات، ولم تكن تلك الأسواق لأغراض التجارة وحسب؛ بل كانت لأغراض شتى؛ فكانت تشكّل مناسبة للمنافرات والمفاخرات والحكومات ومفاداة الأسرى وإلقاء الخطب والأشعار وإحياء الميادين الأدبية وليالي اللهو وغير ذلك، ومن تلك الأسواق سوق "دومة الجندل" و"هجر" و"عمان" و"المشقر" و"صحار" و"الشَّخْر" و"حضر موت" و"صنعاء" و"حباشة" وأسواق "الأبلة" و"الأنبار" و"الحيرة"، وكان العرب يفتدون إلى تلك الأسواق؛ لكن أكثرها شهرة ثلاثة؛ هي: سوق "ذي المجاز" من ناحية عرفة شرقي مكة، وسوق "مِجَنَّة" شمالي مكة، وسوق "عكاظ"؛ وترجع أهمية تلك الأسواق الثلاثة أنه كان يؤمُّها غالبية العرب من شتى أنحاء الجزيرة العربية؛ لأهميتها وارتباطها زمنياً بموسم الحج وقربها من مكة، فكانت أعظم قدرًا وأبعد أثرًا ولا سيَّما سوق "عكاظ" الذي كان يُقام مع هلال ذي القعدة أول الأشهر الحرم في مكان بين "نخلة" و"الطائف"، فكانت تحضره قبائل العرب كلها؛ لأنها متوجههم إلى الحج الأكبر، فكان يخطب فيها الخطيب، ويلقي الشاعر قصيدته، وفيها ضُربت للشاعر النابغة الذبياني قبة كان يتحاكم إليه فيها الشعراء، فيلقون عليه قصائدهم ليختار منها ويحكم فيها، وممن عَرَضوا عليه قصائدهم: الخنساء والأعشى وحسان بن ثابت؛ فإذا انفض سوق عكاظ ذهب العرب إلى مكة للحج!

وكان لتلك الأسواق -ولا سيَّما سوق عكاظ- أثرٌ كبيرٌ في تقريب لهجات العرب، حتى قويت لهجة قريش وعمّت وانتشرت؛ لأن العرب في المواسم والأسواق كانوا يتحدثون بها، وقد أوردنا ذلك سابقًا في حديثنا عن دور الأسواق في تهذيب اللغة العربية، وكان لها دور كذلك في إثراء الحركة الأدبية، كما عملت على تقوية الصلّات الاقتصادية والاجتماعية والتجارية بين العرب.

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/٦٦).



الشعر في العصر الجاهلي

(منزله ، تاريخه ونشأته ، أغراضه وخصائصه ، المعلقات ، روايته ومصادره)

منزله ومكانته:

للشعر منزلة سامية عظيمة ومكانة مرموقة عند العرب في العصر الجاهلي؛ فكان درّة الفنون وأسمى المعارف، ومن المعروف أن العرب عمومًا منذ جاهليتهم قد عنوا بالبلاغة وتباهوا بالبيان، وقد بلغ الشعر لديهم قدرًا عظيمًا إلى درجة أنه كان من الممكن أن يرفع قبيلة ويهدم أخرى، وكان الشعر هو ديوان العرب الذي عبّر عن جاهليتهم بكل صدق، وكان سجلاً واضحًا لعاداتهم وخصائصهم وحرورهم وتواريخهم ووصف ما بهم من أخلاقيات وعصبيات، وكان وسيلتهم الأبرز لنشر الأمجاد وتخليد البطولات والمآثر والفخر بالنسب والحسب والعرق، وقد اهتم المؤرخون بدراسة الشعر الجاهلي لأنه سجّل العديد من تواريخهم وخلّد كثيرًا من أحداثهم وكشف جانبًا كبيرًا من حياتهم وطباعهم.

وكانت القبيلة العربية إذا نبغ فيها شاعر أو برز فيها خطيب؛ أقامت الولائم والأطعمة والاحتفالات والأعراس، وتلقّت التهاني من القبائل الأخرى؛ لأن الشعر بالنسبة لهم حماية لأعراضهم وذبّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكورهم!

ومن بين القصص المؤثرة التي تدل على مكانة الشعر وعظمتها ما حدث لقبيلة متواضعة تدعى "بنو أنف الناقة"، لا ذكر لها ولا سبق، وكان الرجل منهم إذا سئل عن نسبه؛ غضّ الطرف خجلًا، إلى أن مدحهم الحطيئة قائلاً!

قومٌ هم الأنف، والأذنانُ غيرُهُمُ ومن يسوي بأنفِ الناقة الذنبا

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٣/ ٢١).

^٢ انظر: مختارات شعراء العرب، ابن الشجري (٣/ ١٨)، ضبطها وشرحها: محمود حسن زناتي، طبعة: مطبعة الاعتماد، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ-١٩٢٥م. وأنظر: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، دار الكتب العلمية، بيروت. (ص ٤٥)



فارتفع ذِكْرُ بني أنف الناقاة وصار ذلك لهم مدحا وفخرا!
وكان هناك رجل مغمور فقير يُدعى المحلّق؛ كان استضاف الأعشى أحد أبرز شعراء الجاهلية، فأكرم وفادته وأولم له ونحر ناقته، فمدحه قائلاً:
لَعْمَرِي لَقَدْ لَاحَتْ عَيْونُ كَثِيرَةٌ إِلَى ضَوْءِ نارٍ فِي يَفَاعٍ تُحَرِّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرورِينَ يَصْطَلِيانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدى وَالْمُحَلَّقُ
رَضِيعِي لَبانِ تَدْيٍ أَمْ تَحَالَفَا بِأَسْحَمَ داجِ عَوْضٍ لا تَنْفَرِقُ
يَدَاكَ يَدَا صِدْقٍ فَكَفَّ مُفِيدَةٌ وَأُخْرَى إِذا ما ضَنَّ بِالرَّادِ تُنْفِقُ
تَرَى الجُودَ يَجْرِي ظاهِرًا فَوْقَ وَجْهِهِ كَمَا زانَ مَنَتَنَ الهِنْدِوانِي رَوْنِقُ
فطار ذكر المحلّق من ذلك الحين، وما قام من مقامه وفي بناته مخطوبة إلا وقد زوّجها.

ويقال: إن الأعشى قد أدرك بعثة النبي ﷺ، وأعدّ قصيدة في مدحه ﷺ، وعزم على المسير إليه في المدينة، فاعترضته خيل قريش بقيادة أبي سفيان؛ لأنهم خافوا أن ينضم ببلاغته إلى المسلمين، وجمعوا له مئة ناقاة؛ مقابل أن يعود ولا ينضم إلى النبي ﷺ، وما زالوا به حتى ردّوه عن المدينة بعدما أخبروه أنه يحرم الخمر؛ وقد أنكر هذه القصة عددٌ من المؤرخين ونفوا حدوثها، ولكنها حتى وإن لم تصحّ؛ فإنها تدل على عظمة الشعر وعلوّه وقوّة أثره في نفوس الجاهليين.
ويذكر أن الحارث بن ورقاء الأسدي قد أغار على عشيرة الشاعر زهير بن أبي سلمى، وأخذ إبلاً وغلاماً له، فغضب زهير غضباً شديداً، وأرسل إليه برّد إبّله وغلامه، مهدداً إياه ومنتوعداً أن يهجوّه هجاء مقدمداً، قائلاً:
لِيَأْتِيَنَّكَ مِنْي مَنْطِقٌ قَدَعٌ باقٍ كما دَنَسَ القَبْطِيَّةَ الوَدَكُ

^١ أنظر البيت وقصة بني أنف الناقاة في الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، (٢/١١٧) طبعة دار صادر، بيروت
^٢ انظر: الحماسة البصرية، ابن أبي الفرج (١/١٧٥)، تحقيق: مختار الدين أحمد، طبعة: عالم الكتب، بيروت. والقصة موجودة في ديوان الأعشى: ترجمته، طبعة دار الكتاب العربي، (ص ٢٧)
^٣ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٥١).

فهاب الحارث هجاءه، وسرعان ما رد له ما أخذ منه.^١
وكان هناك شاعر آخر يقال له عبد يغوث الحارثي، كان سيدًا في قومه، أُسر في
بعض حروبه مع بني تميم، فأخذوه وشدوا لسانه بنسعة؛ مخافة أن يهجوهم،
ثم قتلوه؟ وكلها قصص تدل على عظمة الشعر وقوة تأثيره في العصر الجاهلي.

نشأته وتاريخه:

تعتبر نشأة الشعر الجاهلي مجهولة، وليس معروفًا على وجه الدقة كيف بدأ؛
إذ إنَّ التاريخ لم يدرك الفترة التي نشأ فيها الشعر وتطوّر حتى وصل إلى تلك
الصورة الناضجة التي نراها عند المهلهل بن ربيعه وابن أخته امرئ القيس،
وليس من المنطقي القبول بأن الشعر بدأ لتوّه من هذه النماذج المكتملة؛ بل من
المؤكد أن الشعر مرَّ بمراحل تطوّر وارتقاء منذ نشأته حتى بلغ تلك الصورة
المكتملة التي نراها في القرن الذي سبق بعثة النَّبِيِّ ﷺ.

والمظنون أن الشعر أخذ أولًا من سجع الكهان، وكان العرب يسجعون كثيرًا في
كلامهم، وكان كلام الكهان من قبيل السجع الذي يحيطه الغموض والعبارات
القصيرة المترادفة، ولعل ذلك السجع هو الذي نشأت منه القافية، ثم بدؤوا
يزنون عباراتهم من توقيع سير الإبل وتقطيعها بما يوافق خطاها؛ ويقال: إن
كلام العرب كان كله منثورًا فاحتاجوا إلى الغناء وتوهّموا أعاريض وعملوها
موازين للكلام؛ حتى بدأ الشعر في المولد والظهور، ولعل بحر الرجز كان أول
الأوزان الشعرية التي ظهرت، ثم بدأت تتطور وتتولد أوزان جديدة انتقل إليها
العرب للنظم عليها.

^١ الودك: الدسم. لسان العرب، ابن منظور (١٠٠ / ٥٠٩)، طبعة: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة،
١٤١٤هـ

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص١٩٧-١٩٨).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١ / ٢٠٥).

^٤ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١ / ٢١٩).

^٥ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٣ / ١٧).

أما عن أوائل الشعراء فلا يوجد شيء ثابت وإن رُويت بعض الأبيات لدُويد ابن نهد القُضاعي وأعصر بن سعد بن قيس عيلان والحارث بن كعب؛ فمِمَّا رُوِيَ عن أعصر بن سعد قوله:

قالت غَمِيرَةٌ ما لرأسِكَ بعدما
أعميرَ إنَّ أباكِ شَيَّبَ رأسَهُ
ورُوي عن الحارث بن كعب!

وأفنيْتُ بعدَ شُهُورٍ شُهُورا
فبانُوا وأصبحتُ شيخًا كبيرًا
مِ قَدِ تَرَكَ القَيْدُ خَطُويَ قَصيدِرا
أُقلِّبُ أَمري بَطُونًا ظُهُورا
أَكلتُ شِبابي فأفنيْتُه
ثلاثَةً أهليْنَ صاحِبَتْهُمُ
قايِلَ الطَّعامِ عَسيرَ القيا
أبيتُ أراعِي نُجومَ السَّماءِ

وهكذا ظل الشعر في أول أمره مجرد مقطوعات وأراجيز صغيرة يقولها الرجل في حاجته، إلى أن جاء المهلهل بن ربيعة -وهو المعروف بالزيز سالم- فهلهل الشعر وقصد القصائد، وكان أقدم من أطلال القصيد وإليه تُنسب أول قصيدة مطوّلة، وقد بلغت ثلاثين بيتًا، في رثاء أخيه كليب، ثم جاء بعده امرؤ القيس فافتنَّ به، أما الرجز فقد أهمل حينًا بعد ظهور الأوزان الأخرى، وبقي على حاله حتى جاء الأغلب العجلي على عهد النَّبِيِّ ﷺ، ومن بعده العجاج وولده زُوبَة فأطالوا في الرجز وفعّلوا فيه ما فعل مهلهل في القصيد؛ وهذا التسلسل الزمني إنما هو من باب الفرضيات ومتابعة سياق الأحداث والآثار وما روي من أخبار وأشعار يختلط فيها الصحيح بالأسطورة؛ إذ ليس بين أيدينا عن نشأة الشعر وبدء ظهوره شيء موثّق.

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١٠٥-١٠٦)، طبعة: دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

^٢ انظر: المصدر السابق (١٠٦/١).

^٣ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١٩/٣).

أغراضه وموضوعاته:

للشعر الجاهلي أغراض وموضوعات شتى، وأبرز موضوعات الشعر التي اشتهرت في الجاهلية؛ هي:

(١) الفخر:

يُعتبر الفخر من أكثر الأغراض شيوعاً في الشعر الجاهلي؛ حيث كان العرب شديدي التعصّب لأنسابهم وقبائلهم، ودائماً ما يفخر كل شاعر بمآثر قومه ومحاسنهم، وقد افتخر العرب في شعرهم بصفاتهم التي فرضتها عليهم حياة الصحراء القاسية من مظاهر القوة؛ مثل الشجاعة والجلد والصبر والإقدام، وهناك مَنْ جعل الكرم ومحاسن الأخلاق والرّفد والجِلْم معياراً للفخر؛ مثلما نرى في شعر حاتم الطائي، ومن مظاهر الفخر قول السموأل بن عادياء يفخر بالكرم وحماية الجار!

تُعِزُّنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلَى وَكُھُولُ
وَمَا ضَرَّنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْرَمِينَ ذَلِيلُ

ومن أقوى نماذج الفخر القبلي ما قاله عامر بن الطفيل العامري -أحد أبرز الشعراء الفرسان في الجاهلية- يفخر بنسبه وانتمائه إلى فرع قيس عيلان من مضر، في أسلوب لا يخلو من البلاغة والقوة والفخامة، وصورة يتضح فيها مدى الاعتزاز، تصوّر بدقّة إلى أي مدى بلغ بالعرب فخرهم بأنسابهم وأعراقهم؛ إذ يقول:^٢

^١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٣٦٨). وتُنسب في مواضع أخرى لشاعر بعد الإسلام وهو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ولكنها في منتهى الطلب وحماسة أبي تمام منسوبة إلى السموأل وهو الأشهر.

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٣٢٢-٣٢٣).

وَمَا الْأَرْضُ إِلَّا قَيْسٌ عَيْلَانٌ أَهْلُهَا لَهُمْ سَاحَتَاهَا سَهْلُهَا وَخَزْوُمُهَا
وَقَدْ نَالَ آفَاقَ السَّمَاوَاتِ مَجْدُنَا لَنَا الصَّحُورُ مِنْ آفَاقِهَا وَعُيُومُهَا

وتوضح نماذج الفخر تلك؛ أهمية العصبية القبيلية عند العرب؛ التي تبلغ بالشاعر درجة تجعله يفخر بقومه ويعدّد مآثرهم، ويربط عاطفة الفخر لديه بالقوة، ثم ينضوي تحت لواء قبيلته وينافح عنها، ويظهر هذا جلياً في قول عمر ابن الإطنابة الخزرجي يذكر مآثر قومه ويربط فخره بصفات القوة والمنعة والجوار:

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا انْتَدَوْا بَدَّوْا بِحَقِّ اللَّهِ ثُمَّ النَّائِلِ
الْمَانِعِينَ مِنَ الْخَنَا جِيرَانَهُمْ وَالْحَاشِدِينَ عَلَى طَعَامِ النَّازِلِ
وَالْخَالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بَغْنِيَّتِهِمْ وَالْبَادِلِينَ عَطَاءَهُمْ لِلْسَّائِلِ

ومن نماذج الفخر كذلك ما جاء في معلّقة عمرو بن كلثوم مفتخرًا بقوة قومه، ذاكراً بأسهم وبطولاتهم، ومعدّداً مآثرهم وإقدامهم في الحروب؛ إذ يقول:

وَنَحْنُ إِذَا عَمَادُ الْحَرْبِ خَرَّتْ عَلَى الْأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا
نُطَاعِنُ مَا تَرَخَى النَّاسُ عَنَّا وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ إِذَا عُشِينَا

وقال ضمرة بن ضمرة النهشلي يفخر بنفسه ويصف بأسه وقوته:

أَذِيْقُ الصَّدِيقَ رَأْفَتِي وَإِحَاطَتِي وَقَدْ يَشْتَكِي مِنِّي الْعُدَاةُ الْأَبَاعِدُ
وَذِي تِرَةٍ أَوْجَعْتُهُ وَسَبَقْتُهُ فَقَصَّرَ عَنِّي سَعْيُهُ وَهُوَ جَاهِدُ

^١ الحزوم: الأرض المرتفعة كثيرة الحجارة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/١٣٣).

^٢ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص١١٤٢)، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

^٣ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٢٨٢-٢٨٣)، حَقَّقَهُ وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، كعبة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

^٤ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص٣٢٤-٣٢٦)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.

يراني إذا لاقيتُهُ ذا مهابةٍ ويقصُرُ عني الطرفَ، والوجهُ كامدُ
وقد علمَ الأقبامُ أنَّ أرومتي يفاعُ إذا غدَّ الرّوابي المواجهُ

(٢) الحماسة:

تعتبر الحماسة مظهرًا من مظاهر الفخر كذلك، ولكنها ارتبطت أكثر بالمعارك والحروب ووصف ما يجري بها من وقائع، وكثيرًا ما كانت صفات الشجاعة والصبر والجلد دافعًا حماسيًا للعرب كي يُقبلوا على تلك المعارك ويصوّروا فيها بطولاتهم، وقد مرّ بنا ما كان بين العرب في جاهليتهم من حروب وتناقضٍ وتنازعٍ وصراعات؛ ويصور جانبًا من ذلك ما قاله ذُريد بن الصمة أحد الشعراء الفحول في الجاهلية، يفخر بنجاحه بأخذ ثأر أخيه القتيل عبد الله من قاتليه!

يا راكبًا إمّا عرّضت فبَلِّغْني أبا غالبٍ أن قد ثأرنا بغالبِ
وأبلغْ نُميرًا إن مررتَ بدارِها على نأيها فأبي مؤلى وطالبِ
قتلتُ بعبدِ الله خيرَ لداتِهِ ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قاربِ
فليلومِ سُميتم فزارةً فأصبروا لوقعِ القنا تنزونَ نزو الجنابِ
فإن تدبروا يأخذنكم في ظهوركم وإن تقبلوا يأخذنكم بالترائبِ

ومن أشهر أبيات الحماسة ما قاله عمر بن الإطنابة الخزرجي يحرض نفسه على الثبات أمام المكاره، ويدفعها إلى الإقدام والبطولة والصمود وعدم الفرار حتى لو أفضى ذلك إلى الموت في سبيل العزة والكرامة:

أبت لي عفتي وأبي بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيعِ
واقدامي على المكروه نفسي وضربي هامةً البطل المشيحِ

^١ انظر: الأسمعيات، الأصمعي (ص ١١١)، تحقيق: أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة، ١٩٩٣م.

^٢ الترائب: عظام الصدر. لسان العرب، ابن منظور (١/ ٢٣٠).

^٣ انظر: الحماسة البصرية، ابن أبي الفرج (١/ ٣-٤).

وقولي كلما جشأت وجاشت مَكَائِكَ تُحْمَدِي أو تستريحي
وكثيراً ما كانت الحماسة مرتبطةً بالشجاعة والفروسية وصفات الصبر والجلد
والقوة والفخر ووصف المعارك بما يكون فيها من بطولات وبسالة وسلاح وخيل،
وقد نشط شعر الحماسة في يثرب أيضاً؛ نظراً إلى الحروب التي كانت بين الأوس
والخزرج، كما نرى في أشعار قيس بن الخطيم وآخرين.

ولشعر الحماسة والحروب نصيب وافر في الشعر الجاهلي، ولا نجد شاعراً
عُرف بالحماسة والفروسية في الجاهلية كما عُرف عنتر بن شداد؛ الذي كان
فارساً مغوراً شجاعاً ذاع صيته وعلت شهرته، وكان يمزج الغزل بالفخر
والحماسة في الكثير من قصائده، حتى صار يُضرب به المثل في الفروسية
والشجاعة، يقول واصفاً إحدى غاراته في لغة خماسية بديعة ممزوجة بالفخر:

رُعْنَاهُمْ بِالْخَيْلِ تَرْدِي بِالْقَنَا وَبِكُلِّ أَبْيَضٍ صَارِمٍ قَصَّالٍ
يَوْمَ الشَّبَاكِ فَاسْلَمُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنَوَاعِمًا كَالرَّبْرِبِ الْأَطْفَالِ
مَنْ مِثْلُ قَوْمِي حِينَ يَخْتَلِفُ الْقَنَا وَإِذَا تَنْزِلُ قَوَائِمُ الْأَبْطَالِ
نَحْنُ الْحَصَى عَدَدًا وَنَحْسَبُ قَوْمَنَا وَرَجَائِنَا فِي الْحَرْبِ غَيْرَ رِجَالِ
مِنَّا الْمُعِينُ عَلَى النَّدَى بِفَعَالِهِ وَالْبَذَلُ فِي اللَّزْبَاتِ بِالْأَمْوَالِ

(٣) الهجاء:

يعتبر الهجاء أيضاً من الاغراض الشائعة في العصر الجاهلي؛ وهو أن يذكر
الشاعر غيره بصفات ذميمة، ويُلجق به النقائص والرزائل ويجرّده من كل
الصفات الحسنة والمثل العليا، ومصدره ما كان بين العرب من خصومات
وحروب وتنافر وعصبيات، ولجأ إليه الشعراء ليساندوا شجعانهم ويرفعوا من
شأن قبائلهم وينالوا من القبائل المعادية لهم، ومن ضمن الصفات التي كانت
حاضرة في شعر الهجاء: الحقارة والدناءة واللؤم والبخل والمذلة والجبن وضعف

^١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٤٨).

الجوار وكل ما يناقض الخلال الحسنة وسائر الصفات التي تجلب العار والصغار والمذلة وسوء السيرة، والهجاء في الجاهلية نوعان: شخصي وقبلي؛ يقول راشد بن شهاب اليشكري في هجاء قيس بن مسعود الشيباني، يلومه على هجائه إياه رغم الصحبة القديمة، ويتوعده بالرد إن لم يكف:

فَمَهْلًا أَبَا الْخُنْسَاءِ لَا تَشْتُمَّنِي فَتَقْرَعَ بَعْدَ الْيَوْمِ سِنَّكَ مِنْ نَدَمٍ
وَلَا تُوعِدْنِي إِنِّي إِنْ ثَلَاقْتَنِي مَعِيَ مَشْرِفِي فِي مَضَارِبِهِ قَضَمٍ
لِعَادِيَةٍ مِنْ السِّلَاحِ اسْتَعْرَثُهَا وَكَانَ بِكُمْ فَقْرٌ إِلَى الْغَدْرِ أَوْ عَدَمٍ
وَكُنْتُ زَمَانًا جَارَ بَيْتِ وَصَاحِبًا وَلَكِنَّ قَيْسًا فِي مَسَامِعِهِ صَمَمٍ
أَقْبَسَ بَنَ مَسْعُودِ بْنِ قَيْسِ بْنِ خَالِدٍ أَمْوَفٍ بِأُذْرَاعِ ابْنِ طَيْبَةَ أَمْ تُذَمِّ

ومن نماذج الهجاء كذلك ما قاله مقياس العائذي يهجو قومًا، مفتخرًا عليهم، قائلاً:

فَإِنَّ بَنِي عَجَلٍ هُمْ صَبَّحُوكُمْ صَبُوحًا، يُنْسِي ذَا اللَّذَاذَةِ سَاعِرِ
اجْتَنَّمُ إِلَيْنَا فِي بَقِيَّةِ مَالِنَا تُرْجُونَ مِنْ جَهْلٍ إِلَيْنَا الْمَنَاكِرِ

وربما هجا الشاعر قومه إذا رأى منهم وجهًا من النقائص والخمول والتقصير؛ كما فعل الأسعر الجعفي حينما لام إخوته لتخاذلهم عن الثأر لدم أبيه، واكتفائهم بالدية وكانت عددًا من الإبل، فنحروها وأكلوها، فقام هو وأخذ بثأره ثم قال يهجوهم:

أَبْلَغُ أَبَا حُمْرَانَ أَنَّ عَشِيرَتِي نَاجُوا وَلِلْقَوْمِ الْمُنَاجِينَ التَّوَى
بَاعُوا جَوَادَهُمْ لِتَسْمَنَ أُمَّهُمْ وَلَكِي يَعُودُ عَلَى فِرَاشِهِمْ فَتَى

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٠٧-٣٠٩)

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٣٠٦-٣٠٧)؛ ومقاس: شاعر جاهلي مخضرم أدرك الإسلام.

^٣ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٤٠).

ومن نماذج الهجاء القبلي ما قاله يزيد بن الصعق الكلابي يهجو بني أسد
ويصفهم بالخمول والضعف، ويتمهم بالقيود وأنهم عرضة لغزو سائر القبائل،
فقال!

وَلَعْنُكُمْ بِتَمْرِينَ السَّيَاطِ وَأَنْتُمْ يُشْنُ عَلَيْكُمْ بِالْقَنَا كُلَّ مَرْبَعٍ

فكان من بني أسد وحلفائهم من تميم أن أسروه وعدبوه وضربوه، فأصيب
بعاهة أذهبت عقله، وقال ثعلبة الأسيدي يرد عليه معيّرًا إيّاه:

أَعْبَتَ عَلَيْنَا أَنْ نُمَرِّنَ قَدْنَا وَمَنْ لَا يَمَرِّنُ قَدَّهُ يَتَقَطَّعُ

ولا يشترط أن يكون من أصابه الهجاء دينيًا وضيع النفس؛ بل ربما كان شريفًا
حسن الصفات والمناقب، وكان سبب هجائه خصومة مع غيره، أو ربما حسده
آخرون على منزلته وسؤدده أو لوقائع بين الفريقين، وربما نجد قومًا خاملين لا
ذكرَ لهم فيسَلَمونَ بخصولهم هذا من الهجاء؛ ومن أمثلة ذلك هجاء يزيد ابن
الخدّاق لملك الحيرة النعمان بن المنذر؛ الذي كان من أكرم ملوك العرب، لكنه
كان كثير الوقائع في القبائل العربية المعادية له؛ فقال يزيد يهجوّه:

نُعْمَانُ إِنَّكَ خَائِنٌ خَدِعٌ يُخْفِي ضَمِيرَكَ غَيْرَ مَا تُبْدِي
أَحْسَبْتَنَا لَحْمًا عَلَى وَضْمٍ أَمْ خَلْتَنَا فِي الْبَأْسِ لَا نُجْدِي
وَمَكَرْتَ مَعْتَلِيًّا مَخْتَنًّا وَالْمَكْرُ مِنْكَ عِلْمٌ الْعَمْدِ

(٤) الرثاء:

يعتبر الرثاء كذلك من الموضوعات التي شاعت في الشعر الجاهلي؛ وهو أن يبكي
أحد الشعراء أحدًا آخر فقدّه فيذكر محاسنه ومآثره وتفجّع على موته وحزنه

^١ انظر: المصدر السابق (ص ١٤٤).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ١٩٩).

^٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٩٥-٢٩٦).

^٤ وضَم: هو كل شيء يوضع عليه اللحم؛ من خشبٍ ونحوه؛ يُوقَى به من الأرض. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/٦٤٠).

على فَقْدِهِ، ويُعد هذا اللون وليد الحروب والصراعات بين القبائل العربية وما كان يجري فيها من قتل ونزاع، ومن أشهر مرثي الجاهلية مرثية دريد بن الصمة لأخيه عبد الله؛ التي يفجع فيها لموته ويذكر محاسن صفاته ويفخر به قائلاً:^١

وَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ فَمَا كَانَ وَقَافًا وَلَا طَائِشَ الْيَدِ
صَبًا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ ابْعَدِ
إِذَا هَبَطَ الْأَرْضَ الْفَضَاءَ تَرَيَّنَتْ لِرُؤْيَيْتِهِ كَالْمَاءِ تَمُّ الْمُتَبَدِّدِ
رَيْسُ حُرُوبٍ لَا يَزَالُ رَبِيئَةً مُشِيحًا عَلَى مُحَقَّقِ الصُّلْبِ مُلْبِدِ

ويمتاز الرثاء بالعاطفة الصادقة وما يخالطها من مشاعر الأين واللوعة والحزن والحسرة التي أخذ منها الشعراء معانيهم ومزجوها بالمدح والتهديد وطلب الثأر؛ وربما نجد شاعرًا رثى نفسه حينما يشعر بِدُنُوِّ أجله، في عاطفة لا تخلو من الحكمة وأنه لا فرار من الموت؛ كما فعل أفنون التغلبي حينما شعر بموته قائلاً:^٢

أَلَا لَسْتُ فِي شَيْءٍ فَرُوحًا مُعَاوِيَا وَلَا الْمَشْفِقَاتِ إِذْ تَبَعْنَ الْحَوَازِيَا
فَلَا خَيْرَ فِيمَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَتَقْوَالِهِ لِلشَّيْءِ: يَا لَيْتَ ذَا لِيَا
فَطَأَ مُعْرَضًا إِنَّ الْحَتُوفَ كَثِيرَةٌ وَإِنَّكَ لَا تُبْقِي بِمَالِكَ بَاقِيَا
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي أَمْرًا كَيْفَ يَنْقِي إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهُ وَاقِيَا
كَفَى حَزْنًا أَنْ يَرْحَلَ الْحَيُّ غُدُوَّةً وَأَصْبَحَ فِي أَعْلَى الْإِلَهَةِ ثَاوِيَا

ولم يقتصر الرثاء على الأشخاص فحسب؛ بل ربما رثا شاعر شبابه الماضي ويذكر شيبته؛ كما فعل المرقش الأكبر حينما قال:^٣

هَلْ يَرْجِعَنَّ لِي لَمْتِي إِنْ خَصَبْتُهَا إِلَى عَهْدِهَا قَبْلَ الْمَشِيْبِ خِصَابُهَا

^١ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٠٨).

^٢ انظر تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/١٣٦).

^٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٦٠-٢٦١).

^٤ انظر: المصدر السابق (ص ٢٣٦). والشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية (ص ١١٣)



رَأَتْ أَقْحَوَانَ الشَّيْبِ فَوْقَ خَطِيطَةٍ إِذَا مُطِرَتْ لَمْ تَسْتَكِنَنَّ صُؤَابِهَا

ومن أشهر مرثي الجاهلية ما قاله مُهلبل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب الذي قتله أحد أبناء عمومته من بني بكر، وكان هذا سببا لحرب البسوس التي اشتعلت بين تغلب وبكر والتي أوردنا من قبلُ جانبًا من ذكرها، وتزعم قبيلة تغلب فيها المهلبل ابن ربيعة المعروف بالزير سالم الذي أقسم على الثأر لأخيه والانتقام من بكر، ومن أروع مرثيه في أخيه قوله يبكيه ويفخر بإثخانته في البكرين؛ ثأراً له؛ قوله!

فَلَوْ نُبِشَ الْمَقَابِرُ عَنْ كَلِيبٍ فَيُخْبِرُ بِالذَّنَائِبِ أَيُّ زِيرٍ
بِیَوْمِ الشَّعْثَمِينَ لَقَرَّ عَيْنًا وَكَيْفَ لِقَاءِ مَنْ تَحْتَ الْقُبُورِ

وكان للنساء نصيب من الرثاء والنواح، مما يشير إلى أن النساء في أحيان كثيرة يندبن رجالهن ومن فقد من أهلهن لسنوات، وربما ندبن موتاهن ولطمن خدودهن جزعًا ونوحًا وحلقن رؤوسهن، ولم يعرف التاريخ الأدبي شاعرة فاقت الخنساء في رثاء أخويها معاوية وصخر؛ ولا سيّما الأخير الذي كان عظيم البر بها، وقد هلكتا توالياً في حروب لقومهم، ومن أروع وأشهر مرثيها في أخيها صخر قولها:

تَبْكِي خُنَاسٌ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارٌ
لَا بُدَّ مِنْ مِيثَةٍ فِي صَرْفِهَا عِبْرٌ وَالدَّهْرُ فِي صَرْفِهِ حَوْلٌ وَأَطْوَارٌ
وَإِنَّ صَخْرًا لَمَقْدَامٌ إِذَا رَكِبُوا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا جَاعُوا لَعَقَّارٌ
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمَّ الْهُدَاهُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ

ويروى أن صخرًا نفسه إبان علته التي مات فيها وقد طالمت مدتها وملة أهله؛ قال يذكر أمه وزوجته:

^١ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٥٤-١٥٥). يوم الشعثمين: موقعة بين بكر وتغلب.

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٢٠٧).

^٣ انظر: ديوان الخنساء، شرح حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت (ص ٤٥).

^٤ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٤٦).

أَرَى أُمَّ صَخْرٍ مَا تَجِفُّ دَمَوْعُهَا وَمَلَّتْ سُلَيْمَى مَضْجَعِي وَمَكَانِي
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَكُونَ جَنَازَةً عَلَيْكَ، وَمَنْ يَغْتَرُّ بِالْحَدَثَانِ

وقد ظلت الخنساء تبكي أباها صخرًا حتى ذاع صيتها واشتهر رثاؤها بين العرب، وهو رثاء امتاز بالعاطفة الملتزمة، والأحاسيس الصادقة، والرقّة الأنثوية، ولها بينها وبين هند بنت عتبة سجال معروف؛ حيث بكت الأخرى كذلك أباه وأخاها اللذين قُتِلَا في غزوة بدر؛ وظلت الخنساء على حالها هذا زمنًا طويلًا حتى أدركت بعثة النَّبِيِّ ﷺ ودخلت في الإسلام، ومما نلاحظ فيما سبق ذكره من الأغراض أن نشاط الشعر وثيق الصلة بالحروب إلى حدٍّ بعيدٍ؛ فأغراض الفخر والهجاء والرثاء كانت وليدة ما حدث بين القبائل العربية من حروب وتنافر وقتل وسفك دم.

(٥) المديح:

المديح نقيض الهجاء، وهو كثير في الشعر الجاهلي، ويعني ذكر الشاعر غيره بالصفات والمناقب الحسنة؛ كالجود والكرم والشجاعة والفروسية والجلم والمروءة، وهو مثل الفخر ولكن الفخر يكون قول الشاعر في نفسه أو في قومه، بينما يكون المديح لغيره، وكان في العرب ميلٌ لمدح ساداتهم وملوكهم وأشرف قومهم، واشتهر من الشعراء المداحين: النابغة الذبياني وحسان بن ثابت والحطيئة والنابغة الجعدي؛ وهؤلاء كانوا يقدون على ملوك المناذرة والغساسنة وسواهم، فيمدحونهم وينالون جوائزهم، وهو ما أدّى إلى أن صار الشعر من خلال المديح وسيلة للتكسُّب والارتزاق، ويعتبر الأعشى أحد أبرز شعراء المديح كذلك؛ إذ كان يضرب الأرض سعيًا، ويتنقل بين اليمن والحجاز والشام والعراق يمدح الملوك والأمراء بغية التكسب، وكان متفوقًا في مدحه حتى قيل فيه: "ما مدح أحدًا إلا رفعه، وما هجا أحدًا إلا وضعه"، وقصته مع المحلق الكلابي معروفة وسبق ذكرها، وكان هناك من الملوك والأمراء من يتنافس في استقدام الشعراء وإكرامهم بغية أن ينالوا شيئًا من مديحهم، وكان بلاط ملوك المناذرة

والغساسنة قبلة للعديد من الشعراء الذين مدحوهم، غير أن اتخاذ الشعر من خلال المديح وسيلة للتكسب قد حطَّ بعضًا من قدره، ولا سيَّما في أواخر العصر الجاهلي حينما صار المديح بضاعة رائجة وصنعة رابحة هدفها الكسب؛ إذ إنَّ هذا يكون بالطبع على حساب روح الشعر وصدق عاطفته، يقول حجر ابن خالد في النعمان بن المنذر ملك الحيرة!

سَمِعْتُ بِفَعْلِ الْفَاعِلِينَ فَلَمْ أَجِدْ كَمَثَلِ أَبِي قَابُوسَ حَزْمًا وَنَائِلًا
فَسَاقَ إِلَهِي الْغَيْثَ مِنْ كُلِّ بَلَدَةٍ إِلَيْكَ فَأَضْحَى حَوْلَ بَيْتِكَ نَازِلًا
فَأَصْبَحَ مِنْهُ كُلُّ وادٍ حَلَّتْهُ مِنَ الْأَرْضِ مَسْفُوحَ الْمَذَانِبِ سَائِلًا

على أن هذا ليس معناه أن جميع المديح كان مقصورًا على الملوك والتكسب فقط، وأنه لم يكن صادق العاطفة؛ بل إنَّ منه ما كان صادق العاطفة؛ فهذا زهير بن أبي سلمى يختص بمدح سادة قومه ورؤساء عشائره مديحًا قويًا صادق العاطفة، يحييهم على مواقفهم الشجاعة والنبيلة؛ مثل هرم بن سنان والحارث ابن عوف؛ لقيامهما بدفع جميع ديات القتلى في حروب عبس وذبيان، وإيقاف الحرب وحقن الدم، ويمدح كذلك حصن بن حذيفة بن بدر؛ بسبب موقفه الشجاع تجاه ملك الحيرة عمرو بن هند حين قتل أباه وحاول مساومته عارضا عليه أن يحكم بعض البلاد نيابة عنه، فرفض حصن مساومة ابن هند على دم أبيه وتأهب لحربه، فانصرف عنه ملك الحيرة وتراجع عن حربه، فقال زهير!

وَأَبْيَضَ فَيَاضٍ يَدَاؤُهُ غَمَامَةٌ عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ فَوَاضِلُهُ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَوَجَدْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ
يُفْدِيْنَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمَنُهُ وَأَعْيَا فَمَنْ يَدْرِيْنَ أَيْنَ مُخَاتَلُهُ
وَأَعْرَضَنْ مِنْهُ عَنِ كَرِيمٍ مُرَّرًا جَمُوعٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ

^١ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص ١١٤٨).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٤٩ - ١٥٠)؛ أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٤٣).، وأنظر قصة حصن بن حذيفة مع ملك الحيرة عمرو بن هند في هوامش أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمري، طبعة دار الفكر (ص ٢٩٦)

أخي ثقة لا تُلِفُ الخمرُ مالهُ وأكِنَّهُ قَدِ يُهْلِكُ المَالَ نائِلُهُ
تَراهُ إِذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سائِلُهُ

ومن نماذج المديح كذلك قول الحطيئة يمدح آل شماس من تميم؛ لإكرامهم له:^١

أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
يسوسون أعلاماً بعيداً أناها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجدا
مطاعين في الهيجا مكاشيف للذجا بنى لهم آباؤهم وبنى الجد

وعادة يقترن مديح سادة القبائل بحسن الصفات والمناقب؛ مثل الكرم والشجاعة والحزم والرشد والجود والجوار، ويظهر هذا جلياً في مديح مقاس العائدي لبني شيبان؛ لما لقي منهم من الجود والكرم وحسن الجوار:^٢

ألا أبلغ بني شيبان عتي فلا يك من لقاكم الودعا
بعيش صالح ما دمت فيكم وعيش المرء يهبطه أوما
إذا وضع الهاهر آل قوم فزاد الله آلكم ارتفاعا
فقد جاورت أقواماً كثيراً فلم أر مثلكم حزماً وباعا

(٦) الغزل والنسيب:

ونعني بالغزل التغني بمحاسن المرأة وجمالها، وذكر مشاعر الحب والهيام والولوع؛ وهو كثير جداً في الشعر الجاهلي حتى تكاد لا تخلو قصيدة منه، وقد شاع شيوعاً عظيماً؛ لما كان من ذبوع قصص الحب المتعددة في الجاهلية، ولما يكون من ميلٍ فطري لأحد الجنسين إلى الآخر، وزاد من شيوعه طبيعة الحياة الصحراوية التي ليس فيها أجمل من المرأة، فلا رياض ولا قصور ولا حدائق ولا أنهار، وكان في معظمه غزلاً عفيفاً رفيع المستوى في إطار من الصون والعفاف

^١ ديوان الحطيئة، رواية وشرح ابن السكيت، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت (ص ٧٦)

^٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٠٥).

والحياء، ما عدا غزل بعض المترفين، وإذا كان بعض الشعراء قد صوّروا غزلهم كضربٍ من المتاع الحيّ كما فعل طرفة وامرؤ القيس والمنخّل اليشكري؛ نجد فريقًا آخر قد تسامى في غزله فكان غزله ساميًا عفيفًا على نحو ما ترى عند عنتره ومن على شاكلته؛ ومن نماذج الغزل ما قال قُطبة بن أوس الشهير بالحادرة في مطلع إحدى قصائده:

بَكَرَتْ سُمِيَّةَ بُكْرَةَ فَمَتَّعَ وَغَدَتْ غُدُوَّ مُفَارِقٍ لَمْ يَزْبَعْ
 وَتَزَوَّدَتْ عَيْنِي غَدَاةَ لَقِيئِهَا بِلِوَى الْبَنِينَةِ نَظْرَةً لَمْ تَقْلِعْ
 وَتَصَدَّقَتْ حَتَّى اسْتَبْتَنَكَ بِوَاضِحٍ صَلَّتْ كَمَنْتَصِبِ الْغَزَالِ الْأَتْلَعِ
 وَبِمُقْلَتِي حَوْرَاءَ تَحْسِبُ طَرْفَهَا وَسَنَانَ حَرَّةَ مُسْتَهَلِّ الْأَدْمَعِ
 وَإِذَا تُنَازَعُكَ الْحَدِيثَ رَأَيْتَهَا حَسَنًا تَبَسُّمُهَا لَذِيذَ الْمَكْرَعِ

وعرفَ الأدب الجاهلي عددًا من الشعراء المتيممين؛ كالمرقش الأكبر و المرقش الأصغر والمخبل السعدي والنمر بن تولى وعبد الله بن عجلان ومساfer بن أبي عمرو؛ وفي أخبارهم مغامرات وقصص غرامية شتى، وكذلك عنتره بن شداد الذي جمع بين الفروسية والعشق وكان مغرمًا بابنة عمّه عبلة، وله قصائد شتى يقرن فيها حبه بالفخر والفروسية ووصف المعارك، ويقصُّ على حبيبته ما يلقاه من معارك ويبيديه من بطولات، وعادة ما تغنى الشعراء بمفاتن المرأة ولم يدعوا منها شيئًا إلا وصفوه؛ فوصفوا الوجه والخذ والعين والقد والخصر والنهد والساق والشعر والثياب، وأتوا في أشعارهم بالتشبيهات والصور البديعة التي افتنوا فيها وأسهبوا في ذكرها، ومن بين أبيات الغزل ما قاله المنخّل اليشكري في امرأة يصف حبّه لها بأبياتٍ رشيقة، وهو وصفٌ لا يخلو من الترف:

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٢١٤).

^٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٤٣-٤٨)؛ هكذا اسمه عند صاحب الأغاني.

^٣ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/١٦٣).

^٤ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ٦٠).

وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الْفَتَا وَخَدَرَ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
 الْكَاعِبِ الْحَسَنَاءِ تَر فُلٌ فِي الدِّمْقَسِ وَفِي الْحَرِيرِ
 فَدَفَعْتُهَا فَتَدَفَعَتْ مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ
 وَلَثَمْتُهَا فَتَنْفَسَتْ كَتَنْفَسِ الظَّنْبِيِّ الْبَهِيرِ
 فَدَنَّتْ وَقَالَتْ يَا مَنْ خَلَّ مَا بِجِسْمِكَ مِنْ حَرُورِ
 مَا شَفَّ جَسْمِي غَيْرُ حَب بُكَ فَاهْدِي عَنِّي وَسِيرِي
 وَأَحْبُّهَا وَتُحِبُّنِي وَيَحِبُّ نَاقَتَهَا بَعِيرِي

وكانت حياة البدو وما فيها من ترحالٍ دافعاً لظهور ما يُسَمَّى بالنَّسِيبِ أو البكاء على الأطلال؛ حيث كانت تنشأ قصة حب بين فتى وفتاة ثم يحصل الفراق بينها؛ كأنَّ يَأبَى أبوها تزويجها له، أو ترحل قبيلتها إلى مكان آخر، فما يكون من الشاعر العاشق إلا أن يقف على أطلال وبقايا هذا المكان الخالي فيبكي ويتلوّع ويذكر حبه وما أصابه فيه من لوعة الفقد وما به الأنين والوجع؛ ويُنسب السبق في هذا إلى امرئ القيس حينما بكى على الأطلال في معلّته، ولكن يقال: سبقه في ذلك شاعر آخر لم تصلنا أخباره يقال له: ابن خدام؛ وتبعه في ذلك الشعراء حتى أصبح افتتاح القصيدة بالبكاء على الأطلال تقليداً أدبياً وركناً من أركان القصيدة قروناً بعد ذلك؛ سواء أكان واقعاً أم مجرد تقليد، وكان الشعراء الجاهليون يفتتحون قصائدهم عموماً بمقدمة غزلية طليية يبكون فيها ويتلوّعون ويصفون الرحلة ويوم الفراق؛ يقول الأسود بن يعفر النهشلي يفتتح قصيدته بمقدمة غزلية!

نَامَ الْخُلِيِّ وَمَا أَحْسُ رُقَادِي وَالْهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدَيَّ وَسَادِي
 مِنْ غَيْرِ مَا سَقَمٍ وَلَكِنْ شَفَّنِي هَمٌّ أَرَاهُ قَدْ أَصَابَ فَوَادِي

١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢١٥ - ٢٢٠): منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٣٥).

وكان عبيد بن الأبرص من أفضل الشعراء تفتُّناً في الغزل والنسيب، وكان يسهب في البكاء على الأطلال مفتتحاً بها قصيدة ويطيل ويبدع فيه بعاطفة صادقة حاملة عميقة تفيض رقة وجمالاً وعدوبة؛ يقول في قصيدة غزلية رائعة:

يا دارَ هِنْدٍ عفاها كُلُّ هَظَالٍ بِالْجَوِّ مِثْلَ سَحِيقِ الْيُمْنَةِ الْبَالِي
جَرَتْ عَلَيْهَا رِيحُ الصَّيْفِ فَأَطْرَدَتْ وَالرِّيْحُ فِيهَا تُعْفِيهَا بِأَذْيَالِ
حَبَسْتُ فِيهَا صِحابِي كَيْ أُسَائِلَهَا وَالْدَمْعُ قَدْ بَلَ مِئِي جَيْبِ سِرْبَالِي
وَقَدْ عَلَا لِمَتِي شَيْبٌ فَوَدَّعَنِي مِنْهَا الْعَوَانِي وَدَاعَ الصَّارِمِ الْقَالِي
وَقَدْ أَسْلَى هُمُومِي حِينَ تَحْضُرُنِي بِجَسْرَةِ كَعَلَةِ الْقَيْنِ شِمْلَالِ
وَعَبْلَةٍ كَمَهَاةِ الْجَوِّ نَاعِمَةٍ كَأَنَّ رِيْقَتَهَا شَيَّبَتْ بِسَلْسَالِ
قَدْ بَتَّ أَلْعَبُهَا وَهَنَا وَتُلْعِبُنِي ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَهِيَ مِئِي عَلَى بَالِ

على أنه من الجدير بالذكر والملفت للانتباه أن الغزل على شيعوه لم يكن غرضاً رئيساً للقصيدة الجاهلية، ويصعب أن تجد قصيدة بعينها موضوعها الرئيس هو الغزل؛ ولكن الغزل في معظمه كان يُستعمل كمطلع أو مفتتح القصيدة، فيبدأ الشاعر بمقدمة طلبية أو غزلية، ثم ينتقل بعدها إلى غرضه الرئيس سواء أكان فخراً أم مديحاً أم غير ذلك، ولم يصبح الغزل غرضاً رئيساً إلا بعد ذلك، على نحو ما سنرى في العصر الأموي مع الشعراء الإسلاميين.

(٧) الوصف:

يعتبر الوصف من الأغراض الحاضرة في شعر الجاهليين؛ فقد وصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم من عناصر الحياة، وكانت الطبيعة الصحراوية قد فرضت عليهم إطاراً معيناً في الوصف، فوصفوا الليل وسواده وطوله ونجومه والسهل فيه، ووصفوا الصحراء وما فيها من رمال وكثبان وجذب، ووصفوا الريح والقمر والنجوم والشمس والجبال والوديان والمطر والماء والأنواء والأسلحة والدروع

^١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٥٦).

والحصون والقلاع، وقد أجاد العرب في الوصف وتعمَّقوا في ذكر تفصيلات الأشياء وذكر الأماكن، واستعملوا أساليب مختلفة في التصوير والتشبيهات البديعة والتمثيلات الجسِّيَّة، على نحو ما ترى في مُعلِّقتي امرئ القيس وطَرْفة ابن العبد وآخرين، يقول بشر بن أبي خازم واصفًا الصحراء وما فيها من ظباء، في تشبيهه بديع!

وخرقٍ تعزِفُ الجِبَّانُ فيه فَيَأْفِيهِ تَحَنُّنٌ بِهَا السَّهَامُ
دَعَرْتُ ظَبَاءَهَا مَتَغَوِّرَاتٍ إِذَا ادَّرَعَتْ لَوَامِعَهَا الْإِكَامُ

وكتيرًا ما نال السلاح حظًّا من الوصف، فنجد الشعراء الجاهليين قد وصفوا الرماح والسهام والسيوف والدروع والخيول، ويصوِّر جانبًا من هذا ما قاله الحُصَيْن بن الحمام المرِّي يذكر بعض حروبه، واصفًا ما بها من سلاح وخيل!

نُطَارِدُهُمْ نَسْتَنْقِذُ الْجُرْدَ كَالْقَنَا وَيَسْتَنْقِذُونَ السَّمْهَرِيَّ الْمُقَوِّمًا
عَشِيَّةً لَا تُغْنِي الرِّمَاحُ مَكَانَهَا وَلَا النَّبْلُ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّ الْمُصَمِّمًا
لِذُنِّ غُدُوَّةٍ حَتَّى أَتَى اللَّيْلُ مَا تَرَى مِنْ الْخَيْلِ إِلَّا خَارِجِيًّا مُسَوِّمًا
وَأَجْرَدَ كَالسَّرْحَانِ يَضْرِبُهُ النَّدَى وَمَحْبُوكَةً كَالسَّيِّدِ شِقَاءَ صِلْدَمَا
يَطَّانَ مِنَ الْقَتْلَى وَمِنْ قِصْدِ الْقَنَا خَبَارًا فَمَا يَجْزِينِ إِلَّا تَجَشُّمًا

ولعل أكثر ما نال حظًّا من الوصف لدى شعر الجاهليين كانت الناقة؛ التي افتنَّ العرب في ذكرها، فوصفوا قوائمها وسَيْرها وصوتها، وأكثروا من التشبيهات، وفي إطار وصف الناقة وصف الشعراء الجاهليون الثور والبقر والظبي والحمار الوحشي والطيور والوحوش والخيول وبلغوا في وصفهم هذا دقَّة متناهية تسترعي الانتباه، يقول بشر بن أبي خازم:

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٣٣-٣٣٧).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٦٤-٦٩)؛ شاعر جاهلي عدَّه البعض من الصحابة.

^٣ انظر: المصدر السابق (ص ٣٤٥-٣٤٨).

لَوْلَا تُسَلِّيَ الهمَّ عنكَ بِجَسْرَةٍ عَيْرَانَةٍ مِثْلِ الفَيْنِقِ المُكْدَمِ
زِيَاقَةٍ بِالرَّحْلِ صَادِقَةِ الشَّرَى خَطَّارَةٍ تَهْضُ الحَصَى بِمُتَّمِّمِ

ونستطيع القول بأن الوصف في الشعر الجاهلي أتى مصوِّراً الحياة البدوية وطباع الصحراء وما فيها من عناصر الحياة تصويرًا دقيقًا، امتاز بدقَّة الملاحظة وارتقاء الحس والاندفاق العفوي الصادق، وهو وصفٌ لا يخلو من العفوية والبدائية التي تتناسب مع حالة العرب الفطرية والبدوية، فهو خالٍ من الافتعال والتكلف والإغراق والمبالغة والتعمق؛ إذ اكتفى الجاهليون فقط بالوصف الظاهري والحسي ولم يتعدوا ذلك إلى التعمق أو التأمل الفكري البعيد المدى؛ إذ إن العرب رغم ما عرفوه من علوم في جاهليتهم؛ لم تتَّفَق لهم بعدُ أسباب النمو والتطور العقلي الذي عُرف لاحقًا؛ إذ كانت حياتهم تعتمد على الخبرة والتجربة والعفوية والحياة البدائية.

(٨) الحكمة:

عُرف عددٌ من سادات العرب ورجالهم بالحكمة، وهي حكمة ناتجة أغلب الأحيان عن خبرة وتجارب حياتية تتوافق مع حياة العرب الفطرية والعفوية، لم تزل بعيدة عن الجوانب العقلية والروحانية إلا نادرًا، وقد اشتهر في الحكمة عدد من الشعراء؛ مثل علقمة بن عبدة الفحل وزهير بن أبي سلمى والأفوه الأودي وعبيد بن الأبرص وأعدي بن زيد وعمرو بن الأهتم وعبد قيس بن خفاف؛ يقول

علقة الفحل في الحكمة؛

بَلْ كُلُّ قَوْمٍ وَإِنْ عَزَّوْا وَإِنْ كَثُرُوا عَرِيفُهُمْ بِأَثَافِي الشَّرِّ مَرَجُومٌ

^١ الفينيق: الفحل الذي لا يُركب لكرامته على أهله.. لسان العرب، ابن منظور (١٠/٣١٣): المكدم: الغليظ الشديد. لسان العرب (١٢/٥١٠): مهص: تقبض عليه. لسان العرب (٧/١٠٣).

^٢ تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري (١٣٣/١-١٣٥)

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص٢١٨).

^٤ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب (ص١٢): المفضليات، المفضل الضبي (ص٣٩٦-٤٠٤).

وَالْحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ
وَالْجُودُ نَافِيَةٌ لِلْمَالِ مُهْلِكَةٌ
وَالْمَالُ صُوفٌ قَرَارٍ يَلْعَبُونَ بِهِ
وَمُطْعَمُ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مُطْعَمُهُ
وَالْجَهْلُ ذُو عَرَضٍ لَا يُسْتَرَادُّ لَهُ
وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغُرَبَانِ يَزْجُرْهُمَا
وَكُلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَأَتْ سَلَامَتُهُ

ومن نماذج الحكمة أيضًا ما قاله عدي بن زيد العبادي:

فَأَنَّكَ لَا تَدْرِي إِذَا جَاءَ سَائِلٌ
عَسَى سَائِلٌ ذُو حَاجَةٍ إِنْ مَنَعْتَهُ
وَفِي كَثْرَةِ الْأَيْدِي لِذِي الْجَهْلِ زَاجِرٌ
أَأَنْتَ بِمَا تُعْطِيهِ أَمْ هُوَ أَسْعَدٌ
مَنْ الْيَوْمِ سُؤْلًا أَنْ يَكُونَ لَهُ غَدٌ
وَاللَّحْلُمُ أُنْبَقَى لِلرِّجَالِ وَأَعْوَدٌ

وقد ترتبط الحكمة أحيانًا بذكر الموت كما فعل عدي بن رعاء الغساني؛ حينما ذكر أن الميت ليس من يموت؛ ولكن من يرضى أن يعيش ذليلاً سيئ البال؛ يقول وهو يصف الوقائع التي جرت بين المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة والحارث الأعرج الغساني:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتٌ الْأَحْيَاءِ
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَنْ يَعِيشُ ذَلِيلًا
سَيِّئًا بِالْأُلَى قَلِيلَ الرَّجَاءِ

وفي معلقة كلٍّ من زهير بن أبي سلمى وعبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد أبيات حافلة بالحكم، وهناك أيضًا بعض الروحانيات في الشعر الجاهلي لكنها قليلة تراها لدى بعض الشعراء النصارى أو المتحرفين، وهؤلاء نبعت حكمتهم من باعث التدين والزهد، وممن رُويت لهم أشعار في التدين: أمية بن أبي الصلت

^١ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص ٨٠٨).

^٢ انظر: الأصمعيات للأصمعي، طبعة دار المعارف (ص ١٥٢).

وعدي بن زيد وقس بن ساعدة، ورؤي أن ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل كانا يتناشدان معاً أشعاراً في التوحيد والتحنف؛ يقول زهير بن أبي سلمى يذكر الحق وتقوى الله، والموت والقبر والزهد؛ في أبيات يُستدلُّ منها على إيمانه بالبعث:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي أن الله حَقُّ فزادني إلى الحق تقوى الله ما كان باديا
بدا لي أن الناس تفنى نفوسهم وأموا لهم ولا أرى الدهر فانيا
وأني متى أهبط من الأرض تلعةً أجد أثرًا قبلي جديدًا وعافيا
أراني إذا ما بتُّ؛ بتُّ على هوى وأني إذا أصبحتُ؛ أصبحتُ غاديا
إلى حفرة أهدى إليها مقبلةً يَحُثُّ إليها سائقٌ من ورائيا
كأني وقد خأفتُ تسعينَ جبةً خلعتُ بها عن منكبَي رداييا

وفي شعر عدي بن زيد العبادي ما لا يخلو من تلك النفحات الإيمانية؛ إذ ذكّر عاديًا وتمادى الموت وبوائق الدهر؛ مما يدل على اطلاعه على الكتب؛ ومن ذلك قوله:

أعاذل ما يدريك أن منيتي إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

(٩) الخمر:

كانت الخمر شرابًا شهيرًا ومعروفًا في الجاهلية، وكانوا يستجلبونها من الشام والعراق وبعض بلاد جزيرة العرب مثل الطائف، "وكان باعة الخمر ينصبون رايات ليعرف مكانهم، ويسمونها الغاية، وهناك من العرب من كان يفخر بشربها؛" ومنهم من تعدى في شربها إلى إدمانها وولع بها ولعًا شديدًا بلغ بهم حد

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٣/٨٥).

^٢ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص٥٥).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٢٠).

^٤ انظر: تاريخ آداب العرب، حنا الفاخوري (١/١٣٧) نقلا عن آخرين

الإسراف، ولهذا أسهب عدد من الشعراء في ذِكْرِها، ومن الشعراء الذين وصفوا الخمر: الأعشى وعدي بن زيد العبادي وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم؛ الذي بدأ معلقته بخمريةً بديعة، وقلّما نجد شاعرًا لم يصفها في الجاهلية، ومن روائع الخمریات في الشعر الجاهلي ما قاله الأسود بن يعفر النهشلي وقد قرن ذكر الخمر باللهو والشباب والصبابة قائلاً!

وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لَذَاذَةٌ بِسُلَافَةٍ مُزَجَّتْ بِمَاءِ غَوَادِي
مِنْ خَمْرِ ذِي نَطْفٍ أَغْنَى مُنْطَقِي وَأَفَى بِهَا لِذَرَاهِمِ الْأَسْجَادِ

وقال المرقش الأصغر يصفها!

وما قهوةٌ صهباءٌ كالمسكِ ربحها تُعَلِّي عَلَى النَّاجُودِ طَوْرًا وَتُقَدِّحُ

و لم يكتف الشعراء الجاهليون بوصف عموم الخمر فحسب؛ بل إنهم تعمّقوا في وصف خصائصها وكل ما يتعلّق بها بدقّة تسترعي الانتباه، فعدّدوا أسماءها، ووصفوا مجالسها وساقمها وشربها وصفاتها وإبريقها وأثرها ومفعولها في النفس من ذهاب العقل وأثر السكر؛ ويظهر هذا جليًّا في قول علقمة الفحل في القصيدة السابقة بعدما فرغ من الحكمة؛ وصف الخمر وكأسها وأثرها وما تفعله في النفس بدقّة متناهية:

قَدْ أَشْهَدُ الشَّرْبَ فِيهِمْ مِزْهَرٌ رَنِمْ وَالْقَوْمُ تَصْرَعُهُمْ صَهْبَاءُ خُرْطَوْمٍ
تَشْفِي الصُّدَاعَ وَلَا يُؤْذِيكَ صَالِبُهَا وَلَا يُخَالِطُهَا فِي الرَّأْسِ تَدْوِيمٌ
كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَبِيٌّ عَلَى شَرْفٍ مُفَدِّمٌ بِسَبَابِ الْكَتَّانِ مَرْتُومٌ

وكثيرًا ما كان يأتي ذكر الخمر مقترنًا بأغراض أخرى؛ كما فعل عنتره في معلقته حينما قرن الخمر بحماسته وفروسيّته في المعارك، وكما فعل المنخلّ اليشكري

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢١٥ - ٢٢٠).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٢٤٢).

^٣ الناجود: الإناء الذي تُجَعَلُ فيه الخمر. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٤١٩).

^٤ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٤٠٢).

حينما ذكر الحب والخمر معًا، وكما فعل عمرو بن كلثوم حينما قرنها مع الفخر؛ وهذا سببه أن الخمر كانت أمرًا شائعًا في الجاهلية، وتُمثّل جزءًا من حياتهم وطبائعهم الاعتيادية، فترى الشاعر يذكر ليالي أنسِه وسروره وشرابه ثم ينتقل إلى غرض آخر يتحدث فيه؛ سواء أكان فخرًا أم غزلًا أم مديحًا؛ ويُعتَبَر الأَعشى أبرز من اشتهر في الجاهلية بوصف الخمر وذكرها، وقد عُرِفَ بولوعه بها، وإسرافه في شربها، وله في وصفها قصائد شتى أطنب فيها وأجاد، وقد حرّمها الإسلام لاحقًا؛ لما تجرّه على صاحبها من مفسد؛ في مقدمتها إذهاب العقل.

(١٠) الاعتذار:

ومؤسّس هذا الفن هو النابغة الذبياني؛ بسبب ما حدث بينه وبين النعمان ابن المنذر ملك الحيرة، وكان من شعرائه ومادحيه، ثم ما لبث أن غضب عليه النعمان وأهدر دمه؛ لخلافٍ بينهما، إلا أن النابغة لم يُطَقْ فراق صديقه وملكه القديم، فعاد إليه واعتذر له في قصيدة مدحه فيها، سنأتي على ذكرها مع ترجمته؛ والاعتذار لا يخلو من كونه نشأ نشوءًا من المديح وظلاله، وتداخلت فيه عواطف الخوف والشكر والرجاء!

وهذه الأغراض هي عموم الموضوعات التي دار حولها الشعر الجاهلي قبل الإسلام.

الخصائص الفنية للشعر الجاهلي:

للشعر الجاهلي خصائص فنية وصفات معيّنة؛ سواء من ناحية المعاني والأفكار أو من حيث الألفاظ والتراكيب أو حتى على صعيد الخيال، ونستطيع أن نوجز خصائص الشعر الجاهلي الفنيّة فيما يلي:

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٢٧٢).

(١) الألفاظ والتراكيب:

- تمتاز ألفاظ الشعر بالجزالة والفخامة والقوة، يتخللها كثيرًا العديد من الألفاظ الغريبة التي لا تخلو من الصعوبة، وهذا ليس بسبب تعمُّد الإغراب أو التعقيد؛ بل بسبب الطبيعة الصحراوية القاسية التي فرضت هذا اللون من الخشونة التي امتاز بها أغلب الشعر الجاهلي، وأثَّما جاءت خشونتها كونها غير شائعة في عصورنا الحديثة؛ لكنها كانت بالنسبة لعرب الجاهلية معروفة ومألوفة؛ ويُستثنى من غرابة اللفظ وخشونة الشعر الجاهلي عددٌ من الشعراء الذين خالطوا البلاط وعرفوا القصور؛ مثل النابغة الذبياني والأعشى وعدي بن زيد؛ فهؤلاء جاءت ألفاظهم أرقَّ وأسلس وأعذب.
- وتمتاز الألفاظ بالفصاحة وسلامة اللغة؛ فهي خالية من الأخطاء والعجمة؛ بسبب الانعزال عن سائر الأمم، ولذلك يُعتبر الشعر الجاهلي مرجعًا لكتب اللغة والمعاجم، باستثناء عددٍ قليل من الشعراء الذين خالطوا العجم فدخلت ألفاظهم العجمة، فلا يُعتدُّ بشعرهم عند أهل اللغة.
- جاءت التراكيب في منتهى القوة والبلاغة والمتانة، فلا تجد تصنعًا أو تكلفًا أو حشوًا زائدًا، وهي خالية من التكلفِ الزخرفي والمحسنات البديعية، إلا ما جاء عفواً جاريًا مع الطبع دون افتعال أو إغراب، وجاءت صيغتها صيغة موسيقية عن طريق العناية بنغم القصيدة واتحاد القوافي وحركاتها والبراعة في تجزئة الأوزان حتى يودع الشعراء الجاهليون شعرهم ما يُمكن من عذوبة وحلاوة!
- رغم العفوية المتدفقة السلسة التي امتاز بها العديد من الشعراء الجاهليين فإنَّ قصائد نفرٍ منهم لا تخلو من العناية والتدبيج والتنقيح؛ ويظهر هذا جليًا في أشعار الأعشى والنابغة الذبياني وعلقمة الفحل؛ بل إنَّ زهير بن أبي

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٧٩).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٢٢٧).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٧٩).

سلي كان يعمل على تنقيح قصائده قبل عرضها، ويأخذ فيها أحياناً حولاً كاملاً، فسُيِّ هذا النوع من قصائده بالحواليّات؛ ومن بينها معلّته.

- نلاحظ عادة في الشعر الجاهلي الميل إلى الأوزان والبحور ذات النَّفس الطويل؛ مثل بحر الطويل الذي نُظِمَ عليه أغلب شعرهم، وكذلك بحور البسيط والكمال؛ فكانت هذه البحور -لِطُولها- تتَّسع صدرًا للتَّعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وهو ما يتوافق مع طبيعتهم الصحراوية، بينما نجدهم أقلَّ استعمالاً للأوزان القصيرة والمجزوءة التي لا تتَّسع لمثل هذا.

(٢) المعاني:

- جاءت معانيهم مستقاة من الطبيعة البدوية معبّرة عنها، خاليةً من الإغراب والتعقيد والتكلّف الممقوت المفتعل، وهي معاني تبدو بسيطة إذا ما تم فهم ما فيها من ألفاظ غريبة، ورغم جزالة اللفظ فإنها تمتاز بالبساطة والوضوح والخلوّ من المبالغة، والتعمق المهم، وهي كلها معاني حسّية واضحة ومحسوسة!

- كثر الاستطراد في الشعر الجاهلي؛ فترى الشاعر الجاهلي يتحدث في موضوع أو يفتح قصيدته بمقدمة غزلية ثم ينتقل إلى موضوع آخر ثم إلى موضوع ثالث، ثم ربما يعود إلى الأول؛ لهذا يصعب أن نجد قصيدة جاهلية ذات موضوع موحد، ولا سيّما إن كانت مطولة، ولهذا فإننا نرى أن القصيدة الجاهلية مبنية على وحدة البيت لا القصيدة، فإذا نُزع منها بيتٌ فلن تتأثر بنية القصيدة المعنوية؛ وهذا سببه أنّ الشاعر الجاهلي كان يعيش حياة فطرية عفوية بدائية بعيدة عن التعمق العقلي والفكري.

- تمتاز معانيهم بالواقعية والدقة التعبيرية والعناية بالتفاصيل؛ ويبدو هذا واضحاً ولا سيّما في شعر الوصف حينما وصفوا الناقة والفرس والخمر

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٢١٩).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/١٤٩-١٥٢).

ومظاهر الصحراء والنجوم والكواكب، وتمتاز كذلك معانيمهم بصدق العاطفة، وكثير في شعرهم ذكر أسماء الأماكن والمواضع.

(٣) الخيال:

الخيال في الشعر الجاهلي مستمدٌ في أكثره من الطبيعة البدوية والصحراوية وهو خيال حسي من الدرجة الأولى، يمتاز بدقّة الملاحظة والخلو من التكلّف، وهو لا يخلو من الطابع البدائي والعفوي، ومع هذا فقد كان واسعاً خصباً مليئاً بالتشبيهات البديعة والاستعارات الدقيقة والصور البيانية الرائعة، وإن غلب عليه تراكم الألفاظ والتشبيهات وطابع التقليد أكثر من الابتكار والخلق التصويري والتأمل العميق؛ وهو ما يتوافق -كما ذكرنا- مع طبيعتهم العفوية والبدائية التي لم تكن تتوافر فيها عوامل التأمل والتعمق الفكري.

وما يقال في النهج العام للقصيدة الجاهلية: إنها عامة تفتتح بمقدمة غزلية يذكر الشاعر فيها حبيبته ويتغزل بها ويبكي على الأطلال شاكياً فراقها، ثم ينتقل بعدها إلى وصف الأماكن والطرق، وهذا كثير جداً في الشعر الجاهلي؛ أن يذكر الشاعر أسماء المواضع التي مرّ بها، ثم يدخل في غرضه الرئيس سواء أكان فخراً أم مدحاً أم غزلاً أم هجاءً أم وصفاً، وربما يستطرد فيصف الناقة أو الراحلة أو الفرس ثم يعود إلى غرضه الرئيس، مما يوضح لنا أن القصيدة الجاهلية -ولا سيّما المطولة- تجمع بين عدة موضوعات وأغراض مختلفة ولا تتصف بوحدة الموضوع.

طبقات الشعراء الجاهليين:

كثّر الشعراء الجاهليون في العصر الجاهلي كثرة عظيمة، وهم أعظم من أن يعدّهم أحدٌ أو يحيط بهم محيط؛ وهذا سببه أن الشعر وقتها كان يجري على ألسنة العرب ويمضي مع طباعهم، وثمة فارق بين من كان يقول الشعر فقط في حاجته وبين من أطلال في قصائده فأحسن وأجاد، وأمّا وصلنا من الأدب الجاهلي

^١ انظر: المصدر السابق (١٥١/١-١٥٢).

فهو قليل، وهناك إجماعٌ أن من جُهل منهم أكثر ممَّن عُرِف ولم يشتهر من شعراء الجاهلية، إلا من كانت له مواقف خلّدتها له التواريخ والأخبار، أو من كان سيِّداً مطاعاً أو شريفاً في قومه، أو من تقرَّب من الملوك فمدحهم وكانت له أخباره معهم، وقد قسَّم أهل الأدب شعراء الجاهلية إلى طبقات مختلفة؛ فمنهم من بنى تقيمه وفق الإجابة فوضع امرأ القيس وزُهيراً والنابغة الذبياني في الطبقة الأولى، والأعشى وليبداً وطرفة في الطبقة الثانية، وعنتره ودريد ابن الصمة و أمية بن أبي الصلت وعروة بن الورد والنمر بن تُولب والمُرْقَش الأكبر في الطبقة الثالثة؛ ومنهم من جعل امرأ القيس في الطبقة الأولى وجعل في الطبقة الثانية هؤلاء الفحول، بينما جاء في كتاب "طبقات الشعراء لابن سلام" تقسيم الشعراء الجاهلين إلى عشرة مراتب؛ فجعل في المرتبة الأولى: امرأ القيس وزُهيراً والنابغة الذبياني والأعشى؛ ونحن لن نقف كثيراً عند تلك الطبقات؛ لما فيها من عدم الدقة، واختلاف الذائقة ومعايير النقد من شخص إلى آخر؛ فأبو بكر - رضي الله عنه - قدَّم النابغة، وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قدَّم زهير بن أبي سلمى، وكان عليُّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - يميل إلى امرئ القيس، والحقُّ أنَّ كلَّ شاعر له خاصيته التي امتاز بها عن غيره؛ فنجد امرأ القيس كان متفوقاً على أقرانه في حسن السبك وابتكار الصور والتشبيهات واستنباط المعاني، ونجد زهيراً متفوقاً في الحكمة، ونجد عنتره أفضلهم في أشعار الفروسية والحماسة، ونجد الأعشى أفضلهم في المديح ووصف الخمر، مع رونق الأسلوب وعدوبة اللفظ، حتى سُمِّيَ بصنَّاجة العرب، بينما كان النابغة الذبياني أفضل الشعراء تديباً وتنقيحاً لشعره، وكانت الخدساء لا تُضاهي في فن المراثي.

^١ انظر: جواهر الأدب، أحمد الهاشمي (٢/ ٢٩).

^٢ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمعي (١/ ٥١-٥٢)، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة: دار المدني، جدة.

ومنهم من قسم الشعراء حسب الإقلال أو الإكثار، ومنهم من قسّمهم وفق العامل الزمني إلى طبقات أربع: جاهليين، ومخضرمين، وإسلاميين، ومولّدين؛ ومنهم من قسّمهم وفق العامل الجغرافي وطبيعة الشعر إلى عدة أقسام؛ وهم: شعراء الانفرادية البدوية (الصعاليك والذؤبان) وشعراء الحياة والمناقب القبليّة (شعراء البدو والقبائل) وشعراء البلاط وشعراء المذاهب الدينية؛ ونحن في كتابنا سنصنّف شعراء الجاهلية وفق أحوالهم وظروفهم وطبيعة شعرهم، وهم الشعراء الفرسان وشعراء الطبيعة البدوية وشعراء البلاط الشعراء الصعاليك والشعراء العشاق وشعراء الكرم والحكمة وشعراء القرى وشعراء المذاهب الدينية، ولكننا سنستخلص منهم شعراء المعلّقات العشرة باعتبارهم أعظم شعراء الجاهلية شهرةً، وأكثرهم ذكرًا.

المعلّقات:

المعلّقات هي مجموعة من أجود قصائد الشعر الجاهلي وأروع مطوّلاته وأشهرها، ويُطلق عليها أيضًا اسم "السُّموط" وتعني الطوال، وقد اختلف في عددها وتسميتها وكيفية انتقائها من بين قصائد الشعر الجاهلي، وقيل: إن سبب تسميتها هو أنها كُتبت بماء الذهب على الحرير أو الكتان وعُلّقت على أستار الكعبة أو على أركانها وأن معلّقة امرئ القيس أول شعرٍ يُعلّق على ركن الكعبة وفق رواية ابن الكلبي^١، وهو رأيٌ مشهور انتشر بين الكثير من المؤرخين القدماء والمتأخرين، وقد عضّد هذا الرأي ما انتهى إلينا من أخبار بعض الوثائق والصحف التي علّقت على أستار الكعبة؛ مثل صحيفة حصار الشّعب التي تعهّد فيها سادة قريش بمقاطعة بني هاشم لمناصرتهم رسول الله ﷺ، وتعليق

^١ المخضرمون هم الذين عاشوا شطراً من الجاهلية، وأدركوا الإسلام فأسلموا؛ والإسلاميون هم الذين نشؤوا على الإسلام ولم يدركوا الجاهلية، والشعراء المولدون من فسدت فيهم ملكة اللسان العربي الفصيح فعالجوها بالصناعة؛ وهم شعراء العصر العباسي وما تلاه.

^٢ انظر: تاريخ آداب العرب، حنا الفاخوري (١٥٤/١-١٥٧).

^٣ أنظر تاريخ آداب العرب لمطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠/٣).

الخليفة العباسي هارون الرشيد عهد الخلافة من بعده لولديه الأمين والمأمون؛ مما يشير إلى أن تعليق الصحف على أستار الكعبة كان أمراً مألوفاً عند العرب، ويجعل تعليق تلك القصائد على أستار الكعبة أمراً ممكناً وليس مستبعداً، بينما نفى آخرون ومن بينهم كثير من المحدثين تلك الرواية وأنكروا تداولها دون سند تاريخي موثق أو دليل قائم وذهب مذهبهم الرافعي وشوقي ضيف وآخرون، وأرجعوا تسميتها بالمعلقات إلى شهرتها وعلوقها في أذهان الناس حتى حفظوها وانتشرت بينهم، ويرجح هذا الرأي على سابقه أن رواية تعليق تلك القصائد على أستار الكعبة لم ترد لا في السيرة النبوية ولا في الأخبار المتقدمة، ولم يرد لها ذكر إبان فتح مكة وتطهير الكعبة من الأوثان، فضلاً عن أن صاحب تلك الرواية هو حماد الراوية المطعون في روايته، ويرونها لا تخرج عن كونها مجرد قصائد مختارة من عيون الشعر الجاهلي، ويقولون: إنها سُميت بالمعلقات لنفاستها، وأخذ اسمها اشتقاقاً من العلق؛ أي: النفيس! ويزيد من رجحان هذا الرأي اختلاف الرواة حول عدد المعلقات وذكر بعض قصائدها ولو كانت مكتوبة ومعلقة على أستار الكعبة لما وقع فيها مثل هذا الخلاف.

وكما اختلف المؤرخون في سبب تسميتها؛ فقد اختلفوا كذلك في عددها؛ فرؤي أنها سبع؛ على رواية حماد الراوية؛ وهي: قصائد امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى وطرفة من العبد ولييد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنزة بن شداد، وقيل: بل ثمانية؛ على رواية أبي زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب؛ فذكر الأسماء السابقة لكنه أسقط منها قصيدة الحارث بن حلزة وأضاف النابغة والأعشى، بينما أضاف إليهم أبو زكريا التبريزي قصيدة عبيد ابن الأبرص؛ وهذا يصير إجمالي ما سُمي بالمعلقات عشر قصائد؛ على أقصى

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ١٧٦)، وانظر كذلك تاريخ آداب العرب للرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، باب: السبع الطوال (٣/١٣٩-١٤٤).

^٢ انظر: المصدر السابق.

^٣ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ١١٣).

^٤ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/١١٧).

تقدير؛ وهي قصائد: امرئ القيس وطرفة وزهير ولييد وعمرو بن كلثوم وعنزة
ابن شداد والحارث بن حلزة، بالإضافة إلى قصائد الأعشى والنابغة وعبيد ابن
الأبرص في بعض الروايات؛ ومطلع تلك القصائد كما يلي:

(١) امرؤ القيس:

قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(٢) طرفة بن العبد:

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالَ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدِ تَلَوُّحِ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

(٣) زهير بن أبي سلمى:

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَنَلِّمِ

(٤) عنزة بن شداد:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ

(٥) عمرو بن كلثوم:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي حُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

(٦) لبيد بن ربيعة:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَمُقَامُهَا بِمَنْى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

(٧) الحارث بن حلزة

أَدْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ ثَاوٍ يَمَلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ

(٨) الأعشى

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرِّجْلُ

^١ متردّم: مستصلح، يُلصق بعضه ببعض. تنظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/٢٣٦).

(٩) عبید بن الأبرص

أَقْفَرٌ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقَطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

(١٠) النابغة الذبياني

يا دارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنْدُ أَقْوَتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَبْدِ

رواية الشعر الجاهلي ومصادره:

اعتمد العرب في عصورهم الأولى على الرواية اعتمادًا رئيسًا في نقل الأخبار والقصص والأشعار؛ حيث إنهم لم يعرفوا التدوين إلا في أواخر العصر الأموي، ثم بشكل منتظم مع بداية العصر العباسي، ولم يُعرف أن العرب كتبوا أشعارهم في الجاهلية؛ إلا ما رُوِيَ عن أمر المعلّقات، وعليه فقد اعتمد العرب منذ جاهليتهم على الرواية فيما وصلنا من أشعار في العصر الجاهلي وأشعار القرن الذي يليه بعد الإسلام، وقد كان لكل شاعر جاهلي رواية له يروي شعره، بل ربما كان الشاعر نفسه رواية عن غيره؛ فهذا امرؤ القيس كان رواية لأبي دؤاد الإيادي؛ وهذا زهير بن أبي سلمى كان رواية لزوج أمه أوس بن حجر وطفيل الغنوي، وأخذ كذلك عن خاله -أو خال أبيه- بشامة بن الغدير؛ وكان كعب ابن زهير رواية عن أبيه، وكان الحطيئة رواية لكعب بن زهير ولأبيه كذلك، بينما كان هُدبة بن خشرم رواية للحطيئة، وكان الأعشى رواية لخاله المسيّب بن علس، وكان يوسف بن مئى رواية للأعشى، وكان طرفة بن العبد رواية لخاله المتلمس ولعمه المرقش الأصغر، بينما كان المرقش الأصغر رواية لعمّه المرقش الأكبر.^١

^١ انظر: جواهر الأدب، أحمد الهاشمي (٢/ ١٠٠).

^٢ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٣/ ١٥٦).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ١٤٣).

واشتهر في قريش رواة للأشعار؛ من بينهم: مخزومة بن نوفل وأبو جهيم ابن حذيفة وحويطب بن عبد العزى وعقيل بن أبي طالب، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أدرى صحابة النبي ﷺ برواية الشعر.^١

وظل الشعر ينتقل بالرواية والمشافهة حتى مع ظهور الإسلام، وظهر في العصر الأموي عدد من الرواة المحترفين ممن اختصوا برواية الشعر الجاهلي ونقله، وأشهرهم حماد الراوية الذي اشتهر بمهارته وسعة علمه بالشعر الجاهلي حتى كان الخلفاء الأمويون يستقدمونه ويؤثرونه لتقدمه وتفوقه، وهو أول من أخذت عنه المعلقات، وكان كثيرٌ يفدون إليه ليسأله عن نسبة الشعر إذا أرادوا معرفته، وسار على نهجه بعض تلامذته: خلف الأحمر وابن كناسة، ومن أبرز الرواه الذين اختصوا بالشعر الجاهلي أبو عمرو بن العلاء وأبو زيد القرشي والمفضل الضبي وأبو عبيدة الراوي وأبو زيد الأنصاري والأصمعي ومحمد ابن سلام الجمعي وأبو محلم الشيباني وأبو سعيد بن الحسين السكري وابن قتيبة وأبو بكر بن دريد وأبو بكر الأنباري.^٢

وقد أدى اعتماد العرب أول أمرهم على الرواية والمشافهة؛ إلى الكثير من الاختلافات في الشعر الجاهلي؛ حيث نرى البيت الواحد يُروى بألفاظ مختلفة، ونرى بعض القصائد ذات يختلف ترتيب أبياتها من رواية إلى أخرى، وربما غير الشاعر رأيه فعدل عن لفظ أو بيت بعدما سُمع وأخذ منه، وقد أدى هذا إلى بعض الخلل في رواية الشعر الجاهلي ودقته، ولكن هذا كان أقل الضرر؛ فقد أدى الاعتماد فقط على الرواية إلى ضياع قسم كبير من الشعر والأدب الجاهلي؛ إذ إنه مع مقدم الإسلام انشغل العرب عن الشعر بالدعوة وبالقرآن والحديث النبوي وبنشر الإسلام وبالجهاد والحروب ووقائع الردة ثم بالفتوحات، فأهملوا رواية الشعر حينئذ، وهلك عدد كبير من الرواة في هذه الحروب والفتوحات،

^١ انظر: جواهر الأدب، أحمد الهاشي (٢/ ١٠٠).

^٢ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (١/ ٢٥٦).

^٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٠٠).

فضاع بموتهم جزء كبير من ذلك التراث، ولم يتفرغ للشعر رواة محترفون إلا مع العصر الأموي، وقد وصف أبو عمر بن العلاء ضياع قسم كبير من الأدب الجاهلي قائلاً: "ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير"، ويدل على صحة قوله أن الجاهلية عرفت عددًا من الشعراء الفحول ولكن لم يصلنا من أدهم إلا قصائد معدودة لا تتناسب مع ذكركم وقدرهم؛ كعمرو بن كلثوم وعلقمة بن عبدة الفحل.

وليت الأمر توقّف عند هذا الحدّ؛ بل إن بعض الرواة المحترفين لم يكونوا ذوي أمانة؛ فاشتهر بعضهم بالكذب والانتحال في روايته، ونسبوا إلى شعراء الجاهلية أبياتًا منحولة لم تصحّ عنهم، فكثرت الانتحال والوضع في الشعر الجاهلي وكثرت القصائد الموضوعية، ومن أشهر من عُرف بعدم أمانته حماد الراوية؛ الذي رغم سعة علمه بكلام العرب ومهارته في الحفظ فإنه كان مُتهمًا، كثير الوضع، ونحلّ على شعراء الجاهلية قصائد لم يقولوها، وكان ماهرًا حدقًا، يقوم بنظم القصيدة على نفس أسلوب الشاعر القديم، فيتعدّد معرفة الصحيح من شعره مما أضيف ونحلّ عليه مما ليس منه، وقد انكشف أمره غير مرة وهو يروي على ألسنة الجاهليين ما لم يقولوه، وكان عددًا من معاصريه ومن الرواة الثقات أمثال الأصمعي والمفضل الضبي يرفضون رواياته ويتصدون لكذبه، لهذا لا يُعتد بروايته ولا برواية تلامذته من أمثال خلف وابن كنانة وبعض معاصريه الذين ساروا على نهجه في الانتحال والتدليس.

لذا ينبغي الحذر وأخذ الحيطة عند رواية الشعر الجاهلي ونسبته إلى قائله، وعدم الأخذ منه إلا ما ثبتت صحّته عن الرواة الثقات الذين عُرفوا بالدقة والأمانة؛ كالمفضل الضبي والأصمعي وابن سلام الجمعي وأبي عمرو بن العلاء وأبي زيد القرشي ومن تلاهم في العصور التالية ممّن عُرفوا بالصدق والثقة، فلا شك في أمانتهم وصحة روايتهم، وينبغي أيضًا التنبيه على عدم صحّة الأشعار التي قيلت على ألسنة العرب البائدة وعلى ألسنة الجن والشياطين؛ التي ربما انتُجحت من أجل المتعة والتسلية، وينبغي كذلك عدم التعويل والاطمئنان إلى

الأشعار التي أتت بها بعض كتب التواريخ والسيرة النبوية؛ مثل سيرة محمد ابن إسحاق؛ ففيها الكثير من المنحول بسبب عدم تدقيق هؤلاء فيما انتهى إليهم من شعر.

وقد دفعت قضية الانتحال في الشعر الجاهلي بعض الأدباء إلى ردّ الشعر الجاهلي جملة والطنع فيه؛ كما فعل الدكتور طه حسين حينما شكّ في جميع الشعر الجاهلي قائلًا: إنه قيل بعد الإسلام؛ وقد ردّ عليه عدد من الأدباء المحافظين، ذاكرين أن الشعر الجاهلي رغم الاعتراف بوجود الكثير من المنحول مما أضيف إليه ويصعب تمييزه؛ فإنه على الجهة الأخرى قد خضع للعرض والنقد الدقيق، وهناك الكثير من الشعر الجاهلي مما ثبتت صحّته عن رواة ثقة لا شكّ في صدقهم وأمانتهم!

ومن أبرز مصادر الشعر الجاهلي الموثوقة:

(١) المعلقات: وقد أخذت من رواية حماد الراوية وغيره، وقد سُرحت ونُقّحت من أدباء ومؤلفين عديدين، ورغم عدم ثقتنا في حماد فإن هذه المعلقات كان لها من الشهرة ما ينزّهاها عن الانتحال.

(٢) المفضّليات: وهو مجموع ما رواه المفضّل الضبيّ، ويشمل مئة وثلاثين قصيدة لثلاثة وخمسين شاعرًا أغلبهم من الجاهليين، بالإضافة إلى بعض المخضرمين والإسلاميين.

(٣) الأصمعيات: وهو ما جمعه عبد الملك الأصبغي، ويشمل اثنتين وسبعين قصيدة لشعراء من الجاهليين والإسلاميين، وهي مثل المفضّليات في الصحة ودقة الرواية، وإن كانت المفضّليات أغزر مادة؛ لما تحويه من غريب اللفظ؛ الذي كان يميل إليه أهل اللغة.

وقد جُمعت المفضّليات والأصمعيات في كتاب واحد اسمه كتاب "الاختيارين" للأخفش الصغير.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ١٧٠).

(٤) جمهرة أشعار العرب: وهو ما جمعه أبو زيد القرشي؛ وهو عبارة عن تسع وأربعين قصيدة لتسع وأربعين شاعرًا من الجاهلين والإسلاميين، قسّمها إلى عدة أبواب؛ هي: المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذاهبات والمراثي والمشوبات والملحمت.

(٥) منتهى الطلب في أشعار العرب: ومؤلفه محمد بن المبارك بن ميمون، وقد جمع كل ما انتهى من أشعار العرب من المفضليات والأصمعيات وسواهما، ويوصف أنه أكبر مستدرك على دواوين الشعر القديمة، ضم فيه ما يزيد عن ألف قصيدة، وقد ضاعت بعض أجزاء هذا الكتاب، ووصلنا بعضه الآخر، ولو وصل كاملاً لربما أغنى عمّا سبقه من المفضليات والأصمعيات.

(٦) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي: وفيه أورد ذكر الشعراء الجاهليين والإسلاميين مقسّمين إلى عشر طبقات، مضيئًا إليهم أصحاب المراثي وشعراء القرى العربية.

(٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة: وقد ورد فيه ذكر أخبار مشاهير من الشعراء الجاهليين والإسلاميين، مع كمّ من أخبارهم وأشعارهم.

وهناك أيضًا عدة مختارات ضُمّنت مقطوعات صغيرة؛ أشهرها ديوان الحماسة لأبي تمام، وقد ذاعت شهرته؛ نظرًا إلى أن معاصريه كانوا يميلون أكثر إلى المقطوعات الصغيرة، وقد قسّم مختاراته إلى عدة أبواب وفق أغراض الشعر، وله عدة شروحات، وكذلك حماسة البحري، ومختارات ابن الشجري، وديوان الحماسة البصرية لصدر الدين البصري، ولم تخلُ المجموعة الأخيرة من بعض الخطأ في نسبة قصائدها، ولكن تمّ تنقيحها وتصحيحها وضبط ما فيها، في نسخة مكتبة الخانجي بالقاهرة، بالإضافة إلى ما رواه السكري من أشعار في "ديوان هُذيل"، وبجانب المختارات ودواوين الحماسة نجد الدواوين الستة المفردة لامرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنتره وعلقمة الفحل برواية الأعلام الشنتمري، وقد جُمعت في كتاب واحد، بينما ينبغي أخذ الحذر فيما خرج



فمها عن روايته؛ بالإضافة إلى كتب أدبية جامعة عملاقة شملت موضوعات شعرية ونثرية وأمثالاً وأخباراً شتى؛ مثل كتاب "الأمالي" لأبي عالي القالي، وكتاب "خزانة الأدب ولب لباب العرب" لعبد القادر البغدادي، مع التنبيه أحياناً على عدم دقة بعض ما رُوِيَ في تلك الموسوعات والكتب العملاقة من أخبار. وهذا هو خلاصة الشعر الجاهلي بخصائصه وسماته وأغراضه وروايته وتاريخه ونشأته وأبرز مصادره.

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٢٤٣).

شعراء المُعلقات

١- امرؤ القيس

ترجمته:

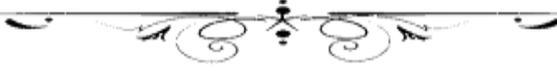
هو حامل لواء الشعر، ورأس الشعراء الجاهليين، والمعروف بالملك الضليل وذي القروح، وهو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث بن عمرو بن حجر الكندي المعروف بأكل المرار، من كهلان بن سبأ من قحطان، واسمه الحقيقي "جندح"، وغلب عليه لقب امرئ القيس، كان أبوه ملكًا على بني أسد وغطفان وله عليهم جزية معلومة، وكان امرؤ القيس أصغر أولاده، وقد وُلد -على الأرجح- مع مطلع القرن السادس الميلادي، وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومُهلهل، وقد نشأ امرؤ القيس أول حياته وترعرع في قصر أبيه، وكان ذكيًا مترفًا طلق اللسان، وقد برع في الشعر وبرز فيه وهو في عنفوان شبابه، إلا أنه انغمس في الترف واللهو والمجون والغزل والشعر الإباحي، وهو ما لا يتوافق مع الملوك، فطرده أبوه من بيته، فذهب امرؤ القيس يتقلّب ويسير بين أحياء العرب وصعاليكهم وأخلاطهم، إذا لقي روضة أو غديرًا؛ أقام فيه حينًا يذبح لهم ويشرب الخمر ويخرج إلى الصيد ويميل إلى القيان، ثم ينتقل إلى موضع آخر.. وهكذا، وظلّ على تصعلكه مدة من الزمن، وفي ذلك الوقت كان بنو أسد قد ثقلت عليهم الجزية التي يدفعونها لأبيه حجر، فثاروا عليه وضربوا رُسله وامتنعوا عن الدفع، فغزاهم حجر بجنده واستباح ديارهم وأذلّهم، ونهب أموالهم وطردهم من ديارهم، وأسر عددًا منهم؛ من بينهم الشاعر عبيد بن الأبرص؛ الذي أخذ يستعطفه ويطلب منه العفو قائلاً!

يا عينِ فإبكي ما بني
أسدٍ هم أهلُ الندامة

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١٠٧/١).

أهل القبابِ الخمرِ والنِّم (م) سَعَمُ الْمُؤَبَّلِ وَالْمُدَامَةِ
مهلاً أبيت اللعن مهـ سَلَا إِنَّ فِيمَا قُلْتِ آمَةٌ
في كُؤِ وادِ بَيْنَ يَثْرِبِ وَالْقُصُورِ إِلَى النِّيمَامَةِ
تَطْرِبُ عَانٍ أَوْ صِيَا حُ مَحْرَقٍ وَرُقَاءِ هَامَةِ
أَنْتِ الْمَلِيكُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى الْقِيَامَةِ

فَرَّقَ لَهُمْ حَجْرٌ وَعَفَا عَنْهُمْ وَرَدَّهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، لَكِنِّهِمْ أَخَذُوا يَتَحَيَّنُونَ الْفُرْصَةَ لِلنَّيْلِ مِنْهُ، وَبِالْفِعْلِ تَمَكَّنَ أَحَدُهُمْ -وَيُقَالُ لَهُ عِلْبَاءُ بِنِ الْحَارِثِ الْكَاهِلِيِّ- مِنْ طَعْنِهِ طَعْنَةً أَدَّتْ إِلَى مَقْتَلِهِ، فَلَمَّا أَحْسَ حَجْرٌ بِمَوْتِهِ؛ كَتَبَ وَصِيَّتَهُ وَدَفَعَهَا إِلَى أَحَدِ أَتْبَاعِهِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَمَرَّ بِهَا عَلَى بَنِيهِ وَاحِدًا تَلُو الْآخَرَ، فَأَتَيْهِمْ لَمْ يَجْزِعْ؛ يُسَلِّمُ وَصِيَّتَهُ مَعَ سِلَاحِهِ وَخَيْلِهِ وَأَمْوَالِهِ، فَكَلَبَهُمْ جَزَعٌ إِلَّا أَمْرًا الْقَيْسِ، وَكَانَ آخِرَهُمْ، وَيُقَالُ: إِنَّ الرَّسُولَ أَتَاهُ وَهُوَ بَدْمُونٌ مِنْ أَرْضِ الْيَمَنِ مَعَ نَدِيمٍ لَهُ يَلَاعِبُهُ النَّزْدُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ، فَلَمْ يَتَلَفَّتْ إِلَيْهِ أَمْرُ الْقَيْسِ حَتَّى فَرَّغَ مِنْ لِهْوِهِ وَشْرَابِهِ، وَلَمَّا عَلِمَ بِمَقْتَلِ أَبِيهِ؛ قَالَ كَلِمَتَهُ الشَّهِيرَةَ: "ضِيَّعَنِي صَغِيرًا، وَحَمَلَنِي دَمَهُ كَبِيرًا، لَا صَحْوَ الْيَوْمِ وَلَا سُكْرَ غَدًا؛ الْيَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا أَمْرٌ"، ثُمَّ آلَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَشْرَبَ خَمْرًا وَلَا يَأْكُلَ لَحْمًا وَلَا يَدَّهِنَ بِدُهْنٍ وَلَا يَغْسِلَ رَأْسَهُ، حَتَّى يَقْتُلَ مِنْهُمْ مِئَةَ وَيَجْزَّ نَوَاصِي مِئَةَ آخِرِينَ، فَكَانَ هَذَا فَاصِلًا بَيْنَ اللَّهْوِ وَالْجَدِّ فِي حَيَاةِ الشَّاعِرِ؛ إِذْ هَبَّ مِنَ الْيَوْمِ الثَّانِي مَطَالِبًا بِنَارِ أَبِيهِ، فَلَمَّا عَلِمَ بِنُؤُودِ بَنِي أَسَدٍ عَزَمَهُ؛ خَافُوا أَمْرَهُ وَحَاطَلُوا مَصَالِحَتَهُ وَعَرَضُوا عَلَيْهِ الدِّيَّةَ، فَأَبَى، وَذَهَبَ إِلَى دِيَارِ بَكْرِ وَتَغَلَّبَ وَعَلَيْهِمَا عَمَّاهُ شَرْحِبِيلُ وَسَلْمَةُ، فَنَاصَرُوهُ، فَفَرَّ بَنُو أَسَدٍ إِلَى دِيَارِ بَنِي كِنَانَةَ، ثُمَّ أَدْرَكُوا أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لِكِنَانَةَ بِحَشُودِ أَمْرِ الْقَيْسِ، فَغَادَرُوا الدِّيَارَ سَرًّا، ثُمَّ أَقْبَلَ أَمْرُ الْقَيْسِ عَلَى دِيَارِ كِنَانَةَ فَغَزَاهُمْ وَأَعْمَلَ فِيهِمُ السِّيفَ وَأَثَخَنَ فِيهِمْ؛ ظَنًّا أَنَّهُمْ بَنُو أَسَدٍ، فَلَمَّا أَدْرَكَ ذَلِكَ؛ كَفَّ عَنْهُمْ وَلَجِقَ بِبَنِي أَسَدٍ فَلَقِيَهُمْ فِي مَوْضِعٍ قَرِيبٍ، فَأَوْقَعَ بِهِمْ وَأَثَخَنَ فِيهِمْ وَقَتَلَ وَأَصَابَ مِنْهُمْ عَدَدًا، حَتَّى حَجَزَ اللَّيْلَ، فَأَمَعَنُوا فِي الْفِرَارِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَمْرُ الْقَيْسِ؛ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ أَثْرًا، وَعَزَمَ عَلَى مَوَاصِلَةِ الثَّأْرِ، فَخَالَفْتَهُ بَكْرٌ وَتَغَلَّبَ وَرَفَضُوا إِكْمَالَ نُصْرَتِهِ، قَائِلِينَ لَهُ: قَدْ أَصَبْتَ ثَأْرَكَ، وَمَا نَحْنُ بِتَابِعِينَ لَكَ الْيَوْمَ؛ فَقَالَ:



والله ما فعلتُ، ولا أصبتُ من بني كاهل أحدًا؛ فأبؤا عليه وفارقوه، حينها لجأ امرؤ القيس إلى أحد سادات حمير، فأمدّه بجندٍ من صعاليك ومرزقة العرب، وسار بهم نحو بني أسد، فطلبه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة؛ لموجدة في نفسه على ملوك كندة، وأمدّه كسرى أنو شروان بكتيبة من الأساورة لملاحقة امرئ القيس، فلمّا بلغهم ذلك؛ انفضّوا عنه وفارقوه ولم يبقَ معه إلا نفرٌ من بني ذي المزار، فأخذ امرؤ القيس يتنقل بين القبائل وأحياء العرب؛ منهم من امتنع عن نصرته، ومنهم من استقبله وأجاره.. كل هذا والمنذر يتعقبه ويتوعّد من ينصره، ولمّا لم يبلغ امرؤ القيس مبتغاه من طلب الثأر من بني أسد؛ لجأ وقتها إلى السموأل بن عاديء صاحب حصن الأبلق بتيماء، وطلب منه أن يوصله إلى قيصر الروم يسأله النصره، وكتب السموأل بذلك إلى الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة ليوصله إلى قيصر الروم، فذهب امرؤ القيس إلى القسطنطينية، وقد استودع عند السموأل ماله ودروعه، وترك معه ابنته هنديًا وابن عمه يزيد بن معاوية، ويقال: إن امرأ القيس لقي ملك الروم "جوستينيانس" في وفدٍ يطلب منه النصره والدعم؛ للثأر من بني أسد والمنذر ابن ماء السماء، وقد استقبله بحفاوة وقبول، ووعدّه بالنصرة، ويقال: إنه ولّاه على بعض بلاد الشام، ولكن يبدو أنه لم يتحقق من وعده ما تمناه امرؤ القيس من الثأر لأبيه، فضجر واعتزم العودة إلى دياره، وفي الطريق أُصيب بالجدي، فلقى موته في طريقه وهو بأنقرة، وربما كانت وفاته تقريبًا عام ٥٦٠م؛ وقيل: قبل ذلك؛ ويروى أنه لما حضرته الوفاة قال:

وطني مسحفرة

وجفنة متعجرة

تبقى غداً بأنقرة

^١ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص٢).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١١١).

^٣ مسحفرة: كثيرة السيلان؛ متعجرة: ملأى. ينظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/١٠٣).

وتختلف الروايات حول قصة امرئ القيس وحياته، وهذه هي الرواية الأشهر والأكثر ذكراً. وتقول رواية أخرى: إن قيصر الروم لما بلغه نبأ موته؛ أمر بتشييد تمثال له على ضريحه بأنقرة، وقد بقي زمناً طويلاً، وهناك رواية أخرى تقول: إن ابنة قيصر هَوِيَتْ امرأ القيس، فوسّى بذلك لدى قيصر أحد خصومه، وهو الطماح بن قيس الأسدي، وكان حجر قد قتل أباه، فأخذ يحرض قيصر عليه حتى نقم عليه، وبعث إليه أثناء عودته حُلَّة مسمومة فلبسها وهو في طريقه، فأسرع إليه السُّم وقتله، ويُلقَّب بذي القروح لذلك، وهي رواية تتعارض مع ذكر إكرام قيصر الروم له وتكريمه ببناء تمثال له بعد موته، وهناك رواية تنفي رحلته أصلاً إلى القسطنطينية وتعدُّها أسطورة من ضمن الأساطير، وهناك رواية أخرى تذكر أنه لم يُطرَد من بيت أبيه، وكان حاضراً معه وشهد مقتله وهرب فاراً من بني أسد؛ ويصوِّر هذا التناقض بين الروايات المختلفة جانباً من الغموض وعدم الدقة فيما وصلنا من أخبار امرئ القيس؛ شأنها شأن بقية الأخبار التي اختلط فيها الواقع بالأسطورة، ولكنها -على اختلافها- تجتمع على أن امرأ القيس حاول الثأر لأبيه، وأخذ يحرض على ذلك، حتى مات دون أن يبلغ مبتغاه.

شعره ومنزلته:

يعتبر امرؤ القيس أحد شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية بإجماع النقاد وأهل الأدب؛ فقد كان فخم اللفظ، رائع السبك، سريع البديهة، بديع الخيال، لا يُعوز شعره الهاء والجمال والرونق، وهو يجمع في شعره بين جزالة شعراء البادية وعدوبة شعراء البلاط؛ كونه قد مرَّ في حياته بالمرحلتين، وكان أمهر الشعراء الجاهليين في ابتداع التشبيه، وسعة الخيال وابتكار الصور واستبطاط المعاني، وقد برع امرؤ القيس في الوصف والغزل، فوصف الليل والنجوم والفرس

^١ انظر: ترجمة امرئ القيس في الشعر والشعراء لابن قتيبة، وتاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف. وأشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمري.

والديار، وله في الغزل والتشبيب قصص شتى مع فاطمة بنت العبيد العذرية وأم الحارث الكلبية وعنيزة بنت عمه شرحبيل صاحبة دارة جُلْجُلٍ، وفي غزله قدر من الفحش والترف والمغامرات وانتهاك المحارم؛ حيث كان يتعمَّر في شعره، وقد سبق امرؤ القيس أقرانه بأمر استحسنها الشعراء فتبعوا أثره فيها؛ كاستيقاف صحبه، والبكاء في الدِّمَن، وذكر الديار ووصف ما فيها؛ ويروى عن عمر ابن الخطاب قوله عنه: سابق الشعراء، خسف لهم عين الشعر! وقد امتاز برقة النسيب وقرب المأخذ، فشبه النساء بالطباء، والخيل بالعقبان والعصي، وأجاد في التشبيه فكان أحسن طبقته تشبيهاً، ويُقال؛ إن امرأ القيس هو أول من بكى على الأطلال في شعره وله الزعامة في ذلك، وإن كان ذكر أن شاعرًا يقال له ابن خدام لم تصلنا أخباره وشعره، قد سبقه في ذلك؛ استنادًا إلى قول امرئ القيس نفسه:

عُوجًا عَلَى الظِّلِّ المحيل لعلنا نبكي الدِّيار كما بكى ابنُ خدام

ويمتاز شعر امرئ القيس برشاقة العبارات وروعة الموسيقى وسرعة البديهة الشعرية.

معلّته:

تعتبر معلقة امرئ القيس أقدم الملعقات وأولها، وقد اتفقت جميع الروايات على تصنيفها كمعلّقة، وسبب نظمها أنه التقى بابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل في جماعة من الفتيات، بيومٍ عُرِفَ بيوم الغدير، أو يوم دارة جلجل؛ ويقال: إنه وجد مجموعة من الفتيات يتبرّدن من ماء الغدير، فأخذ يتعقبهن حتى خلعن ثيابهن ووردن الغدير، فوثب على ملابسهن فأخذها وقعد عليها وقال: والله لا أعطي جارية منكن ثوبها ولو ظلت بالغدير يومها حتى تخرج متجرّدة فتأخذ

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١٢٢/١).

^٢ انظر: المصدر السابق (١٢٨/١).

^٣ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٥٥/١).

^٤ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١٦٦/١).

ثوبها؛ فأبئن عليه أول الأمر، حتى إذا أوشك النهار؛ أطعنه واضطرن للخروج وأخذ ثيابهن متتابعاتٍ، حتى افتضحن جميعاً، فيما عدا عنيزة؛ التي بقيت وظلّت ترجوه أن يعطيها ثيابها، فأبى عليها، فاضطرت للخروج مثلهن، فنظر إليها مقبلة ومدبرة، ثم نحر لهن ناقته حتى يعوّضهن عما صنع بهن، فأكلن منها وحملن متاع راحلته؛ وما لبث أن قال قصيدته المطولة تلك، واصفاً ذلك اليوم وما حدث فيه من لقاء، وما أحسنه لحظات ومتع الحب والغرام.

وقد بدأها بالوقوف على الأطلال وذكر الحبيب وبكاء الديار وذكر بعض الأماكن، ثم انتقل إلى وصف ناقته وذكر نحرها، وتغرّل بابنة عمه غزلاً فاحشا، وتطرّق إلى وصف الليل والخيل ووصف يوم الغدير وذكر الصيد والقنص والطعام، وقد رويت هذه القصيدة في الجمهرة على سبعين بيتاً، ورويت في روايات أخرى على عدد مختلف من الأبيات، مع اختلاف في التقديم والتأخير وتبديل الألفاظ؛ وتمتاز معلقته بحسن السبك والإيقاع الموسيقي الرائع، وإجادته في وصف الفرس والليل، كما أنها حافلة بالتشبيهات والتصاوير الرائعة، مع روح الفكاهة والمرح والعفوية المتدفقة، والحوار القصصي الرقيق، وهي توضح بدقّة آفاق وصفات عموم شعر امرئ القيس وخصائصه الفنية، يقول امرؤ القيس في معلقته:

بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

* *

لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ
يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَمَّلِ
وَلَكِنْ عَلَى مَا غَالِكَ الْيَوْمَ أَقْبَلِ

* *

عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي

قَفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمُنْزَلِ

* *

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئَهُمْ
فَدَعُ عَنْكَ شَيْئًا قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ

* *

فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِثِّي صَبَابَةً

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٢٤).

^٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ١١٣-١٥٢).



وَلَا سِيَّامًا يَوْمٍ بِدَارَةِ جُلْجُلٍ
فَيَا عَجَبًا مِنْ رَحْلِهَا الْمُتَحَمَّلِ
وَيَا عَجَبًا لِلجَّازِرِ الْمُتَبَدِّلِ
وَشَحْمٍ كَهَذَابِ الدِّمَاسِ الْمُفْتَلِ

* *

فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي
عَقَرْتُ بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَاَنْزِلِ
وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْ جَنَّاكَ الْمُعَلِّ
نَقِي الثَّنَائِيَا أَشْنَبٍ غَيْرِ أَنْعَلِ
وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَرَمَعْتَ صَرْمِي فَأَجْمَلِي
وَأَنَّكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ
قَتِيلٌ وَنِصْفٌ بِالْحَدِيدِ مَكْبَلِ
فُسْلِي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ
بِسَهْمِيكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقْتَلِ
تَمْتَعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرِ مُعْجَلِ
تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ

* *

عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكَاكَلِ
بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
بِحُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِبَدْبَلِ

* *

أَلَا رَبِّ يَوْمٍ لِي مِنَ الْبَيْضِ صَالِحِ
وَيَوْمٍ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي
وَيَا عَجَبًا مِنْ حِلِّهَا بَعْدَ رَحْلِهَا
فَطَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا

* *

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرَ خِدْرَ غُنَيْزَةٍ
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْعَبِيْطُ بِنَا مَعَا
فَقُلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ
بِغَيْرِ كَمِثْلِ الْأَقْحُوَانِ مَنْوَرِ
أَفَاطِمَ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدُلِّ
أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حُبَّكَ قَاتِلِي
وَأَنَّكَ قَسَمْتَ الْفَوَادَ فَنِصْفُهُ
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ
وَمَا دَرَفْتُ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي
وَبَيْضَةَ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا
مُهْفَهْفَةٌ بِيضَاءٍ غَيْرِ مُفَاضَةٍ

* *

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِجَوْزِهِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ

* *

١ أنعل: المترابطة أسنانه بعضها على بعض. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١/٨٣).

٢ ورد في رواية أخرى "بصلبه" بدلا من "بجوزه"

بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّهَ السَّيْلُ مِنْ عَلِ
وَإِرْخَاءِ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبُ تَنْفُلِ

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
مَكْرٍ مَقْرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا
لَهُ أَيُّطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ

نماذج من قصائده:

- قال في قصيدة له:^١

وَهَلْ يِعْمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي
قَلِيلُ الْهَمُومِ مَا يَبِيْتُ بِأَوْجَالِ
ثَلَاثِينَ شَهْرًا فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالِ
أَلَحَّ عَلَيْهَا كُلُّ أَسْحَمٍ هَطَّالِ
مَنْ الْوَحْشِ أَوْ بَيْضًا بِمَيْثَاءِ مِحْلَالِ
بِوَادِي الْخُرَامَى أَوْ عَلَى رَسِّ أَوْعَالِ
وَجِيْدًا كَجِيْدِ الرِّئَمِ لَيْسَ بِمِعْطَالِ
كَبُرْتُ وَأَنْ لَا يَحْسُنُ اللَّهْوُ أَمْثَالِي
وَأَمْنَعُ عَرْسِي أَنْ يُزَنَّ بِهَا الْخَالِي
بِأَنْسَةِ كَأَنَّهَا خَطُّ تَمْثَالِ
كَمِصْبَاحِ زَيْتٍ فِي قَنَادِيلِ ذَبَالِ
أَصَابَ غَضَى جَزْلًا وَكَفَّ بِأَجْذَالِ
صَبًّا وَشَمَالًا فِي مَنَازِلِ قَقَّالِ
لُعُوبِ تُنْسِيْنِي إِذَا قَمْتُ سِرْبَالِي
تَمِيْلُ عَلَيْهِ هَوْنَةً غَيْرَ مَجْبَالِ

أَلَا عِمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ النَّبَالِي
وَهَلْ يِعْمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ
وَهَلْ يِعْمَنْ مَنْ كَانَ أَحَدْتُ عَهْدِهِ
دِيَارٌ لَسَلِمَى عَافِيَاتُ بِنْدِي خَالِ
وَتَحَسَّبُ سَلِمَى لَا تَزَالُ تَرَى طَلَا
وَتَحَسَّبُ سَلِمَى لَا نَزَالُ كَعَهْدِنَا
لِيَالِي سَلِمَى إِذْ تُرِيكَ مُنْصَبًا
أَلَا زَعَمْتُ بِسَبَاسَةِ الْيَوْمِ أَنْنِي
كَذَبْتُ لَقَدْ أَصْبِي عَلَى الْمَرَةِ عَرْسَهُ
وَيَا رَبِّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةٍ
يُضِيءُ الْفِرَاشُ وَجْهَهَا لِضَجِيْعِهِ
كَأَنَّ عَلَى لَبَاتِهَا جَمَرَ مُصْطَلِ
وَهَبَّتْ لَهُ رِيْحٌ بِمُخْتَلَفِ الصُّوَا
وَمِثْلِكَ بِيضَاءِ الْعَوَارِضِ طَفْلَةٍ
إِذَا مَا الضَّجِيْعُ ابْتَرَّهَا مِنْ ثِيَابِهَا

^١ ورد مثل صدر هذا البيت في قصيدة للعقمة الفحل

^٢ تنفل: الثعلب. لسان العرب، ابن منظور (٧٧/١١).

^٣ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ١٢-١٣).



- وقد جاء فيها من غزله الفاحش الذي خدش فيه الحياء وانتهك المحارم!

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ أَهْلُهَا
فَقَالَتْ سَبَاكَ اللَّهُ إِنَّكَ فَاضِحِي
أَلَسْتَ تَرَى السُّمَّارَ وَالنَّاسَ أُحْوَالِي
وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
لَنَامُوا فَمَا إِنَّ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالٍ
خَلَفْتُ لَهَا بِإِلَهِ حِلْفَةَ فَاجِرٍ

- وقال لعمر بن قميئة أحد خدمه ومرافقيه؛ وقد بكى أثناء سيره معه إلى قيصر،
وقال له: قد غررت بنا؛ فأنشد:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَنَا
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا
وَأَيْقَنَ أَنَّنَا لِأَحِقَانٍ بِقَيْصَرَ
نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعَذَّرَا
بِسَيْرٍ تَرَى مِنْهُ الْفِرَانِقَ أَرْوَرَا
وَإِنِّي أَذِينُ إِنْ رَجَعْتُ مُمْلَكًا
إِذَا سَاقَهُ الْعَوْدُ الدِّيَافِي جَرْجَرَا
عَلَى ظَهْرِ عَادِيٍّ تُحَارِبُهُ الْقَطَا

- ويروى أنه احتكم وهو علقمة بن عبدة لدى امرأة تزوجها، اسمها أم جندب،
فقال امرؤ القيس قصيدةً وعارضه علقمة بقصيدةٍ من نفس الوزن والروي،
ففضلت امرأته وضمف علقمة على وصفه، فغضب امرؤ القيس وطلقها، ومما
قال:

خَلِيلِي مَرًّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدُبٍ
فَأِنَّكُمَا إِنْ تَنْظِرَانِي سَاعَةً
نُقِضَ لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ
أَلَمْ تَرِيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا
مِنَ الدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَى أُمِّ جُنْدُبٍ
عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ لَهَا لَا دَمِيمَةٌ
وَجَدْتُ بِهَا طِيبًا وَإِنْ لَمْ تَطْيِبِ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَادِثٌ وَصَلِهِ
وَلَا ذَاتُ خَلْقٍ إِنْ تَأَمَّلْتَ جَائِبِ
أَقَامَتْ عَلَى مَا بَيْنَنَا مِنْ مَوَدَّةٍ
وَكَيْفَ تُرَاعِي وَصَلَةَ الْمُتَعَتِّبِ

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٣٥-١٣٦).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/١١٩).

^٣ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ١٤).

فَإِنَّكَ مِمَّا أَحَدَثْتَ بِالمُجَرَّبِ
يَسُوءُكَ وَإِنْ يُكشِفَ غَرَامُكَ تَدْرِبُ
سَوَالِكَ نَقْبًا بَيْنَ حَزْمِي شَعْبَعِبِ

- ولما أغار على كنانة وهو يظنهم بني أسد، واكتشف خطاه وفرارهم منه؛
فأسف على إفلات علباء بن الحارث أحد قتلة أبيه، فأنشد قائلاً:

هُمُ كَانُوا الشِّفَاءَ فَلَمْ يُصَابُوا
وبالأشقيين ما كان العقابُ
وَلَوْ أَدْرَكْنَاهُ صَفَرَ الوَطَابِ

عَنْ شُرْبِهَا فِي شُغْلٍ شَاغِلِ
إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ

وَرَسِمٍ عَفَتْ آيَاتُهُ مِنْذُ أَرْمَانِ
كَخَطِّ رَبُورٍ فِي مَصَاحِفِ رُهْبَانِ
عَقَابِيلَ سَقَمٍ مِنْ ضَمِيرٍ وَأَشْجَانِ
كُلِّي مِنْ شُعَيْبٍ ذَاتِ سَحِّ وَتَهْتَانِ
فَلَيْسَ عَلَيَّ شَيْءٌ سِوَاهُ بَخْرَانِ

فَإِنْ تَنَأَ عَنْهَا حِقْبَةً لَا تُلَاقِيهَا
وَقَالَتْ مَتَى يُبْخَلُ عَلَيْكَ وَيُعْتَلَلُ
تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ

أَلَا يَا لَهْفِ هِنْدُ مِنَ أَنَاسِ
وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ بِنِي أَبِيهِمْ
وَأَفْلَتْهِنَّ عِلْبَاءُ جَرِيضًا

- فلما أدركهم بعد ذلك؛ قال:
حَلَلْتُ لِي الخَمْرُ وَكُنْتُ امْرَأًا
فَالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحَقِّبِ

- وقال أيضاً:

قِفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبِ وَعِرْفَانِ
أَتَتْ حَجَّجٌ بَعْدِي عَلَيْهَا فَأَصْبَحَتْ
ذَكَرْتُ بِهَا الحَيِّ الجَمِيعَ فَهَيَّجَتْ
فَسَحَّتْ دُمُوعِي فِي الرِّدَاءِ كَأَنَّهَا
إِذَا المَرءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانُهُ

- وقال أيضاً؟

١ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٣١).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ١٣٠).

٣ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ١٧).

٤ عقابيل: بقايا المرض. لسان العرب، ابن منظور (١١/٤٦٦).

٥ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٢٣).

وَعَزَّيْتُ قَلْبًا بِالْكَوَاعِبِ مُوَلِّعَا
 أُرَاقِبُ خَلَاتٍ مِنَ الْعَيْشِ أَرْبَعَا
 يُدَاجُونَ نَشَاجًا مِنَ الْخَمْرِ مُتْرَعَا
 يُبَادِرْنَ سِرْبًا آمِنًا أَنْ يُفَزَّعَا
 تَيَمَّمُ مَجْهُولًا مِنَ الْأَرْضِ بَلْقَعَا
 يُجَدِّدْنَ وَصَلًا أَوْ يُقَرِّبْنَ مَطْمَعَا
 تُرَاقِبُ مَنَظُومَ التَّمَائِمِ مُرْضَعَا
 * * *

جَزَعْتُ وَلَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْبَيْنِ مَجْزَعَا
 وَأَصْبَحْتُ وَدَعْتُ الصِّبَا غَيْرَ أَنَّنِي
 فَمِنْهُنَّ قَوْلِي لِلنَّدَامَى تَرَفَّقُوا
 وَمِنْهُنَّ رِكْضُ الْخَيْلِ تَرْجُمُ بِالْقَنَا
 وَمِنْهُنَّ نَصُّ الْعَيْشِ، وَاللَّيْلُ شَامِلٌ
 خَوَارِجٌ مِنْ بَرِّيَّةٍ نَحْوَ قَرْيَةٍ
 وَمِنْهُنَّ سَوَاقِي الْخَوْدِ قَدْ بَلَّهَا النَّدَى
 * * *

قَتِيلَانِ لَمْ يَعْلَمْ لَنَا النَّاسُ مَصْرَعَا
 وَثُدْنِي عَلَيَّ السَّابِرِيُّ الْمُضْلَعَا
 بِمَنْكِبِ مِقْدَامٍ عَلَى الْهَوْلِ أَرْوَعَا

فَبِنَا تَصُدُّ الْوَحْشُ عَنَّا كَأَنَّهَا
 تُجَافِي عَنِ الْمَآثُورِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
 إِذَا أَخَذَتْهَا هِرَّةُ الرَّوْعِ أَمْسَكَتْ

- وقال يصف الغيث وصفًا بديعًا يدلُّ على موهبته في فن الوصف:

طَبَّقَ الْأَرْضَ ثَجْرِي وَثُدِرُ
 وَثَوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكِرُ
 ثَانِيًا بُرْنُكُهُ مَا يَنْعَفِرُ
 كَرُؤُوسٍ قَطَّعَتْ فِيهَا الْخُمُرُ
 سَاقِطُ الْأَكْنَافِ وَاهٍ مِنْهُمْزُ
 فِيهِ شُؤْبُوبٌ جُنُوبٌ مِنْفَجِرُ

دِيمَةٌ هَطْلَاءٌ فِيهَا وَطْفُ
 تُخْرِجُ الْوَدَّ إِذَا مَا أَشْجَذَتْ
 وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفًا مَاهِرًا
 وَتَرَى الشَّجْرَاءَ فِي رَيْقِهِ
 سَاعَةً نُمَّ أَنْتَاهَا وَابِلٌ
 رَاحَ ثُمْرِيهِ الصَّبَا نُمَّ انْتَحَى

١ السابري: ضرب من أجود الثيا. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/٣٤٢).

٢ انظر: أشعار الشعراء الستة، الشنتمري (ص ٢٠).

— وقال يرثي نفسه وقد أحسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، ورأى قَبْرًا لامرأةٍ في أنقرة، فسأل عنه فأخبرَ به، فأنشد:

أجارتنا إنَّ المَزارَ قَريبُ وإني مُقيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ
أجارتنا إننا غَريبانِ هاهنا وكُلُّ غَريبٍ للغَريبِ نَسِيبُ

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٢١).

٢- عبید بن الأبرص

ترجمته:

هو عبید بن الأبرص بن عوف، من جُشم، من بني أسد بن خزيمَة، من مضر، ويقال: بل عبید بن الأبرص بن حنتم بن عامر؛ وهو شاعر جاهلي من الفحول، قديم الذِّكر، عظيم الشهرة،

وُلد -على الأرجح- في منتصف القرن الخامس الميلادي، وكان من ندماء حجر ابن الحارث الكندي ملك كندة ووالد امرئ القيس، فلازمه حيناً ومدحه، إلى أن وقع الخُلف بين حجر وبين قومه بني أسد، وأبوا دفع الإتاوة له وأعلنوا العصيان، فغزاهم حجر واستباح ديارهم وأموالهم -على النحو الذي ذكرنا سابقاً- فقتل منهم نفرًا وشردَّ آخرين، فاستعطفه عبید بن الأبرص بشعره، وكان واحدًا من هؤلاء المشرِّدين، فشفع لنفسه ولقومه، فعفا عنهم حجر، وردَّ المشرِّدين وأطلق سراح من أسر، غير أنهم ما إن عادوا إلى منازلهم حتى أعادوا المحاولة، وما لبثوا أن قتلوه بقيادة قائدهم علباء بن الحارث، وانتهى بذلك مُلك كندة، وفشل امرؤ القيس في ردِّ ملك آبائه والأخذ بثأر أبيه، بالصورة التي كان يريد.

وكان عبید "من دهاة الجاهلية وحكمائها، وكان من ذوي الشأن في قومه، ومن المُعمِّرين الذين عرفوا بالنجدة والمروءة"؛ وقد نال حظوة لدى بلاط المناذرة، فتردَّد عليهم كثيرًا، ولا سيَّما بعد مقتل حجر، وقد عمَّر طويلاً إلى أن قتله المنذر ابن ماء السماء؛ والسبب في ذلك أن المنذر ذات يوم وهو في سُكرٍ شديد؛ قتل نديمين له كانا يلازمانه؛ هما: خالد بن نضلة وعمرو بن مسعود، فلمَّا أفاق من سُكره؛ ندم على فَعَلَتِهِ كثيرًا، وقام ببناء قبرين لهما، أسماههما الغريين، وجعل له يومين في السنَّة: يوم نعيم ويوم بؤس، يجلس فيهما هناك، فأوَّل من يمرُّ عليه في

^١ انظر: الأغاني، الأصبهاني (٢٢/٣٢٥).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/٢٢٦).

يوم النعيم؛ يبالغ في إكرامه ويسبغ عليه من نعمته، وأوّل من يطلع عليه في يوم
بؤسه؛ يقوم بقتله، فكان من حظ عبید العائر أن وقد عليه في يوم بؤسه،
فأخذه وقتله وطلّى بدمه الغريين؛ ويرجّح أنّ قتله كان تقريبًا نحو منتصف
القرن السادس، وهو ما يعني أنه عمّر نحو قرن من الزمان، وله أخبار عديدة
ذكّرها صاحب الأغاني في أخباره، وكذلك ابن قتيبة.

شعره:

عبید بن الأبرص شاعر من المجيدين والمقدّمين في الجاهلية، ويبدو أنه كان
شاعرًا كثيرًا لكن لم يصلنا من شعره غير القليل، وقد برع في الحكمة والفخر
والوصف والثناء وله شيء في الغزل؛ ويمتاز شعره بالسهولة والوضوح والبهاء،
وفيه شيء من العذوبة والرونق وسلاسة العبارة، مع شاعرية فياضة غنية
بالعاطفة الصادقة وبالانسجام الموسيقي، ولعل تلك الرقة بسبب مخالطته
بلاط الكنديين والمناذرة، ونرى في شعره أنه نظم أحيانًا على أوزان قصيرة وغير
شائعة، على خلاف عموم شعراء الجاهلية، وكان يحسن التّسيب والبكاء على
الأطلال في مطلع قصائده، فيسهب ويبدع ويطلّ فيه بعاطفة جياشة تمتاز
بالجمال وعمق الإحساس المتدفّق الرقيق.
ومما يُتمثّل به في شعره:

لا أعرّفك بعدَ اليوم تَنُدُّبني وفي حياتي ما زوَدتني زادي

قال عنه ابن سَلام: عبید بن الأبرص شاعر قديم الذّكر، عظيم الشهرة، لكن
شعره مضطرب ذاهب؛ واضعًا إيّاه في الطبقة الرابعة من الشعراء الجاهليين؛
لقلة شعرهم بين الرواة، ولم يذكر غير معلّته:

١ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/١٤٣).

٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/١٢٥).

٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٦١).

٤ انظر: الأغاني، الأصبهاني (٢٢/٣٢٥)، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

معلّته:

تعتبر معلّته من أشهر قصائد الشعر الجاهلي، وقد نظمها على بحر مغلّع البسيط؛ النادر في العصر الجاهلي، فهو بحر غير مألوف، وتفاعيل معلّته كثيرة الزخافات والعلل، ومضطربة الوزن حتى كادت لا تكون شعراً؛ ولم يرد ذكرها كمعلّقة في رواية حماد، بينما عدّها أبو زيد القرشي من ضمن المجمهرات، وإنّما عدّت معلّقة في رواية التبريزي؛ وهو يبدأ معلّته بالوقوف على الديار والبكاء على الأطلال وذكر بعض الأماكن والديار، ثم ينتقل إلى الحكّم والموعظة والوصف، وتدور حكّمته حول ذكر الله، ووصف الدنيا والعمر والمشيب، وزوال النعم وتبدّل الحال، والأمل المكذوب، وذكر الموت والاعتصام بالله، وكلها إحياءات إيمانية تتفق مع ما يُروى أنه كان نصرانياً، وقد ربط حكّمته تلك بوصف الوديان والهضاب والماء والظلال وجذب الصحراء، والناقة وبعض الحيوانات؛ في موسيقى رقيقة عذبة معبّرة عن المعنى بما قد لا يتّسع له اللفظ، وقد حملت تلك الإحياءات الإيمانية وذكر وحدانية الله بعض النقاد على الشك ببعض أبيات تلك المعلّقة، والقول بأنها مدسوسة في قصيدته؛ ولكن هذا لا يكفي لنفي نسبة القصيدة له؛ كون التوحيد -على ندرته- كان معروفاً في الجاهلية، وربما كان عبید نصرانياً كما أورد بعض الرواة.. وجاء في معلّته!

أَفْقَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ	فَالْقُطَيْبَاتُ فَالذُّنُوبُ
فَرَاكِسٌ فَتُعْيَابَاتٌ	فَذَاتُ فِرْقَيْنِ فَالْقَائِبُ
فَعَزْدَةٌ فَفَقْفَا حَبِيرٌ	لَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ عَرِيبٌ
وَبُدِلَتْ أَهْلُهَا وَحَوْشًا	وَعَيَّرَتْ حَالَهَا الْخُطُوبُ
أَرْضٌ تَوَارَتْهَا شُعُوبٌ	وَكُلٌّ مِنْ حَلَّهَا مَحْرُوبٌ
إِمَّا قَتِيلٌ وَإِمَّا هَالِكٌ	وَالشَّيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ

^١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٢٢٥-٢٢٩). طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

^٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٣٧٩-٣٩٠). طبعة نهضة مصر.

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبٌ
وَاهِيَةٌ أَوْ مَعِينٌ مُمَعِنٌ
أَوْ فَلَجٌ مَا بَطَّنِ وَاذِ
أَوْ جَدَوٌ فِي ظِلَالِ نَحْلِ
تَصْبُو وَأَنْى لَكَ التَّصَابِي
إِنْ تَكُ حُورٌ مِنْهَا أَهْلُهَا
أَوْ يَكُ أَفْقَرَ مِنْهَا جَوْهَا
فَكُلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَخْلُوسٌ
وَكُلُّ ذِي إِبِلٍ مَوروثٌ
وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَأْوُبُ
أَعَاقِرٌ مِثْلُ ذَاتِ رِخْمٍ؟
مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ
بِاللَّهِ يُدْرِكُ كُلَّ خَيْرٍ
وَاللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ
أَفْلَحَ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بِأَدِ
لَا يَعِظُ النَّاسُ مَنْ لَمْ يَعِظِ أَدِ
إِلَّا سَجِيَّاتِ مَا الْقُلُوبِ
سَاعِدٌ بِأَرْضٍ إِذَا كُنْتَ بِهَا
قَدْ يُوَصِّلُ النَّازِحُ النَّائِي وَقَدْ
وَالْمَرءُ مَا عَاشَ فِي تَكْذِيبِ

كَأَنَّ شَأْنَيْهِمَا شَعِيبٌ
مِنْ هَضْبَةٍ دُونَهَا لُهَوبٌ
لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ قَسِيبٌ
لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ سَكُوبٌ
أَنْى؟ وَقَدْ رَاعَكَ الْمَشِيبُ
فَلَا بَدِيٍّ وَلَا عَجِيبُ
وَعَادَهَا الْمَخْلُ وَالْجُدُوبُ
وَكُلُّ ذِي أَمَلٍ مَكْذُوبُ
وَكُلُّ ذِي سَلْبٍ مَسْلُوبُ
وَوَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَأْوُبُ
أَمْ غَانِمٌ مِثْلُ مَنْ يَخِيبُ؟
وَسَائِلُ اللَّهِ لَا يَخِيبُ
وَالْقَوْلُ فِي بَعْضِهِ تَلْغِيبُ
عَلَّامٌ مَا أَحْفَتِ الْقُلُوبُ
(م) ضَعْفٍ وَقَدْ يُخْدَعُ الْأَرِيبُ
(م) دَهْرٌ وَلَا يَنْفَعُ التَّلْبِيبُ
وَكَمْ يَصِيرَنَّ شَانِنًا حَبِيبُ
وَلَا تَقُلْ إِنَّنِي غَرِيبُ
يُقَطِّعُ ذُو السُّهْمَةِ الْقَرِيبُ
طَوْلُ الْحَيَاةِ لَهُ تَعْذِيبُ

نماذج من قصائده!

- قال في رائعة له في النسيب والحماسة:

أَمِنْ مَنْزِلٍ عَافٍ وَمِنْ رَسْمِ أَطْلَالٍ
دِيَارُهُمْ إِذْ هُمْ جَمِيعٌ فَأَصْبَحَتْ
فَإِنْ تَكُ غَبْرَاءُ الْخُبَيْبَةِ أَصْبَحَتْ
بِمَا قَدْ أَرَى الْحَيَّ الْجَمِيعَ بَغِيطَةَ
قَلِيلًا بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا عَوَازِفًا
أَبْعَدَ بَنِي عَمْرٍو وَرَهْطِي وَإِخْوَتِي
فَلَسْتُ وَإِنْ أَضْحَوْا مَضَوْا لِسَبِيلِهِمْ
أَلَا تَقْفَانِ الْيَوْمَ قَبْلَ تَفَرُّقِ
إِلَى ظُعْنٍ يَسْلُكْنَ بَيْنَ تَبَالَةِ
فَلَمَّا رَأَيْتُ الْحَادِيَيْنِ تَكَمَّشَا
رَفَعْنَا عَلَيْهِنَّ السَّيَاطَ فَقَلَّصَتْ

- وقال في النسيب يرد على امرأته التي عيرته بشيئته وكبر سنّه.. ولعله من الخيال:

أَلَا عَتَبْتُ عَلَيَّ الْيَوْمَ عِرْسِي
فَقَالَتْ لِي كَبُرْتَ فَقُلْتُ حَقًّا
ثُرَيْبِي آيَةَ الْإِعْرَاضِ مِنْهَا
وَحَطَّتْ حَاجِبِيهَا أَنْ رَأَيْتُنِي
فَقُلْتُ لَهَا رُؤَيْدِكَ بَعْضَ عَثْبِي
وَعِيشِي بِالَّذِي يُغْنِيكَ حَتَّى
فَإِنْ يَكُ فَاتَنِي أَسْفًا شَبَابِي
وَكَانَ اللَّهُوْ حَالْفَنِي زَمَانًا

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٥٤).

- ولما اجتمعت بنو أسدٍ إثر قتلهم حُجر بن عمرو والد امرئ القيس؛ اتفقوا على دفع دية أبيه وقدرها ألف بعير، أو يقيدوه بأيِّ رجل شاء من بني أسد، أو يمهلمهم حولاً، فرفض امرؤ القيس قائلاً: أمَّا الدِّيةُ فما ظننتُ أنكم تعرضونها على مثلي، وأمَّا القَوْدُ فلو قِيدَ لي ألفٌ من بني أسد ما رضيئهم ولا رأيتهم كفواً لحُجر، وأمَّا النظرة فلکم، ثم ستعرفونني في فرسان قحطان أحکم فيکم ظبا السیوف وشبا الأسنّة، حتى أشفي نفسي وأنال ثأري! فقال عبيد بن الأبرص يرد على امرئ القيس:

يا ذا المَخَوِّفِنا بِقَتْـ	لِ أْبِيهِ إِذْ لَأْلاً وَحَيْنَا
أَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَدْ قَتَلَا	تَ سَرَاتِنَا كَذِبًا وَمَيْنَا
هَلَّا عَلَى حُجْرِ بْنِ أُ	(م) مَ قَطَامِ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا
إِنَّا إِذَا عَضَّ النَّقَا	فُ بِرَأْسِ صَفْغَدِنَا لَوَيْنَا
نَحْمِي حَقِيقَتِنَا وَبَعَا	ضُ الْقَوْمِ يَسْقُطُ بَيْنَ بَيْنَا
هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنَا	دَةَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيَّنَ أَيْنَا
أَيَّامَ نَضْرِبُ هَامَهُمْ	بِبَوَاتِرِ حَتَّى انْحَيْنَا
وَجُمُوعَ غَسَّانِ الْمُلُو	كَ أَتَيْتُهُمْ وَقَدْ انطَوَيْنَا

- وقال يفتخر ويذكر غارات قومه وقتلهم لخصومهم، ويعرِّض بامرئ القيس:

وَنَحْنُ صَبَحْنَا عَامِرًا يَوْمَ أَقْبَلُوا	سُيُوفًا عَلَيَّهِنَّ النَّجَارُ بَوَاتِكَا
عَطَفْنَاهُمْ عَطْفَ الصَّرُوسِ فَأَدْبَرُوا	سِرَاعًا وَقَدْ بَلَ النَّجِيعُ السَّنَابِكَا
وَيَوْمَ الرَّبَابِ قَدْ قَاتَنَا هُمَامَهَا	وَحُجْرًا قَاتَنَااهُ وَعَمْرًا كَذَلِكَا
وَنَحْنُ قَاتَلْنَا مُرَّةَ الْخَيْرِ مِنْكُمْ	وَقَرَصًا قَاتَلْنَا كَانَ مَمَّنْ أَوْلئِكَا

١ انظر: الأغاني، الأصبهاني (٢٢/٣٢٦).

وَنَحْنُ قَتَلْنَا جَنْدَلًا فِي جُمُوعِهِ
وَرَبِّكَ لَوْلَاهُ لَقَيْتَ الَّذِي لَقُوا
ظَلَلْتَ تُغَيِّي إِنْ أَخَذْتَ ذَلِيدَةً
وَأَنْتَ امْرُؤٌ أَلْهَاكَ زَقٌّ وَقَيْنَةٌ
وَنَحْنُ قَتَلْنَا شَيْخَهُ قَبْلَ ذَلِكَ
فَذَلِكَ الَّذِي أَنْجَاكَ مِمَّا هُنَالِكَ
كَأَنَّ مَعَدًّا أَصْبَحَتْ فِي جِبَالِكَ
فَتُصْبِحُ مَخْمُورًا وَتُمْسِي مُتَارِكًا

٣- طرفة بن العبد

ترجمته:

هو عمرو بن العبد بن سفيان، من بني سعد بن مالك، من بكر بن وائل، وأمُّه وردة بنت عبد المسيح من بني أبيه، وقد غلب عليه لقب "طرفة"، وهو أحدث شعراء المعلقات سنًّا وأقلهم عمراً، وقُتل وهو ابن عشرين أو ستِّ وعشرين سنة، ويقال له "ابن العشرين"؛ وهو من أسرة شاعرية؛ فخاله المتلمس كان شاعراً، وكذلك عمُّه المرقش الأصغر، وعم أبيه المرقش الأكبر، وأخته لأمُّه الخرنق بنت بدر، تُوفِّي أبوه وهو صغير فكفله أعمامه؛ الذين أهملوا رعايته وقصَّروا في تربيته، فنشأ عاكفاً على اللهو والخمر والدعة، يتلف ماله في السُّكر والمجون، وما لبثوا أن منعوه وأمَّه من ميراث أبيه، فنشأ في بؤسٍ وظلمٍ، فلما لامه أهله بسبب انغماسه في المجون؛ فارقهم وراح يتنقل بين الوديان والأحياء زمناً، ثم عاد إليهم، فأرعوه إبلهم، فلم يحسن رعايتها، وأضاعها، واختلف مع أخيه معبد وابن عمه مالك بشأنها، إلى أن عوّضهم عنها بعدما نال جائزة من مديحه، ثم عاد إلى الضرب في البلاد؛ وقد ظهرت موهبته الشعرية باكراً، وكان ليُثممه أثر واضح على شخصيته، فنشأ متوقِّد الذهن، مضطرم الشعور، حادَّ العاطفة، قويَّ الفطرة، سريع التأثر والغضب؛ وكان جريئاً على الهجاء، ومن شعره في هجاء ابن عمه عبد عمرو بن بشر بن مرثد:

أيا عَجَبًا مِنْ عَبْدِ عَمْرٍو وَبَغِيهِ لَقَدْ رَامَ ظَلْمِي عَبْدُ عَمْرٍو فَأَنْعَمَا
وَلَا خَيْرَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ لَهُ غِنَى وَأَنَّ لَهُ كَشْحًا إِذَا قَامَ أَهْضَمَا

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٨٥).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/٢١٦).

^٣ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص٥٨).

^٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٨٢)؛ أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص٥٩).

يُظَلُّ نِسَاءَ الْحَيِّ يَعْكُفْنَ حَوْلَهُ يُقْلَنَ عَسِيْبٌ مِّنْ سَرَارَةِ مَلْهَمَا^١

وقد عاصر طرفة حرب البسوس، وتردّد على بلاط المناذرة، وعاصر المنذر ابن ماء السماء وولده عمرو بن هند، ولقيَ عندهم حفاوة وإكرامًا، ولكن مع هذا هجا عمرو بن هند وأخاه قابوسًا في قصيدة قال فيها!

وَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَعُوْنَا حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُوْرُ

وقد بقي هذا الهجاء خافيًا على عمرو بن هند، حتى كان عنده ذات مرة عبد عمرو، وكان يداعبه قائلاً: لقد أبصرك طرفة وهو يقول: ولا عيب... فقال عبد عمرو: أبيت اللعن، الذي قيل فيك أشد مما قيل في.. ثم أخبره بالنبأ، وحينها أضمر عمرو ذلك في نفسه وعزم على الانتقام، فأرسل إلى طرفة وإلى خاله المتلمّس -وقد هجاه كذلك- للقدوم، فوفدا عليه، وأظهر لهما الكرم والحفاوة ثم أرسلهما مع كتابين له إلى عامله على البحرين الربيع بن حوثره، ويقال له: المكعب؛ وأوهمها أنه يوصي بهما ويأمر لهما بجائزة، ولكن الحقيقة أنه أمر فيهما بقتلهما، وقد اعتزما بالفعل السير إلى البحرين، ولكن المتلمّس شك في صحيفته التي معه، ولم يكن يحسن القراءة، فالتمس من يقرؤها، فإذا في الصحيفة أمرٌ بقتله، فألقى الصحيفة في النهر وأسرع إلى طرفة كي يحذّره، فلم يدركه، وقيل: بل أدركه وأشار عليه بالرجوع وقال له: معك والله مثلها؛ فلم يصدّقْه طرفة، ثم مضى إلى عامل البحرين، فقتل وهو ابن خمس أو ستّ عشرين سنةً، بينما هرب المتلمس إلى الشام، وهناك رواية أخرى تقول: إنّ عامل البحرين رفض قتله؛ لما كان بينه وبين طرفة من خوّولة، قائلاً له بعدما قرأ الصحيفة: هل تعلم

^١ قال ابن قتيبة: إن عبد عمرو بن بشر بن مرثد هو زوج الخرنق أخت طرفة لأُمّه، هجاه لأن أخته عابت عليه بعض أموره؛ ولكن الصحيح أن زوج الخرنق رجل آخر اسمه بشر بن عمرو بن مرثد؛ وفق ما ورد في شعر الخرنق، وسبب هذا الخطأ هو اشتباه الأسماء بين عبد عمرو بن بشر بن مرثد وبشر بن عمرو ابن مرثد؛ إذ ليس من المنطقي أن تهجو الخرنق المتسبب في قتل أخيها ثم ترثيه بعد موته.

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٨٣).

^٣ رغوئًا: النعجة المرضع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/١٥٣).

ما أُمِرْتُ به؟ قال: نعم، أُمِرْتُ أَنْ تُجِيزَنِي وَتُحَسِّنَ إِلَيَّ؛ فقال: يا طرفة؛ بيني وبينك خوؤلة، أنا لها راعٍ حافظٌ، فاهرب من ليلتك هذه فإني قد أُمِرْتُ بقتلك، فخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس؛ فأبى طرفة قائلاً: اشتدَّت عليك جانزتي، فأردت أن أهرب وأجعل لعمر بن هند عليَّ سبيلًا!! كلاً والله لا أفعل ذلك أبداً؛ فأمر بحبسه ولم يقتله، وأرسل إلى عمرو بن هند أنه ليس بقاتله، وطلب منه أن يرسل من قبَله مَنْ يقتله، فأرسل عمرو بن هند عاملاً آخر على البحرين، ويقال: إنه قتل طرفة والربيع بن حوثة معاً، وهم بنو بكرٍ بالعامل الجديد، ثم رضوا بالديّة؛ ويرجَّح أن مقتله كان بين عامي ٥٦٤م و ٥٦٩م^١.

شعره:

نبغ طرفة في الشعر منذ صغره، ويُعتَبَر أحد أبرز المواهب الشعرية التي عرفها العصر الجاهلي، حتى عدَّ من الفحول رغم قصر عمره، وقد غدَّى موهبته ما لقيه في صغره من فقدٍ أبيه صغيراً، ثم إهمال أعمامه له وحرمانهم إياه من ميراث أبيه، ولجوئه إلى الضرب في البوادي والقفار، فنشأ به إحساس بالظلم جعله ثائراً على أهله جريئاً في هجائهم، فأضفى ذلك على شعره عاطفة فياضة جيّاشة صادقة، زانها بأسلوب قويّ رصين ولفظ جزلٍ فخمٍ يتخلّله الغريب أحياناً، وتركيب قوي متين، مع قافية قوية، وإيقاع موسيقيٍّ جميلٍ بعيدٍ عن الغلوِّ والافتعال والإغراب، وقد برع طرفة في الغزل والوصف والفخر والهجاء والمديح والحكمة، وكان شعره يضجُّ بالحيوية وعنفوان الشباب، ويمتاز بدقة التصوير وجمال التعبير وروعة التشبيهات الفنية، نلمح جزالته في لفظه الفخم وأسلوبه القوي الرصين، وتلمح كذلك الرقة في غزله وحكمه وعتابه، وقد سئل لبيد بن ربيعة: من أشعر العرب؟ فقال: الملك الضِّلِيل؛ يعني امرأ القيس، ثم قيل له: ثم من؟ فقال: ابن العشرين؛ يعني طرفة؛ وقال مَنْ قدَّمه: إنه أشعرهم؛

^١ انظر: جهمرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٨٩-٩٣).

^٢ قال حنا الفاخوري أن وفاته كانت عام ٥٦٩م، وفي هوامش الشعر والشعراء لابن قتيبة وجهمرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، طبعة دار الكتب العلمية، أنها كانت عام ٥٦٤م.

إذ بلغ بحدائثه سنّه ما بلغ القوم في طول أعمارهم؛ وقدمه كلُّ من حسان ابن ثابت وجريز وأبي عمرو بن العلاء وقتيبة بن مسلم، وجعله ابن سلام في الطبقة الرابعة مع عبيد وعلقمة الفحل وعدي بن زيد؛ نظرًا إلى قلة شعرهم بأيدي الرواة.

وأعظم ما يلفت الانتباه في شعر طرفه أنه قد بلغ قمة النضوج الفكري والشعري وهو في تلك السن الصغيرة؛ ولعل هذا سببه ما لقيه في حياته القصيرة من تجارب وسفرٍ وترحال، وهو ما أورثه خبرة وثروة فكرية، كما أن شعره ينمُّ عن شخصية متّزنة لا تُعوّزه الحكمة ولا التأمل، وهو خلاف ما عُرف عن حقيقة تهوُّره وواقع سيرته وحياته التي امتلأت بالخمر والمجون واللهو.

معلّته:

تعتبر معلقة طرفه بن العبد من عيون الشعر الجاهلي، وقد عدّت معلقة بإجماع الروايات، بدأها بمقدمة غزلية وصف فيها أطلال خولة وذكر بعض المواضع، ثم أتبعها بوصف النافة وبعض مظاهر الصحراء والبادية وبعض المواضع، ومرّ على الفخر والحكمة، فذكر الموت والدهر وبعض الخواطر والحكم والشكوى والعتاب، والمعلّقة لا تخلو من حوار قصصي رائع حينما يبكي على الأطلال أو حينما يعاتب ابن عمه مالكا أو حينما يوصي ابنة أخيه معبد، وسبب نظم معلّته هذه أنه كان يرعى إبلاً لأخيه معبد، فانشغل عنها وضلّت، فذهب إلى ابن عمه مالك ليُعيّنه في البحث عنها، فلامه وانتهره وقال: فرطت فيما ثم أقبلت تتعب في طلبها!!!؛ فهاجت قريحته فأنشد تلك القصيدة البديعة، ومن أبياتها!

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةٍ نَهَمَدِ تَلَوْحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئُهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَأِدِ

١ انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/١٣٧).

٢ انظر: جهمرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٣٠٤-٣٤٢).

* * * * *

<p>مُظَاهِرُ سِمَطِي لُؤْلُؤٍ وَزَبْرَجَدٍ تَتَاوَلُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>بِهَوْجَاءِ مِرْقَالِ تَرَوْحٍ وَتَغْتَدِي عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجَدٍ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ وَقَدْ حَبَّبَ آلَ الْأَمْعَزِ الْمُتَوَقِّدِ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ بَعِيدًا غَدًا مَا أَقْرَبَ الْيَوْمِ مِنْ غَدِ وَمَا تَنْقُصِ الْأَيَّامُ وَالذَّهْرُ يَنْقُدِ لِكَالطَّوْلِ الْمَرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>خَشَّاشُ كَرَأْسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>وَشُقِّي عَلَيَّ الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي غَنَائِي وَمَشْهَدِي وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَزِيزًا بِمَقْعَدِ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدِ بِتَأْتًا وَلَمْ تَضْرِبِ لَهُ وَقْتِ مَوْعِدِ فَمَا اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتُرَوِّدِ</p>	<p>وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ خَذُولٌ ثُرَاعِي رَبِّبًا بِخَمِيلَةٍ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>وَإِنِّي لِأَمْضِي الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ أُمُونٍ كَأَلْوَاحِ الْإِرَانِ نَسَائِطِهَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنَّنِي أَحَلْتُ عَلَيْهَا بِالْقَطِيعِ فَأَجْدَمْتُ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>أَرَى الْمَوْتَ يِعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النَّفُوسِ وَلَا أَرَى أَرَى الذَّهْرَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ لِعُمْرِكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>فَإِنْ مِتُّ فَاذْعِنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَجْعَلِينِي كَامِرِي لَيْسَ هَمُّهُ أَرَى الْمَوْتَ لَا يَرَعَى عَلَيَّ ذِي جَلَالَةٍ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَنْبَاءِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ لِعَمْرِكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ</p>
---	---

ولا نائلٌ يأتيك بعد التلذُّدِ
فإنَّ القَرينَ بالمُقارنِ مُقتدي
أفي اليومِ إقدامَ المنيَّةِ أمْ غَدِ
وإن تكُ قُدَّامي أجذها بمرصدِ
ولم تَنكُ بالبؤسى عدوكُ فابعدِ

ولا خيرَ في خيرٍ ترى الشرَّ ذونهُ
عن المرءِ لا تسألُ وأبصرَ قرينهُ
لعمركُ ما أدري وإنِّي لواجِلُ
فإن تكُ خلفي لا يفتها سواديا
إذا أنتَ لم تنفعَ بِوَدِّك أهلهُ

نماذج من قصائده:

- قال يعاتب أعمامه حينما أبوا أن يقسموا له إرث أبيه!

صغرُ البُؤنِ وزهطُ وردةٍ غُيبُ
حتَّى تظنَّ لَهُ الدِّماءُ تصبُّبُ
بكرُ تُساقِها المنايا تغلبُ
ملحًا يخالطُ بالدُّعافِ ويُقشِبُ
يُعدي كما يُعدي الصَّحيحُ الأجرُبُ
والبرُّ برُّه ليسَ فيه معطِبُ
والكذبُ يألُفه الدُّنيءُ الأخيَبُ
ما غالَ عادًا والقُرُونُ فأشعبوا
إنَّ الكَريمَ إذا يُحربُ يغضبُ

ما تنظرونَ بحقِّ وردةٍ فيكمُ
قد يبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرهُ
والظلمُ فرقَ بينَ حييٍ وإيلِ
قد يُوردُ الظلمُ المُبَيَّنُّ أجنا
وقِرافُ مَنْ لا يستفيقُ دِعارهُ
والإثمُ داءٌ ليسَ يُرجى بُرؤهُ
والصدقُ يألُفه الكَريمُ المرتجى
ولقدَ بدَا لي أَنَّهُ سَيغولني
أدوا الحُقوقَ تفرُّ لكم أعراضكمُ

- وقال في قصيدة رائعة!

تُلوحُ وأدنى عهدِهِنَّ مُحيلُ
يَمانٌ وشثَّةُ ريدةٍ وسُحُولُ
وأسحَمُ وكَافُ العشيِّ هَطُولُ

لِهَندٍ بِجِزَانِ الشَّريفِ طُلولُ
وبالسَّفحِ آياتُ كَأَنَّ رُسومها
أرَبَّتْ بِها نَتاجَةُ تَزدهي الحَصَى

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٨٤): انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٧٤).

^٢ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٧٢-٧٣).

وَلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ كَفِيلٌ
إِذِ الْحَيِّ حَيٌّ وَالْخُلُوفُ خُلُوفٌ

فَفَعَّيْرُنَ آيَاتِ الدِّيَارِ مَعَ الْبَلَى
بِمَا قَدْ أَرَى الْحَيِّ الْجَمِيعَ يَغِيبَةُ

ومنها:

إِذَا ذَلَّ مَوْلى الْمَرءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ
حِصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَائِلٌ
لِمَنْ لَمْ يُرِدْ سَوْءًا بِهَا لَجْهُوٌ
فَمِنْهُمْ عَدُوٌّ يُتَّقَى وَخَلِيلٌ

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ
وَإِنَّ لِسَانَ الْمَرءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ
وَإِنَّ إِمْرَةً لَمْ يَعْفُ يَوْمًا فُكَاهَةً
تَعَارَفَ أَرْوَاحُ الرِّجَالِ إِذَا التَّقَوَّا

- وقال:

كَجَفَنِ الْيَمَانِ زَحْرَفَ الْوَشْيِ مَائِلُهُ
مِنْ النَّجْدِ فِي قِيْعَانَ جَاشَ مَسَائِلُهُ
وَإِذْ حَبْلُ سَلَمَى مِنْكَ دَانَ تَوَاضَعُهُ
لَهَا نَظَرٌ سَاجٍ إِلَيْكَ تُوَاعِلُهُ

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ قَفْرًا مَنَازِلُهُ
بِتَثْلِيثٍ أَوْ نَجْرَانٍ أَوْ حَيْثُ نَلْتَقِي
دِيَارٌ لِسَلَمَى إِذْ تَصِيدُكَ بِالْمُنَى
وَإِذْ هِيَ مِثْلُ الرِّيمِ صِيدَ غَزَالُهَا

- وقال:

لَا تَرَكَ اللهُ لَهَا وَاضِحَةً
مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ

كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالِئُهَا
كُلُّهُمْ أَرْوَعٌ مِنْ نَعْلَبِ

- وقال في قصيدة من روائعه التي تدلُّ على موهبته الشعرية؛ يصف أحواله
وتنقله في البلاد، ولهوه، في قصيدة مطوّلة، نكتفي فقط بذكر مقدماتها
الغزلية:

^١ حِصَاة: العقل. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/٣٢٤).

^٢ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص٧٥).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٩٠).

^٤ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص٦٤).

وَمِنَ الْخُبِّ جُنُونٌ مُسْتَمِرٌّ
لَيْسَ هَذَا مِنْكَ مَاوِيٍّ بِحُرِّ
عَلِقَ الْقَلْبُ بِنُضْبِ مُسْتَسِرِّ
طَافَ وَالزَّكْبُ بِصَحْرَاءِ يُسْرُ
أَخِرَ اللَّيْلِ بِبِعْفُورِ خَدِرِ
فِي خَلِيطِ بَيْنِ بُرْدٍ وَنَمِرِ
وَبِخَدِّي رَشِيًّا آدَمَ غِرِّ
تَقْتَرِي بِالرَّمْلِ أَفْنَانَ الزَّهْرِ

أَصْحَوْتَ الْيَوْمَ أَمْ شَاقَّتْكَ هِرُّ
لَا يَكُنْ حُبُّكَ دَاءً قَاتِلًا
كَيْفَ أَرْجُو حُبَّهَا مِنْ بَعْدِ مَا
أَرَّقَ الْعَيْنَ خَيْالٌ لَمْ يَقْرُ
جَازَتْ الْبَيْدَ إِلَى أَرْحَانَا
ثُمَّ زَارْتَنِي وَصَحْبِي هُجْبَعُ
تَخْلِسُ الطَّرْفَ بَعَيْنِي بُرْغُزِ
وَأَهَا كَشْحًا مَهَاةٍ مُطْفِلِ

٤- زهير بن أبي سلمى

ترجمته:

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح، من قبيلة مُزينة، من بطون إلياس، من مُضرب، نشأ في غطفان، ويبدو أنّ والده أبا سلمى قد اختلف مع أصهاره بخصوص سهمه في إحدى الغارات، فانتقل مع أهله إلى أقارب له من غطفان، وقد تُوفّي، فخلفه على امرأته أوس بن حجر، وهو الذي اعتنى بزهير وأحسن تربيته^١.

ونشأ زهير في أسرة شاعرية؛ فأبوه ربيعة كان شاعرًا، وكذلك زوج أمه أوس ابن حجر، وخاله -أو خال أبيه- بشامة بن الغدير الذي كان سيّدًا مُطاعًا في قومه وعُرف بالشعر والحكمة وسداد الرأى، وكانت غطفان إذا حذب عليها أمرٌ أو قرّرت الغزو؛ رجعت إليه فاستشارته أوّلًا وأخذت برأيه، وكانوا يقسمون له من غنائمهم! فلزمه زهيرٌ وأخذ عنه الزهد والحكمة وسداد الرأى، ولم يُعرف بيت اتّصل فيه الشعر مثل بيت زهير؛ فكانت أخته سلمى والخنساء شاعرتين، وابناه كعب وبُجير، وكذلك حفيده عقبة بن كعب؛ المعروف بالمضرب، وولد حفيده العوام بن عقبة^٢.

وقد نشأ زهير منذ صغره على النُّبل والحكمة والخلق والتّوقُّر والكرم وسداد الرأى وبرع في الشعر، فانتهج نهج زوج أمه أوس بن حجر، وتعلّم الحكمة والشّعر من خاله -أو خال أبيه- بشامة بن الغدير.

وكانت بلاد غطفان في ذلك الوقت مضطربة بسبب حروب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، وكثُر القتل، وثقلت الدّية، إلى أن جاء رجلان من ذبيان؛ هما: هرم ابن سنان والحارث بن عوف، فسعيا إلى الصلح ودفعًا الدّية من مالهما،

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/١٩٥).

^٢ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص٤٢).

^٣ سعي بالمضرب لأنه شبيب بامرأة من بني أسد فضربه أخوها. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٤٢).

فمدحهما زهير في شعره، وكانت له معهما أخبار، حتَّى إنَّ هرم بن سنان أقسم ألا يمدحه زهير أو يسأله أو يسلم عليه إلا ويعطيه، فتحرَّج زهير واستحى من كثرة ما يُغدق عليه من كرمه، حتَّى رُوي أنه إذا كان رآه في ملاٍّ من الناس؛ قال: عَمُوا صباحًا إلا هَرَمًا، وخيرَكم استثنيتُ؛ وسبق ذكر إشادته كذلك بحسن ابن حذيفة سيّد غطفان ومواقفه الشجاعه ضد المناذرة والغساسنة.

وقد تزوّج زهير من امرأة تسمّى أم أوفى، فلم تستقم حياته معها وطلّقها، ثم تزوّج بكبشة بنت عمار، من غطفان، فولدت له كعبًا وبُحيرًا، وقد أدركا الإسلام وأسلما، وقد عاش بين قومه على الرّزانة والحكمة والرأي السّديد، داعيًا إلى الخير والصلاح، بعيدًا عن الحروب والعصبيّات والأحقاد، وقد عمّرَ طويلًا حتّى مات قُبيلَ بعثة النّبِيِّ ﷺ، ويبدو من خلال شعره أنه قد شكَّ في دين قومه، وأنّه كان يؤمن بالله وبالبعث، وغير بعيد أنّه كان ينتظر بعثة النّبِيِّ ﷺ، وقد تُوفّيَ قبلها بقليلٍ سنة ٦١٠ م، ويُستدلّ من شعره أنه قد نيّف على المئة أو نحو ذلك.

شعره:

يعتبر زهير بن أبي سلمى من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية بإجماع النقاد وأهل الأدب، وهو علّمٌ من أعلامها بلاد جدال، وساعده على نيل تلك المنزلة أنه نهل الشعر والحكمة في أسرة شاعرية راقية عاش بينها وترعرع فيها، وهناك من يفضّله على امرئ القيس والنابغة الذبياني، ورُوي أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان يفضّله في الشعر ويقول فيه: "كان لا يعاظم آبين القول ولا يتبع وحشيّ الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"، حتّى إنه قال لبعض ولد هريم وقد وفد عليه: أنشدني بعض ما قال فيكم زهير؛ فأنشده، فقال: لقد كان يقول

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ٥٢).

^٢ لا يعاظم؛ أي: لا يحمل الكلام على بعض، ولا يكرّر اللفظ والمعنى. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١/٤٥٧).

فيكم فيحسن؛ فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنا كنا نعطيه فنجزل؛ فقال عمر: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم!

وقد أخذ زهير الشعر من بشامة بن الغدير وزوج أمه أوس بن حجر، وكان أستاذًا للحطيئة وولده كعب بن زهير، وقد سئل عنه الحطيئة فقال: ما رأيت مثله في تكفّيه أكناف القوافي، وأخذه بأعنتها حيث شاء اختلاف معانها؛ امتداحًا وذمًا؛ وقال أبو عبيدة: إنه أمدحُ القوم وأشدُّهم أسرَ شعراً؛ وقال الأصمعي: إنه هو والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر؛ لأنهم نقَّحوه ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين!

ويمتاز شعر زهير بالجزالة وقوة الأسلوب وصدق العاطفة والوضوح الفكري والهدوء والواقعية ودقّة الوصف، وإصابة المعنى بقليل من الألفاظ، والبعد عن التكلف والصنعة المفتعلة، وفي شعره بعض الخشونة؛ تأثرًا بطبيعته البدوية، وقد برع زهير في الحكمة؛ التي اكتسبها من تجاربه الحياتية ومن ملازمته خاله - أو خال أبيه - بشامة بن الغدير، وبرع كذلك في المديح؛ حيث اختص بمديحه سادة قومه، وامتاز مديحه بصدق العاطفة والبعد عن الغلوّ والإغراب، ويجنح في شعره أحيانًا إلى الهجاء، وذكر مكارم الأخلاق، والدعوة إلى السلم ونبذ الحرب، فضلًا عن بعضٍ من الغزل، وقد عُني زهير باختيار ألفاظه وتنقيح شعره وتدبيجه وتهذيبه، حتى قيل: إنه كان ينظّم القصيدة أحيانًا ثم يهدّجها وينقّحها في أشهرٍ ثم يعرضها على أصحابه وخاصّته في أشهرٍ أُخرى، ثم تخرج للعلن، فتستغرق مدتها حوْلًا كاملًا، وسُمّيت قصائده التي على هذا النحو بالحوْلِيَّات، ومن بينها معلقته.

وشعر زهير يدلُّ إلى حدٍّ بعيد على أخلاقه وسُمُوّه وصفاته التي تمتاز بالحكمة والرّويّ ومكارم الأخلاق والدعوة إلى الخير والصلاح والبعد عن العصبية والحروب، وفيه قدرٌ من الزهد والتّحنُّف؛ ممّا يدلُّ على إيمانه بالله وبالبعث.

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٤٤).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٧٨).

معلقته:

سبب نظم تلك المعلقة هو ما حدث في حرب داحس والغبراء التي استمرت ردحاً طويلاً من الزمن بين عبس وذبيان، حتى سُفِكَ الدم وثُقِلَت الدية، فتقدّم هرم ابن سنان والحارث بن عوف ودفعا الدية كاملة لجمع القتلى، فانهت الحرب وحلّ السلام، حتى إنّ رجلاً من ذبيان حاول إفساد الصلح فقتل رجلاً من عبس ثأراً بأبيه، فاحتمل الحارث بن عوف ديتته وحقن الدم، وأنشد زهير معلقته تلك يمدح الرجلين.

ومعلقة زهير هي قصيدة مطوّلة نحو ستين بيتاً، بدأها بمقدمة طليعية غزلية يذكر فيها حبيبته أمّ أوفى وبعض الأماكن، ثم انتقل إلى الوصف، ثم ذكر ما كان من آثار حرب داحس والغبراء، ثم أسهب في مدح الرجلين هريم والحارث؛ ليختتم معلقته بجملة من أطيب النصائح والحكم الرائعة، والمعلقة تنمّ في النهاية عن شيخ ذي عقل وحكمة، طال به العمر فرغب عن الحياة وزهد في الدنيا، وتُفصح في مضمون أبياتها عن صفات زهير؛ الذي تمتاز بالاتزان والواقعية والسمو ومكارم الأخلاق. ومما جاء فيها!

بِحَوَامَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَنَّمِ	أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ
مَرَاجِيْعُ وَشَمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ	وَدَارٌ لَهَا بِالرُّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا
وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثِمِ	بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَةً
فَلَأَيَّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ	وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً
وَنُؤْيَا كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَنَّمِ	أَثَافِي سُنْفَعًا فِي مُعْرَسِ مِرْجَلِ
أَلَا انْعَمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الرِّبْعُ وَاسْلَمِ	فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا
*	*
تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ العَشِيرَةِ بِالدَّمِ	سَعَى سَاعِيَا غَيْظِ بِنِ مُرَّةٍ بَعْدَمَا

¹ وفق ما ورد في جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ١٥٣-١٧٩).

² تبزّل: تشقّق. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١/٥٢).

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ
يَمِينًا لِنِعَمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا
تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَدُبْيَانَ بَعْدَمَا
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّ نُدْرِكَ السَّلْمَ وَإِسْعَا
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ
عَظِيمَيْنِ فِي غُلْيَا مَعَدِّ هُدَيْتُمَا
* * *

أَلَا أُبْلِغِ الْأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً
فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ
وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ
* * *

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلُنُهُ
وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيُبْخَلُ بِفَضْلِهِ
* * *

وَمَنْ لَا يَدُذُّ عَنِ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ
وَمَنْ لَمْ يُصَانَعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ
لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فَوَادُهُ
وَإِنَّ سَفَاهَ الشَّيْخِ لَا حِلْمَ بَعْدَهُ
سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ

رِجَالًا بَنَوُهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجَرَهُمْ
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ
تَفَانُوا وَذُقُوا بَيْنَهُمْ عِطَرَ مَنْشَمٍ
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسَلَمٍ
بَعِيدِينَ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْتَمٍ
وَمَنْ يَسْتَبِيحُ كَنْزًا مِنَ الْمَجْدِ يَعْظُمُ
* * *

وَدُبْيَانٍ: هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مُقْسَمٍ
لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمُ اللَّهُ يَعْلَمُ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمُ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ
* * *

وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ
عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَعْنَى عَنْهُ وَيُدْمَمُ
* * *

يُهَدَّمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
يُضْرَسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمٍ
يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّيْءَ يُشْتَمُ
يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمًّا عَلَيْهِ وَيُنْدَمُ
وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالذَّمُ
وَإِنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَخْلُمُ
نَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمُ

ولكنني عن علم ما في غد عم
 ثمته ومن تخطئ يعمز فيهم
 ومن يكثّر التسأل يوماً سيحرم

وأعلم ما في اليوم والامس قبله
 رأيت المنايا خبط عشواء من نصب
 سألنا فأعطيتم وعُدنا فعُدتم

نماذج من قصائده!

- قال يمدح سنان بن أبي حارثة المري:

وأقفر من سلمى التّعانيقُ فالنقلُ
 على صيرِ أمرٍ ما يمُر وما يحلو
 مضت وأجمت حاجة الغد ما تخلو
 سلو فؤادٍ غير حبك ما يسلو
 هجعت ودوني قلّة الحزن فالرملُ
 وما سحقت فيه المقادير والقمّلُ
 إلى الليل إلا أن يعرجني طفلي
 أصاغرهم وكلّ فحل له نجلُ
 * * *

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
 وقد كنت من سلمى سنين ثمانياً
 وكنت إذا ما جئت يوماً لحاجة
 وكلّ محبٍ أحدث النأي عنده
 تأوئني ذكر الأجابة بعدما
 فأقسمت جهداً بالمنازل من منى
 لأرتحلن بالفجر ثم لأدأبن
 إلى معشرٍ لم يورث اللوم جدّهم
 * * *

وكانوا قديماً من مناياهم القتلُ
 سوايغ بيض لا تحرقها النبلُ
 ضروس تهرّ الناس أنباها غضلُ
 * * *

وإن يقتلوا فيشتقى بدماهم
 عليها أسود ضاربات لبوسهم
 إذا لقت حرب عوان مضرّة
 * * *

هم بيننا فهم رضا وهم عدلُ
 من الغم لا يلقى لأمثالها فضلُ
 مطاع فلا يلقى لحزمهم مثلُ
 * * *

متى يشتجر قوم تفل سرواتهم
 هم جدّوا أحكام كل مضرّة
 بعزمة مأمور مطيع وأمر
 * * *

١ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٤٨-٤٩).

إِذَا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ بِالنَّاسِ أَجَحَفَتْ
رَأَيْتَ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ
هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْبَلُوا الْمَالَ يُخْبِلُوا
وَفِيهِمْ مَقَامَاتُ حِسَانٍ وَجُوهُهُمْ
عَلَى مُكْتَرِبِهِمْ رِزْقٌ مَنْ يَعْتَرِبُهُمْ
وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ

وَنَالَ كِرَامَ الْمَالِ فِي الْجَحْرَةِ الْأَكْلُ
قَطِينًا بِهَا حَتَّى إِذَا نَبَتَ الْبَقْلُ
وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا
وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ
وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
مَجَالِسٌ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ

- وقال في مطلع قصيدته التي يمدح فيها حصن بن حذيفة على موقفه الشجاع تجاه ملك الحيرة عمرو بن هند، حينما قتل أباه، ثم طمع في إخضاعه وقومه، فأرسل إلى ولده حصن قائلاً: إني مُمِدُّكَ بخيلٍ، فادخل في مملكتي وأجعل لك ناحية من الأرض؛ فأرسل إليه حصن قائلاً: ما كنتُ قطُّ أفرغَ لحربك مِيَّ الآن ولا أكثرَ عِدَّةً، فإن كنتَ لا يكفيك ما جرب أبوك؛ فدونك لا تعتل، فإنه ليس لي حصنٌ إلا السيوف والرماح، وأنا لك بالفضاء؛ ثم ما لبث أن أقبل إليه مع أسد وغطفان، فصدَّ عنه عمرو ابن هند وكره قتاله وانشمر راجعاً، وقد أوردنا بعض أبيات هذه القصيدة في إطار حديثنا حول المديح، فنكتفي هنا بذكر المقدمة الطللية:

صَحَا الْقَلْبُ عَنِ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ
وَأَقْصَرَتْ عَمَّا تَعْلَمِينَ وَسُدِّدَتْ
وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَّاجِلُهُ
عَلَيَّ سِوَى قَصْدِ السَّبِيلِ مَعَادِلُهُ
وَقَالَ الْعِذَارَى إِنَّمَا أَنْتَ عَمَّنَا
وَأَصْبَحْتُ مَا يَعْرِفُنَ إِلَّا خَلِيقَتِي
وَكَانَ الشَّابُّ كَالْخَلِيطِ نُزَائِلُهُ
وَإِلَّا سَوَادَ الرَّأْسِ وَالشَّيْبُ شَامِلُهُ

^١ أنظر قصة حصن بن حذيفة مع ملك الحيرة عمرو بن هند في هوامش أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشنتمري، طبعة دار الفكر (ص ٢٩٦).



- وقال يمدح هرم بن سنان، في قافيةٍ بديعةٍ هي من عيون الشعر الجاهلي:

إِنَّ الْخَلِيْطَ أَجَدَّ الْبَيْنِ فَانْفَرَقَا وَعَلِقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءِ مَا عَلِقَا
وَفَارَقْتِكَ بِرَهْنٍ لَا فِكَكَ لَهُ يَوْمَ الْوُدَاعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ عَلِقَا
وَأَخْلَفْتُكَ ابْنَهُ الْبَكْرِيِّ مَا وَعَدْتُ فَأَصْبَحَ الْخَبْلُ مِنْهَا وَاهِبًا خَلِقَا
* * * * *

القَائِدَ الْخَيْلَ مَنْكُوبًا دَوَابِرَهَا قَدْ أَحْكَمْتَ حَكَمَاتِ الْقَدِّ وَالْأَبْقَا
غَزَتْ سِمَانًا فَآبَتْ ضَمْرًا خُدْجًا مِنْ بَعْدِ مَا جَنَّبُوهَا بُدْنًا عُقْقَا
حَتَّى يَوْوَبَ بِهَا عَوْجًا مُعْطَلَةً تَشْكُو الدَّوَابِرَ وَالْأَنْسَاءَ وَالصُّفْقَا
يَطْلُبُ شَأَوْ امْرِيْنٍ قَدَّمَا حَسَنًا نَالَا الْمُلُوكَ وَبَدَأَ هَذِهِ السُّوْقَا
هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقْ بِشَأَوْهِمَا عَلَى تَكَالِيْفِهِ فَمِثْلُهُ لِحِقَا
أَوْ يَسْبِقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهْلٍ فَمِثْلُ مَا قَدَّمَا مِنْ صَالِحِ سَبْقَا
أَغْرُ أَبِيضُ فَيَاضُ يُفَكِّكَ عَنِ أَيْدِي الْعُنَاةِ وَعَنِ أَعْنَاقِهَا الرِّبْقَا
وَذَاكَ أَحْزَمُهُمْ رَأْيًا إِذَا نَبَأُ مِنَ الْحَوَادِثِ غَادَى النَّاسَ أَوْ طَرَقَا
فَضَلَ الْجِيَادِ عَلَى الْخَيْلِ الْبِطَاءِ فَلَا يُعْطِي بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا نَزَقَا
قَدْ جَعَلَ الْمُتَبَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا
وَلَيْسَ مَانِعٌ ذِي قُرْبَى وَذِي نَسَبٍ يَوْمًا وَلَا مُعَدِمًا مِنْ خَابِطٍ وَرَقَا
إِنْ تَلَقَ يَوْمًا عَلَى عَلَاتِهِ هَرَمًا تَلَقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقَا
* * * * *

لَوْ نَالَ حَيٍّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ أَفُقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الْأَفُقَا

- وقال:

إِنَّ الرِّزِيَّةَ لَا رَزِيَّةَ مِثْلَهَا مَا تَبْتَغِي غُظْفَانِ يَوْمَ أَضَلَّتْ
إِنَّ الرِّكَابَ لَتَبْتَغِي ذَا مِرَّةٍ بِجُنُوبِ نَخْلٍ إِذَا الشُّهُورُ أُحْلَلَتْ

^١ الربق: جمع ربقة وهو جبل طويق. انظر هوامش أشعار الشعراء الستة للجاهلين، الأعلام الشنتمري، طبعة دار الفكر (ص ٣٠٧)

يُنْعُونَ خَيْرَ النَّاسِ عِنْدَ كَرِيهَةٍ عَظُمَتْ رِزْيَاتُهُمْ هُنَاكَ وَجَلَّتْ
وَلَنِعَمَ حَشْوُ الدَّرْعِ أَنْتَ لَنَا إِذَا نَهَلْتِ مِنَ العَلَقِ الرِّمَاحُ وَعَلَّتِ

- وقال يمدح هرم بن سنان في قصيدة أخرى:

إِنَّ البَخِيلَ مُلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلاَ كِنَّ الجَوَادَ عَلَى عِلَاتِهِ هَرِمُ
هُوَ الجَوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفُوا وَيُظْلِمُ أَحْيَانًا فَيَظْلِمُ
وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ لاَ غَائِبٌ مَالِي وَلاَ حَرِمُ
* * * * *
وَمِنْ ضَرِيبَتِهِ التَّقْوَى وَيَعْصِمُهُ مِنْ سَيِّئِ العَثَرَاتِ اللهُ وَالرَّحْمُ
مُورَثُ المَجْدِ لاَ يَغْتَالُ هَمَّتَهُ عَنِ الرِّيَاسَةِ لاَ عَجْزٌ وَلاَ سَأْمُ

٥- عمرو بن كلثوم

ترجمته:

هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب التغلبي، وأمّه ليلى بنت المهلهل، نشأ في الجزيرة الفراتية، وكان كأبيه وجدّه لأمه فارسًا شجاعًا أبيًا عزيز النفس، وقد ساد قومه تغلب في الخامسة عشرة من عمره، وشهد طرقًا من حرب البسوس التي كانت بين بكر وتغلب، واشترك فيها حتى توقفت الحرب وأصلح بين الحيين ملك الحيرة عمرو بن هند، بعد أن أخذ رهائن من القبيلتين ضمانًا للصالح، وكان سادة القبيلتين يفتدون عليه.

ورغم توقّف الحرب فإن آثار العداوة القديمة كانت لا تزال باقية وكان سادات القبيلتين يتلاحنون أحيانًا في مجالس عمرو بن هند؛ الذي كان بدوره مغرورًا معجبًا بنفسه، واتفق أن اختلف الحيان مجددًا واحتكما إلى عمرو بن هند؛ الذي مال أولًا إلى تغلب، إلى أن ألقى عليه الحارث بن حلزة اليشكري شاعر بكر معلّته المشهورة مادحًا إياه، فأعجب بها عمرو بن هند ومال إلى البكرين ضد تغلب، فانصرف عنه عمرو بن كلثوم مغضبًا!

واتفق مرة أن عمرو بن هند قال يومًا لندمائه: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمّه من خدمة أمي؟ فقالوا نعم؛ عمرو بن كلثوم؛ فقال: ولم؟ قالوا: لأنّ أباه مهلهل بن ربيعة، وعمّها كليب أعزُّ العرب، وبعلمها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيّد قومه؛ فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو ابن كلثوم يستزيره وأمّه، فأقبل معه أمه وعدد من وجوه بني تغلب، ودخل عمرو ابن كلثوم على ابن هند في رواقه، ودخلت أمّه ليلى على هند في قُبّة بجوار الرواق، وكان ولدها الملك قد طلب منها أن تصرف الخدم حين مقدم ليلى، وأغراها أن تستعملها في حاجتها لخدمتها، ثم دعا إلى مائدة فنصّبها، فلمّا أكلوا قالت هند لليلى: ناولينى ذلك الطبق؛ فأبت عليها ليلى وقالت: لتقم صاحبة

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ٦٧).

الحاجة إلى حاجتها؛ فألحَّت عليها هند وأعادت، فصاحت ليلي قائلة: واذلَّاه، يا لتغلب!! فلمَّا سمعها عمرو بن كلثوم ثار وغضب ونهض من فوره إلى سيف ابن هند المعلق في الرواق فقتله ثأراً لأُمِّه، ونادى في قومه التغلبيين، فانتبهوا وانصرف بهم عائداً إلى الجزيرة الفراتية. وفي هذا يقول الفرزدق الشاعر الأموي رداً على معاصره جرير في هجائه لتغلب:

ما ضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتها أم بُلتَ حيثُ تناطَحَ البحرانِ
قومٌ همُ قتلوا ابنَ هندٍ عُنوةً عمراً وهمُ قسطوا على النعمانِ

وقد عمّر عمرو بن كلثوم طويلاً حتى مات في أواخر القرن السادس الميلادي، حيث تزعم رواية أنه أُسر في إحدى غاراته ضد بني حنيفة، فلم يزل يشرب خمراً حتى هلك، وفي رواية مختلفة أن وفاته كانت طبيعية بعدما امتدَّ به العمر حتى بلغ نحو مئة وخمسين سنة، وأنه وهو جد الشاعر كلثوم بن عمرو العتابي أحد شعراء القرن الثالث الهجري في العصر العباسي.

شعره:

شعر عمرو بن كلثوم أنيق الحرف، رائق الأسلوب، وهو شاعر مُجيد موهوب، غير أنَّه لم يصلنا من شعره إلا معلقته وبعض المقطوعات الصغيرة، ولا ندري أكان -على علو منزلته وارتقاء موهبته- مُقللاً، أم ضاع أغلب شعره فيما ضاع من الشعر الجاهلي، ويدور ما انتهى إلينا من شعره حول الحماسة والفخر ووصف الخمر، وضعه ابن سَلَّام في الطبقة السادسة من طبقات الشعراء مع عنتره والحارث بن حلزة.

معلقته:

نظّم عمرو بن كلثوم معلقته على الأرجح في فترتين مختلفتين، بعضها كان وقت التحكيم؛ لاستمالة الملك، وبعضها الآخر كان بعد مقتل الملك، وهي نونية من

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٢٩).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٣٠).

بحر الوافر، وتمتاز بسلاستها وعدوبتها وإيقاعها الأنيق الرشيق وروعة ما فيها من فخر وحماسة؛ إذ يُعتبر الفخر موضوعها الرئيس، وهي عامرة بالحماسة وروح العزة والثورة ورفض الضيم، وهي سهلة الانقياد وذات جرس موسيقي أنيق، مما يَسَّرَ علوقها بالذهن والحافظة،. وقيل عنها: لو وضعت أشعار العرب في كفة وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفة لمالت بأكثرها! ويُروى أَنَّ مُعَلِّقته بلغت ألف بيت، ولكن لم تصلنا منها إلا نحو مئة بيت على اختلاف الروايات وربما ما رُويَ عن عدد أبياتها كان ضربًا من المبالغة، وقد افتتحها بخمريَّةٍ بديعةٍ حيث أجاد في وصف الخمر، وسط جَوِّ من الغزل، وأبدع إبداعًا، ثم نراه ينتقل إلى الحماسة ثم إلى الغزل والنسيب، ثم يذكر حادثة عمرو بن هند؛ معاتبًا إياه على ميله إلى بكر على قومه، ثم يفتخر بقومه ويعيد مآثرهم ويذكر أعلامهم وفرسانهم في أغلب أبيات معلِّقته، ولا تخلو معلِّقته من الحكمة والوصف، وقد أشدها خطيبًا في سوق عكاظ في موسم مكة، وكانت تغلب تعظّم تلك القصيدة وتكثر روايتها حتى قيل فيها من قبل بعض الشعراء!

أَلْهَى بَنِي تَغَلِبٍ عَنِ كَلِّ مَكْرَمَةٍ قَصِيدَةً قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوْلَاهُمْ يَا لِلرِّجَالِ لِفَخْرٍ غَيْرِ مَسْؤُومٍ

ومن أبياتها:

أَلَا هُبَيْي بِصَحْنِكَ فَاصْبَجِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
مُشَعَّشَةً كَأَنَّ الْخُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا
تَجُورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنِ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا
تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أَمِرَتْ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٣٠).

^٢ انظر: المصدر السابق.

^٣ انظر: جهمرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٢٧٢-٣٠٤).

^٤ الأندرينا: قرية جنوبي حلب، وهي الآن خربة. انظر هوامش الجهمرة، طبعة دار الكتب العلمية.

^٥ اللحز: البخيل. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥/ ٤٠٤).

* * * * *

<p>رَأَيْتُ حُمُولَهَا أَصْلًا حُدِينَا كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِي مُصَلِّتِينَا أَضَلَّتْهُ فَرَجَعَتْ الْحَيْنَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>وَأَنْظَرْنَا نُحْبِزَكَ الْيَقِينَا وَأُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>وَنَحْمِلُ عَنْهُمْ مَا حَمَلُونَا نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى نَبِينَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>نَكُونُ لِقَبِيلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا تَرَى أَنَا نَكُونُ الْأَرْدَلِينَا نُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا مَتَى كُنَّا لِأَمِّكَ مَقْتُونِينَا عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>أَبَاحَ لَنَا حُصُونَ الْمَجْدِ دِينَا زُهَيْرًا نَعْمَ نُدْخِرُ الذَّاخِرِينَا بِهِمْ نُنَا ثَرَاةَ الْأَكْرَمِينَا بِهِ نُحْمِي وَنَحْمِي الْمُحَجَّرِينَا فَأَيُّ الْمَجْدِ إِلَّا قَدْ وَلِينَا تَجِدُّ الْحَبْلَ أَوْ تَقْصِ الْقَرِينَا</p>	<p>تَذَكَّرْتُ الصِّبَا وَاشْتَقْتُ لَمَّا وَأَعْرَضْتُ الْيَمَامَةَ وَاشْمَخَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ كَوْجِدِي أَمْ سَقُبُ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعَجَلْ عَلَيْنَا بِأَنَا نَوْرُ الرِّيَاطِ بِيضًا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>نَعْمُ أَنَا سَنَا وَنَعِيفُ عَنْهُمْ وَرِثْنَا الْمَجْدَ، قَدْ عَلِمْتُ مَعَدُّ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بِنِ هِنْدٍ بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بِنِ هِنْدٍ بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بِنِ هِنْدٍ تُهَدِّدُنَا وَتُوَعِدُنَا، رُوَيْدًا وَإِنَّ قَنَاتِنَا يَا عَمْرُو أَعَيْتُ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بِنِ سَيْفٍ وَرِثْتُ مَهْلَهْلًا وَالْخَيْرَ مِنْهُ وَعَتَابًا وَكُلْثَوْمًا جَمِيعًا وَذَا الْبُرَّةِ الَّذِي حُدِثَتْ عَنْهُ وَمِنَّا قَبْلَهُ السَّاعِي كُلَيْبُ مَتَى نَعْقِدُ قَرِينَتَنَا بِحَبْلِ</p>
--	--

^١ مقتوينا: خدماً. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٥/ ١٧٠).

* * * *

<p>إِذَا قُبِّبَ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا أُتِينَا وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا وَأَنَا الْآخِذُونَ لِمَا هَوِينَا وَأَنَا الصَّارِبُونَ إِذَا ابْتُلِينَا يَخَافُ النَّازِلُونَ بِهِ الْمُتُونَا وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدْرًا وَطِينَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>أَبِينَا أَنْ نُقَرَّ الْخَسْفَ فِينَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا وَنَضْرِبُ بِالْمَوَاسِي مِنْ يَلِينَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>وَلَدْنَا النَّاسَ طُرًّا أَجْمَعِينَا كَذَلِكَ الْبَحْرُ نَمْلُؤُهُ سَفِينَا تَخْرُ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>وَإِنْ نُغْلِبُ فَنَغْلِبُ مُغْلَبِينَا</p>	<p>وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ غَيْرَ فَخْرٍ بِأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا وَأَنَا الْمُنْعِمُونَ، إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَا الْحَاكِمُونَ بِمَا أَرَدْنَا وَأَنَا التَّارِكُونَ لِمَا سَخِطْنَا وَأَنَا الطَّالِبُونَ إِذَا نَقَمْنَا وَأَنَا النَّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرِ وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسِ خَسْفًا أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا وَنَعْدُو حَيْثُ لَا يُعْدَى عَلَيْنَا</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>كَأَنَّا وَالسُّيُوفُ مَسَلَاتُ مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا رَضِيعُ</p> <p style="text-align: center;">* * *</p> <p>فَإِنْ نُغْلِبُ فَنَغْلِبُ قَدَمًا</p>
--	---

نماذج من شعره:

- رُوي له في ديوان الحماسة!

مَعَاذَ الْإِلَهِ أَنْ تُنْوَحَ نِسَاؤُنَا
قِرَاعُ السُّيُوفِ بِالسُّيُوفِ أَحَلَّنَا
فَمَا أَبَقَتِ الْأَيَّامُ مِلْمَالٍ عِنْدَنَا
ثَلَاثَةٌ أَثْلَاثٌ فَأَثْمَانُ خَيْلِنَا

على هالكٍ أو أن نضج من القتلِ
بأرضٍ براحٍ ذي أراكٍ وذي أثلِ
سوى جذمٍ أدوادٍ مُحَدَّفَةِ النَّسْلِ
وأقواتنا وما نسوقُ إلى القتلِ

^١ انظر: شرح ديوان الحماسة، التبريزي (ص ٣٤٠)

٦- الحارث بن حلزة

ترجمته:

هو أبو الظليم الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري البكري؛ كان في بكر مثلما كان عمرو بن كلثوم في تغلب؛ شاعراً وسيّداً فيها، وكان قد أصيب بالبرص، وقد شهد هو أيضاً طرفاً من حرب البسوس وشهد الصلح الذي أجراه عمرو بن هند بين الفريقين، ويُروى أنّ عمراً قد أخذ رهائن من القبيلتين؛ ضماناً للصلح، وليكفّ بعضهم عن بعض، فمَن بغي؛ اقتصَّ ممن هم عنده، وحدث أن سرَّح الملك ركباً من تغلب في بعض حاجته فوردوا ماءً لبكر، فزعمت تغلب أنهم منعه فهلكوا عطشاً، وزعمت بكر أنهم سقوهم وأرشدوهم فأهلكتهم رياح السَّموم، واختصم الفريقان لدى عمرو بن هند ووفدا إليه، وكان هواه مع التغلبيّين، فأثار ذلك الحارث بن حلزة، وكان من وفد بكر، فقام ومدح الملك بمعلّقتة الشهيرة تلك؛ التي ارتجلها ارتجالاً، واستطاع ببلاغته وحرصانته وهدوئه أن يسيطر على الموقف ويردّ الأمر لصالح بكر، وحازت قصيدته على إعجاب عمرو بن هند؛ الذي قرَّب الحارث من مجلسه ومال إلى بكر، وزاد من ميله ذلك نفوره من عمرو بن كلثوم؛ لأن الأخير في قصيدته أسهب في الفخر بقومه ولم يمدحه كما فعل الحارث، وسرعان ما أغدق عمرو بن هند على بكر؛ فردّ إليهم من كان بيده من رهائن، ثم تطوّر الأمر بأن حاول استفزاز عمرو بن كلثوم وإذلال أمّه ليلي بخدمة والدته، فانتهى الأمر بأن قتله عمرو بن كلثوم كما فصلناه فيما سبق، وقد عمّر الحارث طويلاً، وزعم الأصمعي أنه أنشد معلّقتة تلك وهو ابن مئة وخمسي وثلاثين سنة.^١

^١ انظر: الأغاني، الأصمعي (٢٩/١١).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١٩٣/١).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، طبعة دار الأفكار، بيروت (ص٥٢).

شعره:

شعر الحارث بن حلزة أنيق عذب، حسن الدِّيابة، فصيح اللَّفظ، ولكلامه إيقاعٌ موسيقيٌّ جميل، وهو يجيد سبك اللفظ على المعنى، وشعره بسيط التركيب، سهل الفهم، أقرب منالاً، يمتاز بالاتزان والروعة الفنية ودقة الوصف، وقد وصلنا غير معلقته قليلٌ من شعره، وهو يدور حول الفخر والحماسة والمديح والحكمة والغزل، وضعه ابن سَلَّام في الطبقة السادسة من الشعراء مع عمرو بن كلثوم وعنترة.

معلقته:

اشتهر الحارث بمعلقته تلك، وقد ذكرها حمَّاد الراوية من بين المعلقات ولم يذكرها أبو زيد القرشي، وعلى كل حال فقد ذاعت شهرة تلك المعلقة؛ التي امتازت بروعة السبك وبساطة الأسلوب وسهولة المأخذ، وهي على البحر الخفيف، ويروى أنه ألقاها من وراء سجف؛ ليُخفيَ البرص الذي كان به، حتى أمر عمرو بن هند برفع السجف عنه؛ إعجاباً بها واستحساناً لقوله، وقيل: إنه كان متوكئاً على عترة فتركت على جسده أثراً وهو لا يشعر؛ من شدة إثارته وغضبه، وقد دافع فيها الحارث عن قومه وذكر مفاخرهم، ومدح الملك مدحاً جعله يميل إليه، وقد امتاز الحارث فيها "بقوة الفكر وقوة الحجّة" وحسن التسلسل والترتيب؛ "حيث جمعت لهجته الليونة والنعمومة إلى القوة، والتلميح إلى المصارحة، والمدح إلى الإثارة؛ فدخلت قلب الملك من غير حاجز"، وهي تجسّد فصاحة الحارث وبلاغته وورصاته وقدرته على الجذب والإقناع؛ مما جعل عمرو بن هند يميل إليهم وينقلب على التغلبيين؛ لأنّ الحارث هنا بسط مفاخر قومه ودافع عنهم بشيء من الحماسة ثم مدح الملك متقرِّباً منه، بخلاف عمرو بن كلثوم الذي فاخر بقومه اعتزازاً وحماسة وهو ما لم يُعجب عمرو ابن

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٩٣).

^٢ نقلًا عن تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/١٨٣).

هند، ورأى في ذلك استعلاءً ونديةً في بلاطه، فمال إلى الحارث، فانصرف عنه عمرو بن كلثوم مغضباً.

والقصيدة يفتتحها الحارث بمقدمة غزلية ذات وقفة تأملية تسترعي الانتباه، ثم يضمن مقدمته وصف الناقة والديار، ثم يتجه إلى الدفاع عن قومه بمخاطبة أبناء عمومته الأراقم من بني تغلب معاتباً إياهم ومفتخراً بقومه، ومقرناً فخره بغدر تغلب بهم على حد قوله، ثم ينتقل إلى مدح الملك عمرو ابن هند وآله، فأسهب في مديحه وذكره، ثم يختتم معلقته بالعودة إلى الفخر بمآثر قومه، في إطار من الهدوء الفكري والوضوح والترتيب والبرهان، غير أن القصيدة لم تسلم من التبديل والتحريف واختلاف الألفاظ وتقديم وتأخير الأبيات؛ بسبب اختلاف الرواة، ومن أبياتها:

أَدْنَتْنا بِبَيْنِها أَسْماءُ	رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ
بَعْدَ عَهْدٍ لَهَا بِبُرْقَةٍ شَمًا	ءَ فَأَدْنَى دِيَارِها الخَلْصَاءُ
فَالْمُحَيَاةُ فَالْصِّفَاخُ فَأَعْلَى	ذِي فَتَاقٍ فَعَاذِبُ فَالْوَفَاءُ
فَرِيَاضُ القَطَا فَأَوْدِيَةُ الشُّر	بُوبِ فَالشُّعْبَتَانِ فَالأَبْلَاءُ
لَا أَرَى مَن عَهْدَتْ فِيها فَأَبْكَى الـ	يَوْمَ دَلَّها وَمَا يَرُدُّ البُكْاءُ
وَبِعَيْنَيْكَ أَوْقَدْتَ هِنْدُ النَّا	رَ أَخيراً ثَلَوِي بِها العَلِياءُ
*	*

وَأَتانا مِنَ الحِوَادِثِ والأَنْبِ	بِاءِ خَطْبٍ نُغْنِي بِهِ وَنُساءِ
إِنَّ إِخْوانِنا الأَراقِمَ يَغْلُو	نَ عَلَيْنا فِي قَوْلِهِم إِحْفاءِ
يَخْلِطُونَ البَرِيءَ مِنا بِذِي الذَّنِّ	بِ وَلَا يَنْفَعُ الخَلِيَّ الخِلاءِ
رَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَن ضَرَبَ العِي	رَ مُوالِ لَنا وَأَنا الوِلاءِ
أَجْمَعُوا أَمْرَهُم عِشاءَ فَلَمَّا	أَصَبَحُوا أَصَبَحَتْ لَهُم صَوْضاءِ

^١ انظر: منتهى الطلب في أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٤٩).

^٢ دلها: حيرة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/٤٨٨).



هَالِ خَيْلٍ خِلَالِ ذَاكَ رُغَاءِ

*

*

شَيْ وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ النَّثَاءِ
هَذَا إِلَيْنَا تُشْفَى بِهَا الْأَمْلَاءُ
قَبِ فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ
سُ وَفِيهِ الْإِسْقَامُ وَالْإِبْرَاءُ
مَضَّ عَيْنًا فِي جَفْنِهَا الْأَقْدَاءُ

*

*

لِ وَلَا يَنْفَعُ الذَّلِيلَ النَّجَاءُ
رَأْسُ طُؤِدٍ وَحَرَّةٌ رَجَالَاءُ
مَلَكُ الْمُنْذِرُ بِنُ مَاءِ السَّمَاءِ
جَدُّ يَوْمًا فِيمَا لَدَيْهِ كِفَاءُ

*

*

تَتَعَاشَرُونَ فِي التَّعَاشِي الدَّاءِ
دَمٌ فِيهِ الْغُهْوُودُ وَالْكَفَّالَاءُ
قُضُ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءِ
مَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سَوَاءُ

*

*

مِ الْحَيَارِينَ وَالْبَلَاءِ بَلَاءِ

مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَصَدَّقْ

*

*

مَلِكُ مُقْسِطٍ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمُ
أَيُّمَا خُطَّةٍ أَرَدْتُمْ فَأَدُّو
إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةٍ فَالْصَّا
أَوْ نَقَشْتُمْ فَالنَّقْشُ يَجْشَمُهُ النَّا
أَوْ سَكْتُمْ عَنَّا فَكَنَّا كَمَنْ أَعَدَّ

*

*

لَا يُقِيمُ الْعَزِيزُ فِي الْبَلَدِ السَّهْوُ
لَيْسَ يُنْجِي الَّذِي يُوَأْتِلُ مَنَّا
فَمَلَكْنَا بِذَلِكَ النَّاسَ حَتَّى
مَلِكُ أَضْرَعِ الْبَرِيَّةِ لَا يُؤو

*

*

فَاتَزَكُوا الطَّيِّخَ وَالضَّلَالَ وَإِمَّا
وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قُدَّ
حَدَرَ الرَّيِّبِ وَالتَّعَدِّي وَلَا يُؤو
وَاعْلَمُوا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ فِيهِ

*

*

وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى يَوْمِ

١ الطيخ: الجهل، والكبر. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/٣٩).

نماج من قصائده:

- قال يمدح الملك قيس بن شراحيل في قصيدة بدأ بمقدمة طلية ووصف لناقته، مسهبًا بعد ذلك في مديحه وذكر كرمه وصفاته!

لَمِنِ الدِّيَارِ عَفُونَ بِالْحَبْسِ
لَا شَيْءَ فِيهَا غَيْرُ أَصُورَةٍ
أَوْ غَيْرُ آثَارِ الْجِيَادِ بِأَعْدِ
فَحَبَسْتُ فِيهَا الرِّكَبَ أَحَدُسُ فِي
حَتَّى إِذَا التَّقَعَ الظَّبَاءُ بِأَطْ
وَيَبَسْتُ مِمَّا قَدْ شَغِفْتُ بِهِ
أَنِمِّي إِلَى حَرْفِ مُذَكَّرَةٍ
خَذِمِ نَقَائِلُهَا يَطْرُنَ كَأَقْفِ
أَفَلَا تُعَدِّدِيهَا إِلَى مَلِكِ
وَأَلَى ابْنِ مَارِيَةَ الْجَوَادِ وَهَلْ
يَحْبُوكَ بِالزَّغْفِ الْفَيْوُضِ عَلَى
أَوْ بِالسَّيْبِكِ الصُّفْرِ يُضْعِفُهَا
لَا يَرْتَجِي لِلْمَالِ يُهَالِكُهُ
فَأَلَهُ هُنَالِكَ لَا عَلَيْهِ إِذَا

- وقال:

طَرَقَ الْخِيَالَ وَلَا كَلَيْلَةَ مُدْلِجِ
أَنَّى اهْتَدَيْتِ وَكُنْتِ غَيْرَ رَجِيلَةٍ
وَالْقَوْمُ قَدْ أَنَاوَا وَكَلَّ مَطِيئُهُمْ
سَدَكَا بِأَرْحَلِنَا وَلَمْ يَتَعَرَّجِ
وَالْقَوْمُ قَدْ قَطَعُوا مِتَانَ السَّجْسَجِ
إِلَّا مُوَاشِكَةَ النَّجَا بِالْهُودَجِ

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ١٣٢-١٣٤).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٢٥٥-٢٥٦).

وِظَبَاءٍ مَحْنِيَّةٍ ذَعَرْتُ بِسَمَحِجٍ
صَقْرٌ يَلُودُ حَمَامَهُ بِالْعَوْسَجِ
فَإِذَا أَصَابَ حَمَامَهُ لَمْ تَدْرِجِ
وَتَبَيَّنَتْ رِعَاهُ الْجَبَانَ الْأَهْوَجِ
وَقَعَ السَّحَابُ عَلَى الطَّرَافِ الْمُشْرِجِ
رَتَكَ النَّعَامِ إِلَى كَنِيْفِ الْعَرْجِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَبَنٌ فَعَطْفُ الْمُدْمَجِ

وَمُدَامَةٍ قَرَعَتْهَا بِمُدَامَةٍ
فَكَأَنَّهِنَّ لَأَلِيٌّ وَكَأَنَّه
صَقْرٌ يَصِيدُ بِظُفْرِهِ وَجَنَاحِهِ
وَلَيْتَنِي سَأَلْتُ إِذَا الْكَتِيبَةُ أَجْمَعَتْ
وَحَسِبْتِ وَقَعَ سُيُوفِنَا بِرُؤُوسِهِمْ
وَإِذَا اللَّفَاحُ تَرَوَّحَتْ بِعَشِيَّةِ
أَلْفَيْتِنَا لِلصُّيْفِ خَيْرَ عِمَارَةٍ

- وقال يوصي عمروًا؛ ولعله ولده أو راعيه!

وَقَدْ حَبَا مِنْ دُونِهَا عَالِجٌ
إِنَّكَ لَا تَدْرِي مِنَ النَّاتِجِ
فَإِنَّ شَرَّ اللَّابِنِ الْوَالِجِ
لَا مُبْطِئِي الشَّدِّ وَلَا عَائِجِ
كَمَا يُسْوِقُ الْبَكْرَةَ الْفَالِجِ

قُلْتُ لِعَمْرٍو حِينَ أَبْصَرْتُهُ
لَا تَكْسَعُ الشَّوْلُ بِأَعْبَارِهَا
وَاحِلِبٌ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانِهَا
رُبَّ عِشَارٍ سَوُفَ يَغْتَالُهَا
يَسُوقُهَا شَلًّا إِلَى أَهْلِهَا

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٤٢٩ - ٤٣٠).

^٢ حبا: دنا. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٤ / ١٦٠).

^٣ الكسع: وضع الماء البارد على ضرعها. انظر المصدر السابق (٨ / ٣١٠).

٧- عنتره بن شداد

ترجمته:

هو عنتره بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قُراد، من بني عبس بن بغيض، من غطفان من قيس عيلان من مضر، قيل: إن شداد جدّه وقد غلب على اسم أبيه، وقيل: بل هو عمّه الذي نشأ في حجره فنُسب إليه دون أبيه! وُلد نحو ٥٢٥م، وهو أحد أشجع فرسان العرب وأغريتها، وكانت أمّه أمة حبشية تدعى زبيبة، فورث عنها لونها الأسود، وكان من عادات سادة العرب ألا يلحقوا بهم أبناءهم من إمامهم، وأن يعاملوهم كعبيد، وعليه فقد استعبده أبوه ورفض إلحاقه بنسبه، فأقام عنتره أوّل حياته منبوذًا مستعبدًا يرمى الإبل والخيل، ولكنّ عزة نفسه أبت عليه هذه الحال، فأخذ يتدرب على خصال الفروسية والطراد، حتى ظهر بأسه واشتدّ عوده، وما لبثت أن اشتعلت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، وكان عنتره لا يزال أسيرًا لعبوديته، واتفق أن أغارت بعض العرب على عبس فأصابوا وغنموا منهم، فتبعهم العبسيون وعنتره فيهم، وقتلوهم لاسترداد ما أخذوه، فلمّا رأى أبوه بأسه وإقدامه؛ شجّع قائلاً له: كرّ يا عنتره؛ فقال عنتره: وهو غاضب منه لاستعباده إيّاه: العبد لا يحسن الكر؛ إنما يحسن الحلال والصّر؛ فقال أبوه: كر وأنت حر؛ فقاتل عنتره هذا اليوم وأبلى حتى انتصرت عبس واستنقذت كل ما فقدته، وحينها ادّعاه أبوه وألحقه بنسبه.

ومنذ ذلك الحين وعنتره عظيم الشهرة ذائع الصيت، وكان على صدارة خيل عبس وفرسانها في حروبها المتعددة؛ سواء التي كانت مع ذبيان في حرب داحس والغبراء؛ التي شهدها حتى نهايتها، أو حروب عبس الأخرى مع هوازن وفزارة وكتب وبنو عامر، وله فيها أيام كثيرة، بعضها كان النصر فيها حليفًا لبني عبس،

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢٤٣/١).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١٩١/١).

وبعضها كان عليها، وكان عنتره مثلاً يُحتذى في البطولة والفروسية، ورمزاً للشجاعة والإقدام والبسالة، حتى كثرت حوله الروايات ونُسجت عليه الكثير من الأساطير التي صوّرتة ذا قوة خارقة، ودخل في سيرته الكثير من المنحول، وهناك من قصته ما هو من نسج الخيال، غير أن عنتره نفسه لا شك في وجوده وفروسيته وبطولاته، وكان مع بسالته وإقدامه سمح السجايا، سهل المخالطة والمعاشرة، كريم النفس، حليماً جواداً ذا نبل وشرف ووفاء ومروءة، وكانت به مع قوته رقة لكن لا تصل إلى حد الضعف، وشدة دون أن يبلغ بشدته درجة العنف، وكان يكره الظلم؛ فإن ظلم؛ أتى على من ظلمه، وكان يشرب الخمر ولكن دون حد الإسراف الذي يذهب بالمرءة، قيل له: أنت أشجع الناس وأشدّهم؟ قال: لا؛ فقليل: فبماذا شاع لك هذا في الناس؟ قال: كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أدخل موضعًا لا أرى لي منه مخرجًا، وكنت أعتد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه وأقتله.^٣

وعن شجاعته يقول عمرو بن معدي كرب: ما أبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقيني حرّأها وهجيناها؛ يعني بالحرّين عامر بن الطفيل وعُتيبة بن الحارث ابن شهاب، وبالعبدين عنتره والسُّليك بن السُّلكة؛ ويقال: إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأل الحطيئة عن قومه قائلاً: كيف كنتم في حربكم؟ فقال: كان قيس بن زهير فينا وكان حازمًا فكنا لا نعصيه، وكان فارسنا عنتره فكنا نحمل إذا حمل ونُحجم إذا أحجم، وكان فينا الربيع بن زياد وكان ذا رأيٍ فكنا نستشيريه، وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتمُّ بشعره، فكنا كما وصفتُ؛ فقال عمر: صدقتُ؛

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (ص ٣٧١).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١٩٣/١-١٩٤).

^٣ انظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، طبعة دار صادر (١٧٣/٨).

^٤ انظر المصدر السابق (١٧٤/٨).

وكانت له قصة حبٍ شهيرة مع ابنة عمه عبلة بنت مالك، وقد ذكرها في شعره غير مرة. وقد أراد أن يبني بها لكنها نفرت منه ورفضه أبوها لسواده ولكونه ابن أمةٍ، ورؤي أنّ قومه أحياناً كانوا يستهضون همّته في الحرب ويؤمنونه بها فيجتهد ويُقدّم، ثم ينكثون عهدهم له؛ وظل أبوها على تعنته حتى بعدما ظهرت فروسيته وعُرف إقدامه، وتغفل المصادر التاريخية نهاية هذا الحب، فلا ندري أفاض بها بالنهاية أم تزوّجت غيره، والأرجح أنه لم يفز بها.

وقد عمّر عنتره حتى بلغ قمة القيادة وأوج السيادة، إلى أن شاخ ووهن عظمه ورقّ جلده، واختلف الرواة في موته، فروي أنه أغار على بني نهبان من طيء وهو شيخ كبير فرماه رجلٌ يقال له ابن سلقى أو الليث الرهيص وأصابه، فتحامل على جرحه حتى أتى أهله ثم هلك، وهناك من زعم أنه قد مات حتف أنفه؛ وكان موته أو قتله نحو عام ٦٠٨ م أو ٦١٥ م؛ على اختلاف الرواة وقد عمّر نحو تسعين سنة،

ويعتبر عنتره واحدًا من أغربة العرب الثلاثة؛ هو، وخفاف بن عمير من بني سليم؛ وأمه ندبة، وكانت سوداء؛ والسُّليك بن عمير؛ وأمه سلّكة وإليهما كثيرًا ما يُنسبان.^٣

شعره:

شعر عنتره بن شداد جزل اللفظ، قوي الأسلوب، رقيق المعنى، عذب الإحساس، وقد جمع في شعره بين القوة والجزالة من جهة وبين الرقة والعدوبة من جهة ثانية؛ فأما القوة والصلابة فنراها في لفظه الجزل، وأسلوبه الفخم، يروي معينها ما نشاهد في شعره من حماسة وفخر وفروسية، وأما الرقة فنراها في عدوبة أحاسيسه ورقة معانيه وغزله العذري بابنة عمه التي هام وولع بها ولوغًا شديدًا، وكان غزله رقيقًا عفيقًا، وقد برع عنتره في الحماسة والفخر؛ نظرًا

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/٢٠٧-٢٠٨).

^٢ أنظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، دار صادر- بيروت (٨/١٧٣-١٧٤).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٤٤).

إلى حياة الحروب التي عاشها مع قبيلته عبس، وما قدّم فيها من بطولات وما أظهر أيامها من بسالة؛ سواء في حرب داحس والغبراء التي شهدها أو في حروب أخرى خاضها مع قبائل مجاورة، وما أملته عليه تلك الحروب من صفات الجلد والشجاعة والإقدام، وبرع كذلك في الغزل العذري العفيف، وكان في غزله حوارًا قصصيًا رائعًا؛ حيث كان يروي لابنة عمه وحبيبته في شعره ما يلقاه في حروبه وطعانه، ويحكي لها عن بطولاته؛ ليعتبر بحق رائدًا للغزل العذري الذي نضج لاحقًا، وتعتبر الحرب والحب أكبر عاملين مؤثرين في شعره؛ فأما حياة الحرب فكانت باعثًا لروح الحماسة والفروسية التي تظهر في شعره بوضوح، متفوقًا فيها على أقرانه، وأما الحب فقد كان باعثًا جعل لشعره عذوبة ورقة، واستطاع بمهارته وموهبته أن يمزج بين الفروسية ومشاعر الحب مزجًا رائعًا، وقد وضعه ابن سَلَام في الطبقة السادسة من الشعراء.

وشعره كذلك متين رائع السبك، يعبر في ألفاظه ومعانيه عن طبيعة الحياة البدوية القوية، ويمتاز بعلو روح الفخر والحماسة؛ كونه فارسًا وابن سيد، ويصوّر شعره جانبًا من السمو والجلم، ولم يُعرّف شاعر جاهلي تفوق على عنتره في حماسته وفروسيته، فكان أولًا في هذا الميدان. وكثيرًا ما كان يُستنشد شعره على مِرّ العصور من أجل التحميس، غير أنّه دخل على شعره الكثير من المنحول الذي لا يمتُّ إلى عنتره بصلة، فينبغي الحذر عمومًا عند رواية شعره ولكننا قد نظمنا إلى معلقته الثابتة عنه، وما رواه الأعلام الشنتمري في ديوانه، وابن ميمون في منتهي الطلب في أشعار العرب.

معلقته:

كانت عنتره لا يقول الشعر إلا من بيتين أو ثلاثة، ولم يُرو عنه شيئًا وقت عبوديته، حتى سابه رجل من قومه وعيّر بسواده وأمّه وبأنّه لا يقول الشعر، فقال عنتره: والله إن الناس ليتوافدون بالطعمة، فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط، وإن الناس ليُدعون في الغارات فيعرفون بتسويمهم،



فما رأيُناكَ في خيلٍ مغيرةٍ في أوائلِ الناسِ قطُّ، وإن اللُّبسَ ليكونَ بيننا، فما حضرتَ أنتَ ولا أبوكَ ولا جدُّكَ خطَّةَ فيصل؛ وإنما أنتَ فقع نبت بقرقر، وإني لأحضر البأسَ، وأُوفي المغنمَ، وأعفُّ عن المسألة، وأجود بما ملكتُ يدي، وأفصل الخطة الصمعاء، وأما الشعر فستعلم.. ثم أنشد بعدها قصيدته الشهيرة "هل غادر الشعراء من متردم"، وهي من أجود شعره، وتُعرف بالمدَّهبة! ومعلقة عنتره من البحر الكامل، جمع فيها بين جانب الغزل الوجداني وجانب الفخر والحماسة وروح البطوبة، في إطار غنائي وقصصي رائع لم يخلُ من التشبيهات البديعة ودقَّة الوصف الحماسي، وضمَّنها ذكرياتٍ ومواعظَ، ووصفًا دقيقًا للفرس ولوقائع الحروب.

وقد بدأها بمقدمة غزلية كعادة شعراء عصره، وذكر اسم حبيبته وذكر حرمانه منها، ثم انتقل إلى الوصف وذكر الخمر، ثم أخذ يذكر بعض الوقائع ويصف بطولاته وطعانه بها، ويحكي لحبيبته عنها، مفتخرًا في نمط قصصي جميل يسترعي الانتباه، ويصف كذلك أدوات الحرب من سيوف ورماح وخيل، ويذكر قتله أحد خصومه وهو ضمضم المري، ويعرض بولديه، ويختم معلقته بشيء من الفخر، وهي كغيرها لم تسلم كذلك من عبث الرواة ما بين تقديم وتأخير في بعض الأبيات، وتبديل للألفاظ، واختلاف عدد أبياتها من رواية إلى أخرى، وهو يقول فيها!

أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ
وَعَمِي صَبَاحًا دَارَ عِبَلَةَ وَاسْلَمِي
فَدَنْ لِقَضِي حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ

*

*

فِي الْحَرْبِ أَقْدِمُ كَالهَزْبِ الصَّنِيعِمْ

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءَ مِنْ مُتْرَدِمٍ
يَا دَارَ عِبَلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي
فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا

*

*

يَا عِبَلُ لَوْ أَبْصَرْتَنِي لَرَأَيْتَنِي

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٤٤-٢٤٥).

^٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٣٤٨-٣٧٦).

^٣ فدن: قصر مشيد. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ٣٢١).

كَيْفَ الْمَزَارِ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
إِنْ كُنْتَ أَرَمَعْتَ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا
*

إِنْ تُعْدِفِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنِّي
أَنْبِي عَلِيٍّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
وَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِاسِلٌ
*

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصِرُ عَنْ نَدَى
*

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَ مَالِكٍ
لَا تَسْأَلْنِي وَإِسْأَلِي فِي صُحْبَتِي
*

وَمُدَجَّجِ كَرَةِ الْكُمَاءِ نِزَالَهُ
جَادَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
فَتَشَكَّتْ بِالرَّمْحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ
فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السِّبَاعِ يَبْشُرُهُ
لَمَّا رَأَيْتُ قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُهُ
فَطَعْنْتُهُ بِالرَّمْحِ ثُمَّ عَلَوْتُهُ
*

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا
يَا شَاةَ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ

بَغِيضَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلِمِ
زُمْتُ رِكَابِكُمْ بِإِيلِ مُظْلِمِ
*

سَهْلٌ مُخَالَعَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمِ
طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلِمِ
مُرٌّ مَذَاقَتَهُ كَطَعْمِ الْعَلَمِ
*

رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
مَالِي وَعَرِضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكْرَمِي
*

إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
يَمَلَأُ يَدَيْكَ تَعَفُّفِي وَتَكْرَمِي
*

لَا مُعِينٍ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
بِمُتَّقَفِ صَدَقِ الْكُعُوبِ مُقَوْمِ
لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ
مَا بَيْنَ قَلْبِهِ رَأْسِهِ وَالْمِعْصَمِ
أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لِغَيْرِ تَبَسُّمِ
بِمُهَنْدِ صَافِي الْحَدِيدَةِ مَخْدَمِ
*

مَنْبِي وَبِيضِ الْهِنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
لَمَعَتْ كِبَارِقِ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ
حَزَمْتُ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

* *
يَتَذَمَّرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمٍ
أَشْطَانُ بَيْرٍ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ
بَرْقُ تَلَأْ فِي السَّحَابِ الْأَرْكَمِ
* *

* *
مِنْ بَيْنِ شَيْظَمَةٍ وَأَجْرَدَ شَيْظَمٍ
قِيلُ الْفَوَارِسِ وَيَكُ عَنْتَرًا أَقْدِمِ
لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْضَمِ
وَالنَّادِرِينَ إِذَا لَمَّ الْقَهْمَا دَمِي
* *

بِمَسُورِ نِي بَارِقِينَ مُسُومِ

* *
لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ
يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا
كَيْفَ التَّقْدُمُ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا
* *

* *
وَالْخَيْلُ تَقْتَحِمُ الْعُبَارَ عَوَابِسًا
وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُفْمَهَا
وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ
الشَّاتِمِي عَرِضِي وَلَمْ أَشْتِمَهُمَا
* *

وَلَرُبَّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةٍ

نماذج من قصائده:

- قال يذكر يوم الفروق؛ وهو اسم موضع لمعركة كانت لصالح عبس على بني سعد، قتل فيه
عنترة معاوية بن نزال أحد ساداتهم؛

وَقَاتَلَ ذِكْرَاكَ السِّنِينَ الْخَوَالِيَا
إِذَا مَا هُوَ أَحْلَوْلَى الْأَلَيْتِ ذَا لِيَا
نُظِرْفُ عَنْهَا مُشْعِلَاتِ غَوَاشِيَا
نُزَايِكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا
هَرِيرَ الْكِلَابِ يَنْقِينَ الْأَفَاعِيَا
عَلَى رُمَةٍ مِنَ الْعِظَامِ تَفَادِيَا

أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الطُّلُوعَ الْبَوَالِيَا
وَقَوْلِكَ لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا تَنَالُهُ
وَنَحْنُ مَنَعْنَا بِالْفُرُوقِ نِسَاءَنَا
حَلَفْنَا لَهُمْ وَالْخَيْلُ تَرْدِي بِنَا مَعَا
عَوَالِي زُرْقًا مِنْ رِمَاحِ رُدَيْنَةٍ
تَفَادِيئُكُمْ أَسْتَاهَ نَيْبٍ تَجَمَعَتْ

^١ شَيْظَم: طويل. انظر: المصدر السابق (١٢/٣٢٣).

^٢ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٨١).

^٣ نَيْب: مُسْتَنَّة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/٧٧٦).

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ الْأَسِنَّةَ أَحْرَزَتْ بَقِيَّتِنَا لَوْ أَنَّ لِلدَّهْرِ بَاقِيَا

- وقال يصف يوم عرعر، وكان بين عبس وكلب؛ حيث رفض مسعود بن مضاد الكلبي أن يسقي عبسًا من مائهم أثناء تنقّلهم، فجرت معركة قُتِل فيها مسعود، وصالحوهم أن الشرب من الماء مقابل أن يعطوهم شيئًا!

وَمَا نَذَرُوا حَتَّى غَشِينَا بُيُوتَهُمْ بَعْبِيَةَ مَوْتِ مُسَبِلِ الْوَدْقِ مُزْعِفِ
فَظَنَّا نَكْرَ الْمَشْرِفِيَّةِ فِيهِمْ وَخُرْصَانَ لَدُنَّ السَّمْهَرِيِّ الْمُثْقَفِ
عَلَانَتْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ بِأَسْيَافِنَا وَالْقَرْحِ لَمْ يَتَّقِرَفِ
أَبِينَا فَلَا نُعْطِي السَّوَاءَ عَدُونَا قِيَامَا بِأَعْضَادِ السَّرَاءِ الْمُعْطَفِ

- وفي لاميةٍ بديعةٍ هي من أروع قصائده، ومن عيون الشعر الجاهلي، وكانت بسبب موقعة بين عبس وتميم، وكان على عبس قيس بن زهير، فانهزمت عبس وأزمت على الفرار، وطلبهم تميم، فتصدى لهم عنتره مع خيل له، فحامى عن قومه حتى سلّموا ولم يُصَبْ منهم مُدِير، فحسده قيس بن زهير قائلاً: والله ما حى النَّاسَ إلا ابنُ السوداء؛ وبلغ ذلك عنتره، وكان يفخر بما قدّم في تلك الموقعة رغم الهزيمة، فقال:

طَالَ النَّوَاءُ عَلَى رُسُومِ الْمُنْزِلِ بَيْنَ الْكُيُوكِ وَبَيْنَ ذَاتِ الْحَرَمَلِ
فَوَقَفْتُ فِي عَرَصَاتِهَا مُتَحَيِّرًا أَسْأَلُ الدِّيَارَ كَفِعَلٍ مَنْ لَمْ يَذْهَلِ
لَعِبْتُ بِهَا الْأَنْوَاءَ بَعْدَ أَنْيْسِهِ وَالرَّامِسَاتِ وَكُلِّ جَوْنٍ مُسَبِلِ
أَفْمِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ فِي أَيْكَةٍ دَرَفْتُ دُمُوعَكَ فَوْقَ ظَهْرِ الْمَحْمِلِ
كَالِدُرِّ أَوْ فَضْضِ الْجُمَانِ تَقَطَّعَتْ مِنْهُ عَقَائِدُ سِلَاحِهِ لَمْ يُوَصِّلِ
لَمَّا سَمِعْتُ دُعَاءَ مُرَّةٍ إِذْ دَعَا وَدُعَاءَ عَبْسٍ فِي الْوَعَى وَمُحَلِّلِ
نَادَيْتُ عَبْسًا فَاسْتَجَابُوا بِالْقَنَا وَبِجَلِّ أَبْيَضِ صَارِمٍ لَمْ يَنْجَلِ
حَتَّى اسْتَبَاحُوا آلَ عَوْفٍ عَنُوءَةً بِالْمَشْرِفِيِّ وَبِالْوَشِيحِ الذُّبَلِ

^١ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنمري (ص ٨١).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٨٢).

شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصَلِ

*

*

فَرَّقْتُ جَمْعَهُمْ بِطَعْنَةٍ فَيَصِلُ
وَلَا أَوْكَلَ بِالزَّرْعِ لِ الْأَوَّلِ
يَوْمَ الْهَيَاجِ وَمَا عَدَوْتُ بِأَعَزَلِ
أَصَبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْخُتُوفِ بِمَعَزَلِ
لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ
أَنْتِي امْرُؤٌ سَأْمُوثُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضَنْكَ الْمَنْزِلِ

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبَسِي مَنْصِبًا

*

*

وَالْخَيْلُ تَعَلَّمُ وَالْفَوَارِسُ أَنْتِي
إِذْ لَا أَبَادِرُ فِي الْمَضِيقِ فَوَارِسِي
وَلَقَدْ عَدَوْتُ أَمَامَ رَايَةٍ غَالِبِ
بَكَرْتُ تُخَوِّفُنِي الْخُتُوفَ كَأَنْتِي
فَأَجَبْتُهَا إِنْ الْمَنْيَّةَ مِنْهَلٌ
فَاقِنِي حَيَاءِكَ لَا أَبَا لَكَ وَعَلْمِي
إِنَّ الْمَنْيَّةَ لَوْ تُمَثَّلُ مِثْلًا

- وقال في النسب:

وَجَزَى بَيْنَهُمُ الْغُرَابُ الْأَبْقَعُ
جَلْمَانِ بِالْأَخْبَارِ هَشٌّ مُوَلِّعُ
أَبَدًا وَيُصْبِحُ وَاحِدًا يَتَفَجَّعُ
هُمُ أَسْهَرُوا لَيْلِي التَّمَامَ فَأَوْجَعُوا

ظَعَنَ الَّذِينَ فِرَاقَهُمْ أَتَوْعُ
خَرِقُ الْجَنَاحِ كَأَنَّ لِحْيِي رَأْسَهُ
فَزَجْرْتُهُ أَلَّا يُفْرَخَ عُشُّهُ
إِنَّ الَّذِينَ نَعَيْتَ لِي بِفِرَاقِهِمْ

- وقال يصف بعض حروبه:

شَهَاءَ بِاسِلَةٍ يُخَافُ رَدَاهَا
نَارٌ يَشِبُّ وَقُودُهَا بِلَظَاهَا
وَالْخَيْلُ تَعْتُرُ فِي الْوَعَى بِقَنَاهَا
بِأَكْفِهِمْ بَهَرَ الظَّلَامَ سَنَاها
وَجَبِيَّةٌ ذَبَلَتْ وَخَفَّ حَشَاهَا

وَكْتَبِيَّةٌ لَبَسَتْهَا بِكْتَبِيَّةٍ
خَرَسَاءَ ظَاهِرَةَ الْأَدَاةِ كَأَنَّهَا
فِيهَا الْكُمَاةُ بَنُو الْكُمَاةِ كَأَنَّهُمْ
شُهْبٌ بِأَيْدِي الْقَابِسِينَ إِذَا بَدَتْ
صُبْرٌ أَعَدُّوا كُلَّ أَجْرَدٍ سَابِحِ

^١ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٨٣).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٨٥).

يَعْدُونَ بِالْمُسْتَأْمِنِينَ عَوَابِسًا قَوْدًا تَشَكَّى أَيْنَهَا وَوَجَاهَا
يَحْمِلْنَ فِتْيَانًا مَدَاعِسَ بِالْقَنَا وَقُرًّا إِذَا مَا الْحَرْبُ خَفَّ لَوَاهَا

- وقال يصف إحدى غاراته، ويخاطب ابنة عمه مفتخرًا بنفسه، ومعدِّدًا صنائعه، في حوار قصصي جميل يظهر لنا فيه أنها كانت حينها تتأبى عليه!

فَلئن صرمتِ الحبلِ يا ابنةَ مالِكِ
فلعمُرُ جدِّكِ إنني لمُشايِعي
وسلي لَكَيْما تُخْبِري بِفَعَالِنَا
والخَيْلُ تَعْتُرُ بِالقَنَا في جاحِمِ
وأنا المُجَرَّبُ في المواقِفِ كُلِّها
مِنْهُمُ أبِي حَقًّا فَهُمُ لي وَالِدُ
وأنا المنيَّةُ حينَ تَشْتَجِرُ القَنَا
وسمعتِ في مَقالَةَ العُذالِ
لُتِي وإِني للمُلوِكِ لَقالِ
عِنْدَ الوَعَى ومواقِفِ الأهوالِ
تَهْفُو بِهِ وَيَجْلُنُ كُلَّ مَجالِ
مِنْ آلِ عَنسِ مَنْصِبي وفَعالي
والأُمُّ مِنْ حامِ فَهُمُ أحوالي
والطَّعْنُ مِنِّي سابِقُ الأجالِ

^١ انظر: منتهى الطلب في أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٤٨).

٨- الأَعْشى

ترجمته:

هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل، من بني ضبيعة بن قيس إحدى بطون قبيلة بكر بن وائل، سُمِّي بالأعشى لضعفِ بصره فغلب عليه هذا اللقب وعُرف به، وكُنِّي بأبي بصير لهذا، وقيل: إنه كُفَّ بصره في آخر حياته.

وُلد في بلدة منفوحة في اليمامة نحو ٥٣٠ م، وعُرف أبوه باسم قتيل الجوع؛ إذ يُروى أنه دخل غارًا، فوقعت صخرة من الجبل فسدَّت الغار، حتى مات فيه جوعًا؛ وقد نشأ الأعشى فقيرًا معدمًا، وشبَّ على الخمر والمجون والمقامرة، وقد حمله فقره هذا على التكسب بالشعر، فما إن ظهرت موهبته حتى أخذ يطوف الأرجاء ضارِبًا في الأرض، يزور الملوك والأمراء يمدحهم فيكرمونه ويجزلون له العطاء، فزار اليمن ونجران والحجاز والشام والحيرة، ووفد على ملوك فارس، وقد شهد الأعشى واقعة ذي قار فناصرَ بني شيبان بشعره حتى انتصروا مع حلفائهم على الفرس، وذكرها في شعره، وقد بلغ من مديحه للملوك صبيحًا ذائعًا جعلهم يتنافسون في تقديمه وتقريبه والتودُّد إليه، ولكن حطَّ من قدره تكسُّبه بشعره وإلحاحه في التكسب.

وقد أخذ الأعشى الشعر من خاله المسيب بن علس؛ فكان راويته، وعُرف الأعشى بصنَّاجة العرب؛ لروعة شعره، وكان يفد على عكاظ، وعرض شعره فيمن عرض على النابغة الذبياني، ويقال: إنه ذات مرة وقع نزاع بين علقمة ابن علاثة وعامر بن الطفيل على سيادة قبيلتهما، فاستجار الأعشى بعلقمة فأجاره من الجن والإنس، لكنه رفض طلبه في أن يجيره من الموت، فلمَّا ذهب إلى ابن عمه عامر بن الطفيل؛ أجاره من الإنس والجن والموت، فقال له: وكيف تجيرني من الموت؟ فقال: إن متَّ وأنت في جوارِي؛ بعثت إلى أهلك الدِّيَّة؛ فقال: الآن

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا فاخوري (٢٢٨/١).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢٥٠/١).

علمتُ أنك قد أجزتني من الموت؛ فمدحه وهجا علقمة، فقبض عليه الأخير،
فاستعطفه قائلاً!

أَعْلَقْمُ قَدْ صَيَّرْتَنِي الْأُمُورُ إِلَيْكَ وَمَا أَنْتَ لِي مُنْقِصُ
فَهَبْ لِي دُنُوبِي فَدَتَكَ النَّفُوسُ وَلَا زِلَّتْ تَنْمِي لِي وَلَا تَنْقُصُ

ويقال: إنه قد أُسِرَ مِنْ قَبْلِ بَنِي كَلْبٍ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ أَحَدُهُمْ وَيُقَالُ لَهُ: شَرِيحُ ابْنِ
عَمْرِ؛ بَعْدَمَا رَأَى أَنَّهُ لَا رَجَاءَ أَوْ فِدَاءَ مِنْهُ، فَأَكْرَمَهُ وَأَطْعَمَهُ، ثُمَّ سَمِعَهُ يَهْجُو
أَسْرَهُ، فَأَرَادَ اسْتِرْجَاعَهُ، فَقَالَ الْأَعْشَى:

شُرِيحُ لَا تَتْرُكْنِي بَعْدَمَا عَلَّقْتَ حِبَالَكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْقَدِّ أَظْفَارِي
كُنْ كَالسَّمَوَالِ إِذْ طَافَ الْهُمَامُ بِهِ فِي جَحْفَلٍ كَهَزِيْعِ اللَّيْلِ جَرَارِ

وقد ورد ذكر الأعشى ضمن الشعراء النصارى؛ استناداً إلى بعض ما ورد في شعره
من معالم مسيحية، وقيل: بل هو وثنيٌّ غارق في وثنيّته -وهو الأرجح- استناداً إلى
طبع حياته الذي لا يتفق مع عموم الدّين؛ من الانغماس في اللهو والقمار وشرب
الخمر، وأما ما ورد عنه من أبيات ذات معالم دينية فيما أنه قالها فقط من أجل
المدح، وإما أنها منحولة مثل هذا البيت الذي يُروى له:

وَمَا جَعَلَ الرَّحْمَنُ بَيْتَكَ فِي الْعُلَا بِأَجْيَادِ غَرْبِي الْفِنَاءِ الْمَحْرَمِ
ولفظ (الرَّحْمَن) لم يظهر إلا مع ظهور الإسلام؛ وقد سبق الحديث من قبل
عن قضية الانتحال في الشعر الجاهلي وأنه ينبغي عدم الاطمئنان إلى كل ما
يُروى عن الشعراء الجاهليين؛ إلا ما كان عن مصادر معروفة وروايةٍ ثقاتٍ.

^١ انظر: المصدر السابق (١/٢٥٣).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٢٥٤).

^٣ يذكر قصة وفاء السموأل حينما وفي بدمته وحافظ على أمانات امرئ القيس فكلفه ذلك مقتل ولده فصار
مثلاً للوفاء.

^٤ انظر: ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس (ص ١٢٣).

^٥ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (ص ٣٤٣).

وقد عُمر الأعشى طويلاً حتى كَفَّ بصره ومات عام ٦٢٩م / ٧هـ، ويقال: إن الأعشى أدرك بعثة النَّبِيِّ ﷺ فاعتزم الإسلام وأعدَّ قسيده لمدح النَّبِيِّ ﷺ وذهب بها إلى المدينة، فانتهى خبره إلى قريش وزعيمهم أبي سفيان ابن حرب، فخافوا أن ينضمَّ ببلاغته إلى المسلمين، فما لبثوا أن اعترضوه، وسأله أبو سفيان عن وجهته، فقال: أريد محمدًا؛ فقال أبو سفيان: إنه يحرم عليك الخمر والزنا والقمار؛ وكانت تلك الأمور محببة للأعشى الغارق في مجونه ووثنيته، فقال: أمتع بها سنة ثم أسلم -يعني الخمر- وقيل: بل قال: أما الزنا فقد تركني وما تركته، وأما الخمر فقد قضيت منها وطراً، وأما القمار فلعلِّي أصيب منه -أي: الرسول ﷺ- خلفاً؛ وعرض عليه أبو سفيان مئة ناقة مقابل أن يرجع عن النَّبِيِّ ﷺ ولا يسلم، وقال له: بيننا وبينه هدنة، فترجع عامك هذا وتأخذ مئة ناقة حمراً، فإن ظهر (بعد ذلك) أتيته، وإن ظفرنا به كنت قد أصبت عَوْضًا من رحلتك؛ فانطلق به أبو سفيان إلى منزله وقال: يا معشر قريش؛ هذا أعشى قيس، وقد علمتم شعره، ولئن وصل إلى محمدٍ ليضربنَّ عليكم العرب قاطبةً بشعره!!؛ فجمعوا له مئة ناقة، فأخذها وانصرف، فلمَّا صار بناحية اليمامة ألقاه بعيه فقتله، ودُفِنَ في منفوحة؛ وهذه قصة شهيرة ذكرها عدد كبير من الرواة والمؤرخين باختلافات طفيفة، لكنها تُجمع على أن الأعشى اعتزم الإسلام فصدته قريش، غير أن فريقًا من النُّقاد قد أنكروا هذه القصة ونفوا حدوثها وطعنوا في تلك القصيدة التي رُوِيَ أنه مدح بها النَّبِيِّ ﷺ قائلين: إنها منحولة؛ وممَّا جاء فيها:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَلْ بِزَادٍ مِنَ الثَّقَى
وَأَقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ
وَأَنَّكَ لَمْ تُرْصِدْ لِمَا كَانَ أَرْصَدَا
فَأِيَّاكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَأْكُلْنَهَا
وَلَا تَأْخُذْنَ سَهْمًا حَدِيدًا لِتَفْصَدَا
وَإِذَا النَّصْبَ الْمَنْصُوبَ لَا تَنْسَكُنَّهُ
وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهَ فَأَعْبُدَا

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٥٠).

^٢ انظر: ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس (ص ١٣٧).

ولا السائل المحروم لا تتركه
ولا تقربن جازة إن سرها
لعاقبة ولا الأسير المقيد
عليك حراماً فإنحن أو تأبدا

وهي معاني إسلامية عن التقوى وزاد الآخرة وحرمة أكل الميتة، وما ذكر من حمد الله وفضل الصدقة وحرمة الزنا والنصب، فأين للأعشى وهو شاعر جاهلي وثني على الأرجح- إدراك مثل تلك الأمور، حتى إن كان سمع عن الإسلام عن بُعد، فيصعب أن تبلغ مسامعه تلك التفاصيل الدقيقة؛ فضلاً عن ركافة واضحة في الأبيات لا تتناسب مع قوة شعر الأعشى وعلو مستواه، وعلى كل حال فإن هذه القصة سواء أصححت أم لم تصح؛ فإنها في الحالتين تدل على علو منزلة الأعشى وأهمية شعره ودرجة تأثيره وقوته.

شعره:

يمتاز شعر الأعشى بعدوبة اللفظ ورونق الحسن وسهولة المآخذ وطلاوة ورقة الأسلوب، وهو شاعر مكثّر كان يطيل في القصائد ويجيد، وقد برع في عدة فنون شعرية مختلفة، وفي شعره إيقاع موسيقي جميل عذب، حتى قيل عنه: صناجة العرب؛ لما في إيقاع شعره من أثر وروعة تقع في النفس، وهو أول من ذكر الصنّج في شعره حيث قال:

ومُستجيبٍ لصوتِ الصنّجِ تُسمِعُهُ إذا تُرَجِّعُ فِيهِ القَيْنَةَ الفُضْلُ

وهناك من جعله في الطبقة الثانية بعد امرئ القيس وزهير والنابغة، أما ابن سَلَام فقد جعله في الطبقة الأولى رابعاً لهؤلاء الفحول، وقد قيل: أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب؛ وقال أبو عمرو ابن العلاء: عليكم بشعر الأعشى فإنه أشبه شيء بالبازي-الذي

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (ص ٣٤١-٣٤٢).

^٢ الصنّج: العود. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/٣١١).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٥٠-٢٥١).

^٤ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ٥٦).

يصطاد به ما بين الكركي والعندليب، وهو عصفور صغير- ولعمري إنه أشعر القوم، ولكن وضعته الحاجة بالسؤال؛ وقال الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان لمؤدب أولاده: أدبهم برواية الأعشى فإن لكلامه عدوبة، فأتله الله، ما كان أعذب بحرّه، وأصلب صخره!! فمن زعم أن أحدًا من الشعراء أشعر من الأعشى؛ فليس يعرف الشعر؛ وقيل: من قدّم على الأعشى أحدًا فإنما يفعل ذلك بالميل؛ فهو أشعر الناس؛ وقدّمه أبو عبيدة الراوي على طرفة؛ باعتبار أنه أوصف للخمر وأمدح وأهجى^١.

وربما يرجع ذلك الإيقاع الموسيقيّ الجميل الذي امتاز به الأعشى إلى ليونة وعدوبة لفظة من جهة، وانسيابية بحوره وتراكيب عباراته من جهة ثانية، وهو إيقاع يمتاز بانسجام رائق، واندفاق عفوي أنيق، وشعر الأعشى غزير بالأفكار والمعاني وقد برع في غرضين رئيسين هما المديح والخمر؛ فأما المديح فقد أسهب فيه بغية التكسب، وبلغ فيه قدرًا من الرفعة حتى قيل: إنه ما مدح أحدًا إلا رفعة ولا هجا أحدًا إلا وضعة؛ فكان الناس يتنافسون في تقريبه والتودد إليه؛ حتى ينالوا نصيبًا من مديحه، كما حدث مع المحلق الكلابي، وقد ذكرنا قصته في حديثنا أول باب الشعر الجاهلي عن أهمية الشعر، وأما الخمر فقد عُرف الأعشى بعشقه لها وإسرافه في شربها، فأسهب في وصفها، وأبدع في ذكر تفاصيلها؛ من لونها ومذاقها ومجالسها، وأكثر من التشبيهات البديعة في ذكرها. وكذلك نرى في شعره نصيبًا وافرًا من الغزل ووصف الرياض والفخر والهجاء، ولا يخلو شيء من شعره من التشبيهات والصور البيانية البديعة، ويمتاز شعر الأعشى كذلك بأنه أقرب الشعر الجاهلي إلى ذائقة العصور الحديثة؛ نظرًا إلى أن تأثره برقة الحضارة من مخالطته للأمراء والملوك قد دفعه إلى تيسير أسلوبه وترقيق ألفاظه في إطار إيقاعها الموسيقي الطربي الجميل، فصار شعره سهل المأخذ، رقيق الطبع، عذب اللفظ؛ وهو ما يتناسب مع أذواق الأدباء في العصر

^١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٨١).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٥٥).

العباسي وما تلاه من عصور، وإن كانت رقة شعر الأعشى لا تعني خلوه تمامًا من الألفاظ الصعبة والبدوية؛ كونه ابن الطبيعة البدوية في النهاية، حتى وإن رقق طبعه تردده على بلاط الملوك والأمراء، كما نلمح في شعره بعض العبارات الفارسية كأثر عن احتكاكه بالعجم، ولا يحط من قدر الأعشى غير إلحاحه في الارتزاق والتكسب من شعره، ومن نماذج هذا قوله يمدح هوزة بن علي الحنفي:

إلى هُوذة الوهَّابِ أَهْدِيْتُ مِذْحَتِي أَرْجِي نَوَالًا فَاضِلًّا مِنْ عَطَائِكَ

معلقته:

معلقة الأعشى قصيدة أنيقة بديعة تجسّد أسلوبه في عموم شعره؛ فهي تمتاز بالانسجام وبطلاوة الأسلوب وأناقة العبارات وعضوبة الإيقاع الموسيقي، ولا تخلو من التشبيهات الفنية والصور البيانية الرائعة، وهي من البحر البسيط؛ الذي تصنع تفاعيله وقافيته القوية مثل هذا الإيقاع، وسبب نظمها أن رجلاً اسمه ضُبَيْعٌ، من عشيرة الأعشى قتل رجلاً اسمه زاهر بن سيّار، من عشيرة يزيد ابن مسهر أحد زعماء شيبان من بطون بكر، فلما همّت بنو سيار عشيرة القتيل أن تأخذ بثأرها من القاتل؛ نهامهم مسهر أن يقتلوا ضبيعة هذا؛ كونه ليس كفؤاً له، وأمرهم أن يقتلوا رجلاً آخر كفؤاً له من بني سعد بن مالك بن ضبيعة قوم الأعشى، فلمّا بلغ ذلك الأعشى؛ نظم قصيدة مهاجمه فيها ويطلب أن يدعمه وشأنهم، فإن تدخّل فإن قوم الشاعر سيضطرون للدفاع عن حلفائهم؛ وقد بدأ الأعشى بمقدمة طلبية، ثم انتقل إلى وصف الطبيعة والرياض والشمس، ثم وصف اللهو والخمر، وذكر السفر والبرق والمطر، ثم انتقل يخاطب يزيد؛ ينهاه ويحدّره من المضيّ في رأيه، ويتوعّده، ويفخر بقومه، حتّى يختم معلقته بالفخر؛ ومما ورد فيها:

^١ انظر: ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس (ص ٨٩).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٥٥-٦٤).

وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ
تَمْشِي الْهُوِينَا كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَجِلُ
مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ
* * *

إِذَا تَأْتَى يَكَادُ الْخَضْرُ يَنْخَزِلُ
جَهْلًا بِأَمِّ خُلَيْدٍ حَبَلٌ مَنْ تَصِلُ
* * *

خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ
مُؤَزَّرٌ بَعْمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأُصْلُ
* * *

وَيْلِي عَلَيْكَ وَوَيْلِي مِنْكَ يَا رَجُلُ
كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِي حَافَاتِهِ الشُّعْلُ
مُنَطَّقٌ بِسِجَالِ الْمَاءِ مُتَّصِلُ
وَلَا اللَّذَانُذَةُ مِنْ كَأْسٍ وَلَا الْكَسَلُ
شِيمُوا وَكَيْفَ يَشِيمُ الشَّارِبُ النَّمْلُ
وَبِالْخَبِيَّةِ مِنْهُ عَارِضٌ هَطِلُ
* * *

أَبَا تُبَيْتِ أَمَا تَنْفَكُ تَأْتِكِلُ
وَأَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ
عِنْدَ اللَّقَاءِ فَتُرْدِي نُمَّ تَعْتَزِلُ
وَشَبَّتِ الْحَرْبُ بِالطَّوْفِ وَاحْتَمَلُوا
فَلَمْ يَضُرَّهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ
وَالثَّمْسِ النَّصْرُ مِنْكُمْ عَوْضٌ تُحْتَمَلُ

وَدَعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلُ
عَرَاءُ فَرَعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا
كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا
* * *

صَفْرُ الْوِشَاحِ وَمَلَأَ الدَّرْعَ بِهَكْنَةً
صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا
* * *

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشَبَةٌ
يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوَكَبٌ شَرِقُ
يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشَرَ رَائِحَةَ
* * *

قَالَتْ هُرَيْرَةُ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا
يَا مَنْ يَرَى عَارِضًا قَدْ بَتَّ أَرْقُبُهُ
لَهُ رِدَافٌ وَجَوُزٌ مُفَامٌ عَمِلُ
لَمْ يُلْهِنِي اللَّهْوُ عَنْهُ حِينَ أَرْقُبُهُ
فَقُلْتُ لِلشَّرْبِ فِي دَرْنِي وَقَدْ نَمَلُوا
بَرَقًا يُضِيءُ عَلَى الْأَجْزَاعِ مَسْقَطُهُ
* * *

أَبْلَغُ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلَكَةٌ
أَلَسْتَ مُنْتَهِيًّا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا
تُعْرِي بِنَا رَهْطَ مَسْعُودٍ وَإِخْوَتِهِ
لَأَعْرِفَنَّكَ إِنْ جَدَّ النَّفِيرُ بِنَا
كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيَقْلِقَهَا
لَأَعْرِفَنَّكَ إِنْ جَدَّتْ عَدَاؤُنَا

* * * *

سَائِلِ بَنِي أَسَدٍ عَنَّا فَقَدْ عَلِمُوا
 وَإِسْأَلَ فُشَيْرًا وَعَبَدَ اللَّهُ كُلَّهُمْ
 إِنَّا نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى نُقَاتِلُهُمْ
 كَلَّا زَعَمْتُمْ بِأَنَّا لَا نُقَاتِلُكُمْ
 * * * *

أَنْ سَوْفَ يَأْتِيكَ مِنْ أَنْبَائِنَا شَكْلُ
 وَاسْأَلْ رَبِيعَةَ عَنَّا كَيْفَ نَفْتَعِلُ
 عِنْدَ اللَّقَاءِ وَهُمْ جَاؤُوا وَهُمْ جَهْلُوا
 إِنَّا لِأَمْثَالِكُمْ يَا قَوْمَنَا قُتْلُ
 * * * *

نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْعَيْنِ ضَاحِيَةً
 قَالُوا الرُّكُوبَ فَقُلْنَا تِلْكَ عَادَتُنَا
 جَنْبِي "فُطَيْمَةَ" لَا مِيلٌ وَلَا عُزْلُ
 أَوْ تَنْزِلُونَ فَإِنَّا مَعَشْرٌ نُزْلُ
 * * * *

نماذج من قصائده:

- كان الأسود بن المنذر أخو النعمان قد أغار على أسدٍ وذبيان؛ بسبب قتل الحارث بن ظالم المري الذبباني لولده شرحبيل، فأوقع بهم وأصاب في غزوته تلك أسرى وسبايا من بني سعد بن ضبيعة قوم الأعشى، وكان غائبًا عن الحي، فلمّا عاد؛ وجد الحي مستباحًا، فذهب إلى الأسود فمدحه واستعطفه، فوهب له الأسرى؛ وقد اختلف الرواة بشأن تلك القصيدة؛ فذكرها أبو زيد القرشي من ضمن المعلقات الثمانية بدلًا من "ودّع هريرة"، ومن أبياتها:

مَا بُكَاءَ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ
 دِمْنَةٌ قَفْرَةٌ تَعَاوَرَهَا الصَّيْدُ
 * * * *

وَسُؤَالِي فَهَلْ تَرُدُّ سُؤَالِي؟
 فُ بَرِيحَيْنِ مِنْ صَبَاً وَشَمَالِ
 * * * *

وَكَأَنَّ السُّمُوطَ عَاكِفَةَ السَّنَا
 وَكَأَنَّ الْخَمْرَ الْعَتِيقَ مِنَ الْإِسْ
 * * * *

كِ بِعِطْفِي وَشَاحِ أَمِ غَزَالِ
 فَنَطِ مَمْرُوجَةً بِمَاءِ زُلَالِ
 * * * *

^١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٢٠٢-٢٣٥).

^٢ الإسفنت: اسم من أسماء الخمر، وهو اسمٌ روميٌّ. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٧/٢٥٥).

وَدَ أَهْلَ النَّدَى وَأَهْلَ الْفَعَالِ
 دِ غَزِيرُ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ
 (م) قِ وَحَمَلٌ لِلْمُضْلَعَاتِ الثَّقَالِ
 سِ وَفَكُّ الْأَسْرَى مِنْ الْأَغْلَالِ
 رِ إِذَا مَا التَّقَتْ صُدُورُ الْعَوَالِي
 مِ إِذَا مَا كَبَتْ وَجُوهُ الرِّجَالِ
 ثِ حِبَالٌ وَصَلَاتُهَا بِحِبَالِ
 رَةِ فِينَا عَطِيَّةُ النَّجَالِ
 مُ وَقَوْفًا قِيَامُهُمْ لِلْهَلَالِ
 طِ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي
 تَانِ تَحْنُو لِذَرْدَقِي أَطْفَالِ

لَا تَشْكِي إِلَيَّ وَانْتَجِي الْأَسَا
 فَرُعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي عُصْنِ الْمَجَا
 عِنْدَهُ الْبُرُّ وَالتَّقَى وَأَسَى الشَّ
 وَصِلَاتُ الْأَرْحَامِ قَدْ عَلِمَ النَّا
 وَهَوَانُ النَّفْسِ الْكَرِيمَةِ لِلذِّكْرِ
 أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ مِنَ الْقَوَا
 وَوَفَاءٌ إِذَا أَجْرَتْ فَمَا غَرَّ (م)
 وَعَطَاءٌ إِذَا سُئِلَتْ إِذِ الْعِدَّةُ
 أَرِيحِي صَلَتْ يَظُلُّ لَهُ الْقَوَا
 إِنْ يُعَاقِبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعَا
 يَهَبُ الْجِلَّةَ الْجَرَاغِرَ كَالنَّبْسِ

- قال يفتخر ويذكر يوم ذي قار!

أُوصِيكُمْ بِثَلَاثٍ إِنِّي تَلِفْتُ
 حَقًّا عَلَيَّ فَأَعْطِيهِ وَأَعْتَرِفْ
 يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ يَنْتَبِهُ فَيَنْصَرِفْ
 إِذَا تَلَوَى بِكَفِّ الْمِعْصَمِ الْعُرْفُ
 مِنْهُمْ بَقِيرٌ وَمِنْهُمْ سَارِبٌ سَلَفُ
 كُلُّ يَوْمٍ قُنْيَانًا وَيَطَّرِفُ
 أَهْلُ النَّبُوكِ وَعَيْرٌ فَوْقَهَا الْخَصْفُ
 إِلَّا عَلَيْهَا دُرُوعُ الْقَوْمِ وَالرَّعْفُ
 لِيَعْلَمُوا أَنَّنا بَكْرٌ فَيَنْحَرِفُوا
 حَتَّى تَوَلَّوْا وَكَادَ الْيَوْمُ يَنْتَصِفُ

إِنَّ الْأَعَزَّ أَبَانَا كَانَ قَالَنَا
 الضَّيْفَ أُوصِيكُمْ بِالضَّيْفِ إِنَّ لَهُ
 وَالْجَارَ أُوصِيكُمْ بِالْجَارِ إِنَّ لَهُ
 وَقَاتِلُوا الْقَوْمَ إِنَّ الْقَتْلَ مَكْرَمَةٌ
 إِنَّ الرِّبَابَ وَحَيًّا مِنْ بَنِي أَسَدٍ
 قَدْ صَادَفُوا عُصْبَةً مِنَّا وَسَيِّدَنَا
 قُلْنَا الصَّلَاحَ فَقَالُوا لَا نُصَالِحُكُمْ
 لَسْنَا بِعَيْرٍ وَبَيْتِ اللَّهِ مَائِرَةٌ
 لَمَّا التَّقِينَا كَشَفْنَا عَنْ جَمَاعِمِنَا
 وَخَيْلٍ بَكْرٍ فَمَا تَنْفَكُ تَطْحَنُهُمْ

١ انظر: ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس (ص ٣٠٩-٣١١).

لَوْ أَنَّ كُلَّ مَعَدٍّ كَانَ شَارِكَنَا فِي يَوْمِ ذِي قَارٍ مَا أَخْطَاهُمُ الشَّرْفُ

- وقال يمدح بني شيبان ويذكر يوم ذي قار!

فَدَى لِبْنِي ذُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي
هُمُ ضَرَبُوا بِالْحِنُوِ حِنُوِ فُرَاقِرِ
وَرَاكِبُهَا يَوْمَ اللَّقَاءِ وَقَلَّتِ
مُقَدِّمَةُ الْهَامِرِ حَتَّى تَوَلَّتِ
* * * * *

فَنَارُوا وَثَرْنَا وَالْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا
وَقَدْ شَمَّرَتْ بِالنَّاسِ شَمَطَاءُ لِاقِحِ
وَهَاجَتْ عَلَيْنَا غَمْرَةٌ فَتَجَلَّتِ
عَوَانٌ شَدِيدٌ هَمْرُهَا فَأَضَلَّتِ
كَظَلِّ الْغَقَابِ إِذْ هَوَتْ فَتَدَلَّتِ
نَنَا ظُعُنٌ كَانَتْ وَقُوفًا فَحَلَّتِ
وَأَحْمَوْا حِمَى مَا يَمْنَعُونَ فَأَصْبَحَتْ
أَدَاقُهُمْ كَأَسَا مِنْ الْمَوْتِ مُرَّةً
* * * * *

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى اسْتَحِثَّتْ نِسَاؤُهُمْ
لَعَمْرُكَ مَا شَفَّ الْفَتَى مِثْلُ هَمِّهِ
وَأَجْرُوا عَلَيْهَا بِالسِّهَامِ فَذَلَّتِ
إِذَا حَاجَةٌ بَيْنَ الْحَيَازِيمِ جَلَّتِ

- وقال في قصيدته التي مدح بها المعلق!

أَرِقْتُ وَمَا هَذَا السُّهَادُ الْمُورِقُ
وَمَا بِي مِنْ سُقْمٍ وَمَا بِي مَعْشَقُ
وَلَكِنْ أَرَانِي لَا أَزَالُ بِحَادِثِ
أُعَادِي بِمَا لَمْ يُمَسِّ عِنْدِي وَأَطْرَقُ

١ انظر: ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس (ص ٢٥٩-٢٦١).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٢١٧).

٩- لبيد بن ربيعة

ترجمته:

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، ويكنى بأبي عقيل، وقومه بنو عامر من بطون هوازان، أحد فروع قيس عيلان من مضر، وأمه تامرة بنت زنباع العبسية، ومن بين أعمامه معاوية بن مالك المعروف باسم "مَعُودِ الحِمْيَرِ"، وأبو براء عامر بن مالك المعروف باسم "مُلاعِب الأُسَنة"، وكان من فرسان الجاهلية، وقد عُرف أبوه بلقب "ربيع المُقَتَرين"؛ لسخائه وكرمه، قتله بنو أسد في حربٍ بينهم، فثار له أخوه عامر بن مالك وقتل قاتله، ويُقال في سبب تسميته باسم "ملاعِب الأُسَنة": قول أوس بن حجر فيه!

وَلَا عِبَ أَطْرَافِ الأُسُنَّةِ عَامِرٌ فَرَاحَ لَهُ حِظُّ الكِتَابَةِ أَجْمَعُ

وقد ورث لبيد الكرم عن أبيه؛ الذي فقده صغيراً، كما ورث الشجاعة عن أعمامه ولا سيمًا عمّه مُلاعِب الأُسَنة؛ الذي كان فارساً وسيداً في قومه، وقد شبَّ لبيد على المجد والكرم والشجاعة، فكان فارساً وجواداً وحكيماً منذ صِغَرِهِ، فاشترك مع قبيلته في حروبها وغاراتها ووفودها، وله أخبار ذُكرت في حروب المناذرة والغساسنة، ويقال: إنَّ سبب نبوغه في الشعر أنه حضر مع وفد قومه على ملك الحيرة النعمان بن المنذر، وكان أصغرهم سنّاً وعلى رأسهم عمه ملاعب الأُسَنة، ووفد في نفس الوقت وفدٌ من بني عبس وعليهم الربيع بن زياد، وكانت بين عامر وعبس خصومةٌ، فأخذ الربيع يوغر صدر النعمان على العامريين حتى لان له، فغضَّ من وفد العامريين وأعرض عنهم، فشقَّ ذلك عليهم، وكان فيهم لبيد يرعى إبلهم ويسرحها، فلمَّا عادوا من لقاء النعمان؛ سألهم عن حَظِّهم، فلمَّا عرف بالأمر ثار وغضب وعزم على الثأر والانتقام، واستأذنهم في أن يهجو الربيع، فاستصغروه وأبوا عليه، حتى ألحَّ عليهم، فقالوا له: إِنَّا نَبْلُوكُ؛ فقال: وما ذلك؟ قالوا: تشتم هذه البقلة؛ فقال: هذه التربة لا

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٦٩).

تُدْكِ نَارًا، وَلَا تَوْهَلُ دَارًا، وَلَا تَسْرُ جَارًا؛ عودها ضئيل، وخيرها قليل، وفرعها
كليل، أقبح البقول مرعى، وأقصرها فرعًا، وأشدُّها قلْعًا؛ فأذنوا له، ودخل على
النعمان وهجا الربيع بأرجوزة يقول في أولها:

مهلاً أُبَيَّتِ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلُ مَعَهُ

فانتصر لقومه، ومال إليه النعمان بن المنذر فأكرم وفد العامريين وأدناهم،
ونفر من الربيع ومقته ولم يقبل له عذرًا!

وعلا ذكر لبيد بعد ذلك، وقد عَمَّرَ طويلاً حتى ظهر الإسلام، فوفد على رسول
الله ﷺ ابن عمه عامر بن الطفيل وأربد بن قيس أخو لبيدٍ لأُمِّه، ولكن لم يشرح
الله صدرهما إلى الإسلام، وكانت قد بيَّنا الغدر، فدعا عليهما الرسول ﷺ، فلم
يلبث عامر أن أصيب بالطاعون فمات به، بينما أصيب أربد بصاعقة قتلته،
فحزن عليه أخوه لبيد حزناً عظيماً، ورثاه بقصائد شتى، ومن قوله في إحداها:

أَخْشَى عَلَى أَرْبَدِ الْخُوفِ وَلَا أَرْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ
فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْـ فَارِسِ يَوْمِ الْكَرْيَهَةِ النَّجْدِ

ولما بلغ خبر النَّبِيِّ ﷺ قبيلته أرسله قومه إلى النَّبِيِّ برسالة، فوقع الإسلام في
قلبه، ولكنه لم يُسَلِّمْ بعدُ، وعاد إلى قبيلته، حتى إذا حال الحول كان من ضمن
وفد بني عامر الذين أقبلوا على الرَّسُولِ ﷺ فأسلموا جميعاً ودخلوا في الدِّينِ،
وعُدَّ لبيد حينها من المؤلفة قلوبهم، وأخذ يذكر البعث والجنة والنار، ويقرؤ
القرآن، وقد عَمَّرَ طويلاً بعد الإسلام حتى انتشر وعمَّت الفتوحات ومُصِرت
الأمصار وشيَّدت المدن الجديدة زمن عمر بن الخطاب، فانتقل لبيد مع رهطه
إلى الكوفة وأقام بها، وطال عمره حتى مات أول خلافة معاوية سنة ٤١هـ/
٦٦١م، وقد بلغ عمره -مع اختلاف الروايات- نحو مئة وخمسين سنة، والرواية
مختلفون حول قوله الشعر بعد الإسلام؛ فمنهم من زعم أن لبيداً كفَّ عن
الشعر بعد إسلامه ولم يُقَلِّ إلا بيتاً واحداً؛ هو:

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ٦٨-٦٩).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٧٠).

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى كَسَانِي مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبَالًا
وقيل: بل قوله:

مَا عَاتَبَ الْمَرْءَ الْكَرِيمُ كَنْفِسَهُ وَالْمَرْءُ يُصَلِّحُهُ الْجَلِيسُ الصَّالِحُ
وَيُرَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَرْسَلَ إِلَيْهِ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَنْشُدَهُ،
فَكَتَبَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ فِي صَحِيفَةٍ وَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَقُولَ شَعْرًا بَعْدَ أَنْ عَلَّمَنِي اللَّهُ
سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَزَادَهُ عُمَرُ عَطَاءً خَمْسَمِائَةَ دِرْهَمًا، وَكَانَ الْفَرَسُ
وَقَدْ حَاوَلَ مَعَاوِيَةَ لَمَّا وُلِيَ الْخِلَافَةَ أَنْ يَقْلَلَهَا، فَقَالَ لَهُ: أَمُوتَ الْآنَ وَتَبْقَى لَكَ
الْعِلَاوَةُ وَالْفُودَانُ -أَيَّ الْأَلْفَانَ- فَرَقَ لَهُ مَعَاوِيَةَ وَأَقْرَبَهَا لَهُ، وَمَا لَبِثَ أَنْ مَاتَ
بَعْدَهَا بِقَلِيلٍ؛ وَكَانَ لِيَبِيدَ قَدْ آلَى عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا تَهَبَّ الصَّبَا إِلَّا أَطْعَمَ النَّاسَ حَتَّى
تَسْكُنَ، وَالتَزَمَ بِذَلِكَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَخَطَبَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ وَالِي الْكُوفَةَ مَرَّةً زَمَنَ
عُثْمَانَ فِي النَّاسِ قَائِلًا: إِنْ أَخَاكُم لِيَبِيدًا آلَى أَلَّا تَهَبَّ الصَّبَا إِلَّا أَطْعَمَ النَّاسَ حَتَّى
تَسْكُنَ، وَهَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِهِ، فَأَعْيَنُوهُ؛ وَبَعَثَ لَهُ عَوْنًا وَكَتَبَ إِلَيْهِ شَعْرًا قَالَ فِيهِ:

أَرَى الْجَزَارَ يَشْحَدُ شَفَرْتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَاخُ أَبِي عَقِيلِ
أَشْمُ الْأَنْفِ أَضِيدُ عَامِرِي طَوِيلُ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
وَفِي ابْنِ الْجَعْفَرِيِّ بِحِفَّتَيْهِ عَلَى الْعَلَاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ
بِحَرِّ الْكُومِ إِذْ سُحِبَتْ عَلَيْهِ ذُيُولُ صَبَا تَجَاوَبَ بِالْأَصِيلِ
فلما أتاه الشعر قال: إني تركت الشعر بعد الإسلام، وما أعيا بجواب شاعر؛
فدعا ابنته للردِّ، فكتبت:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاخُ أَبِي عَقِيلِ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَالِيدَا
أَشْمُ الْأَنْفِ أَضِيدُ عُنْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لِيَبِيدَا
بِأَمْثَالِ الْهَضَابِ كَأَنَّ رَكْبًا عَلَيْهَا مِنْ بَنِي حَامٍ قُعُودَا
أَبَا وَهَبٍ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا نَحْرُنَا هَا وَأَطْعَمْنَا الثَّرِيدَا

١ انظر: المصدر السابق (١/٢٦٧-٢٦٨).

٢ انظر: المصدر السابق (١/٢٦٨).

٣ انظر: المصدر السابق (١/٢٦٨-٢٦٩).

فَعُدْ إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادٌ وَظَنِّي يَا بَنَ أَرْوَى أَنْ تَعُودَا
فقال لها لبيد: أحسنت، لولا أنك سألت في شعرك!!؛ فقالت: إنه أميرٌ وليس
بسوقة، ولا بأس بسؤاله، ولو كان غيره ما سألناه؛ فقال: أجل؛ إنه لعلَى ما
ذكرت!

وعليه فلبيدٌ يُعدُّ شاعرًا جاهليًّا وإن أدرك الإسلام وأسلم، غير أن فنةً من الرواة
نفث ما ذُكر عن توقُّفه عن الشعر بعد إسلامه، وأثبتوا له أبياتًا تفيض بمعاني
الإسلام وشعائره ومعانيه وخصاله في الإيمان التقوى والبر، وأبياتًا قالها يصف
امتداد عمره، وأبياتًا خاطب بها ابنتيه، وأبياتًا رثى بها نفسه قبل وفاته؛ ممَّا
يرجِّح أنه قال شعرًا بعد الإسلام، ومن ذلك قوله حينما بلغ الأربعين بعد المئة:

وَلَقَدْ سَأِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لَبِيدُ
غَلَبَ الزَّمَانُ وَكَانَ غَيْرَ مُغَلَّبٍ دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ مَمْدُودُ
يَوْمٌ إِذَا يَأْتِي عَلَيَّ وَلَيْلَةٌ وَكِلَاهُمَا بَعْدَ انْقِضَاءِ يَعُودُ

وإن صحَّ ما رُوِيَ عنه من أخبار مع عمر بن الخطاب والوليد بن عقبة؛ فمن
المحتمل أنه قد يكون ترك الشعر على الأغلب إلا ما قاله عَرْضًا دون أن يكون له
نفس الفيض والتَّوهُّج الذي كان في الجاهلية، وهناك من زعم أنه قال شعرًا
كثيرًا بعد الإسلام، وعليه فهو من الشعراء المخضرمين؛ كونه أدرك الإسلام
وعُمِّر بعده وقال شعرًا فيه.

شعره:

شعر لبيد مرآة عن الرزانة والكرم والحكمة والخلق، وهذا نابغٌ من أخلاقه
السامية التي ورثها عن أبيه وأعمامه قبل الإسلام، ونلمح فيه عاطفة صادقة ولا
سيِّما فيما رثى به أخاه أريد رثاء صادقًا عميقًا مؤثِّرًا في النفس، وشعره يمثِّل
المعاني النبيلة التي تجسِّد الكرم والرثاء والجود، ويصوِّر كذلك الطبيعة البدوية

^١ انظر: جبهة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٨٤).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٨٥).

الصافية؛ حيث يجمع بين الرصانة والصلابة والسلاسة وحسن الاختيار، ويمتاز بكونه فخم العبارة، جزل اللفظ، بعيد المعنى، تفيض في شعره أخلاقه وعواطفه ورزاقته، ونستطيع تقسيم شعره إلى صنفين: جاهلي وإسلامي؛ فأما شعره الجاهلي فمضى به في سبيل أقرانه من المديح والفخر والهجاء، ولا يخلو من الإغراب الشديد في لفظه، وأما شعره الإسلامي فإننا نجد أنه تأثر بالقرآن فتهدّب لفظه ودخل عليه قدرٌ من الطلاوة، ونلمح فيه خصلاً وآثاراً إسلامية عديدة؛ فهو يذكر الله والدار الآخرة، ويذكر المواعظ وشعائر الإسلام من البرِّ والرُّهد والتُّقى ومهابة الموت والحساب، ويفيض حكمة صافية نابعة عن عاطفة دينية.

قال من قدّموه على غيره: إنه أفضلهم في الجاهلية والإسلام؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله لبيداً، ما أشعره في قوله؛

**ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجَلِدِ الْأَجْرَبِ
لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يُرْجَى خَيْرُهُمْ وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ**

وقال الأصمعي: شعر لبيد كأنه طيلسان طبراني؛ أي: مُحكَم الصَّنعة ولا رونق له؛ وجعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من طبقات الشعراء مع النابغة الجعدي وآخرين، وقال: كان عذب المنطق، رقيق حواشي الكلام؛ ويقال: إنه لقي النابغة الذبياني عند وفوده على بلاط النعمان، وكان غلاماً حدّث السِّنِّ، فتوسّم في عينيه الشاعرية وطلب منه أن ينشده، فأنشده بعض شعره، ومنه معلقته التي مطلعها "عفت الديار"، فقال له النابغة: يا غلام؛ أنت أشعر بني عامر؛ ثم قال له: أنت أشعر قيسٍ كليها؛

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، شوقي ضيف (٩٢/٢)

^٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٨٢).

^٣ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام (١/١٣٥).

^٤ يعني قيس عيلان. انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان (١/١٣١).

معلّته:

معلقة لبيد متينة الأسلوب، سريعة الإيقاع، مليئة بغريب اللفظ، وكعادة قصائد المعلّقات بدأها بمقدّمة غزلية أنيقة ذكر فيها الديار وفراق الأحبة، ثم انتقل إلى وصف الناقة والنّعاج والطّباء والبعير؛ في إطارٍ من وصف مظاهر الطبيعة البدوية، بأسلوب مسترسل دقيق، وذكر أسماء بعض المواضع ثم انتقل إلى وصف الخمر ثم إلى وصف الخيل والرماة والصيد؛ في جوٍّ من الحماسة والفروسية، ويختمها بالفخر بقبيلته وتعداد مآثرها وحسن صفاتها. ورغم أنها مضت على نهج أخواتها من المعلقات فإنها لا تكفي لدراسة شعر لبيد؛ لأنها لم تشمل جميع ملامح شعره؛ التي تجلّت في الحكمة والرثاء والسُّمُوّ الخُلقي؛ إنما اكتفى بالنسيب والوصف البدوي والفخر، ولم يُذكر السبب الذي دعاه إلى نظّمها، وهي من البحر الكامل.

ومن أبياتها!

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فَمُقَامُهَا	بِمَيْ تَأْبَدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا
فمدافع الرّيانِ عُرِّي رَسْمُهَا	خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الوُجِيّ سِلَامُهَا
دِمْنٌ تَجَرَّمْ بَعْدَ عَهْدِ أَنْبِسِهَا	حَجَجٌ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا
*	*
وَالعَيْنُ سَاكِنَةٌ عَلَى أَطْلَائِهَا	عُودًا تَأَجَّلُ بِالْفَضَاءِ بِهَامُهَا
وَجَلَا السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا	زُبُرٌ تُجِدُّ مُتَوْنَهَا أَقْلَامُهَا
*	*
فَاقْطَعْ لُبَانَةً مَنْ تَعَرَّضَ وَضَلُّهُ	وَلَشَرُّ وَاصِلِ خُلَّةٍ صَرَامُهَا
وَاحْبُ المَجَامِلِ بِالْجَزِيلِ وَصَرْمُهُ	بَاقٍ إِذَا ظَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُهَا
بَطْلِيحِ أَسْفَارٍ تَرْكَنَ بَقِيَّةً	مِنْهَا فَاحْنَقَ ضُأْبُهَا وَسَنَامُهَا

^١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٢٣٧ - ٢٦٩).

وَتَقَطَّعَتْ بَعْدَ الْكَلَالِ خِدَامُهَا
صَهْبَاءُ خَفَّتْ مَعَ الْجَنُوبِ جَهَامُهَا
*

رِيحُ الْمَصَائِفِ سَوَمُهَا وَسِهَامُهَا
كَدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يُثَبُّ ضِرَامُهَا
*

كَجُمَانَةِ الْبَحْرِيِّ سُلِّ نِظَامُهَا
بَكَرَتْ تَزِلُّ عَنِ الثَّرَى أَزْلَامُهَا
*

غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا
كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَادُهَا وَتَمَامُهَا
*

فُرْطُ وَشَاجِي إِذْ عَدَوْتُ لِجَامُهَا
حَرَجٌ إِلَى أَعْلَامِهِنَّ قَتَامُهَا
*

مِنَّا لِرِزَازِ عَظِيمَةٍ جَشَّامُهَا
وَمَعْدَمِرٍ لِحُقُوقِهَا هَضَّامُهَا^١
سَمَحٌ كَسُوبِ رَغَائِبِ غَنَامُهَا
وَالسِّنُّ تَلْمَعُ كَالكَوَاكِبِ لَامُهَا
وَالكَلِّ قَوْمِ سُنَّةٍ وَإِمَامُهَا
إِذْ لَا تَمِيلُ مَعَ الْهَوَى أَحْلَامُهَا
فَسَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا
*

فَإِذَا تَغَالَى لَحْمُهَا وَتَحَسَّرَتْ
فَلَهَا هِبَابٌ فِي الزَّمَامِ كَأَنَّهَا
*

وَرَمَى دَوَابِرَهَا السَّفَا وَتَهَيَّجَتْ
فَتَنَازَعَا سَبْطًا يَطِيرُ ظِلَالُهُ
*

وَتُضْيِءُ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً
حَتَّى إِذَا انْحَسَرَ الظَّلَامُ وَأَسْفَرَتْ
*

حَتَّى إِذَا يَبْسُ الرُّمَاءُ وَأَرْسَلُوا
فَلَحِقْنَ وَاعْتَكَّرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ
*

وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْخَيْلَ تَحْمُلُ شَكَّتِي
فَعَلَوْتُ مُرْتَقِبًا عَلَى ذِي هَبْوَةٍ
*

إِنَّا إِذَا التَّقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ
وَمُقَسِّمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا
فَضْلًا وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى
إِنْ يَفْرَعُوا تَلَقَّ الْمَغَافِرَ عِنْدَهُمْ
مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يَبُورُ فَعَالُهُمْ
فَبَنَوْا لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ
*

^١ مغذمر: متبع الأهواء في سياسته. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١/٥).

وَهُمْ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا
وَالْمُرْمِلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا
أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الْعَدُوِّ لِئَامُهَا

وَهُمُ السَّعَاءُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَفْطَعَتْ
وَهُمُ رِبِيعٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ
وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبْطِئَ حَاسِدٌ

نماذج من قصائده:

- ومن أروع شعره رثائه لأخيه أربد، في قصيدةٍ تمتاز بعمق المعنى وصدق
العاطفة وتجلي الحكمة، وهي من أروع المراثي^١

وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ
فَفَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدٍ نَابِغُ
فَكُلُّ فَتَى يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
وَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ
يُنْتَبِرُ مَا يُبْنَى وَآخِرُ رَافِعُ
وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعُ
لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ
أَدَبٌ كَأَنِّي كَلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ
تَقَادُمُ عَهْدِ الْقَيْنِ وَالنَّصْلِ قَاطِعُ
عَلَيْكَ فَدَانٍ لِلطَّلُوعِ وَطَالِعُ
إِذَا رَحَلَ السُّقَاؤُ مَنْ هُوَ رَاجِعُ
وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبهُ الْقَوَارِعُ
وَلَا زَاغِرَاتِ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ
وَقَدْ كُنْتُ فِي أَكْنَافِ جَارٍ مَضِنَّةٍ
فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا
وَمَا الْمَرَّةُ إِلَّا كَالشِّهَابِ وَضُوئِهِ
وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانِ فَعَامِلٌ
فَمِنْهُمْ سَاعِدٌ آخِذٌ لِلصَّيْبِ
أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
أُخْبِرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ
فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ عَيْرَ جَفْنِهِ
فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَوْعِدُ
أَعَانِذُ مَا يُدْرِكُ إِلَّا تَطَنِّيَا
أَتَجَزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى
لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الصَّوَارِبُ بِالْحَصَى

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٧٠).



- وقال أيضاً قصيدة في الحكمة، ولعلها قيلت بعد الإسلام، منها:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ
إِذَا الْمَرْءُ أُسْرِيَ لَيْلَةً ظَنَّ أَنَّه قَضَى عَمَلًا وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ آمِلٌ
حَبَائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ بِسَبِيلِهِ وَيَفْنَى إِذَا مَا أَخْطَأَتْهُ الْحَبَائِلُ

- وَرُوي أَنه لما حضرته الوفاة قال لابنه يوصيه، ولعله ولد أخيه؛ لأن لبيداً لم يكن له ولد وإنما كان له بنات؛

فإِذَا دَفَنْتَ أَبَاكَ فَاجْـ عَلَّ فَوْقَهُ خَشَبًا وَطِينًا
وَصَفَائِحًا ضُمَّمًا رَوَا سِيهَا يُسَدِّدْنَ الْعُضُونا
لِيَقِينَ حَرَّ الْوَجْهِ مِنْ عَفْرِ الثُّرَابِ وَلَنْ يَقِينَا

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٧١).

^٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٨٦).

١٠- النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِي

ترجمته:

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر -أو جناب- بن يربوع، من بني ذُبْيَانِ ابن بغيض، إحدى قبائل غطفان المنتمية إلى قيس عيلان من مضر، ويُكنى بأبي أمامة وأبي ثمامة؛ وهما ابنتاه، وأمُّه عاتكة بنت أنيس؛ غلب عليه لقب النابغة ويقال: إن سبب تَلَقُّبِهِ بهذا اللقب أنه لم يقل الشعر حتى احتنك، فنيغ فيه فجأة متفوقاً فيه؛ وقيل: بل لقوله!

فَقَدْ نَبَغْتُ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونَ

وهو أحد شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وعلم من أعلامها في الشعر والسياسة والزعامة القبلية بلا جدال، ولا نعرف شيئاً عن السنين الأولى من حياته سوى ما رُوِيَ عن تعلقه بفتاة اسمها ماوية لكنه لم يحظَ بها، وما لبث أن اتصل ببلاط الحيرة، فبذخ نجمه وعلا صيته، وكانت قبيلته ذبيان من بين القبائل الموالية للمناذرة، ولها مع الغساسنة عدة وقائع، فكان من الطبيعي أن يقبل على ملوك الحيرة مادحاً إياهم، فأدرك المنذر بن ماء السماء، واتصل بعمر بن هند، وحظي لديهم وأجزلوا له العطاء، ثم اتصل بالنعمان بن المنذر فكانت له من مديحه فيه قصائد شتى، وكان النعمان يُجلُّه ويحترمه ويقدمه على غيره من الشعراء رغم من كثرة من كانوا في بلاطه؛ مثل لبيد وابن حجر التميمي والمثقب العبدي، لكن أحداً منهم لم يبلغ قدر النابغة لديه ولا مكانه منه، وكان النابغة الذبباني ذا منزلة رفيعة بين الملوك والقبائل والشعراء، وله مع النعمان قصة شهيرة، مفادها أن عدداً من ندماء النعمان وشعرائه قد حسدوا النابغة على مكانته من الملك، فوشوا به عنده واتهموه بأنه يهجوه، وتتطرق

١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/٢٣٦).

٢ الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري (ص٧٩)، طبعة دار الكتب العلمية

٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/٢٣٦).

بعض الروايات أنه قال شعراً في المتجردة زوجة النعمان وأُثمهم بها، فصَدَّق النعمان الوشاة وغضب منه وأهدر دمه، وفرَّ النابغة إلى بلاط الغساسنة، فمدح عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج، ولزم الغساسنة زمناً فحظي عندهم، وقيل في رواية مختلفة: بل إن النابغة هو من ذهب أولاً إلى بلاط الغساسنة بسبب حدوث واقعة بين الغساسنة وبني ذبيان كانت على قوم الشاعر، فسار من فورهِ إلى ملك الغساسنة حتى يوقف الحرب ويُطلق الأسرى من قومه، فاستعطفهم ومدحهم، حتى نجحت سفارته فتوقفت الحرب وتمَّ رد الأسرى من ذبيان؛ وهي الرواية الأرجح وفق سياق الأحداث التاريخية لتلك الحقبة، ولعلَّ حسَّاد النابغة قد انتهزوا تلك الفرصة فوشوا به عند النعمان ونظَّموا على لسانه هجاءاً للنعمان فصَدَّقهم وأهدر دمه، مما ألجأ النابغة إلى الاحتماء بالغساسنة مدة من الزمن، ولكنه -فيما يبدو- لم يطق فراق صديقه القديم، فانتهز خبر مرضه -كما تزعم بعض الروايات- واعتزم العودة إليه، وأقبل ومعه زبَان ومنظور ابنا سيار الذبيانيان، وكانا يرافقان النعمان، فشفعا للنابغة، ودسَّا له أبياتاً للنابغة في مدحه؛ وهي التي يقول فيها: "نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي"، فعرف النعمان أن الشعر له، فقَبِلَ فيه شفاعة رقيقِيه، وعاد النابغة إلى منزلته القديمة، فمدحه بمجموعة من اعتذارياته الرائعة؛ غير أن مرافقته للملك هذه المرة لم تَدُم طويلاً؛ إذ ما لبث أن غضب كسرى أبرويز على النعمان فاستقدمه إلى عاصمته المدائن، فحبسه إلى أن قتله -أو مات في سجنه- عام ٦٠٢م، مما كان شعلة لواقعة ذي قار الشهيرة فيما بعد، وحينها ترك النابغة الحيرة وعاد إلى قومه فعاش بينهم أواخر حياته، وما لبث أن تُوُفِّيَ بعد ذلك بقليل نحو عام ٦٠٤م قبل انتهاء حرب داحس والغبراء بنحو أربع سنوات.

كان النابغة الذبياني ذا مكانة سامية ومنزلة عظيمة؛ سواء ذلك في الشعر وفي السياسة؛ فكان من جهةٍ شريكاً مُطاعاً في قومه، سيِّداً بين القبائل، ومن جهةٍ أخرى كان ذا حظوة عند ملوك المناذرة والغساسنة، فأتاح له ذلك خدمة

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٦٥-١٦٦).

مصالح قومه لدى بلاط الملوك، وكان دائماً رجل الدهاء والسياسة وصاحب المواقف القوية والحازمة في السلم والحرب، وكانت له عدة مواقف سياسية مهمة انبرى لها النابغة؛ لما له من حظوة؛ فقد نجح في إطلاق سراح أسرى أحلافه من بني أسد؛ الذين أسرهم الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني حينما ناصروا خصمه المنذر بن ماء السماء وانهزموا معه في يوم حليلة؛ ولماً أوقع عمرو بن الحارث ملك الغساسنة ببني ذبيان قوم الشاعر مع حلفائهم بسبب عدوانهم على وادي أقر الخصيب الذي كان في حماه، فأسر وسبى منهم؛ ذهب النابغة من فوره إلى بلاط الغساسنة فمدح عمرو بن الحارث وأخاه النعمان واستعطفهما وتوسّط لديهما، فرضيا، ونجح في استخلاص الأسرى وإيقاف الحرب، وما لبث أن ذهب إلى قومه فنهاهم عن العدوان والتعرض للغساسنة، مبيّناً لهم مغبة فعلهم، فاتهمومه بالجبن، ويقال: إنه مدح النعمان بن وائل الكلبي القائد الغساني بسبب مبادرته بإطلاق سراح ابنته وكانت بين الأسرى. ولما همّ النعمان بن الحارث الغساني بغزو بني حنّ حلفاء قوم الشاعر؛ حاول النابغة أن يصرفه عن ذلك، فأبى عليه، فأرسل النابغة إلى عشيرته يطلب منها نصرة حلفائهم، فأجابوا، وانهزمت جيوش الغساسنة، وفي هذا يقول النابغة؟

لَقَدْ قُلْتُ لِلنُّعْمَانِ يَوْمَ لَقِيْتُهُ يُرِيدُ بَنِي حُنٍّ بِبُرْقَةِ صَادِرٍ
تَجَنَّبَ بَنِي حُنٍّ فَإِنْ لِقَاءَهُمْ كَرِيهَةٌ وَإِنْ لَمْ تَلْقَ إِلَّا بِصَابِرٍ
عِظَامُ اللَّهِى أَوْلَادُ عُدْرَةٍ إِنَّهُمْ لَهُامِيمٌ يَسْتَلْهُونَهَا بِالْحَنَاجِرِ
وَهُمْ مَنَعُوا وَادِي الْقُرَى مِنْ عَدُوِّهِمْ بِجَمْعِ مُبِيرٍ لِّلْعَدُوِّ الْمُكَائِرِ

ولما اشتعلت حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان؛ التي امتدّت -فيما يقال- أربعين سنة؛ أخذ النابغة يمدح بني أسد حتى يستنهضهم لنصرة قومه، ولكنه من جهة أخرى كسياسيٍّ فطنٍ لم يكن سعيداً بتلك الحرب، وكان يأسف لخسائر عيس ولجوءها إلى الترحال، حتى إنه لم يتعرّض لهم في شعره؛ بل على

^١ تمت الإشارة إلى حدوث خلط لدى بعض الرواة بين يوم حليلة ويوم عين أباغ.

^٢ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٣٨).

العكس فقد كان من الدّاعين إلى الصلح بين عبس وذبيان، ودعا قومه إلى الجنوح إلى السّلم، ومن ذلك قوله يأسف على فراق عبس لذبيان والتجاءهم إلى بني عامر!

أَبْلَغُ بَنِي ذُبْيَانَ أَنْ لَا أَخَا لَهُمْ بَعَبْسٍ إِذَا حَلُّوا الدِّمَاحَ فَأَظْلَمَا
هُمْ يَرِدُونَ الْمَوْتَ عِنْدَ لِقَائِهِ إِذَا كَانَ وَرْدُ الْمَوْتِ لَا بُدَّ أَكْرَمَا
وكان النابغة أحد الممهدين للصلح الذي أبرم لاحقًا بين الحيين وتوقفت به الحرب، وإن لم يُكتب للنابغة أن يشهد هذا الصلح الذي ساهم فيه؛ إذ توفّي قبله ببضع سنوات.

وقد بلغ من قدره بين الشعراء أنه كانت تُضرب له قُبّة في سوق عكاظ فيعرض عليه الشعراء أشعارهم فيحكّم فيها، وممن عرضوا عليه شعرهم: الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت، ويقال: إن الخنساء أنشدته قائلةً بيتها الشهير:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمَّ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ
فقال لها: والله لولا أن أبا بصيرٍ -يعني الأعشى- أنشدني لقلت: إنك أشعر الجن والإنس؛ فغضب حسان بن ثابت قائلاً: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك؛ فقال له النابغة: يا بن أخي؛ أنت لا تحسن أن تقول!

فإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ
خَطَاطِيفُ حَجْنٍ فِي جِبَالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ
فكتمها حسان في نفسه.. وكل هذا يدل على أن النابغة من الناحية السياسية قد بلغ قدره كرجل دهاء وحنكة وسياسة، له قدره عند القبائل، وله نفوذ عند الملوك منحه قدرة على خدمة مصالح قبيلته لديهم، وكان له أثر حسن في العديد من الحروب والمناسبات السياسية، ومن الناحية الأدبية فقد كان شاعراً مُقدِّماً وله منزلته بين الشعراء جعلتهم يحكّمونه فيما بينهم.

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٨).

^٢ انظر: انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٦٩)؛ تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٢٧٤).

شعره:

شعر النابغة عذب سلس، بهي الرونق، مرهف الحس، يفيض رقة وسلاسة وعذوبة وجودة، والنابعة أكثر الشعراء في معانيه وضوحًا، وأحسنهم تنقيحًا وتدبيجًا لشعره، وأقدرهم على تنوع المعاني، ويتضح من خلال سلاسة أسلوبه أنه كان يدبج شعره، وينقح ألفاظه، ويصقل كلماته بعناية، فكان شعره واضحًا سهل المنطق، عظيم الجودة، قليل الغريب مقارنة بغيره، وهذا كله من آثار مخالطته للملوك وحياة الحضرة، وهو من شعراء الطبقة الأولى بإجماع النقاد، وكان أهل الحجاز يفضلونه ويقدمونه، ورؤي أن وفدًا من غطفان قديم على عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- فقال لهم: أي شعرائكم الذي يقول:

أَتَيْتُكَ عَارِيًّا خَلَقًا ثِيَابِي عَلَى خَوْفٍ تُظَنُّ بِي الظُّنُونُ
فَأَلْفَيْتُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

فقالوا: النابغة؛ قال: فأبي شعرائكم الذي يقول:

خَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

فقالوا: النابغة؛ قال: فأبي شعرائكم الذي يقول:

فإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُذْرِكِي وَإِنْ خُلْتُ أَنْ الْمُنتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ

فقالوا: النابغة؛ فقال عمر: هو أشعر شعرائكم!

وقد حكى عنه حسان بن ثابت في حديث طويل، وعن وفوده على النعمان ومدى إكرامه له وتعظيمه لمكانته حتى علا به قدر سائر الشعراء، وقال أبو عبيدة الراوي: يقول من فضّل النابغة على جميع الشعراء: هو أوضحهم كلامًا، وأقلهم سقطًا وحشواً، وأجودهم مقاطع، وأحسنهم مطالع، ولشعره ديباجة إن شئت قلت: ليس بشعر مؤلف من تأنيبه ولينيه؛ وإن شئت قلت: صخرة، لو أردت بها الجبال لأزالتها.

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٥٧).

وقد حطَّ من قدره قليلاً سعيُّه إلى التَّكسُّبِ من مدح الملوِّك، ومن عيوبه أنه وقع مرَّةً في الإقواء؛ وهو من عيوب القافية، إلا أنه لما عُيِّي بشعره ذلك في يثرب؛ انتبه فلم يعد إليه!

وقد برع النابغة في المديح والاعتذار فافتنَّ فيهما أروع افتنانٍ، وفيهما قال أغلب شعره، وبجانب المديح نجد بعضاً من الوصف والهجاء والغزل والرثاء، وهو شاعر يعرف كيف يتخيَّر ألفاظه وينوِّع في معانيه ويستتمُّ صورته، ويعبر عن مراده تلك تعبيرًا واضحًا مستقيمًا بالصور؛ ولا يخلو شعر النابغة من الكنايات والصور البيانية والتشبيهات الفنية والخيال الخصب والميل إلى التجويد والتنقيح، "وتمتاز معانيه بالدقة والانسجام، والتألف والصدق، والقرب من العقل، والبعد عن التعقيد والغموض، والبصيرة بمواقع الكلام"،^١ ونستطيع الاطمئنان إلى ما رُوِيَ في ديوانه من رواية الشنتمري، ولا سيَّما ما رُوِيَ من طريق الأَصمعي؛

وفي شعر النابغة إحياءات إيمانية وإشارات مسيحية تتفق مع ما يُروى من أنه ربما كان نصرانيًّا، غير أنه على الجهة أخرى رُوِيَ عنه ذكر الكعبة وبعض شعائر العرب الوثنية؛ ممَّا يجعلنا بأمر تديُّنه في محل شكِّ.

معلقته:

اعتُبرت قصيدة النابغة الذبياني "يا دار مية" معلقة في رأي بعض أهل الأدب؛ إذ أقرَّها بعض الرواة من شعراء المعلقات بينما أسقطها آخرون، ولم تردِّ في رواية

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٥٦)؛ والإقواء هو مخالفة حركة الروي لموضعها من الإعراب وهو من عيوب القافية.

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٢٨٢).

^٣ أشعار الشعراء الستة، الشنتمري، ترجمة النابغة، طبعة دار الفكر (ص ١٧٧).

^٤ شك د. شوقي ضيف في بعض قصائد النابغة من رواية الشنتمري وفي بعض أبيات معلقته

حماد، ويبدو أن أولئك الرواة قد اختلفوا كذلك في تحديد قصيدة المعلقة من بين أشعاره؛ ف قيل في رواية جمهرة أشعار العرب: هي التي مطلعها!

عُوجُوا فحَيُّوا لِنُعْمِ دِمْنَةَ الدَّارِ ماذا تُحَيِّونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارِ
أَقْوَى وَأَقْفَرَ مِنْ نُعْمٍ وَغَيْرِهِ هُوجُ الرِّيحِ بِهَابِي التُّرْبِ مَوَارِ

على أن الأشهر أنها قصيدة "يا دار مية"، وهي تمتاز بالرونق والسلاسة والانسيابية، وهي كذلك تجسّد أغلب ملامح شعره؛ المتمثلة في صقله لألفاظه وتخيره لعباراته، وتنقيحه وتدبيجه لشعره، وتجسّد القصيدة كذلك تفنّنه في المديح في شعره، فضلاً عن سهولته وانسيابيته، وقد أنشد هذه القصيدة حينما أراد أن يعود إلى الملك النعمان بن المنذر؛ يستشفع بها، فلمّا سمعها؛ عفا عنه وردّه إلى منزلته، وهي تمتاز كذلك بصدق العاطفة ودقة التعبير، والاسترسال في وصف أحاسيسه ومشاعره، وقد بدأها بمقدمة طليقة رقيقة كعادة أقرانه من الشعراء، وصف فيها الدار والفراق ثم انتقل إلى الوصف ليصف بعض مظاهر الطبيعة ويصف البرية والنهار والنجوم والناقة والكلاب والصيد، ثم وجّه الكلام للنعمان معذراً له ومادحاً إياه ومُبرِّئاً نفسه من التهم الباطلة التي لُقِّقت له، ثم يعود إلى الوصف فيذكر الخيل وبعض المواضع، ثم يرجع ثانية إلى مخاطبة النعمان معذراً، ويختم بذلك مُعلّته، ومن أبياتها!

يا دار مِيَّةَ بِالْعِلْيَاءِ فَالسَّنْدِ أَقْوَتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَبْدِ
وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلَانًا أُسْأِلُهَا عَيْتُ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ
خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيَّ كَانَ يَحْبِسُهُ وَرَفَعْتُهُ إِلَى السِّجْفَيْنِ فَالْنُّصْدِ
أَمَسْتُ خَلَاءً وَأَمْسَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى نُبْدِ

^١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ١٨٣).

^٢ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٣٢).



تُرْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ
 طَوْعَ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفِ وَمِنْ صَرْدِ
 صُمُعِ الْكُعُوبِ بَرِيَّاتٍ مِنَ الْحَرْدِ
 طَعْنُ الْمُعَارِكِ عِنْدَ الْمُحْجَرِ النَّجْدِ
 طَعْنَ الْمُبْيَطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعَصْدِ
 * * *

وَإِنَّ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدِ
 فَضْلًا عَلَى النَّاسِ فِي الْأَدْنَى وَفِي الْبَعْدِ
 وَلَا أَحَاشِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ
 قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الْفَدِ
 يَبْنُونَ تَذْمُرَ بِالصُّفَّاحِ وَالْعَمَدِ
 كَمَا أَطَاعَكَ وَادَّلَهُ عَلَى الرَّشْدِ
 تَنَهَى الظُّلُومَ وَلَا تَقْعُدْ عَلَى ضَمَدِ
 سَبَقَ الْجَوَادَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى الْأَمْدِ
 * * *

وَمَا هُرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
 رُكْبَانٍ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّعْدِ
 إِذَا فَلَا رَفَعَتْ سَوَاطِي إِلَيَّ يَدِي
 كَانَتْ مَقَالَتْهُمْ قَرْعًا عَلَى الْكَبِدِ
 قَرَّتْ بِهَا عَيْنٌ مَنْ يَأْتِيكَ بِالْفَنَدِ
 وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ
 وَمَا أُنْمَرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَادِ
 وَإِنْ تَأَنَّفَكَ الْأَعْدَاءُ بِالرَّفَدِ

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَّةُ
 فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَابٍ فَبَاتَ لَهُ
 فَبَثُّهُنَّ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرَّ بِهِ
 وَكَانَ "ضُمْرَانُ" مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ
 شَكَّ الْفَرِيصَةَ بِالْمِذْرَى فَأَنْقَذَهَا
 * * *

قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ إِنِّي لَا أَرَى طَمَعًا
 فَتِلْكَ تُبْلِغُنِي التُّعْمَانَ إِنَّ لَهُ
 وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ
 إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْإِلَهِ لَهُ
 وَخَيِّسِ الْجِنَّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ
 فَمَنْ أَطَاعَكَ فَاَنْفَعَهُ بِطَاعَتِهِ
 وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبُهُ مُعَاقِبَةً
 إِلَّا لِمِثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ
 * * *

فَلَا لَعْمُرُ الَّذِي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ
 وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِدَاتِ الطَّيْرِ تَمَسَّحُهَا
 مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّئٍ مِمَّا أَتَيْتَ بِهِ
 إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيْتُ بِهَا
 إِذَا فَعَاقَبَنِي رَبِّي مُعَاقِبَةً
 أَنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي
 مَهْلًا فِدَاءً لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ
 لَا تَقْذِفْنِي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ

١ الفند: الباطل. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/٣٣٨).

تَرْمِي غَوَارِبُهُ الْعَبْرَيْنِ بِالزَّبِيدِ

*

*

فَلَمْ أَعْرِضْ أَبِيَّتَ اللَّعْنِ بِالصَّفْدِ
فَإِنَّ صَاحِبَهَا مُشَارِكُ النَّكَدِ

فَمَا الْفُرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيحُ لَهُ

*

*

هَذَا التَّنَاءُ فَإِنْ تَسْمَعُ بِهِ حَسَنًا
هَا إِنَّ ذِي عِذْرَةٍ إِلَّا تَكُنْ نَفَعَتْ

نماذج من قصائده!

- قال يعتذر إلى النعمان بن المنذر ويبرئ نفسه:

مَكَانَ الشِّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ
أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ
مِنَ الرَّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ
لِحَلِي النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ
تَطْلُقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
وَتِلْكَ الَّتِي تَصْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
وَذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
لَقَدْ نَطَقْتُ بَطُلًا عَلَيَّ الْأَقَارِعُ
وَجُوهُ فُرُودٍ تَبْتَغِي مَنْ تُجَادِعُ
لَهُ مِنْ عَدُوٍّ، مِثْلُ ذَلِكَ شَافِعُ
وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ
وَلَوْ كُتِبَتْ فِي سَاعِدَيَّ الْجَوَامِعُ
وَهَلْ يَأْتَمَنُ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ

*

*

وَتَتْرُكُ عَبْدًا ظَالِمًا وَهُوَ ظَالِعُ
وَسَيْفٌ أُعِيرَتْهُ الْمَيِّتَةُ قَاطِعُ

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ شَاغِلُ
وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ
فَبِتُّ كَأَيِّ سَاوَرْتَنِي ضَائِلَةٌ
يَسْهَدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا
تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا
أَتَانِي أَبِيَّتَ اللَّعْنِ أَنَّكَ لُمْتَنِي
مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قُلْتَ سَوْفَ أَنَالُهُ
لَعْمَرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهِيْنِ
أَقَارِعُ عَوْفٍ لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا
أَتَاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبِطُنٌ لِي بِغَضَّةٍ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ هَلْهَلِ النَّسِجِ كَاذِبِ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَمْ أَكُنْ لِأَقْوَالِهِ
خَافْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً

*

*

أَتَوَعَدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ
وَأَنْتَ رَبِيعٌ يُنْعَشُ النَّاسَ سَيْبُهُ

١ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٣٣).

أَبَى اللَّهُ إِلَّا عَذْلَهُ وَوَفَاءَهُ

فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا العُرْفُ ضَائِعٌ

- وقال أيضًا معتذرًا للنعمان:

وَرُدَّتْ مَطَايَا الرَّاعِبِينَ وَعَرَّيْتُ
رَأْيُكَ تَرَعَانِي بِعَيْنٍ بَصِيرَةٍ
وَذَلِكَ مِنْ قَوْلٍ أَتَاكَ أَقُولُهُ
فَأَلَيْتُ لَا آتِيكَ إِنْ جِئْتُ مُجْرِمًا
فَأَهْلِي فِدَاءٌ لِامْرِئٍ إِنْ أَتَيْتُهُ

جِيادُكَ لَا يُحْفِي لَهَا الدَّهْرُ حَافِرًا
وَتَبَعْتُ حُرَّاسًا عَلَيَّ وَنَاطِرًا
وَمِنْ دَسِّ أَعْدَائِي إِلَيْكَ الْمَآبِرَا
وَلَا أَبْتَغِي جَارًا سِوَاكَ مُجَاوِرَا
تَقَبَّلْ مَعْرُوفِي وَسَدِّ الْمَفَاقِرَا

- وقال أيضًا يعتذر إليه:

أَتَانِي أَبَيْتَ اللُّعْنَ أَنَّكَ لَمُنْتَنِي
فَبِتُّ كَأَنَّ العَائِدَاتِ فَرَشَنِي
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً
لَئِنْ كُنْتُ قَدْ بُلِغْتُ عَنِّي خِيَانَةً
وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأَةً لِي جَانِبُ
مُلُوكٍ وَإِخْوَانٍ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ
كَفَعَلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ
فَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَائِبُ
فَلَا تَتْرُكْنِي بِالوَعِيدِ كَأَنِّي
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً
وَأَسْتِ بِمُسْتَبْقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ
فَإِنَّ أَكَّ مَظْلُومًا فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ

وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ
هَرَّاسًا بِهِ يُعَلَى فِرَاشِي وَيُقَشَّبُ
وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَمُبْلِغُكَ الوَاشِي أَعَشُّ وَأَكْذَبُ
مِنَ الأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَاذٌ وَمَذْهَبُ
أُحَكِّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ
فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذَلِكَ أَدْنَبُوا
إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَكَبُ
إِلَى النَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ القَارُ أَجْرَبُ
تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ
عَلَى شَعَثِ أَيِّ الرِّجَالِ المَهْدَبُ
وَإِنْ تَكُ ذَا عُنْتِي فَمِثْلُكَ يَعْتَبُ

- وقال لعمر بن الحارث ملك الغساسنة:

كَلِينِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَآيِلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِآيِبِ
وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلِ عَازِبٍ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْخُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
عَلَيَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لَوَالِدِهِ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبِ
خَلَفْتُ يَمِيئًا غَيْرَ ذِي مَثْوِيَّةٍ وَلَا عِلْمَ إِلَّا حُسْنُ ظَنِّ بِصَاحِبِ
لَئِنْ كَانَ لِلْقَبْرَيْنِ قَبْرٍ بَجَلَقٍ وَقَبْرِ بِصَيْدَاءِ الَّذِي عِنْدَ حَارِبِ
وَلِلْحَارِثِ الْجَفْنِيِّ سَيِّدٍ قَوْمِهِ لَيَلْتَمِسُنَّ بِالْجَيْشِ دَارَ الْمُحَارِبِ
وَنَثَقْتُ لَهُ بِالنُّصْرِ إِذْ قِيلَ قَدْ غَزَتْ كَتَائِبُ مَنْ غَسَّانَ غَيْرَ أَشَائِبِ
بَنُو عَمِّهِ دُنْيَا وَعَمْرُؤُ بَنُ عَامِرٍ أَوْلَيْكَ قَوْمٌ بِأَسْهُمٍ غَيْرُ كَاذِبِ
إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
يُصَاحِبُنَّهُمْ حَتَّى يُغِرْنَ مَغَارَهُمْ مِنْ الضَّارِيَاتِ بِالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ
تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْرًا غِيُوْنَهَا جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ
جَوَانِحَ قَدْ أَيَقَنَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانَ أَوْلَ غَالِبِ

- وكان زرعة بن عمرو قد لقي النابغة بعكاظ، وطلب منه أن يدعو قومه

لِلتَّخْلِیِّ عَنِ مَحَالِفَةِ بَنِي أَسَدٍ، فَأَبَى النَّابِغَةُ الْغَدْرَ، فَلَمَّا تَوَعَّدَهُ؛ قَالَ يَهْجُوهُ:
نُبَيْتُ زُرْعَةَ وَالسَّفَاهَةَ كَاسِمِهَا يُهْدِي إِلَيَّ غَرَائِبَ الْأَشْعَارِ
فَخَلَفْتُ يَا زُرْعَ بْنَ عَمْرٍو أَنَّنِي مِمَّا يَشُقُّ عَلَى الْعَدُوِّ ضَرَارِي
أَرَأَيْتَ يَوْمَ عُكَازَ حِينَ لَقَيْتَنِي تَحْتَ الْعِجَاجِ فَمَا شَقَّقْتَ غُبَارِي
فَلَتَأْتِيَنَّكَ قَصَائِدُ وَلَيَدْفَعَنَّ جَيْشُ إِلَيْكَ قَوَادِمَ الْأَكْوَارِ

- وقال ينهى قومه عن غزو أقر؛ التي كانت في حمى ملك الغساسنة، ويحدّدهم العاقبة، ويمدح النعمان بن الحارث الغساني.. وقد ورد ذكر المناسبة في ترجمته:

وَعَنْ تَرَبُّعِهِمْ فِي كُلِّ أَصْفَارِ	لَقَدْ نَهَيْتُ بَنِي دُبْيَانَ عَنْ أَقْرِ
عَلَى بَرَاثِنِهِ لِيُوثَبَةَ الضَّارِي	وَقُلْتُ يَا قَوْمُ إِنَّ اللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ
كَأَنَّ أَبْكَارَهَا نِعَاجُ دُوَارِ	لَا أَعْرِفُنَّ رَبِّبًا حُورًا مَدَامِعُهَا
بِأَوْجِهِ مُنْكَرَاتِ الرِّقِّ أَحْرَارِ	يَنْظُرُنَّ شُرْرًا إِلَى مَنْ جَاءَ عَنْ عَرَضِ
*	*
وَلَا يَضِلُّ عَلَى مِصْبَاحِهِ السَّارِي	لَا يَخْفِضُ الرِّزَّ عَنْ أَرْضِ أَلَمَّ بِهَا
وَهَلْ عَلَيَّ بِأَنْ أَخْشَاكَ مِنْ عَارٍ؟	وَعَيْرْتَنِي بِنُؤِ دُبْيَانَ خَشِيَّتُهُ

- وقال يمدح الغساسنة وقد اعترم مفارقتهم:

مِثْلَ الْمَصَابِيحِ تَجْلُو لَيْلَةَ الظُّلَمِ	لَا يُبْعِدُ اللَّهُ جِيرَانَنَا تَرَكَتُهُمْ
بَرْدُ الشِّتَاءِ مِنَ الْأَمْحَالِ كَالْأَدَمِ	لَا يَبْرَمُونَ إِذَا مَا الْأَفْقُ جَلَّلَهُ
فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ فِي اللَّأْوَاءِ وَالنِّعَمِ	هُمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ لَهُمْ

- وقال يرثي النعمان بن الحارث الأعرج الغساني:

وَكَيْفَ تَصَابِي الْمَرِّ وَالشَّيْبُ شَامِلٌ	دَعَاكَ الْهَوَىٰ وَاسْتَجْهَلْتَكِ الْمَنَازِلُ
مَعَارِفُهَا وَالسَّارِيَاتُ الْهَوَاطِلُ	وَقَفْتُ بِرَبْعِ الدَّارِ قَدْ غَيَّرَ الْبَلَىٰ
*	*
هَجَانُ الْمَهَا تُحْدِي عَلَيْهَا الرَّحَائِلُ	حِبَاؤُكَ وَالْعَيْسُ الْعِتَاقُ كَأَنَّهَا
أَوَاسِي مَلِكٍ ثَبَّتَتْهَا الْأَوَائِلُ	فَإِنْ تَكُ قَدْ وَدَعْتَ غَيْرَ مُذَمَّمِ
وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا بِهِ الْحَالُ زَائِلُ	فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَوْعِدُ

١ اللأواء: المشقة والشدة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٥/٢٣٨).

فَمَا كَانَ بَيْنَ الْخَيْرِ لَوْ جَاءَ سَالِمًا
فَأِنْ تَحْيَ لَا أَمَلُنْ حَيَاتِي وَإِنْ تَمُتْ
أَبُو حُجْرٍ إِلَّا لَيْالٍ قَلَائِلُ
فَمَا فِي حَيَاتِي بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ

طوائف من الشعراء

أولاً: الشعراء الفرسان

(المهلهل - عامر بن الطفيل - بشر بن أبي خازم - الحارث بن عباد -

الحارث بن ظالم - عبد يغوث الحارثي - دريد بن الصمة)

تُعتبر الفروسية سمة من سمات العرب زمن جاهليتهم، وهي صفة فرضتها عليهم حياة الصحراء القاسية وما تخللها من حروب ونزاعات بين القبائل تستدعي صفات الصبر والجلد، وقد عرف التاريخ العربي وقت الجاهلية عددًا من الفرسان الذين اتَّصفوا بالشَّجاعة والقوة والصلابة والبأس والإقبال على المعارك دون الخوف من الموت، ونسبَط هنا الضوء على بعض هؤلاء الفرسان الذين جمعوا بين الشعر والفروسية، وبالطبع كان منهم عنزة بن شدَّاد الذي ذكرناه من ضمن شعراء المعلَّقات، ولكن بجانب عنزة فقد اشتهر عددٌ آخر من الشعراء الفرسان الذين اتصفوا بالقوة والشجاعة مثل المهلهل بن ربيعة (الزير سالم) و عامر بن الطفيل والحارث بن عباد البكري وعمرو بن معدي كرب؛ وهذا الأخير أدرك الإسلام وأسلم.

وشعر هؤلاء حافل بالحماسة والفروسية والفخر ووصف المعارك والتهديد والوعيد وطلب الثأر وذكر المناقب والمفاخر والرثاء، ويمتاز شعر الفرسان بالقوة والصلابة تارة وبالليونة تارة أخرى؛ أما الصلابة فتنبعث من فروسيتهم وطبيعتهم البدوية وأحاسيس القوة والصلابة والبأس التي تتوافق مع ظروف المعارك والحرب والقتال؛ لما تتطلبه من جرأة وبأس وشجاعة وإقدام، وأما الليونة فإنها تنبعث أحيانًا من مشاعر الرثاء التي تصيهم بالحزن الشديد؛ كما في مرثيات المهلهل لأخيه كليب، ورثاء الحارث بن عباد الشهير لولده بُجير.

ومن أبرز الشعراء الفرسان في الجاهلية:

١- المهلهل بن ربيعة (الزير سالم):

هو عدي بن ربيعة بن مرّة بن هبيرة، من قبيلة تغلب إحدى بطون وائل من ربيعة بن نزار، وهو المعروف بالزير سالم، وتذهب الروايات أنه أول من هلهل الشعر ورقق القصائد؛ حيث كان الشعر قبله يقال ربما في بيتين أو ثلاثة في بعض حاجة قائلها، إلى أن جاء المهلهل فأطال القصيد، وهو خال امرئ القيس وجدُّ الشاعر عمرو بن كلثوم لأُمّه ليلي، وكان هو وأخوه كليب من الفرسان المعدودين في الجاهلية.

وكان كليب ملكاً على بكر وتغلب، وكان معروفاً بالجِدِّ والفروسية والشجاعة كذلك، بينما كان أخوه مهلهل منغمساً في اللهو والترف والنساء، حتى لُقّب بالزير -أي: زير نساء- من كثرة مجالسته للنساء، ويبدو أن كليباً لما علا سلطانه بغى وتكبر، ومن فرط تجبُّره قتل ناقه لامرأة تُدعى البسوس خالة جسّاس بن مرة البكري؛ لأنها كانت ترعى في حماه دون إذنٍ منه، فغضب جسّاس لخالته وأخذته الحمية ورأى أن في ذلك اعتداء على جواره، فقام وقتله بناقة خالته، وهنا تمرّق الملك واشتعلت الفتنة بين بكر وتغلب، وترأس تغلب وقاد فرسانها أخوه المهلهل؛ الذي انقطع منذ ذلك الحين عن حياة اللهو والخمر، وظهر ما كان خافياً من بأسه وشجاعته، فاعتزم الثأر لأخيه المغدور، وصمّم على أن يقتل بكل قطرةٍ من دم أخيه رجلاً من بكر حتى يفنهم جميعاً، رافضاً كل محاولات الصلح وعروض الدية، واشتعلت حرب البسوس بين الفريقين ودامت نحو أربعين عاماً فيما يقال، ودارت عدة وقائع بين القبيلتين؛ تبادلاً فيها النصر والهزيمة، وخسر فيها الطرفان خسائر جسيمة، بيد أن خسائر بكر كانت أكبر؛ فقد قُتل عددٌ كبيرٌ من فرسانها وقادتها، وقُتل في أواخر الحرب جسّاس بن مرة قاتل كليب، ومع هذا لم يكتفِ المهلهل بما حقّقه من نصر؛ بل إنه صمّم في اندفاعه وتهوُّره على قتل بكر وإفنائهم جميعاً؛ ثأراً لأخيه، وظل يثخن فيهم، وفي إطار حربه ضدهم

قَتَلَ بُجَيْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبَّادٍ، وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ اعْتَزَلَ الْحَرْبَ وَوَقَفَ عَلَى الْحَيَادِ، فَلَمَّا قُتِلَ وَلَدُهُ ثَارَتْ ثَائِرَتُهُ وَانْضَمَّ لِحِزْبِ الْبَكْرِيِّينَ وَهَزَمَ تَغْلِبًا وَالْمَهْلَهْلَ فِي يَوْمِ تَحْلَاقِ اللَّمَمِ، وَنَجَّحَ فِي أُسْرِ الْمَهْلَهْلِ ثُمَّ أَطْلَقَهُ بَعْدَ مَا أَذَلَّهُ وَجَزَّ نَاصِيَتَهُ، فَغَادَرَ الْمَهْلَهْلَ بَعْدَهَا قَبِيلَتَهُ وَتَنَقَّلَ فِي الدَّرُوبِ وَالْأَحْيَاءِ حَتَّى أَسْرَهُ مَجْدَدًا خَصْمُهُ عَمْرُو بْنُ مَالِكٍ، فَمَاتَ فِي أُسْرِهِ، وَكَانَ مَوْتُهُ نَحْوَ ٥٣١ هـ، وَلَمْ تَنْتَهِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا حَتَّى تَدْخُلَ مَلِكُ الْحَيْرَةِ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ فَاصْلَحَ بَيْنَهُمَا.

والمهلهل فارس شجاع عنيد عظيم البأس، ولكنه كان مع شجاعته طائشًا متهورًا، حتى إنه اشترط لوقف الحرب أن يُرَدَّ له أخوه حيًّا، ولم يكتفِ بمقتل قاتل أخيه، وشعره كله يدور حول الرثاء والحماسة؛ فأما الرثاء فقد تجسَّد في مراثياته لأخيه كليب؛ التي تمتاز بالرقّة والحس المرهف والعاطفة الصادقة التي تصوِّر قدر تفجُّعه ومدى حزنه على أخيه، وأما الحماسة فقد أتت من تغنييه بحروبه ومُضِيَّه في الأخذ بثأر أخيه وإثخانته في قاتليه، وهو يجمع في شعره بين الرقة والصلابة، وشعره لين في كلماته وأوزانه، سهل المأخذ، بسيط التراكيب، يضح بالعاطفة وبالحماسة المتوهجة وبالانفعال الشديد، وربما نلحظ في شعره شيئًا من السطحية وعدم العمق؛ وهذا سببه ما في شخصيته من اندفاع وتمهُّور وغلبة العاطفة على العقل، فضلًا عن أنه في زمن المهلهل لم يكن الشعر قد عرِف بعدُ مرحلة الصور البيانية والتشبيهات البلاغية التي ظهرت لاحقًا عند من جاء بعده من الشعراء، وتُعدُّ مراثيه لأخيه كليب من أشهر مراثي الجاهلية وأعذبها وأكثرها صدقًا.

ومن شعره يهجو بكرًا ويرثي أخاه!

جَارَتْ بَنُو بَكْرٍ وَلَمْ يَعْدِلُوا وَالْمَرْءُ قَدْ يَعْرِفُ قَصْدَ الطَّرِيقِ
حَلَّتْ رِكَابُ الْبَغْيِ فِي وَائِلٍ فِي رَهْطِ جَسَّاسٍ ثِقَالِ الْوُسُوقِ
يَا أَيُّهَا الْجَانِي عَلَى قَوْمِهِ جَنَائِيَةٌ لَيْسَ لَهَا بِالْمُطِيقِ

^١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (٤٥٨-٤٦٥).

جانٍ ولم يُصْبِحْ لها بالخَلِيقِ
في هُوَّةٍ لَيْسَ لها مِنْ طَرِيقِ
ضَنْكَ وَلَكِنْ مَنْ لَهْ بِالْمَضِيقِ
ذا مَصْدَرٍ مِنْ مُهْلِكَاتِ العَرِيقِ
غَدَا بِهِ تَخْرِيقِ رِيحِ خَرِيقِ
طَارَ إِلَى رَبِّ اللِّوَاءِ الخُفُوقِ
* * *

أَوْ يَصِـبُـرُوا لِلصَّيَامِ الخَنْفَـيِقِ
وَانتَهَكُوا حُرْمَتَهُ مِنْ عُقُوقِ
أثَابَهُمْ نِيرَانِ حَرْبِ عَقُوقِ

وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ المَجْلِسِ
لَوْ كُنْتُ شَاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبَسُوا

جَنَائَةً لَمْ يَدْرِ مَا كُنْهَهَا
كَعَازِفِ يَوْمًا بِأَجْرَامِهِ
مَنْ شَاءَ وَلى النَّفْسِ فِي مَهْمِهِ
إِنَّ رُكُوبَ البَحْرِ مَا لَمْ يَكُنْ
لَيْسَ امْرُؤٌ لَمْ يَعُدْ فِي بَغِيهِ
كَمَنْ تَعَدَّى بَغِيَهُ قَوْمَهُ
* * *

قُلْ لِبَنِي ذُهَلٍ يَزْدَوْنَهُ
فَقَدْ تَرَوُوا مِنْ دَمٍ مُحْرَمٍ
وَاسْتَسْعَرُوا مِنْ حَرْبِنَا مَأْتَمًا

وقال أيضا يرثي أخاه:

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أوقِدْتُ
وَتَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ

٢ - عامر بن الطفيل:

هو عامر بن الطفيل بن جعفر بن كلاب العامري، من بطون هوازن، من قيس عيلان من مضر، وهو ابن عم لبيد الشاعر المشهور، وكان فارسًا ذا بأس شديد، وكان أعور عقيمًا لم يلد، وهو القائل:

لبئس الفتى إن كنتُ أعورَ عاقراً
لعمري وما عمري عليَّ بهيّن
جباناً فما عُذري لذي كُـلِّ مَحْضَرٍ
لقدْ شانَ حرَّ الوجهِ طعنةً مسهراً

^١ وفي رواية "من شاء ذل النفس في هوة".

^٢ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص ٦٥٥).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٣٢٢).

^٤ يعني مسهر بن يزيد الحارثي؛ حيث طعن الشاعر في موقعة بينهما طعنة في وجهه ففقا عينه.

وكان يُكْتَى في الحرب أبا عقيل، وكان من شجعان بني عامر وفرسانهم وأشدّهم بأسًا ونجدة، وله عدة وقائع وحروب مع قبائل مختلفة، وقد تنافر مرّة هو وعلقمة بن علثة على سيادة قبيلة بني عامر حينما اهترّ عمه مُلاعب الأُسنة عامر بن مالك.

غير أنه مع شجاعته كان فيه كِبْرٌ وغرورٌ، حتى إنه هجا بني ذبيان قوم النابغة الذبياني وسبهم في شعره، فهلح بنو ذبيان إلى شاعرهم النابغة الذبياني للرد عليه، فقال لهم: إن عامرًا له بأس وشعر، ولسنا بقادرين على الانتصار منه، ولكن دعوني أُجِبُه وأصغِرَه وأفضِّل أباه وعمّه عليه؛ فإنّه يرى نفسه أفضل منهما، وأعيّره بالجهل؛ فقال يردُّ عليه!

فإنَّ يَكُ عامرٌ قد قال جهلاً فإنَّ مطيئةَ الجهلِ السُّبابُ
فكُنْ كأبيك أو كأبي براءٍ تُوافِقُك الحُكومةُ والصَّوابُ

وقد أدرك الإسلام، وهو الذي غدر بصحابة النَّبِيِّ ﷺ في واقعة بئر معونة؛ حيث كان رسول الله قد أرسل أربعين من صحابته لدعوة بني عامر إلى الإسلام، وكانوا في جوار أبي براء ملاعب الأُسنة، فاستعدى عامر بن الطفيل عليهم قومه، فأبوا؛ لجوار أبي براء إيّاهم، فاستعدى عليهم بعضًا من بني سليم فقتلوهم، ولم يحترم جوار عمّه؛ ممّا أغضب أبا براء، ويقال: إنه دعا للوثوب عليه فلم يحصل له، فدعا بالخمير فشرها صرفًا حتى مات، فكان أحد الثلاثة الذين صرعتهم الخمر؛ هو وزهير بن جناب وعمرو بن كلثوم، وفق ما ذكرت بعض الروايات.^١

وقد وفد عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ مع ابن عمه أربد أخي لبيد، ولكنهما لم يهتديا إلى الإسلام، وبيّتا الغدر بالنَّبِيِّ ﷺ، لكن الله وثق نبيّه من كيدهما، وقال عامر للرسول ﷺ: تجعل لي نصف ثمار المدينة وتجعلني ولي الأمر

^١ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الأعلام الشنتمري (ص ٣٨).

^٢ انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، طبعة بيت الأفكار الدولية، (ص ٢٣٦).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٣٦٧).

من بعدك وأسلم؛ فلما لم يُجِبْهُ رسول الله ﷺ؛ انصرف مُغضِبًا وقال: لأملأَنَّها عليك خيالاً جُرْدًا ورجالاً مُرْدًا، ولأرِطَنَّ بكل نخلة فرسًا؛ فدعا عليهما الرسول ﷺ؛ فأما عامر فقد طُعن وهو في طريقه إلى دياره، وأما أربد فقد أصابت صاعقة قتلته، وورثاه أخوه لبيد، وما لبث أن أسلمت قبيلة بني عامر بعد هذا بقليل.

وعامر بن الطفيل شاعر مجيد، يمتاز شعره بأنه جزل، فخم اللفظ، قوي التراكيب، متين القافية، يضحج حماسة وفروسية وقوة وفخرًا؛ ومن نماذج شعره يصف بعض حروبه بدقة تسترعي الانتباه:

أنا الفارسُ الحامي حَقِيقَةٌ جَعْفَرِ	لَقَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا هَوَايَ أَنْبِي
على جَمْعِهِمْ كَرَّ المَنِيحِ المَشْهَرِ	وَقَدْ عَلِمَ المَزْنُوقُ أَنِّي أَكْرَهُ
وَقُلْتُ لَهُ ارْجِعْ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرِ	إِذَا إِزْوَرَ مِنْ وَقَعِ الرِّمَاحِ زَجْرَتُهُ
على المَرءِ ما لَمْ يُبَلِّ جَهْدًا فَيُعْذِرِ	وَأَنْبَأْتُهُ أَنَّ الفِرَارَ خَزَايَةُ
وَأَنْتَ حِصَانٌ مَاجِدُ العِرْقِ فَاصْبِرِ	أَلَسْتَ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ فِي شُرْعَا
صَبَرْتُ وَأَخْشَى مِثْلَ يَوْمِ المَشْقَرِ	أَرَدْتُ لِكَيْمًا يَعْلَمَ اللهُ أَنَّبِي

وفي يوم آخر كان بين عامر وغطفان، هُزِمَ فيه بنو عامر، وفرَّ عامر بن الطفيل منهزمًا حتى دخل دار أسماء بنت قدامة الفزارية، وكان يهواها ويشبَّب بها، فاقتبأ عندها حتى تمكَّن من النجاة، فأنشد يتوعَّد خصومه قائلاً:

نُصَحَاءَها أَطْرِدْتُ أَمْ لَمْ أَطْرِدِ	وَلتَسْأَلَنَّ أَسْمَاءُ وَهِيَ حَفِيَّةُ
قُلْحِ الكِلَابِ وَكُنْتُ غَيْرَ مُطْرِدِ	قالوا لها إِنَّا طَرَدْنَا خِيالَهُ
ولأهْبِطَنَّ الخَيْلَ لِابَةِ صَرْغِدِ	فَلأنْعِيَنَّكُمْ المَلا وَغوارِصَنا

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٦٠-٣٦٢).

^٢ جعفر: هم رهط الشاعر.

^٣ المزنوق: اسم فرسه.

^٤ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٦٣-٣٦٤).

حَدًّا تَتَابِعُ فِي الطَّرِيقِ الْأَقْصَدِ
وَأَخِي الْمَرْوَرَةَ الَّذِي لَمْ يُوسِدِ
فَرَعٌ وَإِنَّ أَخَاهُمْ لَمْ يَقْصِدِ
غَارِ وَإِنَّ الْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
بَعْدَ الْفَوَارِسِ إِذْ تَوَوَّأُوا بِالْمَرْصَدِ
وَعِلَالَةٍ مِنْ كُلِّ أَسْمَرٍ مِذْوَدِ
سُغْرًا وَأَوْقِدُهَا إِذَا لَمْ تَوْقِدِ

وَالخَيْلُ تَعْتُرُ فِي الْفَنَاءِ كَأَنَّهَا
وَلَأَثَارَنَّ بِمَالِكِ وَبِمَالِكِ
وَقَتِيلَ مُرَّةً أَثَارَنَّ فَإِنَّهُ
يَا أَسْمَ أُخْتِ بَنِي فَنَارَةَ إِنِّي
فِيئِي إِلَيْكَ فَلَا هَوَادَةَ بَيْنَنَا
إِلَّا بِكُلِّ أَحَمٍّ نَهْدٍ سَابِحِ
وَأَنَا ابْنُ حَرْبٍ لَا أَزَالُ أَشْبُهًا

ومن روائعه في الفخر:

وسَيِّدِهَا الْمَشْهُورِ فِي كُلِّ مَوْكِبِ
أَبَى اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بِأُمَّ وَلَا أَبِ
أَذَاهَا وَأَرْمِي مَنْ رَمَاهَا بِمَنْكِبِ

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ فَارِسِ عَامِرِ
فَمَا سَوَّدْتَنِي عَامِرٌ عَنِ قَرَابَةِ
وَلَكِنِّي أَحْمِي جِمَاهَا وَأَتَّقِي

٣- بشر بن أبي خازم:

هو بشر بن أبي خازم بن عمرو بن عوف، من بني أسد بن خزيمة من إلياس من مضر، كان من شعراء الجاهلية وفرسانها وشجعانها، وقد شهد حرب أسد وطيب وشهد الحلف بينهما، وله في تلك الوقائع عدة أشعار، وكان بشر يهجو أول أمره أوس بن حارثة الطائي، وعرض بأمه في بعض شعره، إلى أن أسره بنو نهمان من طيب، فاستوهبه منهم أوس وكان قد نذر ليحرقنه إن ظفر به، فوهبوه له مقابل مائتي بعير، وكاد يوفي بنزده، لولا أن أمه سعدى قالت له: قبَّح الله رأيك، أكرم الرجل وخلي عنه؛ فإنه لا يمحو ما قال غير لسانه؛ ففعل وأكرمه وأطلقه وأمر

١ مالك ومالك رجلان قتلا في العارك. أخو المارورة: يعني أخاه الذي لما أدرك الهزيمة قتل نفسه بموضع يقال له الموردة

٢ قتيل مرة: أخاه حنظلة الذي قتل أيضا في الموقعة.

٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٣٢٤).

له بمئة ناقة، فمدحه بِشْرٌ، وجعل مكان كل قصيدة هجاءٍ مدحًا له، ولمّا مات
رثاه.

وكان بِشْرٌ كثير الحروب والغارات، إلى أن قُتِل في غارة له على بني صعصعة، على
يد أحد الغلمان، نحو سنة ٥٩٨م أو قبلها بقليل.

وما انتهى إلينا من شعره يدور حول مظاهر الفروسية والحروب وما يتعلّق بها
من فخرٍ بقبيلته، وإقدامٍ، وهجاءٍ للخصوم، ووصفٍ للمعارك وما فيها من غارات
وقتال وغلبة، في إطارٍ من متانة السبك وفخامة اللفظ، وقد أجاد في الوصف؛
فوصف الصحراء وما فيها من مظاهر الحياة بدقة متناهية، وكان يسهب في
النسيب بمطالع قصائده فيجيبه ويدع، ومن شعره يصف بعض حروبه ويوم
النسار ويهجو خصومه!

إلى الرُّشدِ لَمْ يَأْتِ السِّدَادَ حَطْبُهَا
بِشَهَاءٍ لَا يَمْشِي الضَّرَاءَ رَقِيبُهَا
نَشَاصُ الثَّرِيَا هَيَّجَتْهَا جُنُوبُهَا
أَنْزَلُهَا مَذْمُومَةً أَمْ تُذَيِّبُهَا
وَأُخْرَى بِأَوْطَاسٍ يَهْرُ كَلِيبُهَا
عَلَى كُلِّ مَعْلُوبٍ يَثُورُ عَكُوبُهَا
عَلَى آلَةٍ يَشْكُو الْهَوَانَ حَرِيبُهَا

وَكُنَّا إِذَا قُنَّا هَوَازِنَ أَقْبَلِي
عَطَفْنَا لَهُمْ عَطْفَ الضَّرُوسِ مِنَ الْمَلَا
فَلَمَّا رَأَوْنَا بِالنِّسَارِ كَأَنَّنا
فَكَأَنُوا كَذَاتِ الْقَدْرِ لَمْ تَدْرِ إِذْ غَلَّتْ
قَطْعِنَاهُمْ فَبِالْيَمَامَةِ فِرْقَةٌ
نَقَلْنَاهُمْ نَقْلَ الْكِلَابِ جِرَاءِهَا
لَحُونَاهُمْ لَحْوَ الْعِصِيِّ فَأَصْبَحُوا

وقال في النسيب:

أَمْ الْأَهْوَالُ إِذْ صَحْبِي نِيَامُ
وَكُلُّ وَصَالٍ غَانِيَةٍ رِمَامُ
كَبُرَتْ وَقِيلَ إِنَّكَ مُسْتَهَامُ

أَحَقُّ مَا رَأَيْتُ أَمْ احْتِلَامُ
أَلَا ظَعْنَتْ لِنَيْبِهَا إِدَامُ
جَدَدَتْ بِحُبِّهَا وَهَزَلَتْ حَتَّى

^١ انظر: المصدر السابق (١/٢٦٣).

^٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٢٩-٣٣٣).

^٣ انظر: المصدر السابق (ص ٣٣٣-٣٣٤).

وَقَدْ تَغْنَى بِنَا حِينًا وَتَغْنَى بِهَا وَالذَّهْرُ لَيْسَ لَهُ دَوَامٌ

وقال في رائيّة بدأها بالنسيب وأفاض فيه، ثم انتقل إلى الحماسة ووصف حروبه ومعاركه!

أَلَا بَانَ الْخَلِيْطُ وَلَمْ يُزَارُوا
تَوْمٌ بِهَا الْخُدَاةُ مِيَاةٌ نَخْلٍ
أُسَائِلُ صَاحِبِي وَلَقَدْ أَرَانِي
وَقَلْبُكَ فِي الظَّعَائِنِ مُسْتَعَارُ
وَفِيهَا عَنَ أَبَانِيْنَ اَزْوَارُ
بَصِيْرًا بِالظَّعَائِنِ حَيْثُ صَارُوا
* * * * *

وَلَمَّا أَنْ رَأَيْنَا النَّاسَ صَارُوا
مَصَّتْ سُلْفُنَا حَتَّى نَزَلْنَا
وَشَبَّتْ طَيِّئُ الْجَبَالِيْنَ حَرْبًا
يَسُدُّونَ الشَّعَابَ إِذَا رَأَوْنَا
وَحَلَّ الْحَيُّ حَيُّ بَنِي سَبِيْعٍ
وَحَدَّلَ قَوْمَهُ عَمْرُو بْنُ عَمْرٍو
يَسُوْمُونَ الصَّلَاحَ بِذَاتِ كَهْفٍ
أَعَادِي لَيْسَ بَيْنَهُمْ ائْتِمَارُ
بِأَرْضٍ قَدْ تَحَامَتَهَا نِزَارُ
تَهَرُّ لَشَجْوَهَا مِنْهَا صُحَارُ
وَلَيْسَ يُعِيدُهُمْ مَنَّا اِنْجِحَارُ
قَرَاضِبَةٌ وَنَحْنُ لَهُ إِطَارُ
كَجَادِعِ أَنْفِهِ وَبِهِ ائْتِصَارُ
وَمَا فِيهَا لَهُمْ سَلْعٌ وَقَارُ

وقال في قصيدة أخرى يصف بعض غاراته!

وَبُنُو نُمَيْرٍ قَدْ لَقِينَا مِنْهُمْ
فَدَهَمْنَهُمْ دَهْمًا بِجَلِّ طِمْرَةٍ
وَلَقَدْ خَبَطْنَ بَنِي كِلَابٍ خَبْطَةً
وَصَلَقْنَ كَعْبًا قَبْلَ ذَلِكَ صَلَقَةً
حَتَّى سَقَيْنَا النَّاسَ كَأْسًا مُرَّةً
خَيْلًا تَضِبُّ لِثَائِهَا لِلْمَغْنَمِ
وَمَقْطَعٍ حَلَقَ الرِّحَالَةَ مِرْجَمِ
أَلَصَقْنَهُمْ بِدَعَائِمِ الْمُتَخَلِّمِ
بِقِنَّا تَعَاوَرَهُ الْأَكْفُ مَقْمُومِ
مَكْرُوهُةً حَسَوَاتِهَا كَالْعَلْقَمِ

١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٣٨-٣٤٥).

٢ انظر: جمهرة أشعار العرب؛ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٤٥-٣٤٨).

٣ تضب لثاها: هو مثل يُضْرَبُ للحرص. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٥٤١)؛ والمراد هنا: الحرص على المغنم.

وقال يردُّ على أحد خصومه، هاجيًا إيَّاه ومفتخرًا بقومه وإقدامهم في حرومهم
وإثخانهم في عدوِّهم، ويصف انتصاراتهم وبعض وقائعهم:

أَتَوْعِدُنِي بِقَوْمِكَ يَا ابْنَ سَعْدِي
وَحَوْلِي مِنْ بَنِي أَسَدِ خُلُولٍ
بِأَيْدِيهِمْ صَوَارِمٌ لِلتَّادَانِي
هُمُ ضَرَبُوا قَوَانِسَ خَيْلِ حُجْرٍ
وَهُمْ تَرَكَوا عُتَيْبَةَ فِي مَكْرٍ
وَهُمْ تَرَكَوا غَدَاةَ بَنِي نُمَيْرٍ
وَهُمْ وَرَدُوا الْجِفَارَ عَلَى تَمِيمٍ
وَذَلِكَ مِنْ مُلَمَّاتِ الْخُطُوبِ
مُبينٌ بَيْنَ شُبَّانِ وَشَيْبِ
وَإِنْ بَعُدُوا فَوَافِيَهُ الْكُعُوبِ
بِجَنْبِ الرِّدِّهِ فِي يَوْمِ عَصِيبِ
بِطَعْنَةِ لَا أَلْفَ وَلَا هَيْبِ
شَرِيحًا بَيْنَ ضَنْبَعَانِ وَذَيْبِ
بِغَلِّ سَمِيدِعٍ بَطْلٍ نَجِيبِ

وقال يمدح أوس بعدما كان يهجوهُ، ويشكر فضله وكرمه وإطلاق سراحه:

إِلَى مَا جِدَّ أَعْطَى عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ
تَدَارَكْنِي أَوْسُ ابْنُ سَعْدِي بِنِعْمَةٍ
تَدَارَكْنِي مِنْهُ خَلِيجٌ فَرَدَّنِي
جَمِيلِ الْمُحَيَّا لِلْمَغَارِمِ دَافِعِ
وَعَرَّدَ مِنْ تُحْنِي إِلَيْهِ الْأَصَابِعِ
لَهُ حَدَبٌ تَسْتَنُّ فِيهِ الضَّفَادِعُ

وقال يصف سفينة:

أَجَالِدُ صَفَّهُمْ وَلَقَدْ أَرَانِي
إِذَا رَكِبْتَ بِصَاحِبِهَا خَلِيجًا
وَنَحْنُ عَلَى جَوَانِبِهَا قُؤُودٌ
عَلَى زُورَاءَ تَسْجُدُ لِلرِّيَّاحِ
تَذَكَّرَ مَا لَدَيْهِ مِنْ جَنَاحِ
نَعُضُّ الطَّرْفِ كَالْإِبِلِ الْقِمَاحِ

ولمَّا طعن في آخر حروبه وأيقن بالموت؛ رثى نفسه قائلاً:

أَسَائِلُهُ غَمِيرَةٌ عَنْ أَبِيهَا
نُؤْمِلُ أَنْ أَوْوبَ لَهَا بِهَيْبِ
خِلَالَ الْجَيْشِ تَعْتَرِفُ الرِّكَابَا
وَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ السَّهْمَ صَابَا

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٦٨).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٦٧).

٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٦٣).

٤ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٦٩).

فَإِنَّ أَبَاكَ قَدْ لَاقَى غُلَامًا
وَأَنَّ الْوَالِيَّ أَصَابَ قَلْبِي
فَرَجِي الْخَيْرَ وَانْتَظِرِي إِيَابِي
فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَن بَيْتِ بَشْرٍ
تُؤَى فِي مَلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ
رَهِينٌ بَلَى وَكُلُّ فَتَى سَيَبْلَى
مَضَى قَصْدَ السَّبِيلِ وَكُلُّ حَيٍّ

مِنَ الْأَبْنَاءِ يَلْتَهَبُ التَّهَابَا
بِسَهْمٍ لَمْ يَكُنْ نَكْسًا لُغَابَا
إِذَا مَا الْقَارِظُ الْعَنْزِيُّ أَبَا
فَإِنَّ لَهُ بَجَنِبِ الرَّدِّهِ بَابَا
كَفَى بِالْمَوْتِ نَأْيَا وَاعْتَرَابَا
فَأَذْرِي الدَّمْعَ وَانْتَجِبِي انْتِحَابَا
إِذَا حَانَتْ مِنْئِثُهُ أَجَابَا

٤- الحارث بن عباد:

هو أبو المنذر الحارث بن عباد بن قيس بن ثعلبة البكري، وكان من سادات العرب وحكمائهم وشجعانهم، وكان فارسًا مغوارًا صعب المراس، ولم يعرف العرب في جاهليتهم فارسًا في مثل قوته وصلابته، وكان مع شجاعته كذلك حكيماً مجرباً، وقد آلت إليه سيادة قومه بعد أبيه، وله عدّة أخبار في الجاهلية؛ من بينها وفادته على كسرى من قبيل النعمان بن المنذر، ولما اشتعلت حرب البسوس بين بكر وتغلب بسبب مقتل كليب؛ رفض الحارث الاشتراك فيها ولم يَقم بمناصرة قومه البكريين؛ لأنه استعظم أن يُقتل كليب من أجل ناقة، وقال قولته الشهيرة: لا أنا من هذا ولا ناقتي لا جملي ولا عدلي.

وقد تبعه على موقفه هذا كثيرٌ من البكرين، وظل على حياده هذا أعوامًا طويلة، حتى اشتط المهمل في القتل وأخذ وهو في قمة طيشه وتهوُّره وغطرسته يقتل كل من يصادفه من البكريين، ولم يكتفِ بقتل جساس قاتل أخيه، فتجمعت كل بطون بكر ضده، فحاول الحارث التدخل من أجل الصلح وإيقاف الحرب، فأرسل ولده -أو ولد أخيه- بُجيرًا إلى المهمل في مسعى الصلح، ولكن المهمل بطيشه وتهوُّره قتل بُجيرًا وهو يقول له: "بُوُّ بِشْشِعِ نَعْلِ كَلِيبِ"، وهو ما

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/١٢٧).

أثار غضب الحارث، فأقسم على قتل المهلهل، وانضمَّ إلى إخوانه من بطون بكر، وقاد فرسانها يوم تحلاق اللَّمم، وتمكَّن من إلحاق الهزيمة بتغلب، وأسَّر المهلهل في هذا اليوم ولكنَّه لم يعرفه لضَعْفِ بصره، فقال له وهو لا يعرف أنه هو: تدلُّني على عديِّ بن ربيعة - المهلهل - وأنت آمن؟ فانتبه المهلهل ولجأ إلى الخديعة وقال له: إنَّ دللتك على عديِّ فأنا آمنٌ وبي دمي؟ قال الحارث: نعم؛ قال: فأنا عديٌّ؛ فعلم الحارث أنه خُدِع، لكنه اضطرَّ إلى إخلاء سبيله وفاءً بعهده، واكتفى بجزِّ رأسه وإذلاله، قائلاً: لم أعرف؛ ثم ذهب وقتل امرأ القيس بن أبان رفيقَ المهلهل بولده، وفي هذا يقول حزنًا على إفلات المهلهل منه!

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعِدْ رِفَ عَدِيًّا إِذْ أَمَكَّنْتَنِي الْيَدَانِ
طُلَّ مَنْ طُلَّ فِي الْخُرُوبِ وَلَمْ يُطْ لَلَّ قَتِيلٌ أَبَاثُهُ ابْنُ أَبَانَ

وأقام الحارث على حرب تغلب مدة من الزمن، حتى بعد غياب المهلهل، فشنَّ ضدهم الغارات وأوقع بهم في عدَّة وقائع وأثخن فيهم، إلى أن رأت تغلب أنها لا تقدر على مقاومته، فطلبت الصلح، فأجابهم، وانتهت الحرب وأتمَّ الصلح بينهما عمرو بن هند ملك الحيرة.

ولم يكن الحارث بن عباد من الشعراء المقدمين في الجاهلية مثل مهلهل وعنتره وعامر بن الطفيل؛ إذ كان فقط يقول من الشعر ما يخطر على باله في حاجته، ومع هذا أُثِرَتْ له هذه الأبيات الشهيرة التي قالها عقب مقتل ابنه - أو ابن أخيه - بجير؛ يرثيه ويتوعَّد تغلب بالانتقام والثأر له، وفيها يقول ويذكر النعام اسم فرسه:

قَرِيبَا مَرَبِطِ النَّعَامَةِ مَنِّي لَقِحَتْ حَرْبٌ وَايْلٌ عَن حِيَالِ
قَرِيبَا مَرَبِطِ النَّعَامَةِ مَنِّي إِنَّ بَيْعَ الْكَرَامِ بِالشُّسْعِ غَالِ
قَرِيبَا مَرَبِطِ النَّعَامَةِ مَنِّي شَابَ رَأْسِي وَأَنْكَرْتَنِي رَجَالِي
قَرِيبَا هَا فَإِنَّ كَفِّي رَهْنٌ أَنْ تَزُولَ الْجِبَالُ قَبْلَ الرَّجَالِ

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٨٩).

^٢ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ٧١).

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ وَأَيُّ لِحْرَهَا الْيَوْمَ صَالٍ
لَا بُجَيْرٌ أَغْنَى قَتِيلًا وَلَا رَهْمًا طُكْلَيْبٍ تَرَاجَرُوا عَنْ ضَلَالٍ
وهذه هي الأبيات الثابتة قطعًا له برواية الأصمعي، وفي الروايات الأخرى أبيات
أخرى معها؛ منها:

قَدْ تَجَنَّبْتُ وَائِلًا كِي يُفِيئُوا فَأَبَتْ تَغْلِبُ عَلَيَّ اعْتِرَالِي
وَأَشَابُوا دُؤَابِّي بِبُجَيْرٍ قَتْلُوهُ ظَلَمًا بَغَيْرِ قِتَالٍ

وهي أبيات من أشهر ما قيل في الشعر الجاهلي في باب الحماسة والثناء، وهي من
الناحية الفنية لا تخلو من البدائية والسطحية؛ ويتضح ذلك من خلال تكراره
لصدر البيت في أبيات متعاقبة؛ فالحارث بن عباد لم يكن من الشعراء المقدمين
كما أسلفنا؛ فهي تمثل إذاً مرحلة من مراحل البدايات قبل النضوج، ولكنها مع
هذا اكتسبت شهرة؛ نظرًا إلى أثرها القوي وصدق عاطفة الشاعر بها وعظم
المناسبة التي قيلت فيها.

٥- الحارث بن ظالم:

هو الحارث بن ظالم المري، من بني ذبيان بن بغيض من قيس عيلان من مضر،
وكان الحارث من سادات بني مرة وشجعانهم، وكان من أكثر العرب غارات وفتكًا،
حتى ضرب به المثل وقيل: "أفتك من الحارث بن ظالم"، آلت إليه سيادة غطفان
بعد مقتل زهير بن جذيمة، وقد قُتل أبوه فشبَّ يتيماً، يتحنن الثأر، وله أخبار
في بلاط الغساسنة والمانذرة، وقد وفد على النعمان بن المنذر فلقي هناك قاتل
أبيه؛ خالد بن جعفر سيد بني عامر، فقتله ثأراً لأبيه، رغم أنه كان في حى
النعمان، فطلبته بنو عامر، وأجارته عشيرته من غطفان زمناً ثم انصرف عنهم،
ولجأ إلى الحاجب بن زرارة التميمي فحماه حيناً ثم تنكر له فغادره إلى اليمامة،
ثم احتفى ببني شيبان، ثم طيئ، ثم دارم، وأخذ يتقلب هكذا بين القبائل، وما

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/٢٨).

لبث أن جدَّ النعمان بن المنذر في طلبه أيضًا بعدما قتل أثناء سيره ابنًا له كان في حجر أخته سلمى بنت ظالم، وما لجأ إلى قبيلة إلا وأحدث فيها حدثًا، فضجَّت منه القبائل وجدُّوا في طلبه، حتى قُبض عليه فقتل، وتعدَّدت الروايات بشأن مقتله فقيل: إنه لما دخل على النعمان قال: من كان له عند هذا ثأر فليقتله،

فقتله عمرو بن الحمس بخالد بن جعفر؛ وهو الأشهر، وقيل غير ذلك^١. وقيل: إن الحارث بن ظالم هو الذي قتل ابن السمؤال بن عادياء حينما رفض أبوه أن يسلمه أمانة امرئ القيس التي سلَّمها له قبل ذهابه إلى ملك الروم ثم وفاته، في قصة شهيرة.

وشعر الحارث يصوِّر جانبًا من الطابع القتالي والبدوي المتجسِّد في معاني الفخر والحماسة والفتك والهجاء لخصومه، وكان يكثر من وصف مواقعه ويسجِّل حوادث فتكه مفتخرًا.

وقال في قصيدة يذكر فتكه بقاتل أبيه خالد بن جعفر، مسجِّلا هذه الواقعة، وقد ادعى انتسابه للوئي جد قريش:

نَأْتُ سَلْمَى وَأَمَسْتُ فِي عَدُوِّ تَحْتُ إِلَيْهِمُ الْقُلُوصُ الصَّعَابَا
وَحَلَّ النَّعْفَ مِنْ قَنُوبِ أَهْلِي وَحَلَّتْ رَوْضَ بَيْشَةَ فَالْرَّابَا
وَقَطَّعَ وَضَلَّهَا سَيْفِي وَأَبِي فَجَعْتُ بِخَالِدٍ عَمْدًا كِلَابَا
وَإِنَّ الْأَحْوَصِينَ تَوَلَّيَاهَا وَقَدْ غَضِبَا عَلَيَّ فَمَا أَصَابَا
عَلَى عَمْدٍ كَسَوْنَهُمَا قُبُوحًا كَمَا أَكْشُو نِسَاءَهُمَا السِّلَابَا
وَإِنِّي يَوْمَ غَمْرَةَ غَيْرَ فَخِرٍ تَرَكْتُ النَّهْبَ وَالْأَسْرَى الرَّغَابَا
فَلَسْتُ بِشَاتِمٍ أَبَدًا قُرَيْشًا مُصِيبًا رَغَمَ ذَلِكَ مَنْ أَصَابَا

^١ انظر ترجمة الحارث في هوامش المفضليات، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، طبعة: دار المعارف (ص ٣١١)؛ وهوامش منتهى الطلب من أشعار العرب، طبعة دار الكتب العلمية (ص ٢٧٤-٢٧٥)؛ والكامل في التاريخ لابن الأثير، طبعة بيت الأفكار الدولية، (١٥٦-١٥٨).

^٢ انظر: المفضليات، (ص ٣١٣-٣١٦).

^٣ يعني بالأحوصين: الأحوص بن جعفر وابنه عوفًا.

فما قومي بثعلبة بن سعد ولا بفزارة الشاعري رقابا
وقومي إن سألت بئو لؤي بمكة علموا الناس الضرابا

وكانت أخته سلمى قد أودعها النعمان ولده، وكان النعمان بن المنذر قد أغار على جيران الحارث من بني ديهث فأصاب منهم وأخذ إبلاً لهم، فأراد الحارث الانتقام، واحتال حتى دفعت إليه أخته ولد النعمان، فقتله بجيرانه، وقد سجل الحارث هذه الواقعة ووصف قتله لابن النعمان مفتخرًا بجرمه ذاك قائلاً!

حسبت أبا قابوس أنك سالم ولما نصب دلاً وأنفك راغم
فإن تك أذواد أصبن وصيبة فهذا ابن سلمى رأسه متفاقم
علوت بني الحيات مفرق رأسه وهل يركب المكروه إلا الأكارم
فتكت به كما فتكت بخالد وكان سلاحي تجتويه الجمائم

٦- عبد يغوث الحارثي:

هو عبد يغوث بن الحارث بن وقاص بن صلاءة الحارثي، من عرب اليمن، كان سيّد قومه مذحج، وفارسًا من فرسانهم، وهو من بيت شاعري عريق، أدرك بعضه الإسلام، وكانت له عدّة وقائع في الجاهلية؛ كيوم فيف الريح؛ الذي هُزمت فيه بنو عامر، وكان قائد قومه في يوم الكلاب الثاني ضد بني تميم، فكانت عليه فانهزم وأسر، وقد قُتل من الفريقين نفرٌ كثيرٌ؛ من بينهم النعمان ابن مالك أحد فرسان تميم، فأخذ بنو تميم عبد يغوث وشدوا لسانه لكي لا يهجوهم، وأراد أن يفتدي نفسه فأبوا عليه وصمّموا أن يقتلوه بفارسهم النعمان، فلمّا أيقن القتل؛ طلب منهم أن يُطلقوا لسانه حتى يرثي نفسه، وسألهم أن يميئوه ميتة كريمة، فسقوه الخمر ثم قطعوا الأكل، فزف حتى مات، وقد أثرت عنه تلك القصيدة البديعة يخاطب ولديه؛ يرثي نفسه ويذكر

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣١٢).

ثباته في هذا اليوم، ويعدّد بعض مفاخره؛ في أبيات لا تخلو من الحسّ المرهف
والانسجام العذب؛ حيث قال:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا
ألم تعلم أن الملامّة نفعها
فيا راكباً إمّا عرّضت فبلّغن
أبا كرب والأيهمين كليهما
جرى الله قومي بالكلاب ملامّة
ولو شئت نجّنتي من الخيل نهدة
ولكنني أحمي ذمار أبيكم
أقول وقد شدوا لساني بنسعة
أمعشّر تميم قد ملكتم فأسجحوا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيّدا
أحقا عباد الله أن لست سامعا
وتضحك مني شيخة عبشيّة
وظلّ نساء الحيّ حولي ركدّا
وقد علمت عرسي مليكة أنبي
وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـ
وأنخر للشرب الكرام مطيتي
وكنت إذا ما الخيل شمّصها القنا
وعاديّة سوم الجراد وزعّثها
كأنّي لم أركب جوادا ولم أقل
ولم أسيا الزقّ الروي ولم أقل

وما لكما في اللوم خير ولا ليا
قليل وما لومي أخي من شماليا
نداماي من جبران أن لا تلاقيا
وقيسا بأعلى حصرموت اليمانيا
صريحهم والآخرين المواليا
ترى خلفها الخو الجياد تواليا
وكان الرماح يختطفن المحاميا
أمعشّر تميم أطلقوا عن لسانيا
فإن أحاكم لم يكن من بوائيا
وإن تطلقوني تحربوني بماليا
نشيد الرعاء المعزبين المتاليا
كأن لم ترى قلبي أسيرا يمانيا
يراودن مني ما تريد نسائيا
أنا الليث معدوا عليّ وعاديا
مطيّ وأمضي حيث لا حيّ ماضيا
وأصدغ بين القيدتين رداييا
ليبقا بتصرف القناة بنانييا
بكفي وقد أنحوا إليّ العوالييا
لخيلي كزّي نفسي عن رجالييا
لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا

١ انظر: المصدر السابق (ص ١٥٥-١٥٨).

٧- دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ:

هو معاوية بن الحارث بن معاوية بن بكر، من بني غزيرة إحدى بطون جُشم، من هوازن، من قيس عيلان، من مضر، غلب عليه لقبه "دُرَيْد" ولقب أبيه "الصمة" فعُرف باسم دُرَيْد بن الصِّمَّة ويكنى بأبي قرة وأمه ريحانة بنت معدي كرب. وهو من أسرة عرفت بالفروسية والشجاعة، كان أبوه قائد بني جشم في حرب الفجار بين قريش وهوازن وقد قُتل فيها، وكان له أربعة إخوة أشقاء؛ هم: عبد الله، وعبد يغوث، وقيس، وخالد؛ قُتلوا جميعًا في المعارك، وهو ابن اخت الفارس الشهير عمرو بن معدي كرب أحد الفرسان المعدودين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وأسلم!

وكان أخوه عبد الله بن الصِّمَّة قد أغار على إبلي لعبس وفزارة من غطفان، في يوم اللوى، وأصاب غنائم شتى، فلمَّا عاد وصار غير بعيد؛ أمر أصحابه بأن يرتاحوا قليلًا، فنصحه أخوه دريد ألا يفعل، محذّرًا إياه من غدره غطفان، فلم يُطعه، وما لبث أن أدركتهم عبس وفزارة، فاستحزَّ القتل في بني جشم وخسروا كل ما غنموه، وقُتل عبد الله، بينما تظاهر دريد بالموت، فنجأ بذلك، وسهّل له قائد غطفان الربيع بن زياد الفرار؛ لِيَدَّ كَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ، وحمله حتى بلغه مأمنه؛ وقد حزن دريد على أخيه حزنًا شديدًا ورثاه بشعره.

وكان دريد معروفًا بالشجاعة والفروسية وسداد الرأي، فجعلته جشم قائدًا لخييلها بعد أخيه، فخرج بهم وقاتل غطفان وأتخن فيهم وقتل منهم، وأسّر ذؤاب ن أسماء بن زيد بن قارب قاتل أخيه عبد الله، فبعثه إلى أمه ريحانة كي تقتله بولدها، فلم يصل إليها حتى قُتل، وقد افتخر بذلك في شعره، وقد أسرف دريد في الأخذ بثأر أخيه، حتى لامته زوجته أم معبد على إسرافه، فطلّقها، وفي هذا يقول:

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/ ٢٢٨-٢٢٩).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٧٣٩).

^٣ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٠٦).

أرثَ جديذُ الحبلِ مِن أمِّ معبدٍ بعاقبةٍ وأخلفتُ كُلَّ موعِدٍ
وظلُّ دُرَيْدٍ سِيدَ جِشْمٍ وفارسها وقائدُ خيلها زمناً طويلاً، حتَّى أَسَنَّ وَعُمِّرَ طويلاً
وسقطَ حاجباه عن عينيه وكفَّ بصره، وقد أدرك الإسلامَ وفتحَ مكة، وشهد
يومَ حنينٍ حينما همَّ رسولُ الله ﷺ بفتحِ الطائفِ فتحزَّبتَ له أغلبُ بطونِ
هوازنٍ تحتِ قيادةِ مالكِ بنِ عوفٍ؛ الذي خرجَ بالنساءِ والدَّراري حتى يحمِسَ
فرسانه على القتالِ، واصطحبوا كذلكَ معهم دُرَيْداً وكان وقتها شيخاً كفيئاً
هرماً قد جاوزَ المئةَ، أخذوه معهم تحميساً لجنودهم، ولحاجتهم إلى رأيه، والحق
أن دُرَيْداً في هذا الوقتِ رغمَ كِبَرِ سنه وفقدَ بصره ما زال صاحبَ الخبرةِ والرأيِ
السديدِ، فقالَ لمالكِ بنِ عوفٍ: في أيِّ وادٍ أنتم؟ قال: بأوطاس؛ قال: نعم مجالُ
الخيَلِ، لا حَزَنٌ ضرْسٌ ولا سهلٌ دهسٌ، ثم قالَ لمالكِ: ما لي أسمعُ بكاءَ الصغيرِ
ورغاءَ البعيرِ ونهاقَ الحميرِ ويعارُ الشاءِ؟ فقالَ مالكُ: يا أبا قرة؛ إني سُقتُ مع
الناسِ أموالهم وذرايهم، وأردتُ أن أجعلَ خلفَ كلِّ رجلٍ أهله وماله يقاتلُ عنه؛
فأنكرَ عليه دُرَيْدٌ وقالَ: رُوَيْعِيُّ ضَايِنٌ والله! وهل يردُ المهزمُ شيءٌ؟! إنَّها إن كانت
لكَ؛ لم ينفَعَكَ إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانتَ عليكِ؛ فُضِحَتْ في أهلكِ
ومالكِ؛ فسبَّهَ مالكٌ ولم يُطِعه؛ وقالَ دُرَيْدٌ: هذا يومٌ لم أشهده ولم أغبْ عنه؛
وقالَ!

يا ليتني فيها جَدَعٌ

أخْبُتُ فيها وأضْعُ

أقوُدُ وطُفَاءَ الزَّمَعِ

كأنَّها شاةٌ صَدَعٌ

ليتبيَّن بعد ذلك سِدَادَ رأيِ دُرَيْدٍ؛ إذ ما لبثتُ أن انهزمتِ هوازنُ واستولى
المسلمون على أموالهم وأسلامهم وسبُّوا النساءِ والدَّراري، وقُتِلَ دُرَيْدٌ يومئذٍ

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، طبعة دار الكتب العلمية، (ص ٤٥٠).

^٢ الوطفاء: كثيرة الوبر. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣٥٧/٩).

فيمين قُتِلَ من المشركين، بينما فرَّ قائدهم مالك بن عوف فاحتى بالطائف، وما لبث أن وقد لاحقًا على رسول الله ﷺ، فأسلم وردَّ عليه النبي ﷺ النساء والولد.

وشعر دريد غاية في الاتزان وروعة السبك، فيه انسجام وقوة، يظهر عليه الطابع البدوي وملامح البطولة والفروسية، ويجسد كذلك جانبًا من عقله وسداد رأيه، وهو يدور حول الحماسة وما يتعلق بها من وصفٍ للمعارك وثناء وفخر ومديح وهجاء قبليّ، وتعتبر مرثيته لأخيه عبد الله من أشهر مرثي الجاهلية، وكان يصف في شعره ما يدور في حروبه من وقائع؛ من بينها يوم منعرج اللوى الذي قُتل فيه أخوه عبد الله؛ يصف فيها عصيان قومه لرأيه، واضطراره مرغمًا إلى مشاركتهم رغم علمه بضلالتهم، ويصف الكارثة الفادحة التي حلت على قومه لعصيائهم له!

أمرتُهُمُ أمري بمُنْعَرَجِ اللّوى فلم يستبينوا الرُّشدَ إلا ضحَى الغدِ
فلَمَّا عَصَوْنِي كُنْتُ مِنْهُمْ وَقَدْ أَرَى غَوَايَتَهُمْ وَأَنْبِي غَيْرُ مُهْتَدِ
وما أنا إلا من غزِيَّةٍ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّتُهُ أَرَشُدِ

ومن جميل شعره ما قاله يهجو خصومه ويفخر بقومه ويصف أجواء حربه معهم، في لغة حماسية!

يا آلَ سُفْيَانَ إني قد شَهِدْتُكُمْ أَيَّامَ أُمَّكُمْ حَمْرَاءَ مِثْشِيرِ
هَلَّا نَهَيْتُمْ أَحَاكُمَ عَن سَفَاهَتِهِ إذ تَشْرَبُونَ وَغَاوِي الخَمْرِ مَرْجُورِ
لَنْ تَسْبِقُونِي وَلَوْ أَمَهَلْتُكُمْ شَرْفًا عُقْبَى إِذَا أَبْطَأَ الفَجْحُ المَحَامِيرِ
إلى الصُّرَاخِ وَسِرْبَالِي مُضَاعَفَةٌ كَأَنَّهَا مُفْرَطٌ بِالسِّيِّ مَمْطُورِ
بَيْضَاءُ لا تُرْتَدَى إِلَّا لَدَى فَرْعِ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ فِيهَا المِسْكُ مَقْتُورِ
قد عَلِمَ القَوْمُ أَنِّي مِنْ سَرَاتِهِمْ إِذَا تَقَلَّصُ فِي البَطْنِ المَذَاكِيرِ

^١ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٠٧).

^٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ١١٨).

^٣ في رواية أخرى "المخاصير" بدلًا من المحامير.

وَإِنْ طَرَدْنَا كَسَوْنَا الْخَيْلَ أَنْضِيَّةً
 قَوْمٌ إِذَا اخْتَلَفَ الْهَيْجَاءُ وَاخْتَلَفَتْ
 لَقَدْ أَرُوغَ سَوَامَ الْحَيِّ ضَاحِيَّةً
 يَحْمِلْنَ كُلَّ هِجَانٍ صَارِمٍ نَكَرٍ
 أَوْعَدْتُمْ إِبْلِي، كَلَّا سَيَمْنَعُهَا

وقال يصف شيبته ثم يصف الخيل في لغة حماسية كذلك!

فَإِنْ يَكُ رَأْسِي كَالثَّغَامَةِ نَسْلُهُ
 رَهِيئَةً قَعْرِ الْبَيْتِ كُلِّ عَشِيَّةٍ
 فَمِنْ بَعْدِ فَضْلِ فِي شَبَابٍ وَقُوَّةٍ
 فَقَدْ أَبَعْتُ الْوَجْنَاءَ يَدْمَى أَظْلُهَا
 * * * * *

وَخَيْلٍ كَأَسْرَابِ الْقَطَا قَدْ وَرَعْتُهَا
 سَوَابِقُهَا يَخْرُجْنَ مِنْ مُتَنَصِّفٍ
 وَغَيْثٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ حَوْ تِلَاعُهُ
 تَبْطِنُهُ تَعْدُو بِبِزْيٍ نَهْدَةٌ
 وَتَخْطُو عَلَى صَمٍّ كَأَنَّ نُسُورَهَا
 عَلَى هَيْكَلٍ نَهْدِ الْجُزَارَةِ مَرْمَدٍ
 خُرُوجِ الْقَوَارِي الْخُضْرِ مِنْ سَبَلِ الرَّعْدِ
 عَلْتُهُ جُمَادَى بِالْبُورِاقِ وَالرَّعْدِ
 جُلَالَةٌ مَا بَيْنَ الشَّرَاسِيفِ وَاللُّبْدِ
 نَوَى الْقَسْبِ يُسْتَوْفَدَنَّ فِي الظَّرْبِ الصَّلْدِ

ويبدو أنه خطب الخنساء لنفسه فتأبَّت عليه لِكَبْرِ سِتِّهِ، فقال:

وَقَاكِ اللَّهُ يَا ابْنَةَ آلِ عَمْرٍو
 وَلَا تَلِدِي وَلَا يَنْكَحُكَ مِثْلِي
 إِذَا عَقِبَ الْقُدُورِ تَكُنَّ مَالًا
 لَقَدْ عَلِمَ الْمَرَضِعُ فِي جُمَادَى
 مِنَ الْفَتِيَانِ أَمْثَالِي وَنَفْسِي
 إِذَا مَا لَيْلَةٌ طَرَقَتْ بِنَحْسِ
 تُحِبُّ حَلَائِلُ الْأَبْرَامِ عِرْسِي
 إِذَا اسْتَعْجَلْنَ عَن حَزْرٍ بِنَهْسِ

١ انظر: المصدر السابق (ص ١١٩).

٢ انظر: المصدر السابق.

وَأَبْدَوْ بِالْأْرَامِلِ حِينَ أُمْسِي
وَضَيْفِي لَا يَبِيْتُ خَبِيْتُ نَفْسِ
وَهَلْ أَخْبَرْتُهَا أَنِّي ابْنُ أَمْسِ

بِأَنِّي لَا أَبِيْتُ بَغَيْرِ لَحْمِ
وَأَنِّي لَا يِنَادِي الْحَيُّ ضَيْفِي
وَتَزْعُمُ أَنَّي شَيْخٌ كَبِيرٌ

ثانيًا: شعراء الطبيعة البدوية

(علقمة الفحل- الأسود النهشلي- بشامة بن الغدير- أوس بن حجر-
أبو دؤاد الإيادي- المثقّب العبدى- سلامة بن جندل- الأفوه الأودي-
سنان بن أبي حارثة المري- خدّاش بن زهير- المسيب بن علس- طفيل

(الغنوي)

نعني بشعراء الطبيعة البدوية؛ الذين عاشوا وترعرعوا في بواديهم وبين قبائلهم، ولم يتمدّدوا تمدّدًا كاملاً أو يعتادوا على حياة القصور، ولم يقدوا على الملوك، أو قلّت وفادتهم وقلّ خبرهم معهم.

وهؤلاء يشكّلون غالبية شعراء العرب، ويمثّل شعريهم الجانب الأعظم من خصائص الشعر الجاهلي؛ المتمثّلة في الصلابة والقوّة والخشونة وصعوبة اللفظ وغرابته، وما في شعريهم من لفظ جزل، وأسلوب فخم، وإيقاع رصين، وطبيعة بدوية طاغية على شعريهم وأحاسيسهم وكلماتهم وتصاويرهم؛ تسهّل رؤيتها من خلال قصائدهم.

وبما أن أغلب العرب كانوا من أبناء الطبيعة البدوية؛ فلا ريب أن يكون شعراء الطبيعة البدوية لهم النصيب الأكبر في شعر العرب، وكان معيار قوة اللغة وفصاحتها لدى الشاعر مرتبطاً إلى حدّ بعيدٍ بمدى ارتباطه بالصحراء وحياة البادية.

وقد تناول شعريهم أغراضاً شتى تنوّعت بين الحماسة والفخر والثناء والوصف والحكمة والمدح القبليّ والهجاء والغزل، وكل الموضوعات التي تناسب حياتهم الصحراوية وبيئتهم البدوية التي عاشوا فيها وكان لها عليهم الأثر الأكبر.

ومن أبرز الشعراء الذين كانوا من أبناء الطبيعة البدوية ومن غلب عليهم
طابعها وسماتها:

١- علقمة الفحل:

هو علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس، التميمي، وتميم هي إحدى القبائل
المتفرعة من إلياس من مُضَر، كان علقمة سيِّدًا من سادات تميم وشعرائهم،
وكان معاصرًا لامرئ القيس، سُمِّي بالفحل تمييزًا له عن رجل آخر من قومه يقال
له علقمة بن سهل الخَصِي، وقيل: بل سُمِّي بالفحل؛ لاحتكامة مع امرئ القيس
أمام زوجته أم جُنْدب في القصيدة البائية الشهيرة التي وصفها الخيل!

وقد نشأ علقمة في بادية نجد وترعرع بين قومه، وتأثر بالطبيعة البدوية؛ التي
صقلت حسَّه، وألهمت قريحته، وقد وقَد على الحارث بن أبي شمر ملك
الغساسنة ومدحه بغية إطلاق أخيه شأس ومن معه من أسرى تميم، وكان ابن
أبي شمر قد أسرهم في حروبه مع المنذر بن ماء السماء، فأطلقهم.

وقد وفد علقمة على قريش فأنشدهم بعض شعره فاستحسنوه وقبلوه؛ قال
ابن سلام: "ولابن عبدة ثلاث روائع جياذ لا يفوقهن شعر"، إلا أنه وضعه في
الطبقة الرابعة مع طرفة وعبيد بن الأبرص وعدي بن زياد العبادي؛ لقلّة شعره
بأيدي الرواة؛ توفيّ نحو ٥٦١م.

يعتبر علقمة الفحل من أبرز شعراء الجاهلية وأفضلهم أسلوبًا وفنًا، أخلَّ به
قلة ما انتهى إلينا من شعره، ويمتاز شعره بكونه متينًا محكمًا، رائع السبك،
قوي الأسلوب، فخم اللفظ، عظيم الوقع والإحساس في النفس، لا يخلو من
الخيال ودقة الوصف، تظهر عليه بوضوح الطبيعة البدوية من خلال خشونتته
وصلابته وعدم خلوّ شعره من غريب اللفظ، وهو رصين فائق الديباجة، يمثل

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢١٢/١-٢١٣).

^٢ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٢٤).

^٣ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام (١/١٣٧).

شعره فحولة وفخامة الشعر الجاهلي في ألفاظه ومعانيه. ومن الواضح مما انتهى إلينا من قصائده أنه كان يُدبج شعره ويصقل لفظه وينقحه، ولم تصلنا له غير قصائد قليلة ولا ندرى أكان مُقلِّلاً أم ضاع أغلب شعره ولكن الأرجح - قياساً على شهرته وعلو منزلته وجودة شعره - أنه كان مكثراً، ولكن لم ينته إلينا من شعره غير القليل؛ قصيدتان من المفضليات، أضاف إليهما ابن ميمون في "منتهى الطلب" قصيدة ثالثة؛ وهي إجمالي ما رُوِيَ عن الأصمعي، وقد أورد الأعلام الشنتمري له عن غير الأصمعي ستَّ قصائد أخرى اختُلِفَ في نسبة ثلاثٍ منها.

وقد برع علقمة في المديح والحكمة والخمر ووصف الفرس والنعامة والطراد، ومن أروع قصائده ما مدح بها الحارث بن أبي شمر الغساني يسأله إطلاق الأسرى من قومه وأخيه شأس، وقد جاء فيها:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ	بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيْبٍ
تُكَلِّفُنِي لَيْلَى وَقَدْ شَطَّ وَلِيْهَا	وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبٌ
مُنْعَمَةٌ لَا يُسْتَطَاعُ كَلَامُهَا	عَلَى بَابِهَا مِنْ أَنْ تُنْزَرَ رَقِيْبٌ
إِذَا غَابَ عَنْهَا الْبَعْلُ لَمْ تُفْشِ سِرَّهُ	وَتُرْضِي إِيَابَ الْبَعْلِ حِينَ يَأُوبُ
فَلَا تَعْدَلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مُغَمَّرٍ	سَقْتِكَ رَوَايَا الْمُزْنِ حَيْثُ تَصُوبُ
*	*

إِلَى الْحَارِثِ الْوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي	لِكَلِّهَا وَالْقُصْرَيْنِ وَجِيْبِ
لِتُبَلِّغَنِي دَارَ امْرِئٍ كَانَ نَائِيَا	فَقَدْ قَرَّبْتَنِي مِنْ نَدَاكَ قَرُوبٌ
إِلَيْكَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ كَانَ وَجِيْفُهَا	بِمَشْتَبِهَاتِ هَوْلُهُنَّ مَهِيْبِ
هَدَانِي إِلَيْكَ الْفَرْقَدَانِ وَلَا حِبُّ	لَهُ فَوْقَ أَصَوَاءِ الْمِتَانِ غُلُوبٌ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ أَفْضَتْ إِلَيْكَ أَمَانَتِي	وَقَبْلَكَ رَبَّنِي فَضَعْتُ رُبُوبٌ

^١ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٢٥)؛ والبيت الحادي عشر من المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٩٥).

^٢ طحا بك: ذهب بك في مذهب بعيد. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/١٥).

وَأَنْتَ بِهَا يَوْمَ اللَّقَاءِ تَطِيبُ

*

مَنْ الْبُؤْسِ وَالنُّعْمَى لَهْنٌ نُذُوبُ
فُحْقٌ لَشَاسٍ مِنْ نَدَاكَ دُنُوبُ
مُسَاوٍ وَلَا دَانَ لِنَدَاكَ قَرِيبُ

تَجُودُ بِنَفْسٍ لَا يُجَادُ بِمِثْلِهَا

*

وَأَنْتَ الَّذِي آثَارُهُ مِنْ عَدْوِهِ
وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ
وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا قَبِيلُهُ

ومن أروع قصائده ميمية هي من عيون الشعر الجاهلي، وقد ذكرنا بعض أبياتها في حديثنا عن أغراض الشعر الجاهلي؛ في الحكمة ووصف الخمر، وهذا مطلعها:

أَمْ حَبَلُهَا إِذْ نَأْتِكَ الْيَوْمَ مَصْرُومٌ
إِثْرَ الْأَجْبَةِ يَوْمَ الْبَيْنِ مَشْكُومٌ
كُلُّ الْجِمَالِ قَبِيلَ الصُّبْحِ مَزْمُومٌ
فَكُلُّهَا بِالنَّزِيدِيَّاتِ مَعْكُومٌ
كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الْأَجْوَابِ مَدْمُومٌ
كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي الْأَنْفِ مَشْمُومٌ
لِلْبَاسِطِ الْمُتَعَاظِي وَهُوَ مَزْكُومٌ
دَهْمَاءُ حَارِكُهَا بِالْقُتْبِ مَخْرُومٌ
حَتَّى كَحَافَةِ كَيْرِ الْقَيْنِ مَلْمُومٌ
فِي الْخَدِّ مِنْهَا وَفِي اللَّحْيَيْنِ تَلْغِيمٌ
مِنْ نَاصِعِ الْقَطْرَانِ الصَّرْفِ تَدْسِيمٌ
حُدُورُهَا مِنْ أَتَى الْمَاءِ مَطْمُومٌ
إِلَّا السَّفَاهُ وَظَنَّ الْغَيْبِ تَرْجِيمٌ

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومٌ
أَمْ هَلْ كَبِيرٌ بَكَى لَمْ يَقْضِ عَبْرَتَهُ
لَمْ أَدْرِ بِالْبَيْنِ حَتَّى أَرْمَعُوا ظَعْنًا
رَدَّ الْإِمَاءُ جِمَالَ الْحَيِّ فَاحْتَمَلُوا
عَقْلًا وَرَقْمًا تَظَلُّ الطَّيْرُ تَتَّبَعُهُ
يَحْمَلَنَّ أَتْرَجَةً نَضُخُ الْعَبِيرِ بِهَا
كَأَنَّ فَاةَ مِسْكِ فِي مَفَارِقِهَا
فَالْعَيْنُ مَيِّ كَأَنَّ غَرْبٌ نَحَطُّ بِهِ
قَدْ غَرَّيْتَ حِقْبَةً حَتَّى اسْتَطَفَّ لَهَا
كَأَنَّ غَسْلَةَ خَطْمِي بِمَشْفَرِهَا
قَدْ أَدْبَرَ الْعُرُّ عَنْهَا وَهِيَ شَامِلُهَا
تَسْقِي مَذَانِبَ قَدْ زَالَتْ عَصِيفَتُهَا
مِنْ ذِكْرِ سَلَمَى وَمَا ذِكْرَى الْأَوَانِ لَهَا

١ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٢٥)؛ وهي مفضلية.

صَفْرُ الْوِشَاحَيْنِ مِلءُ الدَّرْعِ خَزْعَبَةٌ كَأَنَّهَا رَشَاءٌ فِي الْبَيْتِ مَلْزُومٌ

ويُحكى أن علقمة نازع امرأ القيس، فقال كلُّ منهما لصاحبه: أنا أشعر منك؛ فقال علقمة: قد حكمتُ امرأتك أمَّ جندب بيني وبينك؛ فقال امرؤ القيس: رضىتُ؛ فقالت أم جندب: قُولاً شعراً تصفان فيه الخيل، على رويٍّ واحدٍ وقافيةٍ واحدةٍ؛ فقال امرؤ القيس قصيدته "خليليُّ مُرَّاً بي على أمَّ جندب"، وعارضه علقمة بقصيدة مطلعها "ذهبتَ من الهجران في غيرِ مذهبٍ"؛ فقالت أم جندب لامرئ القيس: علقمة أشعر منك؛ قال: وكيف؟ قالت: لأنك قلت:

فَللسَّوِطِ أَلْهُوبٌ وَللسَّاقِ دِرَّةٌ وَللْزَجْرِ مِنْهُ وَقْعٌ أَخْرَجَ مُهَذَّبِ

فجهدتَ فرسك بسوطك ومريته بساقك، وقال علقمة:

فَأَدْرَكُهُنَّ ثَانِيًا عَنْ عَنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ

وفي رواية أخرى:

فَأَتْبَعِ أَدْبَارَ الشَّيَاهِ بِصَادِقِ حَيْثُ كَفَيْتِ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عنان فرسه، لم يضربه بسوط ولا مرَّاه بساقٍ ولا زجره؛ فغضب امرؤ القيس وقال: ما هو بأشعر مني ولكنتك له وامق؛ فطلَّقها، ويُقال: إن علقمة خلَّقه عليها؛ والقصيدتان رائعتان في السِّبْكِ واللفظ والمعنى، وقد أوردنا بعضاً من قصيدة امرئ القيس، ونورد هنا بعضاً من قصيدة علقمة التي عارضه بها، ومنها:

ذَهَبَتْ مِنْ الْهَجْرَانِ فِي غَيْرِ مَذْهَبِ وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ

لِيَالِي لَا تَبَأَى النَّصِيحَةَ بَيْنَنَا لِيَالِي حَلُّوا بِالسِّتَارِ فَعُزِّبِ

^١ بهكنة: الغضة الجميلة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٦٠ / ١٣).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢١٢ / ١).

^٣ أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٢٧).

^٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢١٣ / ١).

^٥ انظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري (ص ٢٦).

كَمَوْعُودِ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيثْرِبِ
تَشَكُّ وَإِنْ يُكْشَفُ غَرَامُكَ تَذْرِبِ
ذَوَاتُ الْعَيْونِ وَالْبَنَانِ الْمُخَضَّبِ
بِبَيْشَةَ تَرَعَى فِي أَرَاكِ وَحَلْبِ
فَأَنْجَحَ آيَاتِ الرَّسُولِ الْمُخْتَبِ
* * *

وَمَاءِ النَّدى يَجْرِي عَلَى كُلِّ مِذْبِ
طِرَادِ الْهَوَادِي كُلِّ شَأْوٍ مُعْرِبِ
عَلَى نَفْثِ رَاقٍ خَشِيَّةِ الْعَيْنِ مُجَلِبِ
مَعَ الْعَتَقِ خَلْقٌ مُفَعَّمٌ غَيْرُ جَانِبِ
كَسَامِعَتِي مَذْعُورَةٌ وَسَطِ رَبْرِبِ
مِنَ الْهَضْبَةِ الْخَلْقَاءِ زُحْلُوقِ مُلَعِبِ
إِلَى سَنَدِ مِثْلِ الْغَبِيطِ الْمَذَابِ
سِلَامِ الشَّظَا يَغْشَى بِهَا كُلَّ مَرْكَبِ
حِجَارَةٌ غَيْلٍ وَارِسَاتُ بَطْحَلِبِ

وَقَدْ وَعَدْتِكَ مَوْعِدًا لَوْ وَفَّتْ بِهِ
وَقَالَتْ مَتَى يُبْخَلُّ عَلَيْكَ وَيُعْتَلَنُ
فَقُلْتُ لَهَا فِيئِي فَمَا تَسْتَفْزِنِي
فَفَاءَتْ كَمَا فَاءَتْ مِنَ الْأَدَمِ مُغْزَلُ
فَعِشْنَا بِهَا مِنَ الشَّابِ مِلَاوَةٌ
* * *

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
بِمُنْجَرِدِ قَيْدِ الْأَوَابِدِ لِأَحَاهُ
بِغَوْجِ لَبَانِهِ يُتَمُّ بَرِيْمُهُ
مَمَرٍ كَعَقْدِ الْأَنْدَرِيِّ يَزِيئُهُ
لَهُ حَرَّتَانِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا
وَجَوْفُ هَوَاءٍ تَحْتَ مَتْنٍ كَأَنَّهُ
قَطَاةٌ تَكْرُدُ الْمَحَالَةَ أَشْرَفَتْ
وَعُلْبٌ كَأَعْنَاقِ الصَّبَاعِ مَضِيغُهَا
وَسُمْرٌ يُفَلِّقُنَ الظَّرَابَ كَأَنَّهَا

٢- الأسود بن يعفر النهشلي:

هو الأسود بن يعفر، من بني نهشل بن دارم إحدى بطون تميم، يُكنى بأبي الجراح وأبي نهشل، ويُعرف بأعشى بني نهشل، وهو من سادات تميم، من أهل العراق، اتصل بالنعمان بن المنذر ونادمه، وكان فصيحاً جواداً، ولا عقب له، ولما أسنَّ كُفَّ بصره، ومن أشهر ما روي عنه دليته الشهيرة التي افتتحها بقوله (نامَ الخليلي وما أحسُّ رُقادي) التي سبق ذكر بعض أبياتها في أغراض الغزل

^١ الشطر الأول من هذا البيت ورد مثله في معلقة امرئ القيس

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٤٨-٢٤٩).

ووصف الخمر، وكان مَمَّنْ هجا قومَه، ويتضح لنا من خلال ما انتهى إلينا من شعره أنه أنه جزل اللفظ، قوي الأسلوب، مرهف الحس، عذب الإيقاع، وقد وضعناه من ضمن شعراء الطبيعة البدوية رغم اتصاله ببلاط الحيرة؛ بسبب غلبة الطابع البدوي على شعره، وقد جعله ابن سَلَّام في الطبقة الخامسة من طبقات الشعراء مع خدّاش بن زهير وتميم بن مقبل وآخرين، وقد برع في النسيب فأسهب فيه، وبرع كذلك في وصف الخمر، وممَّا قال في شعره في الحب والخمر:

قَدْ أَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْ أَسْمَاءَ مَصْرُومًا
وَاسْتَبَدَّتْ خُلَّةً مَنِيٍّ وَقَدْ عَلِمَتْ
عَفُ صَلِيبٍ إِذَا مَا جُلْبَةٌ أَزْمَتْ
لَمَّا رَأَتْ أَنَّ شَيْبَ الْمَرْءِ شَامِلُهُ
صَدَّتْ وَقَالَتْ أَرَى شَيْبًا تَفَرَّعَهُ
كَأَنَّ رِيْقَتَهَا بَعْدَ الْكَرَى اغْتَبَقَتْ
سُلَافَةَ الدَّنِّ مَرْفُوعًا نَصَائِبُهُ
وَقَدْ نَوَى نِصْفَ حَوْلٍ أَشْهُرًا جُدْدًا
حَتَّى تَنَاوَلَهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةً
وَسَمْحَةَ الْمَشِيِّ شِمْلَالٍ قَطَعَتْ بِهَا
مَهَامَهَا وَخُرُوقًا لَا أُنَيْسَ بِهَا
بَعْدَ ائْتِلَافٍ وَحُبِّ كَانٍ مَكْتُومًا
أَنَّ لَنْ أُبَيْتَ بِوَادِي الْخَسْفِ مَذْمُومًا
مِنْ خَيْرِ قَوْمِكِ مَوْجُودًا وَمَعْدُومًا
بَعْدَ الشَّبَابِ وَكَانَ الشَّيْبُ مَسْئُومًا
إِنَّ الشَّبَابَ الَّذِي يَعْلُو الْجَرَائِمَا
صِرْفًا تَخَيَّرَهَا الْحَائُونَ خُرْطُومًا
مَقْلَدَ الْفَعْوِ وَالرَّيْحَانِ مَلْئُومًا
بِبَابِ أَفَانَ يَنْتَازُ السَّلَالِيمَا
يَرِشُو التَّجَارَ عَلَيْهَا وَالتَّرَاجِيمَا
أَرْضًا يَحَارُ بِهَا الْهَادُونَ دَنِيمُومًا
إِلَّا الضَّوَابِحَ وَالْأَصْدَاءَ وَالْبُومَا

ومن رقيق مطالع قصائده قوله:

أَلَا حَيِّ سَلَمَى فِي الْخَلِيطِ الْمَفَارِقِ
وَمَا خِفْتُ مِنْهَا الْبَيْنَ حَتَّى رَأَيْتُهَا
وَأَلِمُّ بِهَا إِنْ جَدَّ بَيْنَ الْحَرَائِقِ
عَلَا عَيْرَهَا فِي الصُّبْحِ أَصَوَاتُ سَائِقِ

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٤١٨-٤١٩).

^٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٣٧).

تَجَنَّبَنَّ خُرُوبًا وَهَنَّ جَوَازِعُ
سَنَلْقَاكَ يَوْمًا وَالرِّكَابُ ذَوَاقِنُ
وَتَشْفِي فُوَادِي نَظْرَةً مِنْ لِقَائِهَا
أَلَا إِنَّ سَلْمَى قَدْ رَمَتْكَ بِسَهْمِهَا
عَلَى طَيِّبَةٍ يَعِدِلْنَ رَمَلَ الصَّعَافِقِ
بُنْعَمَانَ أَوْ نُلْقَاكَ يَوْمَ التَّحَالِقِ
وَقَلَّتْ مَتَاعًا مِنْ لُبَانَةِ عَاشِقِ
وَكَيفَ اسْتَبَاءَ الْقَلْبِ مَنْ لَمْ يُنَاطِقِ

وقال يبكي شبابه!

هَلْ لِشَبَابٍ فَاتٍ مِنْ مَطْلَبِ
إِلَّا الْأَضَالِيلُ وَمَنْ لَا يَزَلُ
بُدِلْتُ شَيْبًا قَدْ عَلَا لَمْتِي
صَاحِبُهُ ثَمَّتْ فَارْقُئُهُ
أَمْ مَا بُكَاءِ الْبَدَنِ الْأَشْيَبِ
يُوفِي عَلَى مَهْلِكِهِ يَعْطِبِ
بَعْدَ شَبَابٍ حَسَنِ مُعْجِبِ
لَيْتَ شَبَابِي ذَاكَ لَمْ يَذْهَبِ

وقال يصف الخمر!

فَظَلَّتْ تَدُورُ الْكَأْسُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فَرَحْنَا أَصِيلًا تَرَانَا كَأَنَّنا
إِذَا هِيَ أَكْرَتْ قَالَ صَاحِ الْأَسْقِنِي
ذُوو قَيْصِرٍ أَوْ آلِ كِسْرَى ابْنِ سَوْسَنِ

٣- بشامة بن الغدير:

هو بشامة بن عمرو بن هلال بن سهم، من ذبيان إحدى بطون غطفان، من قيس عيلان، من مضر؛ والغدير اسم غلب على أبيه فعُرف به، وهو خال الشاعر زهير بن أبي سلمى -أو خال أبيه- ويُعتبر أستاذه ومن علّمه الشعر والحكمة، وكان مُقعدًا منذ ولادته، وكان ذا مال كثير، وحكمة ورأي حازم سديد، وكانت غطفان تستشيريه في أمورها ويُقسمون له من غنائم حروبهم كأنّه اشترك فيها، ويُقال: إنه لما حضرته الوفاة أخذ يقسم ماله بين أهل بيته وإخوته، فقال

١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٨).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٣٧).

أَمْ هَلْ تَرَوْنَ الْيَوْمَ مِنْ أَحَدٍ
 فَلَيْنَ ظَفِيرُكُمْ بِالْخِصَامِ لِمَوِ
 وَبَدَأْتُمْ لِلنَّاسِ سُؤْنَتَهَا
 لَنُؤَلِّمَنَّ عَلَى الْمَوَاطِنِ أَنْ
 حَصَلَتْ حَصَاةٌ أَخٍ لَهٗ يُرْعِي
 لِأَكْمٍ فَكَانَ كَشَحْمَةِ الْقَلْعِ
 وَقَعَدْتُمْ لِلرَّيْحِ فِي رَجْعِ
 لَا تَخْلَطُوا الْإِعْطَاءَ بِالْمَنْعِ

٤- أوس بن حجر:

هو أوس بن حجر بن عتاب، من تميم، كان من أبرز شعراء مضر حتى ظهر زهير والنابغة الذبياني فأخملاه، وهو شاعر تميم بلا منازع، وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى وهو الذي ربّاه واعتنى به حتى أخذ عنه الشعر والحكمة.

قُتِلَ حجرٌ أبو أوس، مع المنذر بن ماء السماء في حربه مع الغساسنة، واتصل أوس بعمر بن هند ملك الحيرة، ومن أغراضه الشعرية التي أكثرَ فيها؛ المديح والثناء والغزل والوصف؛ حيث وصف السلاح والسحاب، وكان يكثر القول في الحكمة والتعقل ومكارم الأخلاق، وهو ممن وفدوا على بلاط الملوك لكن وضعناه هنا مع الشعراء القَبَلِيِّينَ تَمَاشِيًا مع أسلوبه البدوي وأغراض شعره.

ويمتاز شعره بدقّة المعاني وبالإتزان العقلي وبقوة الأسلوب، وهو عامر بالحكمة والغزل والوصف؛ حيث بلغ في الوصف مهارة ودقّة متناهية، فوصف أسلحة الحرب ومظاهر الطبيعة، وقد عُمِرَ أوس طويلاً وتُوفِّيَ ولم يدرك الإسلام، وكان زهير راويةً له، فأخذ عنه الكثير من أسلوبه وخصائصه الشعرية، ومن أروع مرثي أوس قوله:

أَيُّهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعَا
 إِنَّ الَّذِي جَمَعَ السَّمَاحَةَ وَالنَّامِ
 إِنَّ الَّذِي تَحَذِرِينَ قَدْ وَقَعَا
 جَدَّةَ وَالْحَزْمَ وَالْقُؤَى جُمِعَا
 الْأَمْعِيَّ الَّذِي يظُنُّ لَكَ الـ
 (م) ظَنَّ كَأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٩٨).

^٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٦٠).

وَالْمُخْلِيفَ الْمُتْلِفَ الْمُرَزَّأَ لَمْ يُنْمَعِ بِضَعْفٍ وَلَمْ يَمُتْ طَبَعًا
وَالْحَافِظَ النَّاسِ فِي الْجُدُوبِ إِذَا لَمْ يُرْسِلُوا تَحْتَ عَائِذِ رَبِّعَا

ومن نماذج إبداعه في وصف أنواع الأسلحة كالقوس والسيف والتبَل، سابقا
أقرانه ومعاصريه، في أسلوب قويٍّ وتشبيهاتٍ بديعة:

دَانٍ مُسِيفٍ فُوقِ الأَرْضِ هَيْدَبُهُ يَكَادُ يَنْفَعُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ
يَنْفِي الحَصَى عَنِ جَدِيدِ الأَرْضِ مُبْتَرِكًا كَأَنَّهُ فَاحِصٌ أَوْ لَاعِبٌ دَاحِ
فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ وَالمُسْتَكِينِ كَمَنْ يَمْشِي بِقُرُوحِ

وله في الحكمة قصائد جياد؛ من بينها لاميةٌ بديعة، افتتحها بمقدِّمة غزلية
مزجها بالحكمة ثم بالتحريض على الحرب، يقول فيها:

سَلَا قَلْبُهُ عَنِ سُكْرِهِ فَتَأَمَّلَا وَكَانَ بِذِكْرِي أَمْ عَمِرُوا مُوَكَّلَا
وَكَانَ لَهُ الحَيْنُ المُتَاحُ حُمُولَةً وَكُلُّ امْرئٍ رَهْنٌ بِمَا قَدْ تَحَمَّلَا
أَلَا أَعْتَبُ ابْنَ العَمِّ إِنْ كَانَ ظَالِمًا وَأَعْفِرُ عَنْهُ الجَهْلَ إِنْ كَانَ أَجْهَلَا
وَإِنْ قَالَ لِي مَاذَا تَرَى يَسْتَشِيرُنِي يَجِدُنِي ابْنَ عَمٍّ مَخْلُطَ الأَمْرِ مَزِيلَا
أَقِيمُ بِدَارِ الحَزْمِ مَا دَامَ حَزْمُهَا وَأَحْرَ إِذَا حَالَتْ بِأَنْ أَتَحَوَّلَا
وَأَسْتَبْدُلُ الأَمْرَ القَوِيَّ بِغَيْرِهِ إِذَا عَقُدُ مَا فُونِ الرِّجَالِ تَحَلَّلَا
فِيئِي امْرؤٌ أَعْدَدْتُ للحَرْبِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ لَهَا نَابًا مِنَ الشَّرِّ أَعْصَلَا

وجاء فيها يصف قوساً:

كَثُومٌ طِلاغُ الكَفِّ لَا دُونَ مِلِّئِهَا وَلَا عَجْسُهَا عَنْ مَوْضِعِ الكَفِّ أَفْصَلَا
إِذَا مَا تَعَاظَوْهَا سَمِعَتْ لِصَوْتِهَا إِذَا أَنْبَضُوا عَنْهَا نَثِيمًا وَأَزْمَلَا

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢٠٣/١).

^٢ النجوة: ما ارتفع من الأرض. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣٠٥/١٥).

^٣ انظر: المصدر السابق (ص ٦٢).

^٤ انظر: المصدر السابق (ص ٦٣).

ومنها يصف السيف!

وَأَبْيَضَ هِنْدِيًّا كَأَنَّ غِرَارَهُ
إِذَا سُلَّ مِنْ جَفَنِ تَأَكَّلَ أَثْرَهُ
كَأَنَّ مَدَبَّ النَّمْلِ يَتَّبِعُ الرَّبِي
عَلَى صَفْحَتَيْهِ مِنْ مُثُونِ جَلَالِهِ

وجاء في آخرها في الحكمة!

فإِثِّي رَأَيْتُ النَّاسَ إِلَّا أَقْلَهُمْ
بَنِي أُمِّ نِي الْمَالِ الْكَثِيرِ يَرَوْنَهُ
وَهُمْ لِمُقِيلِ الْمَالِ أَوْلَادِ عُلَّةٍ
وَلَيْسَ أَخْوَكَ الدَّائِمِ الْعَهْدِ بِالَّذِي
وَلَكِنْ أَخْوَكَ النَّاءِ مَا كُنْتَ آمِنًا

ومن مقدماته الغزلية قوله:

هَلْ عَاجِلٌ مِنْ مَتَاعِ الْحَيِّ مَنْظُورٌ
أَمْ هَلْ كَبِيرٌ بَكَى لَمْ يَقْضِ عِبْرَتَهُ

٥- أبو دؤاد الإيادي:

هو جارية بن الحجاج، أو حنظلة بن الشرقي؛ وفق قول الأصمعي، من قبيلة إياد، أجاره الحارث بن همام بن مرة الشيباني من الفُرس، وقيل: بل جاره هو

١ انظر: المصدر السابق (ص ٦٢).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٦٣).

٣ انظر: المصدر السابق (ص ٦١).

كعب بن مامة؛ الذي رُوِيَ أنه أثر رفيقًا له بنصيبه في الماء فمات عطشًا فضرب
به المثل في الجود؛ وأبو دؤاد أحد وصّافي الخيل؛ وفيها يقول:

إِلْبِي الْإِبْلُ لَا يُحَوِّزُهَا الرَّأ عَوْنَ مَجِّ النَّدَى عَلَيْهَا الْمُدَامُ
سَمِنَتْ فَاسْتَحَشَّ أَكْرَعَهَا لَا النَّـ(م) سِي نِيٍّ وَلَا السَّنَامُ سَنَامُ
فَإِذَا أَقْبَأْتِ تَقُولُ إِكَامُ مشرفاتٌ بَيْنَ الْإِكَامِ إِكَامُ
وَإِذَا أَعْرَضْتِ تَقُولُ قُصُورُ مِنْ سَمَاهِيحٍ فَوْقَهَا آطَامُ

وقال:

الماء يجري لا نظام له لَوْ وَجَدَ الْمَاءَ مَحْرَقًا خَرَقَهُ
وهو أحد نعات الخيل المجيدين على رأي الأصمعي، ولكن قصر الرواة في رواية
شعره؛ لأن ألفاظه ليست نجدية.^٢

٦- المثقب العبدى:

هو مُحَصَّن بن ثعلبة النُّكري، غلب عليه لقب المثقب؛ لهذا البيت الذي يقول
فيه:

رَدْدُنْ حَيَّةً وَكَنْنْ أُخْرَى وَتَقْبِنَ الْوَصَاوِصَ لِلْغِيُونِ
وهو شاعر جاهلي قديم، وفد على عمرو بن هند والنعمان بن المنذر في بلاط
الحيرة، وقبل النعمان شفاعته له وأطلق الأسرى من قومه، وشعره يمتاز
بالانسجام والانسبابية والسلاسة والصفاء الفكري ودقة الوصف، يقول في
قصيدة بديعة تظهر فيها ملامح إبداعه في الانسجام والغزل ودقة الوصف:

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٣٢-٢٣٣).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٢٣٣).

^٣ انظر: المصدر السابق (١/٢٣٢).

^٤ انظر: المصدر السابق (١/٣٨٣).

^٥ الوصاوص: البراقع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٧/١٠٥).

^٦ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص١٤٩-١٥٣).

وَصَنَّتْ وَمَا كَانَ الْمَتَاعُ يُوَوِّدُهَا
 عَلَى الْعَهْدِ إِذْ تَصْطَادُنِي وَأَصِيدُهَا
 بِشَاشَةٍ أَدْنَى خُلَّةٍ تَسْتَفِيدُهَا
 إِذَا الشَّمْسُ فِي الْأَيَّامِ طَالَ رُكُودُهَا
 لَوَامِغٍ يُطَوِّى رِيْطُهَا وَبُرُودُهَا
 يَغْوِلُ الْبِلَادَ سَوْمُهَا وَبَرِيدُهَا
 وَبَاتَتْ عَلَيْهَا صَفْنَتِي وَقَتُودُهَا
 عَلَى الثَّفِنَاتِ وَالْجِرَانِ هُجُودُهَا
 تُؤَازِي شَرِيمَ الْبَحْرِ وَهُوَ قَعِيدُهَا
 تُزَاوِلُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَيُرِيدُهَا

أَلَا إِنَّ هِنْدًا أَمْسِ رَبَّتْ جَدِيدُهَا
 فَلَوْ أَنَّهَا مِنْ قَبْلُ دَامَتْ لُبَانَةً
 وَلَكِنَّهَا مِمَّا تَمِيْطُ بِوُدِّهَا
 أَجْدِكَ مَا يُدْرِيكَ أَنْ رَبُّ بِلْدَةٍ
 وَصَاحَتْ صَوَادِيخُ النَّهَارِ وَأَعْرَضَتْ
 قَطَعَتْ بِفِتْلَاءِ الْيَدَيْنِ ذُرَيْعَةٍ
 فَبِتُّ وَبَاتَتْ كَالنَّعَامَةِ نَاقَتِي
 وَأَعْضَتْ كَمَا أَعْضَيْتُ عَيْنِي فَعَرَّسَتْ
 عَلَى طُرُقٍ عِنْدَ الْأَرَاكَةِ رَبَّةٍ
 كَأَنَّ جَنِيْبًا عِنْدَ مَعْقِدِ غَرْزِهَا

وقال يخاطب عمرو بن هند:

أَخَى النَّجْدَاتِ وَالْحِلْمِ الرَّصِينِ
 فَأَعْرِفَ مِنْكَ غَثِّي مِنْ سَمِينِي
 عَدُوًّا أَتَّقِيكَ وَتَتَّقِينِي
 أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
 أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي

إِلَى عَمْرٍو وَمِنْ عَمْرٍو أَتَنِي
 فَمَا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقِّ
 وَإِلَّا فَطَاطِرْحَنِي وَاتَّخِذْنِي
 وَمَا أُدْرِي إِذَا يَمَمْتُ أَمْرًا
 أَلْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ

وشعر المثقّب يمتاز كذلك بالواقعية والوضوح، وهو سهلٌ إذا ما فهم ما فيه من
 غريب اللفظ، ولا يخلو شعره من بعض الحكم والنصائح كما في قوله:

حِينَ يَلْقَانِي وَإِنْ غِبْتُ شَتَمَ
 أُذْنِي عَنْهُ وَمَا بِي مِنْ صَمَمٍ
 جَاهِلٌ أَيُّي كَمَا كَانَ رَعَمٌ

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لِي
 وَكَلَامٌ سَيِّئٌ قَدْ وَقَرَّتْ
 فَتَصَبَّرْتُ امْتِعَاضًا أَنْ يَرَى

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٢٩٢).

^٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ١٢٩).

وَلَبَّعُ الصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ ذِي الْخَنَا أَبْقَى وَإِنْ كَانَ ظَلَمٌ

٧- سلامة بن جندل:

هو أبو مالك سلامة بن جندل بن عبد عمرو، من زيد مناة بن تميم، وهو جاهلي قديم، من فرسان تميم المعدودين، وأحد أبرز شعراء الحجاز، عاصر عمرو ابن هند والنعمان بن المنذر وله فيهما شعر، مات نحو عام ٦٠٨م، ومن شعره:

تَقُولُ ابْنَتِي إِنَّ انْطِلَاقَكَ وَاحِدًا إِلَى الرَّوْعِ يَوْمًا تَارِكِي لَا أَبَا لِيَا
ذُرَيْبِي مَنِ الْإِشْفَاقِ أَوْ قَدَمِي لَنَا مِنْ الْحَدَثَانِ وَالْمَنِيَّةِ وَأَقِيَا
سَتَتَلَفُ نَفْسِي أَوْ سَأَجْمَعُ هَجْمَةً تَرَى سَاقِيئِهَا يَا لِمَانَ التَّرَاقِيَا

وشعر سلامة سلس، يمتاز بالمتانة والجودة ودقّة الوصف، ويدور حول عدة أغراض؛ من بينها الوصف والفخر والحماسة، ومن روائع شعره قصيدة بائنة ممتازة افتتحها بمقدمة ذكر فيها الشَّيب، ورثى شبابه، ثم وصف الحروب والمعارك والخيال والسلاح، وتطرّق إلى الحماسة والفخر؛ ومن أبياتها:

أُودَى الشَّبَابُ حَمِيدًا ذُو التَّعَاجِبِ أُوْدَى وَذَلِكَ شَأْوَ غَيْرُ مَطْلُوبِ
وَلَى حَيْثِيَا، وَهَذَا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ لَوْ كَانُ يُدْرِكُهُ رَكْمُضُ الْيَعَاقِبِ
أُودَى الشَّبَابُ الَّذِي مَجْدُ عَوَاقِبُهُ فِيهِ نَلْدُ وَلَا لَذَاتِ الشَّيْبِ
وَلِلشَّبَابِ إِذَا دَامَتْ بِشَاشَتُهُ وَدُ الْقُلُوبِ مِنَ الْبَيْضِ الرَّعَاقِبِ
* * * * *

يَوْمَانِ: يَوْمُ مَقَامَاتٍ وَأُنْدِيَةٍ وَيَوْمُ سَيْرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِيبِ
وَكُرْنَا حَيْلِنَا أَدْرَجَهَا رُجْعًا كُسَّ السَّنَابِكِ مِنْ بَدْءِ وَتَغْيِيبِ

١ انظر ترجمة سلامة بن جندل في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (٢١١/١).

٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٦٤-٢٦٥).

٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ١١٩-١٢٤).

٤ الرعايب: جمع رعبوب وهي البيضاء. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/٤٢١).



وَالْعَادِيَاتُ، أَسَابِي الدِّمَاءِ بِهَا

كَأَنَّ أَعْنَاقَهَا أَنْصَابُ تَرْجِيْبٍ

*

*

*

*

عِنْدَ الطَّعَانِ وَتُنْجِي كُلَّ مَكْرُوبٍ
عَنَّا طِعَانٌ، وَضَرْبٌ غَيْرُ تَذْيِيبٍ
صَمَّ الْعَوَامِلِ صَدَقَاتِ الْأَنْبِيْبِ
لَا مُقْرِفِينَ وَلَا سُودِ جَعَابِيْبِ
قَلِيْلَةُ الزَّيْغِ مِنْ سَنٍّ وَتَرْكِيْبِ
أَطْرَافُهُنَّ مَقِيْلٌ لِلْيَعَاسِيْبِ
مَوَاتِحُ الْبَيْرِ أَوْ أَشْطَانُ مَطْلُوبِ
يَشْقَى بِأَرْمَاجِنَا غَيْرِ التَّكَادِيْبِ
كُلُّ شِهَابٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ مَشْبُوبِ
وَكَلِّ ذِي حَسَبٍ فِي النَّاسِ، مَنْسُوبِ
عَزُّ الدَّلِيلِ وَمَأْوَى كُلِّ قُرْضُوبِ

مِمَّا تَقَدِّمُ فِي الْهَيْجَا، إِذَا كُرِهَتْ
هَمَّتْ مَعَدُّ بِنَا هَمًّا فَفَنَهَتْهَا
بِالْمَشْرِفِيِّ وَمَصْفُولِ أَسِنَّتْهَا
يَجْلُو أَسِنَّتَهَا فِتْيَانُ عَادِيَةِ
سَوَى الثَّقَافِ قَنَاهَا فَهِيَ مُحْكَمَةٌ
زُرْقًا أَسِنَّتْهَا حُمْرًا مَثْقَفَةٌ
كَأَنَّهَا بِأَكْفَفِ الْقَوْمِ إِذْ لَحِقُوا
كِلَا الْفَرِيْقَيْنِ: أَعْلَاهُمْ وَأَسْفَلُهُمْ
إِنِّي وَجَدْتُ بَنِي سَعْدِ يُفْضِلُهُمْ
إِلَى تَمِيمِ حُمَاةِ النَّعْرِ نِسْبَتُهُمْ
قَوْمٌ، إِذَا صرَّحْتَ كَحَلٍّ، بِيُوْتُهُمْ

ومن شعره قوله:

خَلَا عَهْدُهُ بَيْنَ الصَّلِيْبِ وَمَطْرِقِ
وَحَادِثُهُ فِي الْعَيْنِ جِدَّةٌ مَهْرَقِ
كَذِي جِدَّةٍ مِنْ وَحْشٍ وَجِرَّةٌ مُرْشِقِ

لِمَنْ طَلَّلَ مِثْلُ الْكِتَابِ الْمُنْمَقِ
أَكْبَبَ عَلَيْهِ كَاتِبٌ بِدَوَاتِهِ
لَأَسْمَاءَ إِذْ تَهَوَّى وَصَالِكَ إِنَّهَا

٨- الأفوه الأودي:

هو صلاءة بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث، من مذحج، ويكنى بأبي ربيعة، ولقبه الأفوه، كان من كبار شعراء الجاهلية القدامى، وأحد سادات

^١ قرضوب: فقير. انظر المصدر السابق (١/ ٦٧٠).

^٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ١١).

قومه وقائدهم في حروبهم، وكانوا يصدرون عن رأيه، ويعدهُ العرب من حكمائهم، وله عدة أخبار حافلة بها كتب الأدب، وكان من حكماء عصره، وكان يقال لأبيه عمرو بن مالك فارس الشوهاء وفي هذا يقول الأفوه؛

أبي فارسُ الشَّوْهَاءِ عمرو بن مالك غداة الوغى إذ مال بالجدِّ عائر

وقد وصلنا القليل من شعره، وهو يدور على الفخر والحكمة، ويمتاز بالانسيابية والطلاوة وعدوبة الإيقاع، ومن أروع شعره في الحكمة؛

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سِرَاةَ لَهُمْ ولا سِرَاةَ إِذَا جَهَّأَهُمْ سَادُوا
تُهْدَى الْأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ ما صَلَحَتْ فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشْرَارِ تَنْقَادُ

ويُروى أنه قال في الحكمة؛

والمَرْءُ ما يَصْلُحُ له لَيْلَةٌ بالسَّعْدِ تُنْسِهَ لَيْالِي النُّحُوسِ
وَالْخَيْرُ لا يَأْتِي ابْتِغَاءً بِهِ وَالشَّرُّ لا يُفْنِيهِ ضَرْحُ الشُّمُوسِ

وقال كذلك؛

إِنَّمَا نَعْمَةٌ قَوْمٍ مُتَعَةٌ وحياةُ المرءِ ثوبٌ مُسْتَعَارُ

٩- سنان بن أبي حارثة المري:

هو سنان بن أبي حارثة بن مرّة، من بني ذبيان بن بغيض أحد فروع غطفان، من قيس عيلان، من مضر، وهو شاعر جاهلي قديم، عُرف بالشرف والفروسية، وله مواقف مشهودة في أيام العرب وحروبهم، وهو والد الشهير هرم بن سنان

^١ انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ترجمة الأفوه (١١٩/١٢)

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢١٧/١).

^٣ انظر: المصدر السابق (٢١٨/١).

^٤ انظر: المصدر السابق (٢١٧/١).

ممدوح زهير، وزوج أخت الحارث بن ظالم، ويقال: إنه من المعمرين! وله شعر قليل يمتاز بالرشاقة وحسن السبك، ومن شعره قوله مفتخرًا، في جَوْ من الحماسة والفروسية، ويتهدد بعض خصومه قائلاً:

قُلْ لِلْمِثْلِمِ وَأَبْنِ هِنْدٍ مَالِكٍ إِنَّ كُنْتَ رَائِمَ عَزْنَا فَاسْتَقْدِمِ
تَلَقَّ الَّذِي لَأَقَى الْعَدُوَّ وَتَضَطَّبِحِ كَأَسَا صَابِئَهَا كَطَعْمِ الْعَقَمِ
نَحْبُو الْكَتِيبَةَ حِينَ يَقْتَرِشُ الْقَنَا طَعْنَا كَالِهَابِ الْحَرِيقِ الْمُضْرَمِ
مَنَا بِشَجْنَهُ وَالذَّنَابِ فَوَارِسِ وَعَتَائِدُ مِثْلُ السَّوَادِ الْمُظْلَمِ
وَبِضْرَعْدِ وَعَلَى السُّدِيرَةِ حَاضِرِ وَبِذِي أَمْرٍ حَرِيمُهُمْ لَمْ يُقْسَمِ

وقال في الحكمة:^٢

إِنْ أُمْسِ لَا أَشْتَكِي نُضْبِي إِلَى أَحَدٍ وَلَسْتُ مُهْتَدِيًا إِلَّا مَعِيَ هَادٍ
فَقَدْ صَبَحْتُ سَوَامَ الْحَيِّ مُشْعَلَةً رَهْوًا تَطَالَعُ مِنْ غَوْرٍ وَأَنْجَادٍ
وَقَدْ يَسْرْتُ إِذَا مَا الشُّؤْلُ رَوَّحَهَا بَرْدُ الْعَشِيِّ بِشَفْقَانٍ وَضَرَادٍ

١٠ - خداش بن زهير:

هو خداش بن زهير بن ربيعة، من بني عامر بن صعصعة، أحد أشهر شعراء قيس عيلان، وقد قدمه أبو عمرو ابن العلاء على لبيد بن ربيعة وجعله في الطبقة الخامسة من الشعراء، وقد قتلت قريش أباه في حرب الفجار، فأكثر من هجوها، ويقال: إنه كان يهجو عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، فلما رآه؛ ندم على هجائه؛ ومما يُمثَّلُ به من شعره:

وَلَنْ أَكُونَ كَمَنْ أَلْقَى رِحَالَتَهُ عَلَى الْحِمَارِ وَخَلَى صَهْوَةَ الْفَرَسِ

^١ انظر: ترجمة سنان في هوامش المفضليات، المفضل الضبي، دار المعارف (ض ٣٤٨)

^٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٤٨-٣٤٩).

^٣ انظر: المصدر السابق (ص ٣٥٠).

^٤ انظر ترجمته في طبقات الشعراء لابن سلام (ص ٦١)

^٥ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/٦٣٣).

ومن شعره يفخر بمكارم الأخلاق!

وإني لتغشى حجرة الدارِ ذمتي
وإني إذا ابنُ العمِّ أصبح غارماً
يكونُ مكانَ البرِّ منِّي ودونهُ
فإنَّ ألوكَ اللَّيلِ مُعطى نصيبهُ
وإني لئنْهاني الأميرُ عن الهوى
وإدركُ نصري المرءَ أبطاً ناصِرهُ
ولو نال منِّي ظنَّةٌ لا أهاجرهُ
وأجعلُ مالي ماله وأوامرهُ
لديّ إذا لاقى البخيلَ معاذرهُ
وأصرمُ أمري واحداً فأهاجرهُ

ومن قوله في هجاء عبد الله بن جدعان قبل أن يندم على ذلك ويرجع عنه؟
أغرَّكَ أنْ كَانَتْ لِبَطْنِكَ عَكَّةُ
وتَرَضَى بَأَن يُهْدَى لَكَ العُفْلُ مصلحاً
أبى لَكُمْ أَنَّ النَّفوسَ أذَانةُ
وَأَنَّ الخُلُومَ لا خُلُومَ وَأَنْتُمْ
وَأنتُكَ مَكْفِيٌّ بِمَكَّةَ طَاعِمُ
وتَحَقَّقْ أَن تَجْنِي عَلَيْكَ العِظَائِمُ
وَأَنَّ القِرَى عن واجبِ الصَّيفِ عَاتِمُ
مِنَ الجَهْلِ طَيْرٌ تَحْتَهَا المَاءُ دائِمُ

ومن قوله في هجاء عبد الله بن جدعان أيضاً:

أَلَمْ تَعَلِّمِي والعِلْمُ يَنْفَعُ أهْلَهُ
بَأَنَّا على سَرَائِنَا غيرُ جُهْلٍ
وَأَنَّ سِرَاةَ الحَيِّ عَمَرُو بَنَ عَامِرٍ
وليس الذي يدري كآخر لا يدري
وَأَنَا على ضَرَائِنَا مِن ذوي الصَّبْرِ
مقارٌ مطاعيمٌ إذا ضُنَّ بالقَطْرِ

١١ - المسيب بن علس:

هو أبو فضة زهير بن علس بن مالك البكري، من ربيعة بن نزار، أحد أبرز الشعراء المقلين في الجاهلية، جعله أبو عبيدة أحد أشعر المقلين الثلاثة؛ بجانب المتلمس وحصين بن الحمام المري، وهو خال الأعشى ميمون بن قيس، وكان

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٣٩٢).

٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/٦٣٢).

٣ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٣٩٤).

الأعشى راويته، وكان المسيب قد امتدح بعض الأعاجم، ثم سمّه أحدهم فقتله،
ولم يعقب، ومن شعره!

تَبَيْتُ الْمُلُوكَ عَلَى عَثِبِهَا وَشَبَّابُنْ إِنْ غَضِبَتْ تُعْتَبُ
وَكَالشَّهْدِ بِالرَّاحِ أَخْلَافُهُمْ وَأَحْلَامُهُمْ مِنْهُمَا أَعْدَبُ

وقال في قصيدة عدت من المنتقيات!

بَكَرْتُ لِتُحْزِنَ عَائِشًا طِفْلُ وَتَبَاعَدَتْ وَتَجَذَّمِ الْوَصْلُ
أَوْكَلَّمَا اخْتَلَفَتْ نَوَى لِفُؤَادِهِ مِنْ أَجْلِهِمْ تَبْلُ
وَإِذَا تُكَلِّمُنَا تَرَى عَجَبًا بَرْدًا تَرْتَرِقُ فَوْقَهُ طَخْلُ
وَلَقَدْ أَرَى ظُغْنًا أُخِيَّهَا تَخْدِي كَأَنَّ زُهَاءَهَا نَخْلُ
فِي الْآلِ يَرْفَعُهَا وَيَخْفِضُهَا رِيحٌ كَأَنَّ مُتَوْنَهُ سَخْلُ
عَقَمًا وَرَقَمًا نُمَّ أَرْدَفُهُ كِلَلٌ عَلَى أَطْرَافِهَا الْخَمْلُ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْفَاعِلِينَ وَفِعْلَهُمْ فَلِذِي الرَّقِيبَةِ مَالِكِ فَضْلُ

وقال في قصيدة بدیعة افتتحها بمقدمة غزلية رائعة، ثم انتقل إلى المديح
ووصف الناقة:

أَرْحَلَتْ مِنْ سَلَمَى بَغَيْرِ مَتَاعِ قَبْلَ الْعُطَاسِ وَرُعْتَهَا بَوْدَاعِ
مِنْ غَيْرِ مَقْلِيَةٍ وَإِنْ جِبَالُهَا لَيْسَتْ بِأَرْمَامٍ وَلَا أَقْطَاعِ
إِذْ تَسْتَبِيكَ بِأَصْلَتِي نَاعِمٍ قَامَتْ لِتَفْتِنَنَّهُ بِغَيْرِ قِنَاعِ
وَمَهَا يَرْفُ كَأَنَّهُ إِذْ ذُقْتَهُ عَانِيَةٌ شُجَّتْ بِمَاءِ يِرَاعِ
أَوْ صَوْبُ غَادِيَةٍ أَدْرَثَهُ الصَّبَا بِبَزِيلِ أَزْهَرَ مُدْمَجٍ بِسِيَاعِ
فَرَأَيْتُ أَنَّ الْحُكْمَ مُجْتَنِبُ الصَّبَا وَصَحَوْتُ بَعْدَ تَشْوُقٍ وَرَوَاعِ

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٧٢).

^٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٤٣٢-٤٣٦).

^٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٦٠-٦٣).

وجاء فيها يمدح سيِّداً من سادات تميم:

وَلَأَنْتَ أَجْوَدُ مِنْ خَلِيحٍ مُفْعَمٍ مَتَّـرَاكِمِ الْإِذْيِ نِي دُقْفَاعِ
وَكَأَنَّ بُلُقَ الْخَيْلِ فِي حَافَاتِهِ يَرْمِي بِهِنَّ دَوَالِي الزَّرْعِ
وَلَأَنْتَ أَشْجَعُ فِي الْأَعَادِي كُلِّهَا مِنْ مُخْدِرِ لَيْثٍ مُعِيدِ وَقَاعِ
يَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ الْكَثِيرِ سِلَاحُهُمْ فَيَبِيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ فِي وَعَوَاعِ
أَنْتَ الْوَفِيُّ فَمَا تُذَمُّ وَبَعْضُهُمْ تُودِي بِذِمَّتِهِ عُقَابُ مَلَاعِ
وَإِذَا رَمَاهُ الْكَاشِحُونَ رَمَاهُمْ بِمَعَابِلِ مَذْرُوبَةٍ وَقِطَاعِ
وَلِذَاكُمْ رَعَمَتْ تَمِيمٌ أَنَّه أَهْلُ السَّمَاحَةِ وَالنَّدَى وَالْبَاعِ

١٢- طفيل الغنوي:

هو طفيل بن كعب - أو بن عوف بن كعب- الغنوي؛ كانت قبيلته من القبائل الضعيفة بين بطون قيس عيلان، لا تقدر أن تدفع عن نفسها الغارات، وكانت مساكنها قرب مكة، ثم ارتحلت إلى نجد، وعاشت حيناً في جوار بني جعفر ابن كلاب أقوى قبائل بني عامر، ثم اختلفوا فارتحلوا شرقاً إلى اليمامة في جوار بني سعد بن عوف، ثم ارتحلوا إلى غيرها، وكان طفيل فارساً شجاعاً يتعهد بتربية الخيل، وهو شاعر جاهلي من الفحول المجيدين، يجيد الحكمة والفخر والحماسة والمديح والغزل ووصف الخيل، وقد سبق إلى عدة معاني أخذها منه غيره من الشعراء، وهو القائل في ذم النساء؛

إِنِّي وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَا يَفَارِقُنِي مِثْلُ النَّعَامَةِ فِي أَوْصَالِهَا طَوْلُ
أَوْ قَارِحٌ فِي الْغُرَابِيَّاتِ ذُو نَسَبٍ وَفِي الْجِرَاءِ مِسْحُ الشَّدِّ إِجْفِيلُ

^١ الوعواع: الجلبة والصياح. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤٠١/٨).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٤٤٤/١).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١٧٦/١).

^٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٤٤٤/١-٤٤٥).

إِنَّ النَّسَاءَ كَأَشْجَارٍ نَبْتُنَ مَعًا مِنْهَا الْمَرَارُ وَبَعْضُ النَّبْتِ مَأْكُولٌ
 إِنَّ النَّسَاءَ مَتَى يُنْهَيْنَ عَنْ خُلُقٍ فَإِنَّهُ وَاجِبٌ لَا بَدَّ مَفْعُولٌ
 لَا يَنْصَرِفْنَ لِرُشْدٍ إِنْ دُعِينَ لَهُ وَهُنَّ بَعْدُ مَلَائِمٌ مَخَاذِيلُ

ويقال: إنه كان من أوقف الناس للخيل، وكان يقال له: المحبّر؛ من حسن شعره، وقال عنه معاوية بن أبي سفيان: دعوا لي طفيلًا، وسائر الشعراء لكم؛ وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل؛ وكان الأصمعي يقول: طفيل عندي في بعض شعره أشعر من امرئ القيس؛ ومن شعره في وصف الخيل:

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مَقَامَةٍ وَلَمْ تَرَ نَارًا تَمَّ حَوْلَ مُجَرَّمٍ
 وهو القائل:

بِخَيْلٍ إِذَا قِيلَ أَرْكَبُوا لَمْ يَقُلْ لَهُمْ عَوَارِيرُ يَخْشَوْنَ الرَّدَى: أَيْنَ نَرْكَبُ
 وَلَكِنْ يُجَابُ الْمُسْتَعِيثُ وَخَيْلُهُمْ عَلَيْهَا حُمَاةٌ بِالْمَنِيَّةِ تَضْرِبُ

١٣ - زيد الخيل:

هو زيد بن مهلهل الطائي، وكُنيتُه أبو مُكنفٍ، كان معروفًا بالجود والكرم، وهو جاهلي أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ مع قومه فأسلم وسمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير، وخرج من عند النبي ﷺ إلى ديار قومه حتى يدعوهم إلى الإسلام، لكنّه ما لبث أن توفّي قبل أن يصل دياره؛ بسبب وباء كان في المدينة، وهو يُعدُّ جاهليًا وإن أدرك الإسلام نظرًا إلى أن وفاته كانت بعد إسلامه بأيّام، وكان له ابنان هما:

^١ انظر: المصدر السابق (١/٤٤٤).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/١٧٦).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٤٤٥).

^٤ انظر: المصدر السابق (١/٤٤٥).

مُكْنَفٌ وَحُرَيْثٌ؛ أَسْلَمَا وَصَحِبَا النَّبِيَّ ﷺ وَشَهِدَا قِتَالَ الرَّدَّةِ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ؛
وَمِنْ شِعْرِ زَيْدٍ يَرُدُّ بِهِ عَلَى كَعْبِ بْنِ زَهِيرٍ فِي فَرَسٍ أَخَذَهَا مِنْهُ فَقَالَ كَعْبٌ:

لَقَدْ نَالَ زَيْدُ الْخَيْلِ مَالَ أَخِيكُمْ فَأَصْبَحَ زَيْدٌ مِنْ بَعْدِ فَقْرٍ قَدْ اغْتَنَى
فَكَانَ رُدُّ زَيْدٍ:

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَاتَمَّ تَبَعْتُونَهُ عَلَى مِحْمَرٍ عَوْدٍ أُثِيبَ وَمَا رَضَى
تَقُولُ أَرَى زَيْدًا وَقَدْ كَانَ مُصْرِمًا أَرَاهُ لَعَمْرِي قَدْ تَمَوَّلَ وَاقْتَنَى
وَذَاكَ عَطَاءُ اللَّهِ فِي كُلِّ غَارَةٍ مُثَمَّرَةٍ يَوْمًا إِذَا قَلَصَ الْخَصَى
فَلَوْلَا زَهِيرٌ أَنْ أُكْدِرَ نِعْمَةً لِقَاذَعْتُ كَعْبًا مَا بَقِيَتْ وَمَا بَقَى

وَمِنْ هِجَائِهِ مَا رُوِيَ عَنْهُ:

فَخَيْبَةُ مَنْ يُغَيِّرُ عَلَيَّ غَنِيَّ وَبَاهِلَةُ بَنِ أَعْصَرَ وَالزَّرِكَابِ
وَأَدَى الْغُنْمِ مَنْ أَدَى قُشَيْرًا وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَسْرَى كِلَابِ

١ أنظر ترجمته: المصدر السابق

٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٧٩).

٣ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٧٩).

ثالثاً: شعراء البلاط

(عدي بن زيد العبادي - لقيط بن يعمر الإيادي - المتلمس)

وَنَعْنِي بشعراء البلاط: الشعراء الذين وفدوا على الملوك واعتادوا القصور وبلاط الملوك، وكثُرَ تواجدهم في بلاد الحضر؛ وهم على قسمين: قسمٌ عاش في الأماكن الحضرية وفي بلاط الملوك؛ مثل عدي بن زيد العبادي، وقسمٌ كان أصلهم من البادية والصحراء ولكن كثُرَتْ وفادتهم على الملوك من أجل المديح، وعاشوا بعض حياتهم أيضاً في البلاط، فظهر على شعرهم أثر الحضارة المدنيَّة؛ مثل الأعشى والنابغة الذبياني.

وبخلاف شعراء الطبيعة البدوية الذين امتاز شعرهم بالجزالة والصلابة والخشونة؛ نجد شعراء البلاط قد امتاز شعرهم بالرقّة والعدوبة والسلاسة؛ كآثرٍ من آثار المدنية وحياة القصور، وإن بقي للطابع البدوي بعض التأثير على شعرهم، وقد برعوا في المديح وافتنُّوا فيه افتناناً رائعاً؛ لاعتيادهم امتداح الملوك، ونجد في شعرهم موضوعات مختلفة كذلك؛ كالحكمة والخمر ووصف الرياض والقصور.

وهؤلاء كانوا القسم الأقل من شعراء العرب إذا ما قُورِنوا بشعراء الطبيعة البدوية، ولكن مع هذا اشتهر منهم عدد من الشعراء المبدعين الذين بلغوا قدرًا رفيعًا بسبب امتداحهم للملوك وأخبارهم معهم. ومن أبرز شعراء البلاط:

١ - عدي بن زيد العبادي:

هو عدي بن زيد بن جماز بن أيُّوب العبادي، أحد بني امرئ القيس بن زيد مناة من تميم، كان من أهل الحيرة، وكانت لأسرته منزلة سامية في بلاط المناذرة

^١ انظر: المصدر السابق (١/٢١٩).

وبلاط الأكاسرة، وكان أيوب هو أول من فارق منهم جزيرة العرب إلى الحيرة؛ لدم أصابه، بينما كان حِماز أول من تعلّم الكتابة بالعربية من بني أيوب، وكتب للنعمان الأكبر، وكان ولده زيد يتولّى لكسرى بعض أعمال البريد، أما عدي ابن زيد فقد وُلد في الحيرة ونشأ بها وتعلّم الفارسية والعربية، وكان يعمل لدى كسرى كاتبًا له وترجمانًا للعربية، وبعثه ذات مرة في بعثة إلى ملك الروم في القسطنطينية، وكان يقَدِّم عدة خدمات للأكاسرة والمناذرة كذلك، ويشكّل حلقة الوصل بينهما، ولمَّا قُتِل عمرو بن هند ملك الحيرة؛ أشار عديُّ على كسرى بتولية النعمان بن المنذر -المعروف بأبي قابوس- على عرش المناذرة، وأخذ يصفه له ويزيّن له تقديمه على سائر إخوته، فتم ذلك، على أنه بعد مدّة من الزمن دبّت الوشاية بينهما ووشى به بعض خصومه لدى النعمان وزيّنوا له أنّ أعمال عديّ تخدم بلاط الأكاسرة أكثر مما تخدم المناذرة، وأطاع النعمان الوشاة، وما لبث أن استقدمه إليه حتى وقع في يده فحبسه، رغم أنه هو من قدّمه عند كسرى حتى ولّاه على عرش الحيرة، وظل في محبسه إلى أن مات فيه، وقيل: بل قتله، وكان مقتله سببًا لسقوط عرش الحيرة بعد ذلك؛ نظرًا إلى علو مكانة عديّ لدى الأكاسرة، ويروى أن النعمان ندم على ما كان منه لاحقًا، وأكرم ولده زيد بن عديّ وأرسله إلى بلاط كسرى حتى يحلّ محل أبيه.

ولعدي بن زيد شعر حسن رقيق سلس عذب، وقد برع في الغزل والنسيب والحكمة ووصف الخمر، وله وشيء من الزهد، في ديباجة حسنة وأسلوب أنيق، وكان عدي نصرانيًّا قرأ الكتب وعاش في الحيرة والمدائن وخالط العجم؛ لذا ثقل لسانه وغلبت عليه لكنة فارسيّة، ودخل على شعره الكثير من الكلمات الأعجميّة، فلذلك لا يُعتدُّ لغويًّا بشعره عند بعض أهل اللغة؛ وضعه محمد ابن سلام الجمعي في الطبقة الرابعة من شعراء الجاهلية مع علقمة بن عبدة وعبيد بن الأبرص وطرفة بن العبد؛ وقال عمرو ابن أبي العلاء: كان عدي ابن

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢١٩).

^٢ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمعي (١/ ١٣٧).

زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم، يعارضها ولا يجري مجاريها؛ يعني أنه
دوهم منزلة؛ كونه عاش بين العجم بينما كانت الغلبة في الشعر لأهل البادية؛
ومن أشهر وأروع ما قاله عدي بن زيد في الحكمة:^٢

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ فُكُلُ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي
وقد جاء في هذه القصيدة:

أَتَعْرِفُ رَسَمَ الدَّارِ مِنْ أُمَّ مَعْبِدِ نَعَمْ وَرَمَاكَ الشَّوْقُ بَعْدَ التَّجَدِّدِ
ظَلَلْتُ بِهَا أَسْقَى الْغَرَامَ كَأَنَّمَا سَقَنْتَنِي النَّدَامَى شَرِبَةً لَمْ تَصْرُدِ
فَيَا لَكَ مِنْ شَوْقٍ وَطَائِفِ عِبْرَةٍ كَسَتْ جَيْبَ سِرْبَالِي إِلَى غَيْرِ مُسْعِدِي
وعاذِلَةٌ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِي فَلَمَّا غَلَّتْ فِي اللُّومِ قُلْتُ لَهَا اقْصِدِي
أَعَاذِلُ إِنَّ اللُّومَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ عَلَيَّ ثِيَّيَ مِنْ غَيْكِ الْمُتَرَدِّدِ
أَعَاذِلُ إِنَّ الْجَهْلَ مِنْ ذِلَّةِ الْفَتَى وَإِنَّ الْمَنِيَا لِلرِّجَالِ بِمِرْصَدِ
أَعَاذِلُ مَا أَدْنَى الرَّشَادِ مِنَ الْفَتَى وَأَبْعَدُهُ مِنْهُ إِذَا لَمْ يُسَدِّدِ

ومنها في الحكمة:

سَتَدْرِكُ مِنْ ذِي الْفُحْشِ حَقَّكَ كُلَّهُ بِحِلْمِكَ فِي رَفِقٍ وَلَمَّا تَشَدَّدِ
وَسَائِسِ أَمْرٍ لَمْ يَسْسُهُ أَبُّ لَهُ وَرَائِمِ أَسْبَابِ الَّذِي لَمْ يُعْوَدِ
وَوَارِثِ مَجْدٍ لَمْ يَنَالُهُ وَمَا جَدِ أَصَابَ بِمَجْدٍ طَارِفٍ غَيْرِ مُتَلَدِ
وَرَاغِي أُمُورٍ جَمَّةٍ لَنْ يَنَالَهَا سَثَّ شِعْبُهُ عَنْهَا شُعُوبٌ لِمَلْحَدِ
وَلَا تُقْصِرُنَّ عَنِ سَعْيٍ مَا قَدَّ وَرَثَتُهُ وَمَا اسْطَعْتَ مِنْ خَيْرٍ لِنَفْسِكَ فَازْدِدِ
وَبِالْعَدْلِ فَا نَطِيقُ إِنْ نَطَقْتَ وَلَا تَلْمُ وَذَا الدَّمِّ فَا ذُمَّمُهُ وَذَا الْحَمْدِ فَا حَمْدِ

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٢٤).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/١٨٥).

^٣ ورد بيت لطرفة بن العبد في معلقته بمعنى ولفظ مشابه.

^٤ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٣٩٠-٣٩٨).

^٥ لم تصرّد: لم تقطع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/٢٤٩).



وقال في الحكمة كذلك، وهي أبيات تدل على سعة قراءته للتاريخ!

أَيْهَا الشَّامِتُ المَعِيرُ بِالذَّهْرِ رِ أُنَّتِ المُبْرَأُ المَوْفُورُ
أَمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثِيقُ مِنَ الأَ (م) يَّامِ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
مَنْ رَأَيْتَ المُنُونَ خَلَدْنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
أَيْنَ كِسْرَى المُلُوكِ أَبُو سَا سَانَ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
وَبُنُو الأَصْفَرِ الكِرَامِ مُلُوكِ الرِّ(م) وَمِ لَمْ يَبِيقَ مِنْهُمُ مَذْكَورُ
وَأَخُو الحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ لَّهُ تُجَبَّى إِلَيْهِ وَالخَابُورُ

وَرُوي أَنَّهُ لَمَّا حَبَسَهُ النُّعْمَانُ؛ قَالَ أَشْعَارًا يَسْتَعِظُفُهُ فِيهَا، وَبِعَثَ بِهَا إِلَيْهِ؛ جَاءَ فِيهَا:

أَلَا مَنْ مَبْلَغُ النُّعْمَانَ عَنِّي عَلَانِيَةً وَمَا يُغْنِي السِّرَارُ
بِأَنَّ المَرَّةَ لَمْ يُخْلَقْ حَدِيدًا وَلَا هَضْبًا تَوَقَّلَهُ الوَبَارُ
وَلَكِنْ كَالشَّهَابِ سَنَاهُ يَخْبُو وَحَادِي المَوْتِ عَنْهُ مَا يَحَارُ
فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِمَّا هَلَكْنَا وَهَلْ بِالمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارُ

ومن غزله الفاحش:

بِنَاتِ كِرَامٍ لَمْ يُرَبَّنَ بَضْرَةً دُمَى شُرْفَاتٍ بِالعَبِيرِ رَوَادِعَا
لَهَوْتُ لِهِنَّ بَيْنَ سِرِّ وَرَشْدَةٍ وَلَمْ آلُ عَنْ عَهْدِ الأَحْبَةِ خَادِعَا
يُسَارِقُنَ مَا الأَسْتَارِ طَرْفًا مُفْتَرًّا وَيُبْرِزُنَ مِنْ فَتَقِ الخُدُورِ الأَصَابِعَا

وكلها نماذج تدل على أن عدديًا كان شاعرا مُجيدًا ذا شعر سلس عذب، وأنه تطرَّق إلى موضوعاتٍ تدل بالفعل على عمقه وبعُدِ أفقه، ولكن أخلت بمنزلته

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢١٩/١).

^٢ انظر: المصدر السابق (٢٢٣/١).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢٢٦/١).

لكنته الفارسية ودخول اللفظ الأعجمي على شعره، وبعده عن البادية ومواطن
الفصاحة، فلا يعدّه أهل الأدب رغم موهبته من مقدمّة الشعراء الفحول.

٢- لقيط بن يعمر الإيادي:

هو لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي، من قبيلة إياد؛ الولد الثالث لنزار بن معد
بعد مضر وربيعة، وهي أول قبيلة من معد خرجت من تهامة فسكنت الحيرة
وبلاد السواد والبحرين، وغلبوا على هذه الأنحاء وكانت بينهم وبين الفرس عدة
وقائع وحروب، وأراد كسرى سابور ذو الأكتاف الإيقاع بهذه القبيلة، فأرسل
إليهم جيشًا كثيفًا في ستين ألفًا، وكان لقيط قد تخلف عنهم في الحيرة، وكان
يتقن الفارسية، وقد اتصل بكسرى فكان من كتّابه ورجاله وتراجمه والمطلعين
على أسراره، فلما علم بنيرة كسرى الإيقاع بقبيلته؛ كتب لهم رسالة سرّيةً محذّرًا
إياهم، قائلاً:

سَلَامٌ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقَيْطٍ إِلَى مَنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادِ
بِأَنَّ اللَّيْثَ كِسْرَى قَدْ أَتَاكُمْ فَلَا يَشْغَلُكُمْ سَوْقُ النَّقَادِ
أَتَاكُمْ مِنْهُمْ سِتُّونَ أَلْفًا يَزُجُّونَ الْكِتَابَ كَالْجَرَادِ
عَلَى حَقِّ أَتِينَاكُمْ فَهَذَا أَوْ أَنْ هَلَاكِكُمْ كَهَلَاكِ عَادِ

وأثر عنه هذه الأبيات البديعة التي خاطب بها قومه يحذّرهم بعدما وقع الخلاف
بينهم، قائلاً:

أَبْلِغْ إِيَادًا وَخَلِيلَ فِي سِرَاتِهِمْ إِيَّيْ أَرَى الرَّأْيَ إِنْ لَمْ أُغْصَ قَدْ نَصَعَا
يَا لَهْفَ نَفْسِي إِنْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ شَتَّى وَأَبْرِمَ أَمْرَ النَّاسِ فَاجْتَمَعَا
أَحْرَارُ فَارِسَ أَبْنَاءَ الْمُلُوكِ لَهُمْ مِنْ الْجُمُوعِ جُمُوعٌ تَزْدَهِي الْقَلْعَا

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١٩٥/١-١٩٦).

^٢ انظر: المصدر السابق (١٩٦/١)؛ والبيت الأول في الحماسة البصرية، ابن أبي الفرج (٨٩/١).

فَهُمْ سِرَاعٌ إِلَيْكُمْ بَيْنَ مُلْتَقِطٍ شَوْكًا وَآخَرَ يَجْنِي الصَّابِ وَالسَّلْعَا
هُوَ الْجَلَاءُ الَّذِي تَبْقَى مَذَلَّتُهُ إِنَّ طَارَ طَائِرُكُمْ يَوْمًا وَقَدْ وَقَعَا
فُؤُومُوا قِيَامًا عَلَى أَمْشَاطِ أَرْجُلِكُمْ ثُمَّ أَفْزَعُوا قَدْ يَنَالُ الْأَمْنَ مَنْ فَزِعَا
وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرْكُكُمْ رَحْبَ الدِّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلْعَا
لَا مُتَرَفًا إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
مَا زَالَ يَحْلُبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعَا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْرِ مَرِيرَتِهِ مُسْتَحْكِمِ السِّنِّ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعَا

وهي قصيدة بديعة ذات نبرة حماسية قوية، ويبدو أن كسرى قد اكتشف كتاب لقيط؛ فسخط عليه وقطع لسانه ثم قتله.
وشعر لقيط إجمالاً يفيض رقّة وعذوبة وانسيابية؛ كونه من شعراء البلاط.

٣- المتلمس

هو جرير بن عبد المسيح -وقيل: ابن عبد العزّي- من بني ضبيعة بن ربيعة، وهو خال الشاعر طرفة بن العبد، كان يتردد على الملوك، ونادّم هو وطرفة ملك الحيرة عمرو بن هند، وقد ذكرنا قصّته مع أخبار طرفة بن العبد حين قاما بهجاء عمرو، وبلغه هجاؤهما فأراد المكر بهما، فدعاهما واستقبلهما مُظهِرًا لهما الحفاوة، ثم أرسلهما مع كتابين لهما إلى عامله على البحرين يأمره فيهما بقتلهما، إلا أن المتلمس شكّ في كتابه فالتمس قارئًا ليقراه، فإذا فيه: "أما بعد؛ فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًّا"، فكدف المتلمس بصحيفته في النهر وحاول تحذير طرفة؛ الذي لم يصدقه وصمّم على المسير إلى البحرين، فأخذ وقُتِلَ بينما فرّ المتلمس إلى الشام، وقال في هذا الموقف:

وَأَلْقَيْتُهَا بِالْبَيْتِ مِنْ جَنْبِ كَافِرٍ كَذَلِكَ أَفْنِي كُلَّ قِطِّ مُضَلِّلٍ

^١ الصَّابُ: هو شجر مُر. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/٥٣٧).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٧٧).

رَضِيَتْ لَهَا بِالْمَاءِ لَمَّا رَأَيْتَهَا يَجُولُ بِهَا التَّيَّارُ فِي كُلِّ جَدْوَلٍ

وهو شاعر مُقَلِّدٌ مجيد، قال أبو عبيدة الراوي: أشعر المقلِّين ثلاثة: المتلمِّس والمسيَّب بن علس وحُصَيْن بن الحمام المُرِّيُّ؛ وجعله ابن سَلَامٍ في الطبقة السابعة من شعراء الجاهلية.

وممَّا قاله يصف ما حلَّ بطرفة ويذكر الكتابين وعدم تصديقه إيَّاه:

أَلَقِ الصَّحِيفَةَ لَا أَبَا لَكَ إِنَّهُ يُخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْحَبَاءِ النَّقْرِيسِ

وشعر المتلمس رقيق سهل المأخذ وفيه ومضات من الحكمة والعظة، نجد من ذلك قصيدته التي يقول فيها:

وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِثْلَ قَاطِعِ كَفِّهِ بِكَفِّ لَهْ أُخْرَى فَأَصْبَحَ أَجْدَمَا
يَدَاهُ أَصَابَتْ هَذِهِ حَتْفَ هَذِهِ فَلَمْ تَجِدِ الْأُخْرَى عَلَيْهَا مُقَدَّمَا
فَلَمَّا اسْتَقَادَ الْكَفَّ بِالْكَفِّ لَمْ يَجِدْ لَهُ دَرْكًا فِي أَنْ تَبَيَّنَا فَأَحْجَمَا

وقال في الحكمة^٢:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرَّةَ رَهْفُ مَنْبِيَّةٍ صَرِيحًا لِعَافِي الطَّيْرِ أَوْ سَوْفَ يُرْمَسُ
فَلَا تُقْبَلَنَّ ضِيمًا مَخَافَةَ مَيْتَةٍ وَمُوتَنَّ بِهَا حُرًّا وَجِلْدُكَ أَمْلَسُ

وممَّا يُتمثل به من شعره في الحكمة قوله^٣:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ حَقِّ غَيْرِ ظَنِّ وَتَقْوَى اللَّهِ مِنْ خَيْرِ الْعِتَادِ
لِحِفْظِ الْمَالِ أَيْسَرُ مِنْ بُغَاةِ وَسَيْرِ فِي الْبِلَادِ بِغَيْرِ زَادِ
وَإِصْلَاحِ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ

^١ انظر: المصدر السابق (١/١٧٧).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/١٧٨).

^٣ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص ٤٦٦).

^٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٨١).



ومن أشهر قصائده سينيةٌ بدیعةٌ عدت من المنتقيات؛ ومن أبياتها:

كَمْ دُونَ مِيَّةٍ مِنْ مُسْتَعْمَلٍ قَذِفٍ وَمِنْ فَلَاحٍ بِهَا تُسْتَوَدَعُ الْعَيْسُ
وَمِنْ ذُرَى عَلَمٍ طَامٍ مَنَاهِلُهُ كَأَنَّهُ فِي حَبَابِ الْمَاءِ مَغْمُوسُ
جَاوَزْتُهُ بِأَمْوُونِ ذَاتِ مُعْجَمَةٍ تَهْوِي بِكُلِّهَا وَالرَّأْسُ مَعْمُوسُ
يَا آلَ بَكْرِ أَلَا لِلَّهِ أُمَّكُمْ طَالَ النَّوَاءُ وَتَوْبُ الْعَجْزِ مَلْبُوسُ
أَغْنَيْتُ شَاتِي فَأَعْنُوا الْيَوْمَ تَيْسَكُمْ وَاسْتَحْمِقُوا فِي مِرَاسِ الْحَرْبِ أَوْ كَيْسُوا

وذات مرة أخذ يعاتب خاله الحارث بن التوأم اليشكري؛ إذ سأله عمرو بن هند يوماً عنه، فادعى نسبته إليهم؛ حيث إن الملتمس قد أقام بين أخواله زمناً حتى كادوا يغلبون على نسبه، فقال الملتمس هذه القصيدة يعتب على خاله ويذكّره بانتمائه إلى قومه بني أبيه:

يُعِيزُنِي أُمِّي رِجَالٌ لَا أَرَى أَخَا كَرَمٍ إِلَّا بِأَنْ يَتَكْرَمَا
وَمَنْ كَانَ ذَا عَرَضٍ كَرِيمٍ فَلَمْ يَصُنْ لَهُ حَسَبًا كَانَ اللَّئِيمَ الْمُذْمَمَا
وَهَلْ لِي أُمَّ غَيْرَهَا إِنْ تَرَكَتْهَا أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ أَكُونَ لَهَا ابْنَمَا
أَحَارِثُ إِنَّا لَوْ تَسَاطَ دِمَاؤُنَا تَزِيلَنَّ حَتَّى لَا يَمَسَّ دَمٌ دَمَا
أَمُنْتَقِلًا مِنْ آلِ بُهْتَةَ خِلْتَنِي أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَإِنْ كُنْتُ أَيْمَمَا
أَلَا إِنِّي مِنْهُمْ وَعَرِضِي عَرِضَهُمْ كَذِي الْأَنْفِ يَحْمِي أَنْفَهُ أَنْ يُصَلَّمَا

^١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٤٤٣-٤٤٩).

^٢ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ٢٤٤-٢٤٥).

رابعًا: الشعراء الصعاليك

(تأبَّط شرًّا- الشنفرى- عروة بن الورد- السُّلَيْك بن السُّلْكَة)

نعني بالشعراء الصعاليك: الذين طردتهم قبائلهم أو تبرأت منهم أهاليهم فغادروهم وعاشوا في الصحراء فتصعلكوا فيها؛ مثلما حدث مع امرئ القيس في شطرٍ من حياته إن صحَّت بعض الروايات التي نُقلت عنه، وقد عاشوا على الغارات وقطع الطرق، وكانوا يتعرضون للقوافل التجارية ويترصدون الطرق والمناطق الخصبة للإغارة عليها، وأقاموا على السلب والنهب.

وقد اختلفت الأسباب لتصعلك هؤلاء؛ فمنهم من طردتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم؛ كحاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبي الطحان القيسي، ومنهم من كانوا لأمهات حبشيات فنبتهم أبائهم لعار ولادتهم؛ كالسُّلَيْك بن السُّلْكَة والشنفرى وتأبَّط شرًّا، ومنهم من تصعلك اختيارًا وحرفةً؛ كعروة بن الورد العبسي، وربما تصعلكت قبيلة بأكملها فعاشت على الغارات؛ كهذيل وفهم؛ ومن هذيل أبو كبير الهذلي.

وحياة الصحراء تختلف عن حياة البادية، صحيح أنَّ الطابع الصحراوي لم يستثن البادية كذلك؛ ولكن على الأقل فالبادية فيها القليل مما تقدّمه من الماء والطعام والكلاّ والمرعى، وفيها من الحياة ما قد يسمح بإقامة مجتمعات بشرية بشكل بدائي، أما الصحراء فهي خالية تمامًا من مظاهر الحياة ولا يوجد بها ما تقدّمه من ماء وكلاّ، فلا يحتمل العيش فيها إلا رجلٌ صلبٌ يتنقّل من هنا إلى هناك بحثًا عن المياه والطعام، وربما دفعه هذا إلى الإغارة على القوافل والاعتداء على سكان المدن والبدو، والسرقة والسطو والقتل من أجل الحصول على بعض طعامهم.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٦٧).

وشعرهم لا يخرج من سمات الطبيعة البدوية من حيث الصلابة والجزالة والقوة والحماسة، ولكن خروجهم من البادية إلى الصحراء وما فيها من قسوة تفوق قسوة حياة البدو؛ قد أضفى مزيداً من الصلابة على شعرهم، فنلاحظ فيه ملامح الجزالة والقوة والفروسية والواقعية؛ سواء في ذلك أساليبهم وخشونة ألفاظهم ومعانيهم، فضلاً عن أنهم كان لديهم غضب على قبائلهم التي طردتهم، ممّا زرع فيهم إحساس الثأر والرغبة في الانتقام، ويمتاز شعرهم كذلك بالحماسة ويكثر فيه وصف الصحراء، ويُجسّد إلى حد بعيد ما اتصف بها هؤلاء من شجاعة وصبر وجلد وبأس، ويتردد في صيحات شعرهم الفقر والجوع والثأر ووصف السلاح والغارات، وكانت تُضرب الأمثال بسرعو عدوهم فيقال: "أعدى من السُّليك"، و"أعدى من الشنفرى"، ولا يخلو شعر بعضهم من بعض الفضائل، وأبرز من تصعلك من شعراء الجاهلية ممّن وصلت إلينا بعض أخبارهم:

١- تَأَبَّطُ شَرًّا:

هو ثابت بن عمسل -أو ثابت بن جابر- الفهمي، من بني فهيم؛ إحدى القبائل المضرية المتفرّعة من مدركة بن إلياس، وكانت أمه حبشية سوداء فورث عنها سوادها، غلب عليه لقب تأبّط شرًّا، ورُويت حول لقبه هذا عدة روايات مختلفة؛ من بينها أنه وضع تحب إبطه سكيناً ثم خرج، فسئلت عنه أمه فقالت: لا أدري، إنه تأبّط شرًّا وخرج؛ وقيل: بل لأنه تأبّط جراباً مليئاً بالأفاعي، فاشتهر هذا لقباً له، ويبدو أن أباه تُوفّي وهو صغير، فتصعلك؛ على شاكلة زوج أمه أبي كبير الهذلي، فعاش على الغارات والسلب والنهب إلى أن قُتل نحو سنة ٥٣٠م، في إحدى بلاد هذيل.

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٧٥).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٣٠١).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٣٧٧).

وشعره فخمٌ جزل اللفظ، تتراءى فيه روح الفخر والحماسة ووصف الغارات. ويُروى أن نفرًا من قبيلة بجيلة قد ترصّدوه وكمنوا له، لكنه احتال ونجح في الفرار وأفلت منهم عدوًّا على الأقدام، وكان معه الشنفرى الأزدي وعمرو ابن براق، وكانوا جميعًا من العدّائين الذين إذا ركضوا على أرجلهم؛ لم تدرّكهم الخيل، فقال تأبّط شرًّا مفتخرًا بتلك الواقعة ويصفها وصفًا حماسيًا!

يا عيدُ ما لك من شوقٍ وإبراقٍ
يسري على الأين والحياتٍ مُحْتَفِيًا
إني إذا خَلْتُ ضَنْتَ بناتِلِها
نَجَوْتُ مِنْها نَجائِي مِنْ بجيلَةَ إِذْ
لَيْلَةَ صاحوا وأغرّوا بي سِراعَهُمْ
كأنّما حَنَحُوا حُصًّا قَوادِمُهُ
لا شيءٍ أَسْرَعُ مِنِّي لَيْسَ ذا عُذْرٍ
حَتّى نَجَوْتُ ولَمّا يَنْزِعُوا سَلْبِي
ولا أقولُ إِذا ما خَلْتُ صَرَمَتِ
وفِها أيضًا يقول:

عائِلَتِي إِنَّ بَعْضَ اللّومِ مَعَنَفَةٌ
إني زَعِيمٌ لئن لَمْ تَنزُكِي عِذلي
أَنْ يَسْأَلَ القَوْمُ عَنّي أَهلَ مَعْرِفَةٍ
وهَلْ مَتاعٌ وَإِنْ أَبْقَيْتُهُ باقٍ
أَنْ يَسْأَلَ الحَيُّ عَنّي أَهلَ آفاقٍ
فَلَا يُخَبِّرُهُمْ عَنّ ثابِتٍ لاقٍ

ولا يخلو شعره من بعض الحكمة النابعة من حماسته؛ إذ يقول مخاطبًا بني لحيان -فرع من هذيل- وقد أصاب منهم فطلبوه:

إِذا المَرءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدَّ جَدَّ جَدُّهُ
أَضاعَ وَقاسَى أَمْرَهُ وهو مُدْبِرٌ

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٧-٣١).

^٢ حُصًّا قَوادِمُهُ؛ أي: قوادمه سريعة العدو. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٧/١٣)، شت وطَبَّاق: نوعان

من أنواع الشجر. انظر: لسان العرب. (٢/١٥٩).

^٣ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص ٥٧).

وَرُوي أَنه خَطب امرأَة أَرادت نكاحه ووعدته، فلمَّا جاءها وجدها قد رجعت عن وعدها وتغيّرت، فقال لها: ما غيّرَكَ؟ فقالت: والله إن الحسب لكريم، ولكن قومي قالوا: ما تصنعين برجل يُقتل عند أحد اليومين وتبقيين بلا زوج؟! فانصرف عنها قائلاً:

وقالوا لها لا تنحيه فإنه
 فلم تر من رأي فتيلاً وحاذرت
 قليل غرار النوم أكبر همّه
 يماصعهُ كلُّ يشجع قومه
 قليل ادخار الزاد إلا تعلقة
 يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه
 على غرة أو جهلة من مكانس
 ومن يُغر بالأعداء لا بد أنه
 لأول نصل أن يلقى مجعاً
 تأيمها من لابس الليل أروعا
 دم الثأر أو يلقى كمياً مسفحاً
 وما ضربه هام العدى ليشجعاً
 فقد نشر الشرسوف والنصق المعاً
 ويصبح لا يحمي لها الدهر مرتعاً
 أطل نزال الموت حتى تسعسا
 سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعاً

٢- الشنفرى الأزدي:

هو من بني سلامان إحدى بطون الأزد، وقد اختلّف في اسمه فقيل: إن هذا هو اسمه؛ وقيل: بل هو لقبه، واسمه ثابت بن أوس الأزدي؛ ولُقّب بالشنفرى؛ أي: غليظ الشفاه؛ وأمه حبشية، فهو من أغربة العرب، وهو رفيق تأبط شراً، وقيل: بل هو ابن أخته؛ وهو من علّمة الصعلكة، واضطربت الروايات بشأنه؛ منها أنه وقع في أسر بني شبابة بن فهم فلم يزل عندهم حتى أسر بنو سلامان رجلاً منهم، ففدته بنو شبابة بالشنفرى، فأقام في بني سلامان زمناً، ويُقال: إنه أنه لما عرف

١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٤٩-٣٥٣).

٢ يماصعه: يضاربه بالسيف. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/٣٣٧).

٣ الشراسيف: جمع الشرسوف؛ وهو رأس الضلع فيما يلي البطن. انظر المصدر السابق (٩/١٧٥).

٤ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/١٦٠).

حقيقة نسبه أقسم أن يقتل مئةً من بني سلامان لاستعبادهم إياه، وبالفعل أخذ يُغير عليهم مع بني فهمٍ أحياناً، وأحياناً منفرداً، ويصيب منهم ويقتل، حتى قتل فيما يقال تسعة وتسعين شخصاً، من بينهم قاتل أبيه، فلما ضجر منه قومه؛ كمنوا له حتى قبضوا عليه فقتله أحدهم؛ ويُروى أنّ رجلاً مرَّ على جثته فعثر بجمجمته فانطلقت منها شظيَّة أصابت رجلاً آخر فقتلته، فأتَمَّ بذلك المئة، وهي من الروايات الطريفة التي اختلط فيها الواقع بالأسطورة، وربما كانت تلك القصة أو ما بعض ورد فيها من المبالغة!

وشعره مثل شعر تأبَّط شراً؛ يضح حماسة وفروسية واعتزازاً بنفسه، ويصف في شعره وقائعه وغاراته وأحداث فتكه وعموم حياته وأحواله وما فيها من مشقَّة وصبر وعنفوان، في إطار فخم ولفظٍ جزل وأسلوب قويٍّ وعاطفة فطرية صادقة، وله بعض من الغزل، ومن أشهر ما رُوِيَ له تائيَّة بديعة يصف فيها بعض غاراته، بدأها بمقدمة غزلية عفيفة، ثم انتقل يصف غاراته على بني سلامان وما أصاب ومَن قتل منهم ثأراً وانتصافاً له، ومن أبياتها:

وَمَا وَدَّعْتُ جِيرَانَهَا إِذْ تَوَلَّيْتُ	أَلَا أُمُّ عَمْرٍو أَجْمَعَتْ فَاسْتَقَلَّتِ
وَكَاثَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ أَظَلَّتِ	وَقَدْ سَبَقْنَا أُمُّ عَمْرٍو بِأَمْرِهَا
فَقَضَّصْتُ أُمُورًا فَاسْتَقَلَّتْ فَوَلَّيْتُ	بِعَيْنِي مَا أَمَسَتْ فَبَاتَتْ فَأَصْبَحْتُ
طَمِعْتُ فَهَبَهَا نِعْمَةً الْعَيْشِ زَلَّتِ	فَوَا كَبِدَا عَلَى أُمَيْمَةَ بَعْدَمَا
إِذَا دُكِرْتُ وَلَا بِذَاتِ تَقَلُّتِ	فِيَا جَارَتِي وَأَنْتِ غَيْرُ مُلِيمَةٍ
إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلَقَّتِ	لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي لَا سَقُوطاً قِنَاعُهَا
لِجَارَتِهَا إِذَا الْهَدْيَةُ قَالَتْ	تَبِيْتُ بُعِيدَ النَّوْمِ تُهْدِي غُبُوقَهَا
إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالْمَدْمَمَةِ حُلَّتِ	تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتَهَا

^١ انظر ترجمة الشنفرى: في الأغاني للأصفهاني، طبعة دار صادر، (١٢٨/٢١)، هوامش المفضليات، المفضل الضبي، دار المعارف، (ص١٠٨)، تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري (١٦٠/١)، تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (٣٧٩/١ - ٣٨٠).

^٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص١٠٨ - ١١٢).

عَلَى أَمِّهَا وَإِنْ تُكَلِّمَكَ تَبَلَّتْ
إِذَا ذُكِرَ النَّسْوَانُ عَفَّتْ وَجَلَّتْ
*

وَبَيْنَ الْجَبَا هَيْهَاتَ أَنْشَأْتُ سُرْبَتِي
لِأَنْكَبِي قَوْمًا أَوْ أَصَادِفَ حُمَّتِي
يُقَرِّبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَعُذُوتِي
إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْتَحَتِ وَأَقَالَتِ
وَنَحْنُ جِيَاعٌ أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ
*

جِمَارَ مَنَى وَسَطَ الْحَجِيجِ الْمُصَوِّتِ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأَزَلَّتِ
وَأَصْبَحْتُ فِي قَوْمٍ وَلَيْسُوا بِمُنِيَّتِي
وَعَوْفٍ لَدَى الْمَعْدَى أَوْانٍ اسْتَهَلَّتِ

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نَسِيًّا تَقْصُهُ
أُمِيمَةٌ لَا يُخْزِي نَثَاهَا حَلِيلُهَا
*

خَرَجْنَا مِنَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنَ مِشْعَلٍ
أُمِّشِي عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَنْ تَضُرَّنِي
أُمِّشِي عَلَى أَيْنِ الْغَزَاةِ وَبُعْدِهَا
وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقْوَتَهُمْ
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعِيَالُ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ
*

قَتَلْنَا قَتِيلًا مُهْدِيًا بِمُلَبَّدٍ
جَزَيْنَا سَلَامَانَ بَنَ مُفْرِجٍ قَرَضَهَا
وَهُنَّى بِي قَوْمٌ وَمَا إِنْ هَنَأْتَهُمْ
شَفِينَا بِعَبْدِ اللَّهِ بَعْضَ غَلِينَا

ومما رُوِيَ له لامية رائعة عُرِفَتْ باسم لامية العرب، فيها ملامح عن حياته وفروسيته، وفيها جانبٌ من الحكمة ووصفٌ لبعض غاراته، ولكنها لم تسلم مع الأسف من عبث الرواة وانتحالهم، وقيل: قد نحلها خلف الأحمر أو أضاف لها أبياتًا صاغها على لسانه، فهي -على شهرتها- غير ثابتة له، فنكتفي بذكر مقدماتها:

فإِثِّي إِلَى أَهْلِ سِوَاكُمْ لِأَمِيلِ
وَرُزْمَتْ لَطِيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلِ
وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلَى مَتَعَزَّلِ

أَقِيمُوا بَنِي عَمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ
فَقَدْ حُمَّتِ الْحَاجَاثُ وَاللَّيْلُ مُقَمَّرٌ
وَفِي الْأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَدَى

١ سريقي: مذهبي. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤٦٢/١).

٢ أم عيال: أراد بأم عيال تأبط شرًا.

٣ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٢٨٧).

٣- عروة بن الورد:

هو عروة بن الورد بن زيد بن ناشب العبسي، كان أبوه له دورٌ في حرب داحس والغبراء، وأُمُّه من نَهْدٍ إحدى عشائر قضاة، وكان يُسَمَّى بعروة الصعاليك؛ لجمعه إياهم إذا أخفقوا في غزواتهم، وفي ذلك يقول:

لَحَى اللهُ صُـلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَافِي المَشَاشِ آفَا كُلِّ مَجْزَرِ
يَعْدُ الغِنَى مِنْ دهرِهِ كُلِّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقِ مُيسَّرِ

وقد تصعلك عروة على نحو ما فعل تأبَّط شرًّا والشنفرى، ولكنه كان مختلفًا عنهما؛ إذ إن قبيلته لم تَقُم بطرده؛ بل هو من اختار سبيله بنفسه، فتحوَّل بصعلتكه إلى نائرٍ على الأعداء، فكان يُغَيِّر لِيطْعِمِ الفقير، ويغزو لكي يُعَيِّن المستضعفين، وكان يعيش لغيره أكثر ممَّا يعيش لنفسه؛ بل إنه لم يكن يُغَيِّر على من عُرِف بالكرم والمروءة؛ بل يتخَيَّر مَنْ عُرِف بالبخل والشحِّ، وكان يمدُّ يده للمحتاج، فلم تخلعه قبيلته؛ بل ظل ينزل فيها مرموقًا، وهذا يعني أنه كان صعلوكًا شريفًا شهيمًا جوادًا، لم يتخلَّ عن المروءة ومكارم الأخلاق، ولم يكن يغزو لمجرَّد السلب والنَّهب؛ بل لإعانة المستضعفين وإغاثة ذوي الحاجات، وكان يعين فقراء قبيلته إذا أصابهم الجوع، فأعجب به عدد من معاصريه ومن جاء بعدهم، يقول الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان: ما يسرُّني أن أحدًا من العرب ولدني إلا عروة بن الورد؛ لقوله:

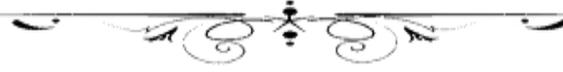
إِنِّي امرؤٌ عَافِي إِنَائِي شِرْكَةً وَأَنْتَ امرؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدٌ
أَقْسَمُ جَسْمِي فِي جَسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قِرَاحَ المَاءِ وَالمَاءِ بَارِدٌ
أَتَهَزُّ مِنْ مَنِي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى بِجَسْمِي مَسَّ الحَقِّ وَالحَقُّ جَاهِدُ

^١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون، طبعة دار الكتب العلمية، (ص ٢٢٣)

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦٦٥).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف (ص ٣٨٣-٦٨٤).

^٤ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦٦٥-٦٦٦).



وقال فيه: مَنْ قال: إِنَّ حاتمًا أَسْمَحَ الناسِ؛ فقد ظلم عروة بن الورد.
ويُروى أنه أصاب في بعض غاراته امرأة من كنانة؛ اسمها سلى وكنيتها أم عمرو، فاتخذها لنفسه، وأولدها، وحجَّ بها، ولقيته قومها وسألوه الفدية قائلين: فإدنا صاحبتنا فإننا نكره أن تكون سبيَّةً عندك؛ قال: على شريطة؛ قالوا: وما هي؟ قال: على أن نخيرها بعد الفداء فإن اختارت أهلها؛ أقامت فيهم، وإن اختارتني؛ خرجتُ بها، فقبلوا منه وفادوا بها، وكان يظن أنها لن تختار عليه، فلمَّا حُيرت اختارت قومها، فأوفى بعهده وتركها، وقد ندم على تفریطه فيها فقال!

وَمَنْ لَكَ بِالْتَدْبِيرِ فِي الْأُمُورِ
عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَسَكِ الصُّدُورِ
عَلَى شَيْءٍ وَيَكْرَهُهُ ضَمِيرِي

وفي رواية أخرى أنهم التقوا به وأغروه بالخمير حتى سكر، وطلبوا أن يُخلي سبيلها، ففعل، وكانت كارهةً له؛ لكثرة غيبته عنها في الغارات، فلمَّا أفاق؛ ندم على تفریطه!

وشعر عروة قوي الأسلوب، رائع السبك، يدور حول الفخر والحماسة ووصف الغارات والشجاعة وعدم مهابة الموت، ويحمل شعره بعضًا من ملامح الكرم ومكارم الأخلاق، ولغته جزلة بشكل عامٍ ولكنها أرقُّ وأقلُّ خشونة من لغة أقرانه؛ وهو ما يتَّفَق مع شخصيته وعاطفته، تُوفِّي أواخر القرن السادس الميلادي، ومما انتهى إلينا من شعره:

أَقْلِي عَلَيَّ اللَّوْمَ يَا بِنْتَ مُنْذِرِ
ذَرِينِي وَنَفْسِي أُمَّ حَسَّانِ إِنَّنِي
ذَرِينِي أَطُوفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي
فَإِنْ فَازَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَّةِ لَمْ أَكُنْ
وَنَامِي وَإِنْ لَمْ تَشْتَهِي النَّوْمَ فَاسْهَرِي
بِهَا قَبْلَ أَنْ لَا أَمْلِكَ الْبَيْعَ مُشْتَرِ
أَخْلِيكَ أَوْ أُغْنِيكَ عَن سُوءِ مَحْضِرِ
جَزُوعًا وَهَلْ عَن ذَاكَ مِنْ مُتَأَخَّرِ

^١ انظر: المصدر السابق (٦٦٧/٢).

^٢ منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون، طبعة دار الكتب العلمية، (ص ٢٢٣)

^٣ انظر: جبهة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٤٥٠-٤٥٧).

لَكُمْ خَلْفَ أَدْبَارِ الْبُيُوتِ وَمَنْظَرِ
ضُبُوءِا بِرَجُلٍ تَارَةً وَبِمُنْسِرِ
أَرَاكَ عَلَى أَقْتَادِ صَرْمَاءِ مُذَكِرِ
مَخُوفٍ زِدَاهَا أَنْ تُصِيبَكَ فَاحْذَرِ
وَمِنْ كُلِّ سَوْدَاءِ الْمَحَاجِرِ تَعْتَرِي

وَإِنْ فَازَ سَهْمِي كَفَّكُمْ عَن مَقَاعِدِ
تَقُولُ لَكَ الْوَيْلَاتُ هَلْ أَنْتَ تَارِكُ
وَمُسْتَسْبِتٌ فِي مَالِكَ الْعَامِ إِنَّنِي
فَجُوعٌ لِأَهْلِ الصَّالِحِينَ مَزَلَّةٌ
أَبَى الْخَفْضَ مَنْ يَغْشَاكَ مِنْ ذِي قَرَابَةِ

وَرُوي لَهُ قَوْلُهُ!

لَهُ بِطَنَابِنَا طُنْبٌ مُصِيبٌ
وَأَكْثَرُ حَقِّهِ مَا لَا يُفُوتُ
وَقَدْ نَامَ الْعُيُونُ لَهَا كَتِيبٌ
وَلَيْسَ لِجَارِ مَنْزِلِنَا حَمِيبٌ
يَدًا جَاءَتْ تُغَيِّرُ لَهَا هَتِيبٌ

أَفِي نَابٍ مَنَحْنَاهَا فَقِيرًا
وَفُضْلَةَ سَمْنَةٍ ذَهَبَتْ إِلَيْهِ
تَبِيبٌ عَلَى الْمَرَاغِقِ أَمْ وَهَبِ
فَإِنَّ حَمِيبَتَنَا أَبَدًا حَرَامٌ
وَرُبَّتْ شِبْعَةٌ آتَرَتْ فِيهَا

وَقَالَ؟

فَيَشِمَّتْ أَعْدَائِي وَيَسْأَمْنِي أَهْلِي
يُطِيفُ بِي الْوِلْدَانُ أَهْدُجُ كَالزَّلِ
فَإِنَّ مَنَايَا النَّفْسِ خَيْرٌ مِنَ الْهَزْلِ
وَلَا إِرْبَتِي حَتَّى تَرَوْا مَنْبِتَ الْأَثْلِ
بِلَادِ الْأَعَادِي لَا أَمِيرٌ وَلَا أَحْلِي
هَلَكْتَ وَهَلْ يُلْحِي عَلَيَّ بُغْيَةَ مِثْلِي

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ أَدَبَّ عَلَى الْعَصَا
رَهْيَنَةَ قَعْرِ النَّيْتِ كُلِّ عَشِيَّةِ
أَقِيمُوا بَنِي لُبْنَى صُدُورَ مَطِيكِمِ
فَإِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا كُلَّ هِمَّتِي
فَلَوْ كُنْتُ مَثَلُوجَ الْفُؤَادِ إِذَا بَدَتْ
رَجَعْتُ عَلَى جِرْسِينَ إِذْ قَالَ مَالِكٌ

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ١٠٦).

٢ الكتيبت: البخل. لسان العرب، ابن منظور (٢/٧٧).

٣ الحميت: وعاء السم. انظر المصدر السابق (٢/٢٥-٢٦).

٤ هتيت: صوت. انظر المصدر السابق (٢/١٠٣).

٥ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ١٠٦).

وقال في لغة رقيقة يبكي فراق امرأته أم عمرو التي ذكرنا قصتها قبل سطور
سابقة!

أَلَمْ تَعْرِفْ مَنَازِلَ أُمِّ عَمْرٍو
وَقَفْتُ بِهَا فِافَاضِ الدَّمْعِ مَنِي
بِمُنْعَرَجِ النُّوَاصِفِ مِنْ أَبَانِ
كَمُنْحَدِرٍ مِنَ النَّظْمِ الْجَمَانِ
وَجِدَّةٌ وَجْهَهُ مَرُّ الزَّمَانِ

٤- السُّلَيْكُ بْنُ السُّلُكَةِ السَّعْدِي:

هو سُلَيْكُ بْنُ عُمَيْرٍ -أو عمرو- بن يَثْرِيٍّ، من بني زيد مناة، من تميم، نُسِبَ إلى
أَمِّهِ سُلُكَةَ، وكانت سوداء، ويُعد أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم،
ويُروى أنه كان أدلَّ الناس بالأرض، وأجودَهم عدوًّا فلا تدركه الخيل، وكان ذا
بأس ونجدة، له أخبار عديدة في الصعلكة، وتُروى عنه غارات شتَّى إلى أن قُتل
في بعضها، ويقال له: سُلَيْكُ المِقَانِبِ؛ والمِقَانِبِ جمع مِقْنَب، وتعني جماعة من
الخيال المختارة.

وقد قال فيه عمرو بن معدي كرب:

وَسَيْرِي حَتَّى قَالَ فِي الْقَوْمِ قَائِلٌ
فَرُغْتَ بِهِ كَاللَّيْثِ يَلْحَظُ قَائِمًا
عَلَيْكَ أبا ثورٍ سُلَيْكُ المِقَانِبِ
إِذَا رِيحَ مِنْهُ جَانِبٌ بَعْدَ جَانِبِ
وَأَشْبَاحُ عَادِي طَوِيلِ الرُّوَاجِبِ
لَهُ هَامَةٌ مَا تَأْكُلُ البَيْضَ أُمَّهَا

وقد انتهى إلينا القليل من شعره، وهو حماسي جزل، يصف فيه بعض غاراته،
ومما قال:

يُكَذِّبُنِي العِمْرَانِ عَمْرُو بْنُ جُنْدَبِ
تَكَلُّتُكُمْ إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهَا
وَعَمْرُو بْنُ سَعْدِ والمُكْدَبِ أَكْذَبُ
كَرَادِيْسَ يُهْدِيهَا إِلَى الحَيِّ كَوْكَبِ

^١ انظر: المصدر السابق (ص ١٠٧).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٣٥٦).

^٣ انظر: المصدر السابق (١/٣٥٥).

كراديس فيها الحوفزانِ وحواله فوارس همام متى يدع يركبوا

ومما يروى من شعره يخاطب رفيقين له في إحدى جولاته!

يا صاحبي ألا يحي بالوادي إلا عبيدٌ وأم بين أدواد
أتظنرنا قليلاً ريت غفلتهم أم تعدوان فإن الريح للعادي

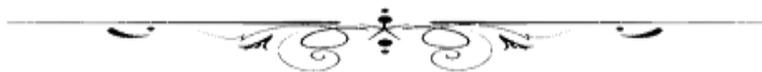
ويقال: إنه كان لا يُغير على مُضر؛ بل يُغير على عرب اليمن، فإن لم يُمكن؛ أغار على ربيعة؛ وكان من أشد الرجال فتكاً وأشعرهم وكان أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكتها، ويروى أنه كان إذا جرى؛ لا تعلق به الخيل، وأنه كان يقول: اللهم إنك تُرى ما شئت لما شئت، اللهم إني لو كنت ضعيفاً؛ كنت عبداً. ولو كنت امرأة؛ كنت أمةً، اللهم أعوذ بك من الخيبة، فأما الهيبة فلا هيبة! وظل السُّليك على تصعلكه وغاراته، حتى مرّ في بعض غاراته على بيت من خثعم أهله خُوف، فرأى به امرأة بضّة شابة، فتسمّتها ومضى، فأخبرت القوم، فلحق به أنس بن مُدرك الخثعمي فقتله، وطُلبت منه ديتة، فأبى وقال:

إني وقتلي سلياً يوم أعقله كالثور يضرب لماً عافت البقر

^١ انظر: المصدر السابق (١/٣٥٤).

^٢ انظر: الأغاني، الأصبهاني (٢٠/٤٦٤).

^٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٣٥٦).



خامسًا: الشعراء العشاق

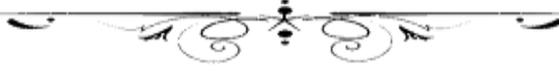
(المرقش الأكبر - المرقش الأصغر)

كان الحب شائعًا في الجاهلية، يعزّزه ما ذكرناه من قبل من انتشار أسباب الغزل في العصر الجاهلي، وما كان يحدث من الفراق بين المحبين نتيجة حياة الترحال، وشيوع البكاء على الأطلال كتقليد أدبي للقصيدة الجاهلية، وكثرة ذكر الحب في عموم الشعر الجاهلي، ونعني بالشعراء العشاق أو المتيمين هؤلاء الذين عرفوا بحبهم وهيامهم لحبيباتهم ورؤيت عنهم في العشق عدّة أخبار، ولكل من هؤلاء صاحبتة التي هام وتعلّق بها، ورغم أنّ الحبّ إحساسٌ عامٌّ مرّ على معظم شعراء الجاهلية، ويصعب أن نجد شاعرًا في الجاهلية لم يشبّب أو ليس له خبر في العشق؛ إذ اشتهر فيه عدد غفير من الشعراء؛ كأمري القيس وعنترة والنابغة الذبياني؛ فإنّنا سنختص في هذا الباب بمن اشتهروا بشكل أوسع في الحب والهيام بشكل خاص؛ مثل المرقش الأكبر وابن أخيه المرقش الأصغر؛ وهو عم طرفة بن العبد.

ومن الشعراء الذين تيمّمهم العشق: مالك بن الصمامة، ومنظور بن زيان الفزاري، ومسعود بن خراشة التميمي، ومسافر بن أبي عمرو القرشي الذي كان أحبّ الصحابية هند بن عتبة وخطبها فرفضته وتزوّجت أبا سفيان، فاعتل ومات، ومن الشعراء الذين قتلهم العشق كذلك عبد الله بن عجلان النهدي الذي كان قد تزوّج امرأة تُدعى هندًا، فطلّقها لأنها لم تلد له، ثم تزوجها أخّ له، فندم على ذلك ندمًا شديدًا، ومما قال فيها!

إلا إنّ هندًا أصبغت منك محرّمًا وأصبغت من أدنى خموتها حما
فأصبغت كالمقموّر جفن سلاحه يقالب بالكفين قوسًا وأسهما

^١ انظر: المصدر السابق (٧٠٦/٢).



و يُرَوَى أَنَّهُ مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ ثُمَّ خَرَّ مَيِّتًا.
ويمتاز أسلوب هؤلاء برقّة العاطفة، والإسهاب في وصف الحب والنسيب
والبكاء على الأطلال، وإن كانت رقّتهم الشاعرية لا تنفي طابعهم البدوي سواء في
أوصافهم وألفاظهم، ومن أشهر شعراء العشق في الجاهلية:

١- المرقش الأكبر:

هو ربيعة بن سعد بن مالك بن ضبيعة، وقيل: بل عمرو بن سعد؛ وهو ابن أخي
عمرو بن مالك الذي أسّر مهلهلاً في حرب البسوس، وعمُّ المرقش الأصغر عمّ
طرفة بن العبد، وقد غلب عليه لقب المرقش، عُرف عنه حبُّه لابنة عمه أسماء
بنت عوف وله فيها شعْرٌ، رفض أبوها تزويجه إيّاها حتى يُعرّف بالبأس، فسافر
طلبًا للعلا، ثم أجذب أبوها فاضطر إلى تزويجها في غيابه رجلاً غيره من مُراد،
فلمّا عاد أخبره أهلها أنّها قد ماتت، ثم بلغته حقيقة خبرها، فانطلق في إثرها مع
أجيرٍ من غفيلة، ثم مرض المرقش في الطريق، فلمّا يئس منه صاحبه؛ غادره في
كهفٍ من أرض مُراد، وزعم لأهله أنه قد تُوفّي، وكان المرقش قد أحسّ بالغدر
فكتب على رَحله أبياتًا؛ منها:

يَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغْنِي
لِللّهِ دَرْكُمَا وَدُرٌّ أَبِيكُمَا
أَنْسَ بَنَ عَمْرٍو حَيْثُ كَانَ وَحَزَمَلَا
إِنْ أَفَلَتَ الْغُفْلِيَّ حَتَّى يُقْتَلَا
مَنْ مُبْلِغُ الْفَتِيَانِ أَنْ مَرْقَشًا
أَضْحَى عَلَى الْأَصْحَابِ عِبًا مُثْقَلَا

فلمّا قرأها قومه؛ أدركوا كذب الغفيلي، فضربوه حتى أقرّ، ثم قتلوه وامرأته.
وكانت أسماء قد وقفت على أمره، فبعثت إليه وحمل إليها، وما لبث أن تُوفّي
دارها!

^١ انظر: انظر: المصدر السابق (١/٢٠٥-٢٠٦).

وشعر المرقش متين التركيب رقيق الحس ذو انسجام وإيقاع رومانسي عذب، لا يغيب عنه الطابع البدوي سواء في وصفه أو ألفاظه، ومن نماذج شعره قوله يصف حبيبته!

سرى ليلاً خيالاً من سُلَيْمَى
فَبِتُّ أَدِيرُ أَمْرِي كُلَّ حَالٍ
عَلَى أَنْ قَدْ سَمَا طَرْفِي لِنَارِ
حَوَالِيهَا مَهَّأ جَمُّ التَّرَاقِي
نَوَاعِمُ لَا تُعَالِجُ بُؤْسَ عَيْشٍ
يَرْحَنُ مَعًا بَطَاءَ الْمَشْيِ بُدًّا
فَأَرْقَنِي وَأَصْحَابِي هُجُودُ
وَأَرْقُبُ أَهْلَهَا وَهُمْ بَعِيدُ
يُشَبُّ لَهَا بِذِي الْأَرْضَى وَقُودُ
وَأَرَامٌ وَغَزْلَانُ رُقُودُ
أَوَانِسُ لَا تُرَاحُ وَلَا تَزُودُ
عَلَيْهِنَّ الْمَجَاسِدُ وَالْبُرُودُ

وقال في قصيدة متينة تفيض عشقاً وولهاً قد أسهب فيها من ذكر العشق والبكاء على فراق حبيبته، ويصف كل هذا وصفاً دقيقاً!

أَمِنْ آلِ أَسْمَاءِ الطُّلُولِ الدَّوَارِسُ
ذَكَرْتُ بِهَا أَسْمَاءَ لَوْ أَنْ وَلِيهَا
وَمُنْزِلِ ضَنْكَ لَأُرِيدُ مَبِيَّتَهُ
لِتُبَصِّرَ عَيْنِي أَنْ رَأَيْتِي مَكَانَهَا
وَجِيْفٌ وَإِبْسَاسٌ وَنَقْرٌ وَهِرَّةٌ
وَدَوِيَّةٌ غَبْرَاءٌ قَدْ طَالَ عَهْدُهَا
قَطَعْتُ إِلَى مَعْرُوفِهَا مُنْكَرَاتِهَا
تَرَكْتُ بِهَا لَيْلًا طَوِيلًا وَمُنْزَلًا
وَتَسْمَعُ تَرْقَاءَ مِنَ الْبُومِ حَوْلَنَا
يُحَطِّطُ فِيهَا الطَّيْرُ قَفْرٌ بَسَابِسُ
قَرِيبٌ وَلَكِنْ حَبَسْتَنِي الْحَوَابِسُ
كَأْتِي بِهِ مِنْ شِدَّةِ الرَّوْعِ آنِسُ
وَفِي النَّفْسِ إِنْ خُلِّي الطَّرِيقُ الْكَوَادِسُ
إِلَى أَنْ تَكَلَ الْعَيْسُ وَالْمَرَّةُ حَادِسُ
تَهَالِكُ فِيهَا الْوِرْدُ وَالْمَرَّةُ نَاعِسُ
بِعِيْهَامَةٍ تَنْسَلُ وَاللَّيْلُ دَامِسُ
وَمَوْقِدَ نَارٍ لَمْ تَرْمَهُ الْقَوَابِسُ
كَمَا ضُرِبَتْ بَعْدَ الْهُدُوءِ النَّوَابِسُ

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٢٣-٢٢٤).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٢٢٤-٢٢٧).

^٣ الكوادم: جمع كادم وهو ما يُتطير منه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٦/١٩٣).

^٤ العيامة: الماضية السريعة. انظر المصدر السابق (١٢/٤٣٠).

وقال أيضًا يتحدث عن الفراق!

ألا بان جيرانِي ولَسْتُ بِعَائِفٍ
وفي الحَيِّ أَنْكَارٌ سَبِينُ فُؤَادِهِ
دِقَاقُ الخُصُورِ لَمْ تُعَقِّرْ قُرُوءُهَا
نَوَاعِمُ أَنْكَارٍ سَرَائِرُ بُدْنِ
يُهَدِّلُنَّ فِي الآذَانِ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ
إِذَا ظَعَنَ الحَيِّ الجَمِيعُ اجْتَنَبَتْهُمُ
بُصْرُنَ شَقِيًّا لَا يُبَالِيْنَ غِيَّهَ
نَشْرُنَ حَديثًا آسَا فَوَضَعَهُ
فَلَمَّا تَبَيَّ الحَيِّ جِئْنَا إِلَيْهِمْ
تَنَزَّلْنَ عَن دَوْمٍ تَهْفُ مَثْوَاهُ

أَدَانٍ بِهِمْ صَرَفُ النَّوَى أَمْ مُخَالِفِي
غَلَالَةَ مَا زَوَّدَنَ وَالْحُبُّ شَاغِفِي
لِشَجْوٍ وَلَمْ يَحْضُرَنَّ حُمَى المَزَالِفِ
حِسَانُ الوُجُوهِ لَيِّنَاتِ السَّوَالِفِ
لَهُ رَبَّذٌ يَغِيَا بِهِ كُلُّ وَاصِفِ
مَكَانَ النَّدِيمِ لِلنَّجِيِّ المُسَاعِفِ
يَعَوِّجَنَّ مِنْ أَعْنَاقِهَا بِالمَوَاقِفِ
خَفِيضًا فَلَا يَلْغَى بِهِ كُلُّ طَائِفِ
فَكَانَ النَّزُولُ فِي حُجُورِ النَّوَاصِفِ
مُزَيَّتَةً أَكْنَافُهَا بِالزَّخَارِفِ

٢- المرقش الأصغر:

هو ربيعة بن سفيان، أو عمرو بن حرملة بن سعد بن مالك بن ضبيعة؛ قيل: إنه أخ المرقش الأكبر؛ لكن الأشهر أنه ابن أخيه وهو عم طرفة بن العبد، وشعره أنيق سهل المأخذ، عشق فاطمة بنت المنذر وله معها أخبار، وكانت لها خادمة اسمها هند بنت عجلان، تجمع بينهما، ثم غضبت عليه وهجرته، فعرض المرقش على إبهامه وجدًا وندمًا حتى قطعها، وقال في ذلك:

ألا يا اسلمي لا صرَمَ لي اليومَ فاطمًا
رَمَتْكَ ابْنَةُ البَكْرِيِّ عَن فَرْعِ ضَالَةٍ
صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا خَلَا أَنْ رَوْعَهُ
ولا أَبَدًا ما دَامَ وَضْلُكَ دائِمًا
وهُنَّ بِنَا خُوصٌ يُخْلَنَ نَعَائِمًا
إِذَا دُكِرَتْ دَارَتْ بِهِ الأَرْضُ قائِمًا

١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٣١-٢٣٣).

٢ انظر: الأغاني، الأصبهاني (٦/٣٧٦).

٣ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٠٩-٢١٠).

أَفَاطِمٌ لَوْ أَنَّ النِّسَاءَ ببلدَةٍ وَأَنْتِ بِأخْرَى لَا تَتَّبِعُكِ هَائِمَا
مَتَى مَا يَشَأُ ذُو الوُدِّ يَصْرِمُ خَلِيلَهُ وَيَغْضَبُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمَا

وقال في حائيّة عُدَّت من المنتقيات يسهب بها في البكاء على الأطلال!

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ مَاءٍ عَيْنِيكَ يَسْفَحُ
تُرْجِي بِهَا خُنُسَ الظِّبَاءِ سِخَالِهَا
أَمِنْ بِنْتِ عَجَلَانَ الخِيَالِ الْمُطَوِّحُ
فَلَمَّا انْتَبَهْنَا للخِيَالِ وَرَاعِنِي
وَلَكِنَّهُ زَوْرٌ يُوقِظُ نَائِمًا
بِكُلِّ مَيِّبَةٍ يَغْتَرِينَا وَمُنْزِلِ

وقال في إبهامه الذي عضه فقطعه!

وَيَجْشَمُ مِنْ هَوْلِ الأُمُورِ المَجَاشِمَا أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرَّةَ يَجْذُمُ كَفَّهُ

وقال يذكر الرحيل ويتوجع له:

أَدْنَتْ جَارَتِي بِوَشْكِ رَحِيلِ
أَزْمَعْتُ بِالفِرَاقِ لَمَّا رَأَيْتَنِي
إِرْتُ مَجْدٍ وَجِدْتُ لُبِّ أَصِيلِ
بَاكِرًا جَاهَرَتْ بِخَطْبِ جَلِيلِ
أُتْلِفُ المَالَ لَا يَدُمُ دَخِيلِي
أَرْبَعِي إِنْما يَرِيْبُكَ مَيِّبِي

^١ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٤٣٧-٤٤٢).

^٢ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢١١).

^٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٥٠-٢٥١).

سادسًا: شعراء الكرم والحكمة

(ذو الإصبع العدواني- حاتم الطائي)

عرف العرب كثيرًا من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة؛ ومن بينها الحكمة والكرم؛ أما الحكمة فكانت منتشرة بين العرب وعُرف عددٌ كبيرٌ منهم بالحكمة وسداد الرأي؛ كزهير بن أبي سلمي، وهي حكمة ناجمة عن خبرة وتجارب حياتية في الغالب، لا عن تأمّلٍ فكري أو علمي أو باعثٍ دينيٍّ. وكان من الطبيعي أن تظهر الحكمة كأحد أغراض الشعر الرئيسيّة في العصر الجاهلي.

وأما الكرم فكان من ضمن الأخلاق الحميدة؛ مثل الجوار والفروسية والإباء والوفاء.. وهي كلها صفات فرضتها عليهم حياة الصحراء، فظهرت كذلك في شعر العرب، وعُرف عددٌ من العرب بالكرم الذي تخالطه الحكمة؛ كحاتم الطائي والسموأل بن عادياء وذي الإصبع العدواني، وفي شعرهم قدرٌ كبيرٌ من الحكمة والرزانة والعقل والتجربة وبُعد النظر.

١- ذو الإصبع العدواني:

هو حرثان بن الحارث بن مُحرث بن ثعلبة؛ من قبيلة عدوان التي ينتهي نسبها إلى قيس عيلان من مضر، سُبّي بذئ الإصبع لأنَّ حيّةً نهشت إبهام قدمه فقطعته، وقيل: بل لإصبع زائد في قدمه؛ وهو من فرسان العرب وساداتهم، وله عدة غارات ووقائع، وقد عُرف بالكرم والحكمة، وهو أحد الممعّرين؛ حيث تزعم بعض الروايات أنه عاش مئة وسبعين سنة، مات نحو سنة ٥٩٥م أو ٦٠٠م^٢.

^١ انظر: الأغاني، الأصبهاني (٦٣/٣).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١٦٥/١).

وذو الإصبع من أشهر أعلام الجاهلية وإن لم يبلغ قدر شعراء الطبقة الأولى كزهير وامرئ القيس والنابغة والأعشى؛ فقد ذاعت شهرته لما عُرف به من الكرم والحكمة وسداد الرأي وجودة ما انتهى إلينا من وصاياه، ويمتاز شعره بأنه سهل المأخذ واضح المعنى قليل الغريب، وهو مليء بالحكمة والعظة والنصح والجلم ومكارم الأخلاق، وفيه بعض من الفخر والغزل.

ومن شعره قصيدة قالها حينما كبر واهترأ، فكان يفرِّق ماله، فلامه بعض قومه، فردَّ عليهم قائلاً!

إِنَّمَا صَاحِبِي لَنْ تَدَعَا	لَوُمِي وَمَهْمَا أُضِغْ فَالَنْ تَسَعَا
إِنَّمَا مِنْ سَفَاهِ رَأْيِكَمَا	لَا تَجْنُبَانِي السَّفَاهَةَ وَالْقَدْعَا
إِلَّا بِأَنْ تَكْذِبَا عَلَيَّ وَلَمْ	أَمْلِكْ بِأَنْ تَكْذِبَا وَأَنْ تَلْعَا
لَنْ تَعْقِلَا جَفْرَةَ عَلَيَّ وَلَمْ	أُوذِ نَدِيمًا وَلَمْ أَنْلِ طَبْعَا
إِنْ تَزْعُمَا أَنَّي كَبُرْتُ فَلَمْ	أَلْفَ بَخِيلًا نَكْسًا وَلَا وَرَعَا
أَجْعَلَ مَالِي دُونَ الدُّنَا عَرَضًا	وَمَا هِيَ مِلْأُمُورٍ فَانصَدَعَا
إِمَّا تَرِي شِكَّتِي رُمَيْحَ أَبِي	سَعْدٍ فَقَدْ أَحْمِلُ السِّلَاحَ مَعَا
السَّيْفَ وَالرُّمْحَ وَالْكَنَانَةَ وَالـ	نَبْلَ جِيَادًا مَحْشُورَةً صُنْعَا
قَوْمَ أَفْوَاقِهَا وَتَرَصَّصَهَا	أَنْبَلُ عَدَوَانَ كَلِّهَا صُنْعَا
ثُمَّ كَسَاهَا أَحْمَ أَسْوَدَ فَيْـ	نَانًا وَكَانَ الثَّلَاثُ وَالتَّبَعَا

وكان بنو عدوان من أعزِّ العرب، لكنهم اختلفوا وأخذ يقاتل بعضهم بعضاً حتى هلك كثيرٌ منهم، ومنهم من ناصب ذا الإصبع العداً وكاد له، فقال ذو الإصبع يذكر كيد ابن عمه له ويفخر بنسبه وبجلمه وينكر على عشائر قبيلته اختلافهم فيما بينهم!

إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَابِي بِذِي غَلَقٍ عَنِ الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِي بِمَمْنُونِ

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ١٥٣-١٥٥).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ١٦٠-١٦١).

بِالْمَنْكَرَاتِ وَلَا فَتْكَي بِمَأْمُونٍ
 هَوْنًا فَلَسْتُ بَوَقَّافٍ عَلَى الْهُونِ
 تَرَعَى الْمَخَاضَ وَلَا رَأْيِي بِمَغْبُونِ
 وَإِنْ تَخَالَقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ
 وَابْنُ أَبِي أَبِي مِنْ أَبِييْنَ
 فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ كُأَلَّا فَيَكُونِي
 وَإِنْ جَهَلْتُمْ طَرِيقَ الرُّشْدِ فَأَتُونِي
 أَلَّا أُجِيبَكُمْ إِنْ لَمْ تُحِبُّوْنِي
 وَلَا دِمَاؤُكُمْ جَمْعًا تُرْوِينِي
 وَاللَّهُ يَجْزِيكُمْ عَنِّي وَيَجْزِينِي
 وَدِّي عَلَى مُثَبَّتٍ فِي الصَّدْرِ مَكُونِ

وَلَا لِسَانِي عَلَى الْأَدْنَى بِمَنْطَلِقِ
 عَفٌّ يُوُوسُ إِذَا مَا خِفْتُ مِنْ بَلَدِ
 عَنِّي إِلَيْكَ فَمَا أَمِّي بِرَاعِيَةِ
 كُلُّ أَمْرِي رَاجِعٌ يَوْمًا لِشَيْمَتِهِ
 إِيَّيْ أَبِي أَبِي ذُو مَحَافِظَةِ
 وَأَنْتُمْ مَعْشَرٌ زَيْدٌ عَلَى مِئَةِ
 فَإِنْ عَرَفْتُمْ سَبِيلَ الرُّشْدِ فَاَنْطَلِقُوا
 مَاذَا عَلِيٍّ وَإِنْ كُنْتُمْ ذَوِي كَرَمٍ
 لَوْ تَشْرَبُونَ دَمِي لَمْ يَرَوْ شَارِبِكُمْ
 وَاللَّهُ يَعْلَمُنِي وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ
 قَدْ كُنْتُ أَوْتِيكُمْ نُصْحِي وَأَمْنُكُمْ

٢- حاتم الطائي:

هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج، من طيء، وأمه عنبة بنت عفيف من بني أبيه، كان شهماً جواداً، ضُرب به المثل في الجود، وكان إذا أهلَّ رجب؛ نحر وأطعم، وقد ورث هذا الجود من أمه؛ التي اضطر إخوتها أن يحجروا عليها حيناً خشية تلف مالها، فلم يفلحوا، ورُويت عن حاتم في الكرم والسماحة أخبارٌ كثيرة بين الحقيقة والأسطورة، ويروى أنه مرَّ على أسيرٍ في بني عنزة فاستغاث به، فاستوهبه منهم وحمل ديتته، وأنه كانت له قُدورٌ لا تنزل عن الأثافي، وكان ينحر من إبله ويطعم من مرَّ عليه؛ ومن شعره يصف كرمه!

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي حَيَاءً يَشْفُنِي
 وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي صِحَابِي أَنْ يُرَوْا
 إِذَا الْقَوْمُ أَمَسُوا مُرْمِلِي الزَّادِ جُوعَا
 مَكَانَ يَدِي مِنْ جَانِبِ الزَّادِ أَقْرَعَا
 أَكْفُ يَدِي عَنْ أَنْ يَنَالَ التِمَاسَهَا
 أَكْفُ صِحَابِي حِينَ حَاجَاتُنَا مَعَا

١ انظر: الفاضل، المبرد (ص ٤١)، طبعة: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢١ هـ.

أَبِيْتُ هَضِيمَ الكَشْحِ مضطَمِرَ الحِشَا حِيَاءٌ أَخَافُ اللُّؤْمَ أَنْ أَتَضَلَّعَا
فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَ بَطْنُكَ سُؤْلَهَا وَفَرَجَكَ نَالَا مُنْتَهَى الذَّمِّ أَجْمَعَا

وَيُرَوَّى أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً تَدْعَى مَاوِيَّةَ بِنْتَ عَفْرَزٍ، فَوَجَدَ عِنْدَهَا النَابِغَةَ الذَّبْيَانِيَّ وَرَجُلًا آخَرَ مِنْ نَبِيئَاتِ يَخْطَبَانَهَا، فَقَامَتِ مَاوِيَّةُ وَتَنَكَّرَتْ فِي ثِيَابِ أَمَةٍ وَمَرَّتْ عَلَى كُلِّ مِنَ النَابِغَةِ وَرَفِيقِهِ النَّبِيئِيِّ، فَاسْتَطَعَمَتْهُمَا، فَاطْعَمَهَا كُلُّهُمَا مِنْهَا ظَهَرَ جُزُورُهُ، فَامْرَأَتٌ عَلَى حَاتِمٍ فَاسْتَطَعَمَتْهُ، فَقَالَ: أَنْتَظِرِي حَتَّى تَبْلُغَ الْقَدْرَ إِنَّا نَاهَا؛ ثُمَّ أَهْدَاهَا أَعْظَمًا مِنَ الْعَجْزِ وَالسَّنَامِ وَالْحَارِكِ، فَلَمَّا صَبَحُوهَا؛ أَنْشَدَهَا كُلُّهُمْ شِعْرًا، فَقَالَ النَّابِغَةُ:

هَلَّا سَأَلْتِ بَنِي دُبْيَانَ مَا حَسَبِي إِذَا الدُّخَانُ تَغَشَّى الْأَشْمَطَ الْبَرِمَا
وَهَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ ذِي أُزْلِ تُزْجِي مَعَ اللَّيْلِ مِنْ صُرَادِهَا صِرْمَا
ثُمَّ أَنْشَدَهَا رَفِيقَهُ النَّبِيئِيُّ:

هَلَّا سَأَلْتِ هَدَاكَ اللَّهُ مَا حَسَبِي عِنْدَ الشِّتَاءِ إِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ
ثُمَّ قَالَ حَاتِمٌ:

أَمَاوِيٌّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحٌ وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
أَمَاوِيٌّ إِنِّي لَا أَقُولُ لِسَائِلِ إِذَا جَاءَ يَوْمًا حَلَّ فِي مَالِنَا نَزْرُ
أَمَاوِيٌّ إِمَّا مَانِعٌ فَمَبَيِّنٌ وَإِمَّا عَطَاءٌ لَا يُنْهِنُهُ الرَّجْرُ
أَمَاوِيٌّ مَا يُغْنِي الثَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ نَفْسٌ وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
أَمَاوِيٌّ إِنْ يُصْبِحُ صَادِي بِقَفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَا مَاءَ هُنَاكَ وَلَا خَمْرُ
تَرِي أَنْ مَا أَنْفَقْتُ لَمْ يَكْ ضَرْنِي وَأَنْ يَدِي مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صَفْرُ
وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفْرُ

فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ إِنْشَادِهِمْ؛ قُدِّمَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مَا كَانَ أَطْعَمَهَا بِالْأَمْسِ؛ لِيَتَّضِحَ أَنَّهُ فَاقَهُمَا كَرَمًا، فَتَرَوَّجَهَا، وَهِيَ أُمُّ وَلَدِهِ عَدِيِّ، وَيُقَالُ: بَلْ إِنَّهُ وَعَبَدَ اللَّهَ وَأَخْتَهُ سَفَانَةَ مِنْ أُمَّه النَّوَارِ!

وقد تُوَفِّيَ حَاتِمٌ نَحْوَ عَامِ ٦٠٥ م أو ٦٠٧ م، وهو والد الصحابي عدي بن حاتم، وأخته سَفَانَةُ؛ وَيُذَكَّرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَرْسَلَ سَرِيَّةً إِلَى طَيْئِ بِقِيَادَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لِهَدْمِ صَنْمٍ لَهَا، فَلَمَّا سَمِعَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ بِخَبَرِ بَعْثِ النَّبِيِّ؛ أَزْمَعَ الْفِرَارَ، فَأَعَارَتِ السَّرِيَّةُ عَلَى الْحَيِّ، وَغَنِمَ عَلِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَسَبَى، وَكَانَتْ سَفَانَةُ ابْنَةَ حَاتِمٍ مِنْ ضَمَنِ السَّبْيِ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَ الْأَسْرَى؛ أَطْلَقَهَا؛ لِمَنْزِلِ وَالِدِهَا، وَكَانَ هَذَا سَبَبَ إِسْلَامِهَا وَسَبَبَ إِسْلَامِ أَخِيهَا عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ بَعْدَ ذَلِكَ؛ حَيْثُ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، وَاشْتَرَكَ فِي حُرُوبِ الرَّدَةِ وَفِي الْفَتْوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ أَنْصَارِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَقْتَ الْفِتْنَةِ، وَأَبْلَى فِي تِلْكَ الْوَقَائِعِ بِلَاءً حَسَنًا.

وشعر حاتم مليء بالحكمة ومكارم الأخلاق ومعاني الكرم والسُّمُوِّ والعظمة، في سياق سهل صافٍ بعيدٍ عن التعقيد، يقول متحدثًا عن الجود، بشيء من الحكمة!

مَتَى مَا يَجِيءُ يَوْمًا إِلَى الْمَالِ وَارِثِي يَجِدُ جُمْعَ كَفِّ غَيْرِ مَلَأَى وَلَا صَفْرٍ
يَجِدُ فَرَسًا مِثْلَ الْعِنَانِ وَصَارِمًا حَسَامًا إِذَا مَا هُزَّ لَمْ يَرْضَ بِالْهَبْرِ
وَأَسْمَرَ خَطِيئًا كَأَنَّ كُغُوبَهُ نَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرْمَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ

ومن حسنات شعر حاتم أنه جعل الكرم والجود معيارًا من معايير الفخر، ونرى هذا واضحًا في قوله:

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ زِمَامِهَا لِتَشْرَبَ مَا فِي الْحَوْضِ قَبْلَ الرِّكَائِبِ
وَمَا أَنَا بِالطَّائِي حَقِيبَةَ رَحْلِهَا لِأَرْكَبَهَا خِفَا وَأَتْرُكُ صَاحِبِي

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٢٣٨-٢٤١).

^٢ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص ١٢٥٣).

^٣ انظر: المصدر السابق (ص ٨١٩).

ويرد حاتم على من يلومه لفرطه في الانفاق والكرم والجود، ردًا لا يخلو من
الحكمة:

وعاذلة قامت عليّ تلومني
أعاذل إن الجود ليس بمهلكي
وتذكر أخلاق الفتى وعظامه
ومن يتدع ما ليس من خيم نفسه
كأني إذا أعطيت مالي أضيها
ولا يخذ النفس الشحيحة لومها
مغيبة في اللحد بال رميمها
يدعه ويغلبه على النفس خيمها

^١ انظر: المصدر السابق (ص ١٢٠٠).

سابعًا: شعراء القرى

(قيس بن الخطيم- أبو قيس بن الأسلت- أحيحة بن الجلاح- مالك
ابن عجلان)

نشط الشعر في المدينة المنورة قبل الإسلام، وكانت تُسمَّى يثرب، ولعل ذلك بسبب الحروب والمنازعات التي كانت بين الأوس والخزرج، مما أشعل الشعر وزاده نشاطًا وتوهُّجًا، وظهر عدد من الشعراء المجيدين في المدينة، وبرز بها ابن الإطنابة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ومالك بن عجلان وعبد الله بن رواحة من الخزرج، وقيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت وأحيحة بن الجلاح من الأوس؛ وقد أدرك بعضهم الإسلام فأسلموا، بينما قلَّ الشعر في مكة والطائف لقلَّة الحروب والمنازعات في هذين البلدين، ومع هذا ظهر بهما عدد من الشعراء المجيدين؛ ففي مكة ظهر كل من عبد الله بن الزبيري وأبو سفيان بن الحارث ابن عم النَّبِيِّ ﷺ وكانا من ألدِّ أعداء الإسلام حتى أسلما في وقتٍ متأخر، وظهر ضرار بن الخطاب الفهري وأبو عزة الجمحي؛ وهذا الأخير كان ممَّن أُسر من المشركين يوم بدر، فأطلقه النَّبِيُّ ﷺ على أن يكفَّ عن هجائه، فنكث أبو عزة العهد، ثم أُسر مجددًا في أحدٍ، فأمر النَّبِيُّ ﷺ بقتله، وظهر كذلك هبيرة بن أبي وهب وأبو طالب بن عبد المطلب عم النَّبِيِّ ﷺ؛ وفي الطائف اشتهر أبو الصلت ابن أبي ربيعة الثقفي وولده أمية بن أبي الصلت وأبو محجن الثقفي الذي أدرك الإسلام وأسلم واشترك في معركة القادسية، وكان مسرفًا في شرب الخمر، فخذَّ على ذلك غير مرة، إلى أن نفى، ويعتبر هؤلاء جميعًا من زمرة الشعراء الجاهليين فيما عدا من أدرك الإسلام وأسلم؛ ونعرض هنا ترجمة لأبرز شعراء القرى في العصر الجاهلي:

١ - قيس بن الخطيم:

هو أبو يزيد قيس بن الخطيم، أحد شعراء الأوس في الجاهلية وواحد من صناديدهم، وله أخبار في الوقائع التي كانت بين الأوس والخزرج؛ من بينها يوم بُعث قبل الإسلام، اشتهر قيس بتتبُّعه قتلته أبيه من الخزرج حتى ثار له، وهو أحد أبرز شعراء يثرب قبل الإسلام؛ مثل ابن الاطنابة وكعب بن مالك وحسان ابن ثابت ومالك بن عجلان وعبد الله بن رواحة من الخزرج، وأبي قيس ابن الأسلت وأحيحة بن الحلاج من الأوس؛ ومن الأدباء من يقدِّمه على حسان، وقد قُتل قيس قبل الهجرة بقليل، وقيل: إنه تمهَّل في قبول الإسلام، حتى قتله نفر من الخزرج ثأراً قبل أن يدخل فيه، فقتل قومه به رجلاً من الخزرج؛ هو أبو صعصعة بن يزيد، وألقوا رأسه بين يدي قيس وكان به رمق، فطابت نفسه ومات بعدها بقليل، ويقال: إنه كان يؤذي زوجته بسبب إسلامها، فلمَّا سمع رسول الله ﷺ بأمره؛ لقيَه في الموسم وطلب منه ألا يؤذيها؛ فأحسن قيسُ مقابلته ورَحَّب به، وأجابه إلى ملتسمه وترك امرأته وشأنها، وما لبث أن قُتل بعد ذلك! وشعره حسن رشيق واضح المعنى رائق الأسلوب، وهو يدور حول الفخر والحماسة وبعض التسيب، وكذلك وصف الوقائع والحروب، وله شعر كثير يصف به وقائعه مع خصومه من الخزرج؛ ومن ذلك قوله مفتخرًا!

تَدَكَّرْتُ لِيَلَى حُسْنِهَا وَصَفَاءِهَا وَبَانَتْ فَأَمْسَى مَا يَنَالُ لِقَاءِهَا

*

*

*

*

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرٍ لَهَا نَقْدٌ لَوْلَا الشُّعَاعُ أَضَاءُهَا
مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَنَّقَهَا يَرَى قَائِمًا مِنْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءِهَا
يَهْوُونَ عَلَيَّ أَنْ تَرُدَّ جِرَاحُهُ عِيُونَ الْأَوَاسِي إِذْ حَمَدَتْ بَلَاءُهَا
وَكُنْتُ امْرَأًا لَا أَسْمَعُ الدَّهْرَ سُبَّةً أَسْبُ بِهَا إِلَّا كَشَفْتُ غِطَاءُهَا

^١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (١/٢٣١).

^٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٢٨٠).

وَإِنِّي فِي الْحَرْبِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ بِإِقْدَامِ نَفْسٍ مَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا
 إِذَا سَقَمْتُ نَفْسِي إِلَى ذِي عَدَاوَةٍ فَإِنِّي بِنَصْلِ السَّيْفِ بَاغٍ دَوَاءَهَا
 مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تَبْقَ حَاجَةٌ لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا

وقال كذلك مفتخرًا يصف يوم الربيع الذي كان بين الأوس والخزرج!

وَنَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الرَّبِيعِ عِ قَدْ عَلِمُوا كَيْفَ فُرْسَانُهَا
 جَنَّبْنَا الْحِرَابَ وَرَاءَ الصَّرِيحِ حِ حَتَّى تَقْصَفَ مُرَّانُهَا

وقال يصف بعض وقائعه ويذكر يوم بعث؛ وهو آخر أيام حرب الأوس والخزرج قبل الهجرة؛ إذ تعارك الفريقان في صدامٍ دامٍ، انهزمت فيه الأوس أولاً وأزمنت الفرار، لكن قائدهم ثبت وقاتل حتى اجتمعوا له من جديد، فانهزمت الخزرج وتتبعهم الأوس بالسلح، وقد أنهكت تلك الحروب -ولا سيما الموقعة الأخيرة- الفريقين حتى قُتِلَ قائداهما وسُفِكَ دَمٌ كَثِيرٌ، فتدارك الأمر عقلاء الفريقين واتفقوا على وقف الحرب، وما لبث أن جاء الإسلام فأسلموا وتوحدوا وانتهى ما كان بينهم من قتالٍ.. وفي يوم بعث يقول قيس بن الخطيم:

وَيَوْمَ بُعِثَ أَسْلَمْنَا سُيُوفَنَا إِلَى حَسَبٍ فِي جِذْمِ عَسَانَ ثَاقِبِ
 يُجَرِّدُنْ بِيضًا كُلَّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ وَيُعْمَدُنْ حُمْرًا خَاضِبَاتِ الْمَضَارِبِ
 أَطَاعَتْ بَنُو عَوْفٍ أَمِيرًا نَهَاهُمْ عَنِ السَّلْمِ حَتَّى كَانَ أَوَّلَ وَاجِبِ
 قَتَلْنَاكُمْ يَوْمَ الْفِجَارِ وَقَبْلَهُ وَيَوْمَ بُعِثَ كَانَ يَوْمَ التَّغَالِبِ
 صَبَحْنَاهُمْ بِيضَاءَ يَبْرُقُ بِيضُهَا تُبِينُ خَلَائِلَ النِّسَاءِ الْهَوَارِبِ
 أَتَتْ عُصْبَةٌ مِالِ الْأَوْسِ نَخَطُرُ بِالْقَنَا كَمَشِي الْأَسْوَدِ فِي رَشَاشِ الْأَهَاضِبِ
 رَضِيَتْ لِعَوْفٍ أَنْ تَقُولَ نَسَاؤُهُمْ وَيَهْزُنْ مِنْهُمْ لَيْتِنَا لَمْ نُحَارِبِ

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٢٨١).

^٢ انظر: جهمرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٥١٢-٥١٤).

وَيُرَوَّى عَنْ حَسَّانَ أَنَّ النَّابِغَةَ الذَّبْيَانِيَّ لَمَّا حَضَرَ يَثْرِبَ؛ اسْتَنْشَدَ الشُّعْرَاءَ، فَأَنْشَدَهُ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ، فَاسْتَحْسَنَهَا وَقَدَّمَهَا، وَكَانَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ مَمَّنْ يُحْسِنُ الْبَدَأَ بِالْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ وَالْبِكَاءِ عَلَى الْأَطْلَالِ؛ إِذْ يَقُولُ فِي قَصِيدَتِهِ تِلْكَ الَّتِي يَصِفُ بِهَا يَوْمَ بَعَاثٍ!

أَتَعْرِفُ رَسْمًا كَالطَّرَازِ الْمَذَاهِبِ لِعَمْرَةٍ وَحَشًا غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ
تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنَّتْ بِحَاجِبِ
دِيَارُ الَّتِي كَانَتْ وَنَحْنُ عَلَى مَنَى تَحَلُّ بِهَا لَوْلَا نَجَاءُ النَّجَائِبِ
وَلَمْ أَرَهَا إِلَّا ثَلَاثًا عَلَى مَنَى وَعَهْدِي بِهَا عِذْرَاءُ ذَاتُ ذَوَائِبِ

ومن روائعه في الغزل:

رَدَّ الْخَلِيطُ الْجَمَالَ فَانصَرَفُوا مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ وَقَفُوا
لَوْ وَقَفُوا سَاعَةً نُسَائِلُهُمْ رَيْثًا يَصْغِي جَمَالَهُ السَّالِفُ
فِيهِمْ لَعُوبُ الْعِشَاءِ آتِسَةُ الـ (م) دَلَّ عَرُوبٌ يَسُوؤُهَا الْخُلْفُ
بَيْنَ شُكُولِ النِّسَاءِ خَلَقْتُهَا قَصْدٌ فَلَا جَبَالَةَ وَلَا قَصْفُ

ومن غزله كذلك قوله:

تَرَاءَتْ لَنَا يَوْمَ الرَّحِيلِ بِمُقَلَّتِي غَيْرِ بِمُلْتَفٍ مِنَ السِّدْرِ مُفْرَدِ
وَجِيدٍ كَجِيدِ الرَّئِمِ صَافٍ يَزِيئُهُ تَوَقُّدُ يَأْقُوتِ وَفَصْلِ زَبْرَجَدِ
كَأَنَّ الثَّرِيًّا فَوْقَ ثُغْرَةِ نَحْرِهَا تَوَقُّدُ فِي الظُّلْمَاءِ أَيَّ تَوَقُّدِ

٢- أبوقيس بن الأسلت:

هو صيفي بن عامر بن الأسلت الأوسي، أحد أبرز شعراء المدينة قبل الإسلام، وكان على رأس قومه الأوس وشاعرهم وخطيبهم، وأسندت إليه القيادة في بعض

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٥٠٧-٥٠٨).

^٢ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٩٦).

^٣ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمعي (١/ ٢٢٩- ٢٣٠).

الوقائع، وبذل فيها جهداً عظيماً، وكان ممّن نبذ الأوثان، واتّصل بهود يثرب، ثم اطمأنّ إلى دين إبراهيم عليه السّلام، ولمّا فشا الإسلام لقي النّبِيَّ ﷺ، لكنه تريتّ في قبول الإسلام، حتى مات دون أن يسلم، وقيل: أراد الإسلام فثبّطه عبد الله ابن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين فيما بعد؛ وقد اختلّف في إسلام صيفي، واختلف كذلك في اسمه؛ فقيل: هو صفي؛ وقيل: بل الحارث؛ وقيل: عبد الله؛ ويروى أنه انشغل بحروب قومه الأوس وأمورهم حتى غاب عن بيته وتغيّر، فلمّا عاد ليلة إلى امرأته طرقت عليها الباب فلم تعرفه حتى تكلم، فقال!

قَالَتْ وَلَمْ تَقْصِدْ لِقَوْلِ الْخَنَا	مَهَلًا فَقَدْ أَبْلَغْتَ أَسْمَاعِي
أَنْكَرْتَهُ حَتَّى تَوَسَّمْتُهُ	وَالْحَرْبُ غَوْلٌ ذَاثٌ أَوْجَاعِ
مَنْ يَذُقِ الْحَرْبَ يَجِدُ طَعْمَهَا	مُرًّا وَتَحْبِسُهُ بِجَعَجَاعِ
فَدُ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِي فَمَا	أَطْعَمَ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ
أَسْعَى عَلَى جُلِّ بَنِي مَالِكِ	كُلُّ امْرِيٍّ فِي شَأْنِهِ سَاعِ
بَيْنَ يَدَيَّ فَضْفَاضَةً فَخَمَةٍ	ذَاتِ عَرَانَيْنِ وَدَقَّاعِ
أَعَدَدْتُ لِلْهِجَاءِ مَوْضُونََةً	مُتَرَصَّةً كَالنَّهْيِ بِالْقَاعِ

٣- أحيحة بن الجلاح:

هو أبو عمرو أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسي، كان من سادات يثرب وشعرائها، وأحد دهاة العرب وشجعانهم، وفي شعره نفحات من الحكمة والخلق؛ كهذه الأبيات التي يقول فيها:

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يُعيلُ

^١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام (١/٢٢٧).

^٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٥٢٢-٥٢٧)؛ ومنتهى الطلب من أشعار العرب برواية مختلفة

^٣ الموضونة: مضاعفة النَّسْج. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/٤٥٠).

^٤ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص٥١٨-٥١٩).

وما تَدْرِي وَإِن أَلْفَحْتَ شَوْلًا
وما تَدْرِي إِذَا ذَمَّرْتَ سَقْبًا
وما تَدْرِي وَإِن أَجْمَعْتَ أَمْرًا
لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا يُغْنِي مَقَامِي

أَتَلَقَّحُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْ تَحِيلُ
لِغَيْرِكَ أَمْ يَكُونُ لَكَ الْفَصِيلُ
بِأَيِّ الْأَرْضِ يُدْرِكُكَ الْمَقِيلُ
مِنَ الْفَتِيَانِ أَنْجَبَةٌ حُفُولُ

ومن شعره يصف النساء الغواني اللاتي يقديمن الوصال لقاء المال!

إِذَا مَا جِئْتَهَا قَدْ بَعْتَ عِدْقًا
أَهْنَتْ الْمَالَ فِي الشَّهَوَاتِ حَتَّى
فَمَنْ نَالَ الْغِنَى فَلْيَصْطَبْنِعْهُ
أَعْلَمِكُمْ وَقَدْ أَرْدَيْتَ نَفْسِي

تُعَانِقُ أَوْ تُقَبِّلُ أَوْ تُفَدِّي
أَصَارْتَنِي أَسِيفًا عَبْدَ عَبْدِ
صَنِيعَتَهُ وَيَجْهَدُ كُلَّ جَهْدِ
فَمَنْ أَهْدِي سَبِيلَ الرُّشْدِ بَعْدِي

٤ - مالك بن عجلان:

هو مالك بن العجلان الخزرجي، كان سيدًا للأوس والخزرج في زمانه، وهو من أشهر وأقدم شعرائهم، وكان معاصرا لابن الجلاح الأوسي، وله أخبار في حروبه مع بني عمرو بن عوف، ومع يهود يثرب؛ حيث جرت له معهم عدة أحداث أدت إلى نزع سيادة البلد من اليهود إلى الأوس والخزرج، فصاروا سادة البلد منذ ذلك الحين، وهو يقول في قصيدة له من الفخر بقومه:

نَحْنُ بَنُو الْحَرْبِ حِينَ تَشْتَجِرُ أَدُ
أَبْنَاءُ حَرْبِ الْخُرُوبِ ضَرَّسْنَا
مَا مِثْلُ قَوْمِي قَوْمٌ إِذَا غَضِبُوا
يَمْشُونَ مَشْيَ الْأَسْوَدِ فِي رَهْجِ أَدُ
مَا قَصَرَ الْمَجْدُ دُونَ مَحْتَدِنَا

حَرْبٌ إِذَا مَا يَهَابُهَا الْكَشْفُ
إِبْكَارُهَا وَالْعَوَانُ وَالشَّرْفُ
عِنْدَ قِرَاعِ الْخُرُوبِ تَنْصَرِفُ
مَوْتٌ إِلَيْهِ وَكُلُّهُمْ لَهْفُ
بَلْ لَمْ يَزَلْ فِي بُيُوتِنَا يَكْفُ

^١ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٢٠).

^٢ انظر: جهمرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (٥٠٤-٥٠٥).

ثامناً: شعراء المذاهب الدينية

(السموأل- أمية بن أبي الصلت)

كان التوحيد على ندرته في الجاهلية معروفاً، وقد سبق ذكر الحالة الدينية للعرب قبل الإسلام، وقلنا: إنّ الديانة الوثنية كانت السائدة بين العرب، ولكن هذا الدين عمومًا لدى العرب لم يكن متأصلاً في نفوسهم أو متعمقاً في أحاسيسهم، لذا يصعب أن نجد شعراً دينياً في هذا الاتجاه، باستثناء ما انتهى إلينا من شعر اليهود والنصارى وبعض المتحنفين، وهؤلاء جميعاً كانوا قلةً، ولا سيّما من تحنّفوا، وهؤلاء المتحنفون كان الدين متأصلاً لديهم بسبب إيمانهم بعقائدهم، لذا نجد بعض ملامح التدين والزهد في شعر بعض المتحنفين وأصحاب الديانات السماوية وإن كان قليلاً؛ فنرى بعض الزهد في شعر زهير ابن أبي سلمى؛ لأنّه قد آمن بالله وبالبعث وشكّ في دين قومه -على الأرجح- وكذلك نلاحظ بعض التدين لدى عدد من الشعراء كعبيد بن الأبرص وعدي بن زيد والسموأل بن عادياء وأخيه سعية وابن أبي الحقيق ودرهم بن بزبد وأبي قيس ابن رفاعة وشريح بن عمران وأوس بن دنيّ وكعب بن الأشرف -أحد يهود يثرب¹ كونهم اتبعوا رسالات سماوية، فضلاً عن أشعار رُويت لبعض المتحنفين؛ مثل أمية بن أبي الصلت الذي كان حرّم على نفسه الخمر والأنصاب وهجر عبادة الأوثان وآمن بوجود الله قبل الإسلام، وذكر الملائكة في شعره، وإن دخل على شعره وشعر غيره من المتدينين كثيرٌ من المنحول.

وفي شعرهم العديد من النّفحات الإيمانية ومعالم الحكمة، وهي حكمة تختلف عما تراه من جگم شعراء جاهليين آخرين؛ لأن الحكمة لدى عموم شعراء الجاهلية نابعة من خبراتهم وتجاربهم الحياتية، أما الحكمة لدى الشعراء المتدينين فنابعة من عقيدة وبواعث إيمانية.

¹ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٣٨٨).

وقد مررنا من قبل على أشعار عديّ وعبيد بن الأبرص وزهير، وبقي لدينا السموأل وأمّية بن أبي الصلت.

١- السموأل:

هو السموأل بن العريض بن عادياء، صاحب حصن الأبلق في تيماء، وهو من أشهر يهود العرب، وله قصة شهيرة رائعة في الوفاء حيث يقال: إن امرأ القيس حينما التجأ إليه ثم اعتزم السير إلى ملك الروم لطلب دعمه؛ ترك لدى السموأل أمانته؛ وهي أمواله وأسلحته، واستودع عنده أهله ثم غادره إلى القسطنطينية، فلمّا هلك في رحلته تلك؛ أرسل الحارث بن أبي شمر الغساني جيشًا عليه الحارث بن ظالم إلى حصن الأبلق، فحاصره وطلب من السموأل أن يسلمه أمانة امرئ القيس، فرفض السموأل، وتصادف أنّه كان ابنٌ للسموأل خارج الحصن، فقبض عليه الحارث وهدد بقتله إن لم يسلم السموأل أمانته، لكن السموأل رفض تسليم الأمانة، فما لبث الحارث أن قتل ولده، دون أن يفت هذا من عزم أبيه، ثم انصرف عنه، وذهب بعدها السموأل إلى ورثة امرئ القيس فسلمهم أمانته، فضرب به المثل في الوفاء، وهي قصة مشهورة تناقلها الرواة، وشكك فيها بعض النقاد؛ لصعوبة تصديقها ولمخالفتها منطق الأبوّة؛ تُوفّي السموأل نحو سنة ٥٦٠م!

وقد أُثرت عن السموأل لامّيته الشهيرة الحافلة بالفخر والمواظ والمواظ والحكم؛ التي يقول في مطلعها:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عَرَضُهُ فَمَنْ رَدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيْلُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ النَّثَاءِ سَبِيْلُ

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/٢٦٦).

^٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص٣٦٨).

ومن أبيات هذه القصيدة:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً
يُقَرِّبُ حُبَّ الْمَوْتِ آجَانَنَا لَنَا
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ
تَسِيلٌ عَلَى حَدِّ السُّيُوفِ نُفُوسَنَا
صَفُونَا فَلَمْ نَكْدُرْ وَأَخْلَصَ سِرَّنَا
عَلَوْنَا إِلَى خَيْرِ الظُّهُورِ وَحَطَّنَا
فَنَحْنُ كَمَاءِ الْمُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا
وَنُكْرِرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ
إِذَا سَيِّدٌ مِنَّا خَلَا قَامَ سَيِّدٌ
وَمَا أُخْمِدَتْ نَارٌ لَنَا دُونَ طَارِقٍ

إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ
وَتَكَرَّهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ
وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ السُّيُوفِ تَسِيلُ
إِنَاثُ أَطَابَتْ حَمَانَنَا وَفُحُولُ
لِوَقْتِ إِلَى خَيْرِ البُطُونِ نُزُولُ
كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ
وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
قَوْلُ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولُ
وَلَا ذَمَّنَا فِي النَّازِلِينَ نَزِيلُ

وهي قصيدة ممتازة مليئة بالحكم والمواعظ ومكارم الأخلاق، وذات أسلوب متين ولفظ لين وسياق رصين لا يعوزه السُّمو، وفيها جانب من الفخر ولكنَّه فخر مبنيٌّ على الكرم ومكارم الأخلاق أكثر من كونه فخرًا قبليًّا، وهي إن صحَّت نسبتها للسُّموأل فإنها تصوِّر جانبًا من جوانب الشعر الجاهلي المتمثِّل في الحكمة والخلق.

٢- أمية بن أبي الصلت:

هو أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عبد عوف الثقفي، وأمه قرشية؛ هي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف، ورث الشعر عن أبيه، وكان أبرز شعراء ثقيف، وقد وفد على الشام تاجرًا، واطَّلَعَ على الكتب السماوية، وعلم أن نبيًّا على وشك الظهور، فتأثر بالتدئين وتحنَّف وهجر عبادة الأوثان وحرَّم الخمر،

١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٥٠).

وكان يذكر الله ويذكر الأنبياء والملائكة ويصف الجنة والنار، وظل ينتظر البعثة ويؤمل أن يكون هو ذلك النبي، غير أنه ما إن ظهر النبي ﷺ حتى أسقط أمية في يده وانقلب على عقبيه وكفر به؛ حسداً له قائلاً: إنما كنت أرجو أن أكونه؛ وأقام على عداوة النبي ﷺ انسياقاً لموقف قبيلته ثقيف، وقيل: بل هم بالإسلام لكنّه علم بمقتل ابني خال له في غزوة بدر، فامتنع وظلّ على موقفه المعادي متردداً على الأديرة والكنائس والرهبان إلى أن توفّي نحو سنة (هـ أو ٨هـ) قبل فتح الطائف ودخولها في الإسلام، وروي أن رسول الله ﷺ قال لأحد أصحابه: هل معك شيء من شعر أمية بن أبي الصلت؟ فقال: نعم؛ فأخذ ينشده ورسول الله يطرب لسماعه قائلاً: «هيه»؛ وفي حديث آخر قال ﷺ: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم»^٣.

وشعر أمية بن أبي الصلت يمثّل وجهًا بارزًا من مظاهر شعر التّدئين في الجاهلية؛ فقد كان يحكي أخبار الأنبياء وقصص السابقين والكتب السماوية، ويذكر الله، والآخرة الملائكة والحشر، وأغلب شعره يدور في فلك الجوانب الدينية والقصصية والكتب السماوية، مع بعض ألوان الرثاء والهجاء والمديح؛ غير أنه دخل على شعره كثيرٌ من المنحول مما نُسب إليه؛ إذ يُروى أن النابغة الجعدي -وهو من الشعراء المخضرمين- قد دخل على الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- فأنشده قائلاً:

الحمْدُ لله لا شريكَ له مَنْ لَمْ يَقْلُها فَنَفْسُهُ ظَلَمًا

ف قيل للحسن: يا أبا ليلى؛ ما كنتَ نروي هذه الأبيات إلا للأمية بن أبي الصلت؛ فقال النابغة الجعدي: يا بن رسول الله؛ والله إني لأول الناس قائمها؛ وهذا يعني

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١/٢٦٩-٢٧٠).

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٧٦٧ برقم ٢٢٥٥)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

^٣ متفق عليه.

^٤ انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ (١/٢١٧).

^٥ انظر: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص٣٩٧).

أن قضية الانتحال على شعر أمية قديمة، لذا لا يثق النقاد في أغلب ما روي عنه، ويصعب تقييم شعره تقييماً دقيقاً؛ لكثرة المنحول فيه.

ومما روي له أبياتٌ مدح بها عبد الله بن جدعان أحد سادات قريش، يقول بها!

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ
كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الْخُلُقِ الْكَرِيمِ وَلَا مَسَاءُ
وَأَرْضُكَ كُلُّ مَكْرَمَةٍ بَنَتْهَا بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهُمْ سَمَاءُ
ومن مديحه فيه قوله:

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لَامِرِيٍّ إِنْ حَبَوْتَهُ بَخِيرٍ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ
وَلَيْسَ بِشَيْنٍ لَامِرِيٍّ بَدْلٌ وَجْهَهُ إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ
وروي له في الفخر:

عَرَفْتُ الدَّارَ قَدْ أَقْوَتْ سِنِينَا لَزَيْنَبٍ إِذْ تَحَلَّ بِهَا قَطِينَا
وَأَذْرَتْهَا حَوَافِلُ مُعْصِفَاتٍ كَمَا تُذْرِي الْمَلَمَلَةَ الطَّحِينَا
وَسَافَرَتْ الرِّيَّاحُ بِهِنَّ عَصْرًا بِأَذْيَالٍ يَزُحْنُ وَيَعْتَدِينَا
فَأَبْقَيْنَ الطُّلُوقَ مُخَبِّياتٍ ثَلَاثًا كَالْحَمَائِمِ قَدْ بَلِينَا
وَأَرِيئَا بَعْهَدٍ مُرْتَدَاتٍ أَطْلَنَ بِهَا الصُّفُونَ إِذَا افْتَلِينَا
فَأَمَّا تَسْأَلِي عَنِّي نُبَيْيَ وَعَنْ نَسَبِي أُخْبِرُكَ الْيَقِينَا
ثَقِي أَبِي النَّبِيَّةِ أَبَا وَأَمَّا وَأَجْدَادًا سَمَوْا فِي الْأَقْدَمِينَا
لَأَفْصَى عِصْمَةَ الْأَفْصَى قَسِيٍّ عَلَى أَفْصَى بِنِ دُعْمِيٍّ بُنِينَا
وَدُعْمِيٍّ بِهِ يُكْنَى إِيَادُ إِلَيْهِ تَنْسَبِي كَيْ تَعْلَمِينَا
وَرِثْنَا الْمَجْدَ عَنْ كُتْبَرَا نِزَارٍ فَأَوْرَثْنَا مَا ثَرْنَا الْبَنِينَا
وَكُنَّا حَيْثُمَا عَلِمَتْ مَعَدُّ أَقْمَنَا حَيْثُ سَارُوا هَارِبِينَا

^١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي (٢٦٥/١).

^٢ انظر: المصدر السابق (٢٦٥/١).

^٣ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٤٠٧-٤١٢).

تُؤُوحٌ وَقَدْ تَوَلَّتْ مُدْبِرَاتِ
فَأَلْقَيْنَا بِسَاحَتِهَا خُلُوعًا
فَأَنْبَتْنَا خَضَارِمَ نَاضِرَاتِ
وَأَرْضَنَا لِرَيْبِ الدَّهْرِ جُرْدًا
وَحَطِيبًا كَأَشْطَانِ الرِّكَايَا
وَفَتِيَانًا يَرُونَ القَتْلَ مَجْدًا
تَخَالُ سَوَادَ أَيْكَتِهَا عَرِينَا
خُلُوعًا لِلْإِقَامَةِ مَا بَقِينَا
يَكُونُ نَتَاجُهَا عِنَبًا وَتِينَا
لِهَامِيْمَا وَمَاذِيًّا حَصِينَا
وَأَسِيَافًا يُقْمِنُ وَيَخْنِينَا
وَشِيْبًا فِي الخُرُوبِ مُجْرَبِينَا

وله كذلك أشعارٌ مختلفة في الأغاني، وخزانة الأدب، وطبقات الشعراء، والشعر
والشعراء؛ لا يسعنا التوسع فيها؛ لاندساس كثيرٍ ممَّا نُجِلُّ عليه، وله أبيات في
رثاء قتلى بدر من المشركين؛ يقول فيها:

مَآذَا بِبَدْرِ فَالْعَقْنُ
هَلَّا بَكَيْتَ عَلَى الكِرَا
قَلِّ مِنْ مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحِ
مِ بَنِي الكِرَامِ أُولِي المَمَادِحِ

^١ انظر: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمعي (١/٢٦٣).

تاسعًا: شاعرات الجاهلية

(صفية بنت ثعلبة- هند بنت النعمان- الخرنق بنت بدر-

الجليلة بنت مرة)

وللنساء كذلك نصيب في الشّعر الجاهلي، وهو أمر بديهي؛ إذ إن الشّعر كَفَنٍ وإبداعٍ؛ لن يكونَ قاصرًا عنهنَّ؛ فهو قائم على الطبع والغريزة، وليس متعلّقًا بجنس الشاعر؛ رجلًا كان أو امرأة، وقد حفظ الأدب الجاهلي عدّة أسماء من شاعرات الجاهلية، ولكن لم يصلنا من شعر النساء في العصر الجاهلي إلا نزرٌ يسيرٌ إذا ما قيسَ بأشعار الرجال، ولسنا ندري إن كان هذا من قِلّة أم من تقصير من الرواة الذين لم يَرَوْوا من شعر النساء كما رَوَوْا عن الشعراء الرجال. ولعل هذا التقصير من قِبَلِ الرواة وعدم روايتهم لشعر النساء في العصر الجاهلي، مما أدّى إلى ضياع معظمه؛ كان سببه طبيعة الحياة الجاهلية وظروفها القاسية؛ فقد كانت الحياة في الجاهلية حياة ترحال وسفر وتنقّل وحروب ومعارك ومنافرات ووفود إلى الملوك، وكلها صفات تتطلّب قدرًا كبيرًا من الصبر والجلد والبأس، ممّا لا يصلح أو يتناسب مع المرأة، وكانت كل قبيلة تعتدُّ بشاعرها وخطيبها من أجل أن يكون لسانها في السياسة ووافدها عند الملوك وقائدها في الوقائع والحروب؛ وأدوات كلّ هذا عند الرجال وليس النساء، فأين المرأة من كلّ تلك الأجواء التي تطلب صفات الجلد والصبر والبأس وشظف العيش.

إضافة إلى أن المجتمع العربي على مرّ تاريخه وفي أغلب عصوره، حتى في أقصى ظروف انحلاله؛ قد فرض على المرأة عاداتٍ وتقاليدهَ معيّنة، وفرض عليها حجابًا حجز بينها وبين الظهور، فلا تخرج عن إطار معين فرضه عليها المجتمع الذي كان يحاسبها حسابًا دقيقًا على خروجها وأقوالها وأفعالها، فبقيت المرأة في أغلب أحوالها حبيسة خيمتها وبين أهلها لا تخرج عن ذلك إلا في حالات نادرة، ولم

تخرج عن تلك القاعدة غير الشاعرة الخنساء التي ذاع صيتها وعلت شهرتها وعُرفت بنواحيها ورثائها لأخيمها صخر، وانتشرت أشعارها، وشهدت سوق عكاظ، غير أن حالة الخنساء تعتبر استثناءً من حالة عامة فُرضت على شاعرات الجاهلية، قلّما تمّ الخروج عليهما، وربما كان سبب كسر الخنساء تلك القاعدة هو نواحيها على أخويها وإسهابها في رثائهما في شعرها. وربما نلاقي بعض القصص والمواقف التي برزت فيها أسماء النساء؛ كرثاء الخنساء بنت زهير بن أبي سلمى لأبيها، وما رُوِيَ عن صفية الشيبانية في موقعة ذي قار، وأخبار هند بنت النعمان المعروفة بالحُرقة، وما فعلت ربحانة بنت معدي كرب أخت عمرو ابن معدي كرب وأم دريد بن الصمة؛ التي طالبت بئثار عبد الله ولدها القتيل وأخذت تحرّض ولدها على الثأر لأجله، ولم تزل تعيِّره وتحضُّه حتى نفر في طلب ثأره فغزا وقتل منهم وأسّر قاتل أخيه وأتى به إلى أمّه فقُتِل أمام أعينها، وأحضرت السيف وجعلت تلحسه بلسانها حتى انقطع منه شيء وهي لا تشعر؛ لغلبة الفرح عليها؛ ويروى أنها قالت تحرض على الأخذ بالثأر!

فإن أنتم لم تئأروا وتديتُم فمَشُوا بِآذَانِ النَّعَامِ الْمَصْلَمِ
ولا تَرِدُوا إِلَّا فُضُولَ نِسَائِكُمْ إِذَا ارْتَمَلَتْ أَعْقَابُهُنَّ مِنَ الدَّمِ

وكذلك ما رُوِيَ عن الخرنق بنت بدر أخت طرفة بن العبد، والجليلة بنت مرة البكرية؛ التي قُتِل زوجها كليب على يد أخيها جسّاس، وكان هذا سبب حرب البسوس؛ غير أن هذه كلها أشعار قليلة.

ويدور ما انتهى إلينا من شعر النساء؛ حول بعض الغزل، والرثاء، والتحرّيز على طلب الثأر، والدعوة إلى الثبات والاستماتة في المعارك والحروب.

^١ انظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي (٤٦/٣).

^٢ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص ١٦٠).

^٣ والبيت الثاني معناه أن الأصل أن يرد الرجال الماء قبل النساء، فإن تخلف أحدهم؛ كان ذلك ذلًا له.

ومن أبرز شاعرات الجاهلية:

١ - صفية بنت ثعلبة الشيبانية:

هي شاعرة جاهلية من شيبان؛ إحدى القبائل المتفرعة من بكر من ربيعة، وتلقب بالحجيحة، وقد استجارت بها وبقومها هند بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحرقة، في الأحداث التي أفضت إلى مقتل أبيها الملك ثم موقعة ذي قار، وكان أخوها عمر بن ثعلبة على رأس العرب في تلك الموقعة. وهو من أعظم فرسانهم، وقد كان لصفية دور بارز في تلك المعركة؛ حيث أخذت تحرض القبائل العربية والمقاتلين منهم على الاصطفاف والقتال لصدد الفرس، وقد روي لها في هذا شعر كثير، انتهى إلينا بعضه.

وفي شعرها سلاسة ورقة وعدوبة وانسجام موسيقي أنيق، وإيقاع سريع فيه انسيابية وطلاوة، ويدور ما انتهى إلينا من شعرها حول الحماسة والفخر والاعتزاز، ولها أبيات في وصف أحداث موقعة ذي قار، ومن نماذج شعرها تذكر إجارتها لهند بنت النعمان بن المنذر وتستحث بني شيبان على الإجارة والصمود وتفتخر بقومها!

أَحْيُوا الْجَوَارَ فَقَدْ أَمَاتَتْهُ مَعَا	كُلُّ الْأَعَارِبِ يَا بَنِي شَيْبَانَ
مَا الْعُدْرُ قَدْ لَقَّتْ ثِيَابِي حُرَّةً	مَغْرُوسَةً فِي الدَّرِّ وَالْمَرْجَانِ
بِنْتُ الْمُلُوكِ ذَوِي الْمَمَالِكِ وَالْعَلَى	ذَاتِ الْجِجَالِ وَصَفْوَةَ النُّعْمَانَ
أَتَهَاتِفُونَ وَتَشْحَدُونَ سُيُوفَكُمْ	وَتَقْوَمُونَ ذَوَابِلَ الْمَرَّانِ
وَتَسْوَمُونَ جُنُودَكُمْ يَا مَعْشَرِي	وَتَجِدُّونَ حَقِيبَةَ الْأَبْدَانِ
وَعَلَى الْأَكَاسِرِ قَدْ أَجْرَتْ لِحْرَةَ	بِكُهُولِ مَعْشَرِنَا وَبِالشُّبَّانِ
شَيْبَانَ قَوْمِي هَلْ قَبِيلٌ مِثْلَهُمْ	عِنْدَ الْكِفَاحِ وَكَرَّةِ الْفُرْسَانِ

^١ انظر: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت (ص ١١)، طبعة: المكتبة الأهلية، بيروت،

الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ-١٩٣٤م.

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ١١).

لا وَالذَّوَابِ مِنْ فُرُوعِ رَبِيعَةٍ مَا مَثَلُهُمْ فِي نَائِبِ الْحَدَثَانِ

وقالت في قصيدة تصف فيها انتصار قومها بني شيبان ومَن معهم من العرب على كسرى، وتذكر أمجاد وبطولات فرسانها، وتمدح أخاها عمرو بن ثعلبة!

أَهْدَى أَخِي عَمْرُو خَيْرَ الْغَنَمِ فَاَنْتَظِرُوا عِنْدَ الصَّبَاحِ حَيَاةَ الْخَيْلِ بِالْخَدَمِ
يَا آلَ شَيْبَانَ بَعْدَ الْيَوْمِ لَا صَدْرٌ عَنِ الْكِفَاحِ وَضَرْبِ مُتَلِفِ الْقِمَمِ
إِتْيِي وَعَمْرُو عَلَى وَعْدِ نَفِيءٍ بِهِ مِنْ الْوَفَاءِ وَأَسْبَابِ مِنَ الدِّمَمِ
أَنَا الْحُجْبَجَةُ مِنْ قَوْمِ ذَوِي شَرَفٍ أَوْلِي الْحِفَاظِ وَأَهْلِ الْعِزِّ وَالْكَرَمِ
وَالْعِزُّ فِيهِمْ قَدِيمًا غَيْرُ مُقْتَرَفٍ وَالجَارُ فَاعْلَمْ عَزِيْزٌ دَاوَةٌ بِهِمْ
قُوْلُوا لِكِسْرَى أَجْرْنَا جَارَةً فَنُوْتُ فِي شَامِخِ الْعِزِّ يَا كِسْرَى عَلَى الرَّغَمِ

وفي سياق ذي قار وما جرى حولها من وقائع؛ قالت صفيّة تمدح أحد قادة كسرى من العرب؛ كلّفه كسرى بقتالهم لكنه كان يضحُّ بدماء قومه، فأرسل سرًّا إلى بني شيبان يحذّرهم، ناصحًا ومؤازرًا لهم، ويُعلمهم بالأنباء:

لِلّهِ دَرْكٌ مِنْ نَصِيحٍ صَادِقٍ وَالنُّصْحُ رَأْيُكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
وَاللّهُ يَجْزِيكَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ إِنَّ الْمُهَيِّمِينَ وَاصِلٌ مَنْأَنُ
أَصْبَحْتَ فِي شَيْبَانَ حَوْلَ صَنَائِعٍ فَاتَسَدَّ لِحَمَلِهَا شَيْبَانُ
نَاصَحْتَهُمْ وَشَرَكْتَ فِي مَحْدُودِهِمْ وَالسِّرُّ عِنْدَكَ فِيهِمْ إِعْلَانُ
فَلَكَ الْجَزَاءُ بِمِثْلِهَا فِي حَادِثٍ لَا تَأْمَنَنَّ وَأَيِّنَ مِنْكَ أَمَانُ
وَالدَّهْرُ يَأْتِي بِالْفُصَارَى بَاقِيًا وَاعْلَمْ فِدَيْتُكَ إِنَّهُ خَوَّانُ

ولها كذلك أبيات حماسية تحرّض فيها بني شيبان على الصمود والقتال:

مَاذَا تَرَوْنَ بَنِي بَكْرِ وَقَدْ نَزَلَتْ كَيْرُ الذَّوَابِ وَالْأَخْرَى عَلَى الْأَثْرِ
أَتَصْبِرُونَ لِشِعْوَاءِ مُلْمِمْةٍ فِيهَا الْأَعَاجِمُ بِالنَّشَابِ وَالْوَتْرِ

١ انظر: المصدر السابق (ص ١٢).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ١٤).

٣ انظر: المصدر السابق (ص ١٥-١٦).

أم لستُم أهل صبرٍ في لوازِمِها عندَ الحَفائِظِ والحاراتِ والخَفْرِ
إنِّي أجرتُ بِكم يا قومُ فاصطَبِروا فالصَّبْرُ يحلُّ فوقَ الأنجمِ الزُّهرِ

ولصفيّة قصائد أخرى، لكن أغلب ما حُفِظَ عنها كان بمناسبة ذي قار وما رافقها من أحداث، ممّا قد يرجّح أن هذا هو سبب شهرتها، وأشعارها تمتاز بالعدوئية والسلاسة وطلاوة الإيقاع، وتشير إلى موهبة فذة لو أُتيحت لصاحبها لها فرصة الانطلاق لصارت في مقدّمة الشعراء الجاهليين.

٢- هند بنت النعمان (الحُرقة):

هي ابنة النعمان بن المنذر ملك الحيرة، عُرفت باسم "الحُرقة"، وكانت تعيش في قصره منعمّة مكرّمة، وكانت معروفة بالجمال والحسن الفائق، بالإضافة إلى رُقِيّها ورجاحة عقلها، حتى سمع بها كسرى أبرويز فطلبها من النعمان، لكن النعمان رفض طلبه، وكان ذلك كله من وشاية زيد بن عدي بن زيد العبادي؛ الذي كان النعمان قد قتل أباه، فأراد الإيقاع به، وزَيّن لكسرى ذلك؛ لعلّيه أنّ النعمان سيرفض طلبه، فكان ما كان من استدعاء كسرى للنعمان وحبسه ثم قتله أو موته في سجنه، وأما هند بنت النعمان فإنها ما لبثت أن أرسلها أبوها قبل مقتله إلى بني شيبان في بقيّة أهله ونسائه وأمواله، يستجير بهم، فانطلقت هند إلى بني شيبان واستجارت بهم، فأجاروها، ثم كان ما كان من أمر ذي قار وهزيمة الفرس، ويُقال: إن هند قد اعتزلت الناس بعد ذي قار وترهّبت في دير بين الحيرة والكوفة كما كان يفعل بعض النصارى، وقد طال عمرها حتى شاخت وعميت، وقد اختلّف في أخبار حياتها وزمن موتها.

وقد عاشت هند في النصف الأول من حياتها في القصور حياة مرفّهة منعمّة في كنف أبيها الملك، فلمّا صار ما صار؛ انتقلت للعيش في البادية والصحاري

والأديرة، فانقلب الحال من نعمة إلى مشقة وشظفٍ، ويصور شعرها هذا
الجانب الحزين من حياتها؛ حيث قالت:

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ

وقد عاشت هند في بلاط الملوك، فمن الطبيعي أن يكون لشعرها ما لشعر
البلاط من صفات وخصائص؛ تتلخّص في الانسيابية والرقّة والعذوبة،
وشعرها إجمالاً رقيق أنيق عذب سلس، ومن أشهر شعرها ما قالت في واقعة
ذي قار تمدح عمرو بن ثعلبة أخا صفيّة وتحرضه على الصمود والثبات لما اشتدّ
القتال في يوم ذي قار؛ إذ كانت بجوار صفيّة، فسفرت بين يديه وقالت:

حَافِظٌ عَلَى الْحَسْبِ النَّفِيسِ الْأَرْفَعِ بِمُدَجِّجِينَ مَعَ الرِّمَاحِ الشَّرَعِ
وَصَوْرَامٍ هَنْدِيَّةٍ مَصْقُولَةٍ بِسَوَاعِدِ مَوْضُولَةٍ لَمْ تُمْنَعِ

وقالت تمدحه:

لَقَدْ حَازَ عَمْرُو مَعَ قِبَائِلِ قَوْمِهِ فَحَازَ سَمًا فَوْقَ النُّجُومِ النَّوَابِ
هُمُ قَلَدُوا لَحْمًا وَغَسَّانَ مِئَّةً بِسُمْرِ الْقَنَا وَالْعَادِيَاتِ الشَّوَابِ

ومن شعرها قصيدة مدحت بها بني شيبان بعدما أجاروا وقاتلوا دفاعاً عنها وثأراً
لأبيها، وتخصّص صفيّة بالذكر شاكرةً لها جوارها وإعانتها لها:

الْمَجْدُ وَالشَّرْفُ الْجَسِيمُ الْأَرْفَعُ لِصَفِيَّةٍ فِي قَوْمِهَا يُتَوَقَّعُ
ذَاثُ الْحِجَابِ لِغَيْرِ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلِدَى الْهِيَاجِ يُحَلُّ عَنْهَا الْبُرْقُعُ
نُطْقَاءُ لَا لِيُوصَالَ حِلٌّ نُطْقُهَا لَا بَلَّ فَصَاحَتَهَا الْعَوَالِي تَسْمَعُ

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٢٥).

^٢ انظر: المصدر السابق (ص ٢٣).

^٣ انظر: المصدر السابق.

^٤ شواذب: مضمّرات. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/٤٩٤).

^٥ انظر: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت (ص ٢٤).

وقد أكرمها بنو شيبان غاية الإكرام، واختلفت الروايات بشأن حياتها؛ فهناك من زعم أنها عاشت زمنًا بعد الإسلام وأدركت الفتوحات الإسلامية بقيادة خالد ابن الوليد، وقيل: تُوفيت قبل أن يدعوها خالد إلى الإسلام؛ وقيل: بل دعاها فاعتذرت؛ لِكِبْرِ سِنِّهَا؛ وهناك من زعم أنها عاشت بعد ذلك زمنًا طويلاً، بالإضافة إلى أخبار أخرى يصعب التأكد من مدى صحَّتها.

٣- الخرنق بنت بدر:

هي الخرنق بنت بدر بن هفان، أخت الشاعر طرفة بن العبد لأمه وردة، وزوجها بشر بن عمرو بن مرثد^١، ولا تتوفر عنها أخبار كثيرة، وشعرها الذي وصل إلينا؛ جميعه من الهجاء والرتاء، ورُويت لها أبيات في رثاء أخيها طرفة وهجاء عمرو ابن هند وعبد عمرو بن بشر، ولها شعر في زوجها بشر الذي قُتل في بعض الغارات، وقد جُمع شعرها في ديوان صغير رواه أبو عمرو ابن العلاء، ومن شعرها في هجاء عبد عمرو ابن عمِّ طرفة؛ لوشايته بأخيها وتسبُّبه في قتله^٢:

أَبَا النَّخْبَاتِ وَآخِيَتِ الْمُلُوكَا أَلَا تَكَلِّتُكَ أُمُّكَ عَبْدَ عَمْرٍو
هُمُّ رَكَّوِكَ لِلرَّوَكِينَ رَكَّا وَلَوْ سَأَلُوكَ أَعْطَيْتَ الْبُرُوكَا
فَنُومُكَ عِنْدَ زَانِيَةٍ هَلُوكِ كظَلِّ الرَّجْعِ مِزْهَرِهَا ضُحُوكَا

وتقول رائية أخاها طرفة، ذاكرة عمره، أسفةً عليه لمقتله شابًا^٣:

عَدَدْنَا لَهُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضُخْمًا

^١ قال ابن قتيبة: إن عبد عمرو بن بشر بن مرثد هو زوج الخرنق أخت طرفة لأمه، هجاه لأن أخته عابت عليه بعض أموره. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/١٨٢)؛ ولكن الصحيح أن زوج الخرنق رجل آخر اسمه بشر بن عمرو بن مرثد؛ وفق ما ورد في شعر الخرنق؛ وسبب هذا الخطأ هو اشتباه الأسماء بين عبد عمرو بن بشر بن مرثد وبين بشر بن عمرو بن مرثد؛ إذ ليس من المنطقي أن تهجو الخرنق المتسبب في قتل أخيها ثم ترثيه بعد موته.

^٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ص ٩٤).

^٣ انظر: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت (ص ٨١).

فَجَعْنَا بِهِ لَمَّا انْتَهَرْنَا إِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حِينٍ لَا وَايِدًا وَلَا قَحْمًا

وتقول أيضًا في هجاء ابن عمِّه عبد عمرو وغدره بأخيها!

أَرَى عَبْدَ عَمْرٍو قَدْ أَشَاطَ ابْنَ عَمِّهِ وَأَنْصَجَهُ فِي غَلِيٍّ قِدْرٍ وَمَا يَدْرِي
فَهَلَّا ابْنَ حَسَّاسٍ قَتَلْتَ وَمَعْبِدًا هُمَا تَرَكَكَ لَا تَرِيشٌ وَلَا تَبْرِي
هُمَا طَعْنَا مَوْلَاكَ فِي عَطْفِ صُلْبِهِ وَأَقْبَلْتَ مَا تَلْوِي عَلَى مَحَجَرٍ تَجْرِي

ولمَّا قُتِلَ زوجها بشر وولدها علقمة في يومٍ يقال له قُلاب؛ رثهما قائلة:

أَعَاذَنِي عَلَى رُزْءِ أَفِيْقِي فَكَذَّ أَشْرَقْتَنِي بِالْعَذْلِ رِيْقِي
فَلَا وَأَبِيكَ آسَى بَعْدَ بَشْرِ عَلَى حَيٍّ يَمُوتُ وَلَا صَدِيقِ
وَبَعْدَ الْخَيْرِ عَلْقَمَةَ بِنِ بَشْرِ إِذَا نَزَّتِ النَّفُوسُ إِلَى الْخُلُوقِ
وَمَالَ بَنُو ضُبَيْعَةَ بَعْدَ بَشْرِ كَمَا مَالَ الْجُدُوعُ مِنَ الْحَرِيقِ
مَنْتَ لَهُمْ بِوَالِبَةِ الْمَنَايَا بِجَنْبِ قَلَابٍ لِلْحَيْنِ الْمَسُوقِ
فَكَمْ بِقَلَابٍ مِنْ أَوْصَالِ خِرْقِ أَخَى ثِقَةٍ وَجُمُجْمَةٍ فَلِيْقِ
نَدَامَى لِلْمُلُوكِ إِذَا لَقَوْهُمْ حُبُّوا وَسُقُّوا بِكَأْسِهِمْ الرَّحِيقِ
نَدَامَى لِلْمُلُوكِ إِذَا لَقَوْهُمْ فَمَا يَنْسَاغُ لِي مِنْ بَعْدِ رِيْقِي

ومن خلال ما انتهى إلينا من شعر الخرنق نلمح أنه شعر رصين، فخم اللفظ، قوي الأسلوب، فيه صفاء الطبع البدوي، ونقاء العاطفة، وهو في سماته غير بعيد عن خصائص شعر طرفة؛ كونهما من نفس المنبع.

١ انظر: المصدر السابق (ص ٨٣).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٨٠)..

٤- الجليلة بنت مرة:

هي ابنة مُرّة بن ذُهل البكريّ، وزوجة كليب بن ربيعة التّغليبيّ، وأخت همام وجساس ابنيّ مرة، شهدت حرب البسوس؛ حيث قام أخوها جساس بقتل زوجها بسبب ناقة خالته البسوس التي قتلها كليب، وكانت في جوار جساس، فلمّا قُتِل زوجها على يد أخيها؛ طردها أهله؛ كونها أخت القاتل، ولم يذكروا أنها زوجة المقتول، ويبدو أنها أثناء رحيلها وجّهت لها أخت كليب كلامًا جارحًا فيه شماتة، فأنشدت تقول ردًّا عليها!

يا ابنة الأعمام إن لمّت فلا
فإذا أنت تبيئت الذي
إن تكن أخت امرئ ليّمت على
جلّ عندي فعل جساس فيا
فعل جساس على وجدي به
لو بعين فديت عين سوي
تحمل العين أذى العين كما
يا قتيلاً قووض الدهر به
هدم البيت الذي استحدثته
ورماني قتله من كتب

تَعَجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي
يُوجِبُ اللَّوْمَ فُلُومِي وَعَذَلِي
شَفَقٍ مَنَا عَلَيْهِ فَاغْزَلِي
حَسْرَتِي عَمَّا انجلى أو ينجلي
قَاطِعُ ظَهْرِي وَمُذْنِ أَجَلِي
أُخْتِهَا فَاغْفَقَاتُ لَمْ أَحْفَلِ
تَحْمِلُ الْأُمُّ أَدَى مَا تَعْتَلِي
سَقَفَ بَيْتِي أَجْمَعًا مِنْ عَلِ
وَأَنْتِ فِي هَدْمِ بَيْتِي الْأَوَّلِ
رَمِيَةَ الْمُنْصَمِي بِهِ الْمُسْتَأْصِلِ

وقالت في رثاء زوجها!

يا عين فابكي فإن الشرّ قد لاحا
هذا كليب على الرّمضاء مُنْجَدِلٌ
وَأَسْبَلِي دَمْعِكَ الْمَحْرُورَ سَفَاحَا
بَيْنَ الْخُزَامَى عَلاهُ الْيَوْمَ أَرْمَاحَا

١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٧).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٣٨).

نماذج من الشعر الجاهلي

١- قال الأحنس بن شهاب التغلبي في الفخر والحماسة، وهو شاعر جاهلي من أشراف تغلب وشجعانها!

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا حِجَازَ بِأَرْضِنَا مَعَ الْغَيْثِ مَا نَلْقَى وَمَنْ هُوَ غَالِبٌ
تَرَى رَائِدَاتِ الْخَيْلِ حَوْلَ بُيُوتِنَا كَمِعْرَى الْحِجَازِ أَعَجَزَتْهَا الزَّرَائِبُ
فَيُغْبِقْنَ أَحْلَابًا وَيُصْبِحْنَ مِثْلَهَا فَهِنَّ مِنَ التَّعْدَاءِ قُبَّ شَوَازِبُ
فَوَارِسُهَا مِنْ تَغْلِبِ ابْنَةٍ وَايِلِ حُمَاةٌ كُمَاةٌ لَيْسَ فِيهَا أَشَائِبُ
هُمْ يَضْرِبُونَ الْكَنْبَشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الدِّمَاءِ سَبَائِبُ
بِحَاوَاءٍ يَنْفِي وَرْدُهَا سَرَعَانَهَا كَأَنَّ وَضِيحَ الْبَيْضِ فِيهَا الْكَوَاكِبُ
وَإِنْ قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَضْلُهَا خُطَانَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ نُضَارِبُ
فَلِلَّهِ قَوْمٌ مِثْلُ قَوْمِي سَوْفَةً إِذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ الْمُلُوكِ الْعَصَائِبُ
أَرَى كُلَّ قَوْمٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَتَقْضُرُ عَمَّا يَفْعَلُونَ الذَّوَائِبُ

٢- وقال بشر بن عمرو بن مرثد يتوعد عمرو بن كلثوم:

قُلْ لِابْنِ كَلْثُومِ السَّاعِي بِذِمَّتِهِ أَبْشِرْ بِحَرْبِ تَغْصُ الشَّيْخِ بِالرِّيْقِ
وَصَاحِبِيهِ فَلَا يَنْعَمُ صَبَاحُهُمَا إِذْ فُزَّتِ الْحَرْبُ عِنَ أَنْيَابِهَا الرُّوقِ
لَا يَبْعَثُ الْعَيْرَ إِلَّا غِبًّا صَادِقَةً مِنَ الْمَعَالِي وَقَوْمٌ بِالْمَفَارِيقِ

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٠٣-٢٠٨).

^٢ السبائب: جمع سببية وهي الشُّقَّة من الثياب. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/٤٥٧).

^٣ الجأواء: كثيرة الدروع. انظر: المصدر السابق (١٢٧/١٤).

^٤ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٧٤-١٧٥).

٣- وقال جابر بن حُيِّ التَّغَلبيُّ!

لِتَغْلِبَ أَبْيَى إِذْ أَثَارَتْ رِمَاحُهَا
وَكَانُوا هُمْ الْبَانِينَ قَبْلَ اخْتِلَافِهِمْ
إِذَا نَزَلُوا النَّغَرَ الْمُخَوْفَ تَوَاضَعَتْ
عَوَائِلَ شَرِّ بَيْنَهَا مُتَتَلِّمٌ
وَمَنْ لَا يَشُدُّ بُنْيَانَهُ يَتَهَدَّمُ
مَخَارِمُهُ وَاحْتَأَّهُ ذُو الْمُقَدَّمِ

٤- وقال زهير بن جناب الكلبي، وهو أحد سادات وخطباء قضاة، يصف بعض وقائعه!

أَبَى قَوْمَنَا أَنْ يَقْبَلُوا الْحَقَّ فَانْتَهَوْا
فَجَاؤُوا إِلَى رِجْرَاجَةٍ مَتَمَّرَةٍ
دِرْعٌ وَأَرْمَاحٌ بِأَيْدِي أَعَزَّةٍ
وَخَيْلٌ جَعَلْنَاهَا دَخِيلَ كَرَامَةٍ
فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَرَكْنَا رِئِيسَهُمْ
فَكَائُنُ تَرَى مِنْ مَاجِدٍ وَابْنِ مَاجِدٍ
إِلَيْهِ وَأَنْيَابٌ مِنَ الْحَرْبِ تَحْرِقُ
يَكَادُ الْمُرِّي نَحْوَهَا الطَّرْفَ يُصْعَقُ
وَمَوْضُونَةٌ مِمَّا أَفَادَ مُحَرِّقُ
عَقَادًا لِيَوْمِ الْحَرْبِ تَحْفَى وَتَغْبِقُ
تَعَفَّرُ فِيهِ الْمُضْرِحِيُّ الْمُدْلِقُ
بِهِ طَعْنَةٌ نَجْلَاءُ لِلْوَجْهِ تَشْهَقُ

٥- وقال سلمة بن الخُرشب، في لغة حماسية، يصف انتصاره على بني عامرٍ قوم عامر بن الطفيل:

إِذَا مَا عَدَوْتُمْ عَامِدِينَ لِأَرْضِنَا
فَإِنَّ بَنِي دُبْيَانَ حَيْثُ عَهْدْتُمْ
يَسُدُّونَ أَبْوَابَ الْقِيَابِ بِضَمِّرٍ
وَأَمْسَوْا جِلَالًا مَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ
بَنِي عَامِرٍ فَاسْتَظْهَرُوا بِالْمَرَائِرِ
بِجَزَعِ الْبَتِيلِ بَيْنَ بَادٍ وَحَاضِرِ
إِلَى عُنْنِ مُسْتَوْتِقَاتِ الْأَوَاصِرِ
عَلَى كُلِّ مَاءٍ بَيْنَ فَيْدٍ وَسَاجِرِ

١ انظر: المصدر السابق (٢٠٨-٢١٢).

٢ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٤٥).

٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٦-٣٨).

٦- وقال عمرو بن قميئة، وكان مصاحبًا لحجرٍ وابنه امرئ القيس، ووفق بعض الروايات فإنه رافق الأخير في رحلته إلى قيصر الروم!

إِنْ أَكْ قَدْ أَقْصَرْتُ عَنْ طُولِ رِحْلَةٍ فَيَا رَبِّ أَصْحَابِ بَعَثْتُ كِرَامِ
فَقُلْتُ لَهُمْ سِيرُوا فِدَى خَالَتِي لَكُمْ أَمَا تَجِدُونَ الرِّيحَ ذَاتَ سِهَامِ
فَقَامُوا إِلَى عَيْسٍ قَدْ انْضَمَّ لِحُمِّهَا مُوقِّقَةً أُرْسَاغَهَا بِخُدَامِ
وَقُمْتُ إِلَى وَجْنَاءَ كَالْفَحْلِ جَبَلَةٍ ثَجَاوِبُ شَدَى نَسَعَهَا بِبَغَامِ
فَأوردتهم ماءً عَلَى حِينِ وَرْدِهِ عَلَيْهِ خَلِيطٌ مِنْ قَطَا وَحَمَامِ

٧- وقال يزيد بن المخرم الحارثي المذحجي:

تَعَجَّبُ جَارَتِي لَمَّا رَأَتْني كَذَاتِ النَّوْطِ مُخْدِرَتِي جِرَاحِي
كَأَنَّكَ لَمْ تَرَي قَبْلِي أُسِيرًا يُقَادُ بِهِ عَلَى جَمَلٍ رِدَاحِ
عَلَى آثَارِ أَحْمِرَةٍ وَفِرْقِ ثَقَسَمُ بَيْنَ أَغْوَالَةٍ شِحَاحِ
فَلَمَّا أَنْزَلُونِي كُنْتُ حُرًّا أَجَالِدُهُمْ لَدَى كَفَلِ الْجِنَاحِ
تَعَاوَرَهُ الرَّجَالُ فَأَنْزَلُونِي عَنِ الْفَرَسِ الْمُطَهَّمَةِ الْوَقَاحِ
فَلَمَّا أَنْ كُنْتُ وَغَابَ قَوْمِي أُسِرْتُ إِسَارَ مُحْتَبَلِ الْبِرَاحِ
رَأُونِي مُفْرَدًا فَتَنَادُرُونِي وَمَا صَدَعَتْ كُمَاتُهُمْ جِمَاحِي
وَقَدْ رَوَعَتْهُمْ قَدَمًا بِخَيْلِ جَوَانِفَ فِي الْأَعْنَةِ كَالسَّرَاحِ

٨- وقال ثعلبة بن صعير:

هَلْ عِنْدَ عَمْرَةٍ مِنْ بَنَاتِ مُسَافِرِ ذِي حَاجَةٍ مَتْرُوحِ أَوْ بَاكِ
سَمِّمِ الْإِقَامَةَ بَعْدَ طُولِ تَوَائِهِ وَقَضَى لُبَانَتَهُ فَلَيْسَ بِنَاطِرِ

١ انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ٨).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٣٨٩).

٣ انظر: المصدر السابق (ص ٧٠).

٩- وقال حاجز بن عوف الأزدي، وهو من المُقلِّين!

سَأَلْتُ فَلَمْ تُكَلِّمْنِي الرُّسُومَ فَظَلْتُ كَأَنَّي فِيهَا سَقِيمٌ
بِقَارِعَةِ الْغَرِيفِ فَنَدَاتِ مَشِيٍّ إِلَى الْعَصْدَاءِ لَيْسَ بِهَا مُقِيمٌ
مَنَازِلُ عَذْبَةِ الْأَنْيَابِ حَوْدٍ فَمَا إِنْ مِثْلَهَا فِي النَّاسِ نِيْمٌ
فِيمَا أَنْ صَرَفْتِ فَعَيَّرُ بُعْضِ وَلَكِنْ قَدْ تُعَدِّينِي الْهُمُومُ

١٠- وقال معمر بن حمار البارقى الأزدي؟

أَمِنَ آلَ شَعَثَاءِ الْحُمُولِ الْبَوَاكِرُ مَعَ الصُّبْحِ قَدْ زَالَتْ بِهِنَّ الْأَبَاعِرُ
وَحَلَّتْ سُلَيْمَى فِي هِضَابٍ وَأَيْكَةٍ فَلَيْسَ عَلَيْهَا يَوْمَ ذَلِكَ قَادِرُ
تَهَيَّبِكَ الْأَسْفَارَ مِنْ حَشِيَّةِ الرَّدَى وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رَدٍ لَا يُسَافِرُ
وَأَلَقْتَ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ
فَصَبَّحَهَا أَمْلَاطُهَا بِكَتِيبَةٍ عَلَيْهَا إِذَا أَمَسَتْ مِنَ اللَّهِ نَاطِرُ

١١- وقال أوس بن غلفاء يصف بعض مواقعه؟

أَلَا مَنْ مُنْبِلُ الْجِرْمِيِّ عَنِّي وَخَيْرُ الْقَوْلِ صَادِقَةُ الْكَلَامِ
فَهَلَّا إِذْ رَأَيْتَ أَبَا مُعَاذٍ وَعُجْبَةً كُنْتَ فِيهَا ذَا انْتِقَامِ
أَرَاهُ مُجَامِعَ الْوَرِكَيْنِ مِنْهَا مَكَانَ السَّرَجِ أُثْبِتُ بِالْحِزَامِ

١٢- وقال عوف بن الأحوص؟

وَإِنِّي وَالَّذِي حَجَّتْ قَرِيشُ مَحَارِمَهُ وَمَا جَمَعَتْ حِرَاءُ
وَشَهْرُ بَنِي أُمَيَّةَ وَالْهَدَايَا إِذَا حَبَسَتْ مُضَرِّجَهَا الدِّمَاءُ

١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٨٤-٣٨٥).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ٣٨٠).

٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٨٩).

٤ انظر: المصدر السابق (ص ١٧٤).

أَدْمُكَ مَا تَرَفَّرَقَ مَاءَ عَيْنِي عَلَيَّ إِذَا مِنْ اللَّهِ الْعَفَاءُ
أَقْرُّ بِحِكْمِكُمْ مَا دُمْتُ حَيًّا وَالزُّمُّهُ وَإِنْ بَلَغَ الْفَنَاءُ

١٣- وقال معوِّذ الحكماء، وهو معاوية بن مالك أخي براء ملاعب الأسنَّة،
وعمُّ لبيدٍ وعامر بن الطُّفَيْلِ!

وَكُنْتُ إِذَا الْعَظِيمَةُ أَفْطَعَتْهُمْ نَهَضْتُ وَلَا أَدْبُ لَهَا دَبَابَا
بِحَمْدِ اللَّهِ ثُمَّ عَطَاءِ قَوْمٍ يُفْكُونُ الْغَنَائِمَ وَالرِّقَابَا
إِذَا نَزَلَ السَّحَابُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

١٤- وقال عامر الخصفي:
وَإِنَّا لَنَنْتَبِي الْخَيْلَ قَبَا شَوَازِيَا عَلَى الثَّغْرِ يُغْشِيهَا الْكَمِي الْمَكْلَمَا
وَنَضْرِبُهَا حَتَّى نُحَلِّلَ نَفْرَهَا وَتَخْرُجُ مِمَّا تَكْرَهُ النَّفْسُ مَقْدَمَا

١٥- وقال عميرة بن جُعل التعلبي يهجو قومه ويصف رجالهم دون نساءهم
باللوم:

كَسَا اللَّهُ حَيِّي تَغْلِبَ ابْنَةَ وَاوَلٍ مِنَ اللُّؤْمِ أَظْفَارًا بَطِيئًا نُصُولُهَا
فَمَا بِهِمْ أَنْ لَا يَكُونُوا طَرُوقَةً هِجَانًا وَلَكِنْ عَفَّرْتَهَا فُحُولُهَا
تَرَى الْحَاصِنَ الْغَرَاءَ مِنْهُمْ لِشَارِفٍ أُخِي سَلَّةٍ قَدْ كَانَ مِنْهُ سَلِيُهَا

^١ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٥٩)؛ منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ١٣١).

^٢ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣١٩)؛ منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن ميمون (ص ١٣٠).

^٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٢٥٧-٢٥٨).

١٦- وقال مرّة بن همّام بن مرّة يعتب على رجل يقال له عوف؛ قد سطا على إبل له!

يا صاحبي ترحّلا وتقرّبا
طال الثواء فقربا لي بارلا
أكلت شعير السيلحين وعصاة
وكأنها بلوى مريحة خاضب
يا عوف ويحك فيم تأخذ صرمتي
تالله لولا أن تشاءى أهلها
لبعثت في غرض الصراخ مفاضة
لتركتم إبلي رتاعا إنني
لله عوف لابسا أتوابه
فلقد أنى لمسافر أن يطربا
وجنأ تقطع بالردافى السبسا
فتحابت لي بالنجاء تحابا
شقاء نقة ثباري غيبا
ولكنت أسرحها أمامك عزبا
ولشر ما قال امرؤ أن يكذبا
وعلوت أجرد كالعسيب مشدبا
مما أزد الجيش عنها خيبا
يا لهف نفسي قرن ما أن يغلبا

١٧- وقال عامر بن الحارث بن رباح -المعروف بالأعشى الباهلي- يرثي أخاه
قتل!

عشنا به بزهة دهرًا فودّعنا
فنعّم ما أنت عند الخير تسألُهُ
أصبت في حرمٍ مما أختة
فإن جزعنا فإن الشرّ أجزعنا
كذلك الرّمح ذو النصلين ينكسر
ونعم ما أنت عند البأس تختصر
هند بن سلمى فلا يهنا لك الظفر
وإن صبرنا فأنا معشر صبر

١٨- وقال الممق العبيدي:

أرقت فلم تخدع بعيني وسنة
تبيت الهوم الطارقا يعذني
من يلق ما لاقيت لا بدّ يارق
كما تعري الأهوال رأس المطلق

١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٠٢-٣٠٣).

٢ انظر: جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (٥٦٨-٥٧٦).

٣ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٦٤).

وَنَاجِيَةٍ عَدَيْتُ مِنْ عِنْدِ مَاجِدٍ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ سُخْطٍ مُفَرَّقٍ

١٩- وُرُوِي عن عِلْبَاءِ بنِ أَرْقَمٍ قَوْلُهُ!

تَرِبْتُ يَدَاكَ وَهَلْ رَأَيْتَ لِقَوْمِهِ
يَوْمًا إِذَا مَا النَّائِبَاتُ طَرَفْنَا
مَثَلِي عَلَى يُسْرِي وَحِينَ تَعَلَّتِي
أَكْفِي بِمُعْضَلَةٍ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

٢٠- وَقَالَ شَمْرُ بنِ عَمْرٍو الحَنْفِيُّ:

لَوْ كُنْتُ فِي رِيْمَانَ لَسْتُ بِبَارِحٍ
لِي فِي ذُرَاهُ مَا مَآكِلٍ وَمَشَارِبٍ
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى اللَّائِمِ يَسْبُنِي
عَضْبَانَ مَمْتَلَأًا عَلَيَّ إِهَابُهُ
يَا رَبِّ نَكْسٍ إِنْ أَتَيْتُهُ مَنِّي
أَبَدًا وَسُدَّ خِصَاصُهُ بِالطَّيْنِ
جَاءَتْ إِلَيَّ مَنِّي تَبْغِينِي
فَمَضَيْتُ ثُمَّتُ قُلْتُ لَا يَغْنِينِي
إِنِّي وَرَبِّكَ سُخْطُهُ يُرْضِينِي
فَرِحَ وَخِرَقٍ إِنْ هَلَكْتُ حَزِينِ

٢١- وَقَالَ زَبَّانُ بنِ سَيَارِ المُرِّي يَهْجُو بَنِي بَدْرٍ:

أَلَمْ يَنْهَ أَوْلَادَ اللَّقِيْطَةِ عِلْمُهُمْ
يَطِيْفُونَ بِالْأَعْشَى وَصَبَّ عَلَيْهِمْ
وَإِنْ قَتِيلًا بِالْهَبَاءِ فِي اسْتِهِ
مَتَى تَقْرُؤُوهَا تَهْدِكُمْ مِنْ ضَلَالِكُمْ
بِزَبَّانٍ إِذْ يَهْجُوْنَهُ وَهُوَ نَائِمٌ
لِسَانُ كَصَدْرِ الْهِنْدَوَانِيِّ صَارِمٌ
صَحِيفَتُهُ إِنْ عَادَ لِلظُّلْمِ ظَالِمٌ
وَتُعْرَفُ إِذَا مَا فُضَّ عَنْهَا الْخَوَاتِمُ

١ انظر: المصدر السابق (ص ١٦٢).

٢ انظر: المصدر السابق (ص ١٢٦).

٣ انظر: المفضليات، المفضل الضبي (ص ٣٥٣-٣٥٤).

٢٢- وقال عوف بن عطية التيمي يفتخر!

أَلَمْ تَرَ أَنَّنَا مِرْدَى حُرُوبٍ نَسِيلُ كَأَنَّنا دُقَّاعُ بَحْرِ
وَلَنَلْبَسُ لِلْعَدُوِّ جُلُودَ أُسَدٍ إِذَا نَلَقَاهُمْ وَجُلُودَ نُمَرِ
وَنَرَعَى مَا رَعَيْنَا بَيْنَ عَبَسٍ وَطَيْئِهَا وَبَيْنَ الْحَيِّ بَكْرِ
وَكُلُّهُمْ عَدُوٌّ غَيْرُ مُبْقٍ حَدِيثًا قُرْحُهُ يَسْعَى بِوَتْرِ

٢٣- وقال أبو كبير الهذلي؛ وهو عامر -أو عُويمر- بن حُلَيْس، أحد أبرز الشعراء

الصعاليك!

وَلَقَدْ سَرَيْتُ عَلَى الظَّلَامِ بِمِعْتَمٍ جَلِدٍ مِنَ الْفَتِيَانِ غَيْرِ مُنْقَلِ
مَمَّنْ حَمَلَنْ بِهِ وَهَنَّ عَوَاقِدُ حُبُكَ النَّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ
وَمُبَرِّا مِنْ كُلِّ غَبْرٍ حَيْضَةَ وَفَسَادِ مُرْضَعَةٍ وِدَاءِ مُغْيَلِ
حَمَلْتُ بِهِ فِي لَيْلَةٍ مَزُودَةَ كَرَّهَا وَعَقْدُ نِطَاقِهَا لَمْ يُخَالِ
فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الْفُؤَادِ مُبَطَّنًا سُهْدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهَوَجَلِ
وَإِذَا نَبَذَتْ لَهُ الْحَصَاةَ رَأَيْتَهُ يَنْزُو لَوْقَعَتِهَا طُمُورَ الْأَخْيَلِ
وَإِذَا يَهَبُ مِنَ الْمَنَامِ رَأَيْتَهُ كَرْتُوبِ عَظْمِ السَّاقِ لَيْسَ بِزَمَلِ
مَا إِنْ يَمَسُّ الْأَرْضَ إِلَّا مَنَكَبٌ مِنْهُ وَحَرْفِ السَّاقِ طَيِّ الْمَحَمَلِ
وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ الْفِجَاجَ رَأَيْتَهُ يَهْوِي مَخَارِمَهَا هَوِيَّ الْأَجْدَلِ
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسْرَةٍ وَجْهَهُ بَرَقَتْ كَبْرَقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

^١ انظر: المصدر السابق (ص ٣٢٨).

^٢ انظر: شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ص ٦٤-٦٩).

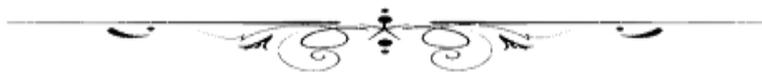
^٣ الهوجل: الأحمق. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١/٦٩٠).



٢٤-وقالت سُعدَى بنت الشَّمرِدلِ الجَهنِيَّة تَرتي أخاها الذي قتلَه بنو سليم:

أَمِنَ الحِوَادِثِ وَالْمُنُونِ أُرْوَعُ
وَأَبَيْتُ مُخْلِيةً أَبْكَى أَسْعَدًا
وَتُبَيَّنُ العَيْنُ الطَّليحَةُ أَنهَآ
وَلَقَدْ بَدَأَ لِي قَبْلُ فِيمَا قَدْ مَضَى
أَنَّ الحِوَادِثَ وَالْمُنُونِ كَلَيْهِمَا
وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ كُلَّ مُؤَخَّرٍ
أَفْلَيْسَ فَيَمُنُّ قَدْ مَضَى لِي عِبْرَةٌ
وَأَبَيْتُ لِيْلِي كَلَّهَ لَا أَهْجَعُ
وَلَمِثْلِهِ تَبْكِي العُيُونُ وَتَهْمَعُ
تَبْكِي مِنَ الجَزَعِ الدَّخِيلِ وَتَدْمَعُ
وَعَلِمْتُ ذَاكَ لَوَ أَنَّ عِلْمًا يَنْفَعُ
لَا يُعْتَبَانِ وَلَوْ بَكَى مَنْ يَجْزَعُ
يَوْمًا سَبِيلَ الأَوَّلِينَ سَيَتَّبَعُ
هَلَكُوا وَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ لَنْ يَرْجِعُوا

١ انظر: الأصمعيات، الأصمعي (ص ١٠١-١٠٢).



النثر في العصر الجاهلي

نظرة عامة:

النَّثر هو الكلام المرسل الذي لا يتقيّد بالوزن والقافية، ونحن هنا لا نتحدّث عن النثر العادي الذي يكون كلامًا بين عامة الناس؛ ولكن نعني النثر الفني الذي تُستهدَف به البلاغة وقُدرة التأثير في نفوس سامعيه، ويحفل بالخصائص البلاغية التي تشتمل على الجوانب الفنية وحسن الصياغة وجمال الأداء، ومن البديهي أن يكون النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود؛ لقرب تناوله وسهولة مأخذه وعدم تقيُّده.

ويحيط قدرٌ كبيرٌ من الغموض حول النثر الجاهلي؛ سواء في نصوصه القليلة التي وصلتنا أو في نشأته وظهوره والمراحل التي تطوّر فيها حتى وصل إلى تلك الصورة الناصعة في أواخر العصر الجاهلي؛ من حُطَبٍ ووصايا وحكَمٍ وأمثال وأسجاع للكهان.

صحيح أن النثر -ولا سيّما الفني منه- قد يكون سبق الشعر في الظهور نظريًا، ولكن تاريخيًا ليس لدينا ما يثبت ذلك إثباتًا جذريًا؛ بسبب قلة النصوص التي وصلتنا.

وما وصل إلينا من النصوص النثرية في العصر الجاهلي ليست شيئًا؛ مقارنة مع ما وصلنا من الشعر؛ والسبب في ذلك أن الشعر كان أوسع انتشارًا وأعظم شهرةً وأسهل حفظًا؛ بسبب جريان القافية والوزن مع الطبع، فكثُرَ حُفَاطُه ورواؤه وأنصاره، أما النثر فإنه كان أقل حفظًا وأصعب رواية؛ فهو يحتاج أكثر إلى تدوين، وهو ما لم يفعله عرب الجاهلية؛ بسبب الأميّة الشائعة، لذا كانت نصوص النثر أكثر عرضةً للتحريف والضياع، ومع هذا فقد وصلت إلينا بعض النصوص البليغة التي تشير إلى أن النثر قد ازدهر وزادت أهميته في المدّة الأخيرة من العصر الجاهلي، وتَجَسَّد ذلك في خطب المنافرات والمفاخرات والوفود على

المملوك؛ حيث أدى ميل بعض الشعراء إلى التَّكسُّب في شعرهم أن نفر منه البعض وآثروا الخطابة.

خصائص النثر الجاهلي:

النثر عمومًا من الناحية الأسلوبية يكون على ضربين؛ إما النثر المرسل وهو الذي لا يتم فيه التقييد بشيء؛ والنثر المسجوع وهو الذي يتم تقسيم عباراته بالتزام شيء من التقفية أو السجع؛ كما زُوي عن قول كاهنة لبعض أصحابها "وخيرُ الرجال الجوادُ البطل، القليلُ الفشل، إذا سأله الرجل، ألفاه قليل العلل، كثير النقل"؛ فهذه عبارات مسجوعة تتفق خواتمها في حرف واحد، وقد يتغيّر الحرف كل جملتين أو ثلاثٍ؛ وهو ما يُسمّى بالسجع الذي يشبه القافية في الشعر.

والنثر الجاهلي يمتاز بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلف أو زخرف ولا غلو، يسير مع أخلاق البدوي وبيئته، وهو قوي اللفظ، متين التركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب، قريب الإشارة، سطحي الفكرة، وهو مليء بالعبارات المسجوعة، ولعل هذا السجع سببه ما كان عليه العرب من غلبة الشعر على طبيعتهم، فضلًا عن أمّيتهم، فكانت أفكارهم في أغلبها غير مرتّبة ولا منتظمة، فكان السجع بالنسبة لهم أفضل وسيلة لتنسيق أسلوبهم وتزيين عباراتهم؛ للتأثير في نفوس سامعهم بالإيقاع الموسيقي الذي يُحدّثه هذا الحلي اللفظي، وهو سجع -على كثرتة- يبدو عفويًا لا تكلف فيه؛ لأنه يجري مع الطبع، ونلاحظ في عبارات النثر الجاهلي أيضًا الجزالة والغموض والخشونة وغريب اللفظ.

^١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/١١٥)، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت-لبنان.

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص١٩).

فنون النثر الجاهلي:

وينقسم النثر الجاهلي إلى فنون عدة؛ هي: الخطابة والوصايا والحكم والأمثال والقصص وسجع الكهان، وسنفضّل كلٌّ فنٍّ منها على حدّةٍ.

(١) الخطابة والوصايا:

وذلك أن يُلقِي الخطيب كلامًا وسط جمعٍ من الناس، فيما يُعرَف بالخطبة، وتُعتبر أبرز فنون النثر الجاهلي وأشهرها وأهمّها، فكان للخطيب منزلة في قبيلته ولدى قومه تكافئ منزلة الشاعر؛ إذ كان لسان قومه في الدفاع عنهم وإبلاغ رسائلهم إلى الملوك عند الوفود إليهم، وهي مظهر من مظاهر الحرية والفروسية، وسبيل من سبل التأثير والإقناع و تعديد المفاخر والمناقب، وهي تحتاج إلى طلاقة اللسان ونصاعة البيان؛ ومن عوامل ازدهار الخطابة أنها كانت ضرورة في الحروب؛ للحماسة واستنهاض المحاربين والتحريض على القتال، وكانت من مظاهر المفاخرات والمنافات التي تحدث بين القبائل، وكانت أيضًا من أساليب الإثارة ونشر الدعوة، وقد كثرت دواعيها من الفخر بالحسب والنسب وكثرة السفارات والوفود، وفي المنازعات والخصومات ومحاولات الإصلاح والدعوة إلى الحرب أو إلى السلم؛ وكلّها من الدواعي التي أدّت إلى ازدهار الخطابة بسبب طبيعة حياة الصحراء وما فيها من تنازع وغزو وقتل وتنافر، فكان من العرب من يدرب عليها فتياهه منذ الحداثة.

فضلاً عن أن ميل بعض الشعراء إلى التكسب من شعرهم دفع نفرًا إلى إيثار الخطابة عليه، وزاد من ذلك أن الخطابة أوسع مادة وأسلس أسلوبًا؛ فهي غير مقيّدة بالشعر والقوافي كما هو حال الشعر.

وكان من عادة الخطباء الوقوف على مرتفعٍ من الأرض أو ركوب الدابة والخطابة من على رواحلهم، والاستعانة بالإشارة ورفع اليد، وربما أشار بعضهم بالرمح أو الصفاح أو القنا، وقد ساعد من انتشارها كذلك ما كان يجري في

^١ انظر: المصدر السابق.

أندية ومجالس السادة وأسواق العرب من وفود واجتماعات ومحافل، وما كان من وفود شيوخ وسادة القبائل على الملوك، فكانت الخطابة مثل الشعر وسيلة لإبلاغ الرسالة، فكان لكل قبيلة شاعرها وخطيبها وفارسها.

وامتازت الخطابة بجزالة اللفظ، وقوة الأسلوب، ووضوح الفكرة، ودقة المعنى، وقصر العبارات، وتراؤف الجمل، وغلبة السجع عليها كي تكون أقرب للذهن وأعلق بالصدر، والتنوع بين الإيجاز والإطناب، والاستعانة أحياناً بالتشبيهات البلاغية والاستعارة والصور البيانية، والخطابة في أسلوبها وموضوعاتها مستمدة من واقع البيئة البدوية وما فيها من أحداث ومظاهر للحياة.

والخطيب حتى يكون موهوباً؛ لا بد له أن تتفق له عدّة صفات؛ من بينها قوة الحجّة وسلامة المنطق وحسن الإشارة، والقدرة على التأثير والإقناع، وسرعة البديعة، وفخامة الصوت وجهوريته، والتحكم في المظاهر التأثيرية والنفسية والنبرات الصوتية، واختيار العبارات والأسلوب، بالإضافة إلى سعة الدراية باللغة والمفردات والعبارات، والقدرة على ترتيب جملة وعباراته، ومس عاطفة السامع وقلبه.

ومن الخطباء من كان "يتخذ العقل دليلاً فيعتمد إلى التفاصيل والبراهين والمنطق والشواهد فيعتمد إلى التفصيل التعليل وإبراز الشواهد والأدلة"؛ ومنهم من كان "يتخذ العاطفة سبيلاً ووسيلة إلى الإقناع فيعتمد إلى العبارات القصيرة والسجع والتشبيه والاستعارة والصور شديدة الوقع"؛ ومنهم من كان يوجز في كلامه إيجازاً بليغاً يغني عن المفصلات والمطولات، ومنهم من يميل إلى الإطناب والاسترسال.

وقد تنوّعت موضوعات الخطابة وأغراضها؛ فكانت هناك خطابة حماسية تُستعمل في الحروب والمعارك للتحريض على القتال وتحميس المحاربين، وهناك خطابة سياسية إصلاحية تهدف إلى إيقاف الحرب والدعوة إلى السلم وإصلاح

^١ نقلا عن: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١١٠/١)

^٢ نقلا عن: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١١٠/١)

ذات البين، وخطابة محفلية؛ ونعني بها خُطَب الوفود التي تُلقَى من سادة القبائل الوافدين على الملوك في بلاطهم، وكذلك خُطَب المفاخرات والمنافرات؛ وهي الخطب التي كان يلقيها اثنان متخاصمان يعدّ كلُّ منهما مآثر قومه ويفاخر على حساب الآخر محاولاً التغلّب عليه أمام ملك أو حكم يحكم، فمن مالت كفته وكان أبلغ؛ حُكِم له، وكانت تكثُر فيها المفاخرة بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب؛ كمنافرة علقة بن علاثة مع عامر بن الطفيل أمام هرم الفزاري على سيادة بني عامر، ومنافرة القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلي أمام ربيعة بن حذار الأسدي؛ ومنافرة هاشم بن عبد مناف وأمّية بن عبد شمس على سيادة مكة، ثم منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمّية.

وهناك خُطَب الخطوبة أو الزواج، ويوجد قليل من الخطب الوعظية والدعوة إلى الزهد، بالإضافة إلى الوصايا؛ وهو ما يوصي به شخص لبنيته أو لأقاربه أو لرهطه أو بعض رفاقه إذا طعن في السن أو حضرته الوفاة؛ وهي مثل الخطبة لكن الخطبة تكون في جمعٍ علنيٍّ على ملائمة الناس، بينما الوصايا تخص الأهل أو الأقارب أو الصحب على نطاق ضيق.

وكان الشعر أعلى قدرًا من الخطابة، حتى بدأت الخطابة تعلو وتتفوّق عليه في أواخر العصر الجاهلي ثم في العصر الإسلامي، وليس أدلّ على ارتقاء منزلة الخطابة أو أواخر هذا العصر من قول أبي عمرو ابن العلاء: كان الشاعر فوق الجاهلية يُقدّم على الخطيب؛ لفرط حاجتهم إلى الشعر؛ الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويُخوّف من كثرة عددهم، ويهايم شاعر غيرهم، فيراقب شعرهم، فلما كثُر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوق وتسرعوا إلى أعراض الناس؛ صار الخطيب عندهم فوق الشاعر؛ وقال الجاحظ: كان

١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوفي ضيف (ص ٤١٠-٤١١).

الشاعر ارفع قدرًا من الخطيب، وهم إليه أحوج؛ لردّه مآثرهم عليهم؛ لتذكيرهم بأيامهم، فلمّا كثّر الشعر؛ صار الخطيب أعظم قدرًا من الشاعر!

ومن أشهر الخطباء في العصر الجاهلي في مكة هاشم بن عبد مناف جد النَّبِيِّ ﷺ، وولده عبد المطلب بن هاشم، وسُهَيْل بن عمرو وهو صحابي أسلم بعد فتح مكة، وعتبة بن ربيعة، ونُفَيْل بن عبد العزّي الذي تفاخر أمامه عبد المطلب وحرب بن أمية؛ وهو جد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه؛ وفي المدينة سعد ابن الربيع الأنصاري، وقيس بن شماس، وابنه ثابت كان خطيب النَّبِيِّ ﷺ بالإضافة إلى قَسِّ بن ساعدة الإيادي، والحارث بن عباد البكري، وهانئ بن قبيصة خطيب شيبان يوم ذي قار، وابن عمّار الطائي المدحجي، وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة، وهريم بن قطبة الفزاري، وعامر بن الظرب العدواني؛ وفي تميم اشتهر ضمرة بن ضمرة، وأكثم بن صيفي؛ ومنهم من جمع بين الشعر والخطابة كلبيد ابن ربيعة، وعمرو بن الأهمم المنقري، وعمرو بن كلثوم التغلبي؛ غير أنه لم تصلنا من خطابة هؤلاء إلا القليل؛ بسبب بُعد زمن الجاهلية عن عصور التدوين، فضاء أكثرها.

(٢) الحِجَم والأمثال:

الحكمة: قول صائب في حال مخصوصة، والأمثال: جمل قصيرة وجيزة تدل على صحة الرأي وصدق الاختيار، وهو موافق للواقع يعمل به الإنسان؛ والنثر الجاهلي حافل بالعديد من الحكم والأمثال، وقد حُفِظ الكثير منها وانتهى إلينا؛ وذلك لِقَصَر عباراتها وسهولة حفظها وتناقلها، وقد تعاقب العلماء لاحقًا على جمعها وتدوينها؛ مثل كتاب أمثال العرب للمفضّل الضبي، والفاخري في الأمثال للمفضّل بن سلمة بن عاصم، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري؛ الذي جمع فيه ما زاد على الألفين وثلاثمائة مثل؛ وكتاب المزهرة للسيوطي؛ الذي ضم حكمًا

^١ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (٢٠٣/١).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٤١٤-٤١٥).

^٣ انظر: تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ (٨٩/١).

كثيرة؛ ومجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني وقد جمع فيه ما زاد على أربعة آلاف وسبعمائة مثل بأحاديثها مرتبة معجمياً بعدما راجع في جمعها ما يزيد على خمسين كتاباً، وقد أضاف إليها أمثال المؤلدين وكلام بعض السلف؛ والمستقصى في أمثال العرب للزمخشري، وإن كان أقل قدرًا ومنزلة من كتاب معاصره الميداني.

وقد كان العرب شديدي الميل إلى ضرب الأمثال وقول الحكم، وكانوا يقدرّون الحكيم ويرفعون منزلته، وتمتاز الحكم والأمثال الجاهلية بإيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، ولا تخلو من السجع والنغم الموسيقي والكناية وجمال الصياغة، وهي ذات قيمة أدبية عظيمة؛ لأنها تصوّر جانبًا من أخلاق العرب وحكمتهم وتجاربهم وطبع حياتهم البدوية؛ وممن اشتهر بقول الحكم: أكثم بن صيفي التميمي وعامر بن الظرب العدواني ولقمان الحكيم.

ومن بين الحكم التي اشتهرت في الجاهلية: "رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رِيثًا- رُبَّ قَوْلٍ أَشَدَّ مِنْ صَوْل- رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذَ مِنْ صَوْل- المرء يعجز لا محالة- لا جماعة لمن اختلف- كُلم اللسان أنكى من كُلم السنان- العتاب قبل العقاب. أسرع العقوبات عقوبة البغي- إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد- من مأمّنه يُؤتى الحذر- ليس من العدل سرعة العذل- الحر حر وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن ساعده الجد- لو أنصف المظلوم لم يبق فينا مَلُوم- رُبَّ كَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ اِكْتِتَام- لا تطمع في كل ما تسمع".

ومن بين أمثال العرب: "يعلم من أين يُؤكل الكتف- يركب الصعب من لا ذلول له- أبقى من الدهر-- حلب الدهر أشطره (يُضْرَبُ لِمَنْ عَرَكَ الدَّهْرَ)- كالمستغيث من الرمضاء بالنار- كأن على رؤوسهم الطير- أعطِ القوس باريها- مكره أخوك لا بطل- إنك لا تجني من الشوك العنب (يضرب لمن يفعل سوءًا

^١ انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان (٥١/١)

^٢ انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان (٤٩/١)

^٣ تاريخ الأدب العربي، شوقي ضيف، العصر الجاهلي (٤٠٩/١)

وينتظر عاقبة حسنة)- البادئ أظلم- كل فتاة بأبيها معجبة- كالسيل تحت
الدمن (يضرب لمن يخفي عداوته)- رمتني بدائها وانسلت (يضرب لمن يعيب
الآخرين بما يعاب به هو)- تجوع الجرة ولا تأكل بثديها (يضرب لمن يترفع عن
الدنيا)- المنية ولا الدنية- ربَّ أخٍ لك لم تلده أمك- لا رأي لمن لا يطاع- ما يوم
حليمة بِسِرِّ".

وفي كتاب جمهرة أمثال العرب ومجمع الأمثال آلاف من الحكم والأمثال،
وبجانب كل مَثَلٍ مناسبتة والقصة التي قيل فيها.

(٣) القصص والأخبار:

شُغِفَ العرب بالقصص والأخبار منذ القِدَم، فانتشرت انتشارًا واسعًا، وكان
العرب في صحرائهم وترحالهم يتناقلونها ويروونها عن بعضهم بعضًا، صحيح أن
القصة في تلك الحقبة لم تكن فنًا أدبيًا مستقلًا كما كانت الحال مع الشعر
والخطابة؛ ولكنها عُدَّت لاحقًا مع بدء عصور التدوين حيث قام لُغَوِيُّو العصر
العباسي بتدوين تلك الآثار والأخبار، ويقال: إن النضر بن الحارث -أحد رجال
قريش ممَّن كانوا يؤذون رسول الله ﷺ- قد قَدِمَ الحيرة وسمع أخبارًا وأحاديث
عن قصص الفُرس التي تَرَوِي أخبار بعض ملوكهم ورموزهم وأساطيرهم، فكان
إذا حَدَّثَ رسول الله ﷺ قومه في أمر من أمور دينهم وأخبرتهم وحكى لهم بعضًا
من أخبار الأمم السابقة؛ يقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه،
فهلمَّ إليَّ فأنا أحدثكم حديثًا أجمل من حديثه؛ ثم يحدثهم عن قصص ملوك
فارس وروستم وإسفنديار!

وقد تنوعت تلك القصص ما بين قصص واقعية وقصص أسطورية تناقلها
العرب فيما بينهم؛ كقصة قتل الشنفرى لتسعة وتسعين رجلًا وإتمامه المئة بعد
موته، وقصة وفاء السمؤال، وأخبار امرئ القيس، وما حُكي عن المنذر بن ماء

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٨٢).

السماء لما جعل يومين في السنة؛ يوم بؤس ويوم سعد؛ وهي قصص جميعها اختلط بها الواقع بالأسطورة، ولكنها تبقى جزءاً أصيلاً من الأثر الجاهلي. كما كان للحب والهوى نصيب أيضاً من أخبار العرب؛ كقصة المرقش الأكبر مع أسماء، وقصة المرقش الأصغر مع فاطمة بنت المنذر، وقصة مسافر بن أبي عمرو وحيه لهند بنت عتبة -رضي الله عنها- وقد أوردنا جانباً من تلك القصص في حديثنا عن الشعر، كما حفظ العرب عدداً من قصص الأولين؛ كقصص عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة، وقصص انهيار سد مأرب، وأصحاب الفيل، وأخبار سيف بن ذي يزن الحميري، وبئر زمزم؛ ولم يخل أيضاً تراثهم من القصص الخيالية؛ كقصة الحية والفأس التي رواها المفضل الضبي، بالإضافة إلى قصص الجن والعفاريت والشياطين وعدد لا حصر له من الأساطير والأعاجيب.

كما كان لأيام العرب وحروبهم وما جرى من معارك واقتتال النصيب الوافر من القصص والأخبار؛ وهي قصص وإن لم تسلم من الحذف والإضافة والتحريف؛ تظل بشكل عام قصصاً واقعية تشكّل مَعِيناً لا ينضب من هذا التراث، وجانباً مهماً من التواريخ والأخبار؛ كقصص حرب الفجار، ويوم ذي قار، ويومي حليمة، وعين أباغ؛ وهذان اليومان الأخيران كانا للغساسنة على المناذرة، وحلف الفضول، وبطولات عنبرة، وحرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، وأخبار المهلهل الزير سالم، والحارث بن عباد؛ وهي مليئة بقصص الفروسية والبطولات والانتصارات والهزائم، وتشيع في هذا اللون من القصص روح الحماسة. وقد أثبت العلماء لبعض القبائل الجاهلية كتباً تتضمن عدداً من أخبارهم ومفاخرهم وشعر شعرائهم؛ ليكون سجلاً لحوادثها ووقائعها؛ ولكن تلك الكتب لم تصل إلينا.

وللقصص في عصر الجاهلية قيمة تاريخية وأدبية كبيرة؛ فهي تسجّل جانباً تاريخياً مهماً وإن مسّه بعض التحريف والانتحال أحياناً؛ فإنه لم يزل يعبر عن

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري (١١١/١).

طبيعة الحياة الجاهلية وما فيها من سذاجة وعادات وتقاليد وأحداث ووقائع، فضلاً عن أنها من الناحية الأدبية كانت موجزة، وتضجُّ حماسة وفروسية وانطلاقاً وعفوية، ولا تخلو من البدائية وسرعة البديهة وتتَّصف بالشَّوق والمتعة.

ومن الجدير بالملاحظة ويسترعي الانتباه أن الأمثال والحكم من الناحية الأدبية شديدة الارتباط مع القصص والأخبار؛ إذ إنَّ جانباً عظيمًا من تلك الأمثال قيل في إطار قصص وأخبار مختلفة؛ إما أنها من الأساطير أو ربما كانت واقعية حدثت فعلاً وإن لم تَسَلَم من التحريف نوعاً ما.

(٤) سجع الكهان:

كان التَّكْهُنُّ شائعاً في الجاهلية، وكانت هناك طائفة من الناس تعمل بالكهانة والعرافة آنذاك، وكان كل كاهن يزعم أنَّه يعرف الغيب، ويدَّعي أن له تابعاً من الجن يُقال له: الرُّئي؛ يسترق السمع ثم يأتي له بأخبار المستقبل والغيب، وكان هناك من العرب من يصدِّق تلك الخرافات والمزاعم والأباطيل، فيذهبون إليهم لاستشارتهم في أمورهم المستقبلية إذا عزموا على أمرٍ ما، وكان منهم من يلجأ إلى هؤلاء الكهنة للحسم في المنافرات والخصومات؛ كما فعل هاشم بن عبد مناف وأمِّيَّة بن عبد شمس عندما احتكما إلى الكاهن الخزاعي فنصر هاشمًا!

ومن أشهر الكهنة الذين عُرفوا في الجاهلية سلمة بن أبي حية؛ المعروف بعزَّى سلمة، وقال عنه الجاحظ: إنه أكهن العرب وأسجعهم! ومنهم الكاهن الخزاعي، وسواد بن قارب الدوسي، وخنافر الجُمَيْري؛ وهذان الأخيران أسلما؛ ومنهم المأمور الحارثي سلمة بن المغفل كاهن بني الحارث بن كعب؛ الذي حذَّر قومه من غارة تميم فلم يطيعوه وانهمزوا، ومنهم من كانوا يلجؤون إليه لتعبير الرؤى؛ مثل سطيح الذئبي، وشق بن مصعب الأنماري، وشافع بن كليب الذي يُقال: إنه

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٤٢٠).

^٢ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (١/٢٨٨).

تَكهنَّ ببعثة النَّبِيِّ ﷺ؛ ومن الكاهنات كاهنة ذي الخلصة، والكاهنة السعدية،
والزرقاء بنت زهير^١، والشعثاء، وعُفيرا، وطريفة الخير؛ التي يقال: إنها تنبأت
بسيل العرم وانهيار سد مأرب^٢.

ومن نماذج الكهانة قول عرّى سلمة^٣: "والأرض والسَّماء، والعقاب والصَّقعاء،
واقعة ببقعاء؛ لقد نفر المجدُ بني العشاء للمجد والسناء"؛

ويُروى أن الكاهن الخزاعي حينما نفر هاشمًا على أمية بن عبد شمس؛ قال:
"والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجوِّ من طائر، وما
اهتدى بعلمٍ مسافر، من مُنجدٍ وغائر؛ لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، أوَّلُ
منه وآخر، وأبوهممة بذلك خابر"؛ وكان عوف بن ربيعة الأسدي قد تنبأ
بمقتل حُجر بن الحارث ملك كندة ووالد امرئ القيس؛ إذ يُروى أنه قال:^٤ "من
المملك الصَّلهب، الغلاب غير المُغلب، في الإبل كأنها الرِّب، لا يُقلق رأسه
الصَّخَب، هذا دمُه يَنْعَب، وهو غداً أوَّل من يُسْتَلَب"؛ فقالوا: من هو؟ فقال:
"لولا تجيئُ نفسٍ جاشية؛ لأخبرتكم أنه حجرٌ ضاحية".

ويُروى أن كاهنًا من اليمن فصل في أمر هند بنت عتبة؛ حيث اتَّهمها زوجها
الفاكه بن المغيرة وطلَّقها، فأخذها أبوها عتبة بن ربيعة إلى كاهن باليمن، فمسح
يده على رأسها وأنصفها قائلاً: "انهضي غير ررقحاء ولا زانية، وستلدين ملكًا
يُسَمَّى معاوية"؛ فندم زوجها الأوَّل وهمَّ بردها، فأبَت وتزوَّجت أبا سفيان^٥.

^١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٨٠ وما بعدها).

^٢ انظر: تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي، شوقي ضيف (ص ٤٢١).

^٣ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ١٠٥).

^٤ انظر: البيان والتبيين، الجاحظ (١/ ٢٤١).

^٥ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٧٨).

^٦ انظر: المصدر السابق (١/ ٧٩).

^٧ الصَّلهب: الطويل. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١/ ٥٣١).

^٨ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ٨١-٨٢).

وممَّا يُرَوَى مِنْ تَكْهُنِّ الكَاهِنَاتِ تَنْبُؤُ طَرِيفَةَ الخَيْرِ بِسِيلِ العَرِمِ وَخَرَابِ سَدِ مَآرِبٍ؛ حَيْثُ قَالَتْ: "وَالنُّورُ وَالظُّلْمَاءُ، وَالْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ، إِنَّ الشَّجَرَ لِهَالِكٌ، وَلِيَعُودَنَّ المَاءُ كَمَا كَانَ فِي الزَّمَنِ السَّالِكِ"، فَقِيلَ: وَمَنْ خَبَّرَكَ بِهَذَا؟ قَالَتْ: "أَخْبَرَنِي المَنَاجِدُ بِسَنِينَ شَدَائِدٍ، يُقَطِّعُ فِيهَا الوَلَدَ وَالوَالِدَ"، فَقِيلَ لَهَا: وَمَا عَلَامَةُ مَا تَذَكِّرِينَ؟ قَالَتْ: "أَذْهَبُ إِلَى السَّيِّدِ، فَإِذَا رَأَيْتَ جُرْدًا يَكْثُرُ بِيَدِيهِ فِي السَّيِّدِ وَالحَفْرِ، وَيُقَلِّبُ بِرِجْلِيهِ مِنْ أَجْلِ الصَّخْرِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ غَمَرَ العَمْرُ، وَأَنَّ قَدْ وَقَعَ الأَمْرُ".

وَمِنْ خِلَالِ تِلْكَ النَّمَاذِجِ يَتَّضِحُ لَنَا أَسْلُوبُ خِطَابِ الكَهْنَةِ؛ القَائِمُ عَلَى الإِيجَازِ وَالسَّجْعِ وَغَلْبَةِ العُمُوزِ وَالإِبْهَامِ وَالإِغْرَابِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّلْمِيحِ وَالإِكْتِثَارِ مِنَ القَسَمِ بِالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالنُّورِ وَالظُّلَامِ وَسَائِرِ مَظَاهِرِ الحَيَاةِ، وَنَلاحِظُ أَنَّ سَجْعَهُمْ كَانَ كَثِيفًا مُفْتَعَلًا غَيْرَ السَّجْعِ العَفْوَِيِّ الَّذِي نَرَاهُ فِي الخُطْبِ الأُخْرَى؛ وَرَبْمَا كَانَ ذَلِكَ وَسِيلَةً لِبَثِّ المَزِيدِ مِنَ العُمُوزِ الَّذِي يَفْتَحُ بَابًا مِنَ التَّأْوِيلِ وَالاحْتِمَالِ.

وَنَحْنُ لَا نَثِقُ فِي كَثِيرٍ مِمَّا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ سَجْعِ الكَهَانِ؛ لِأَنَّهُ -كغیره- لَمْ يَسْلَمْ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالإِنْتِحَالِ، وَتِلْكَ القِصَصُ الَّتِي نوردُهَا قَدْ يَخْتَلِطُ فِيهَا الوَاقِعُ بِالأَسْطُورَةِ فَيَصْعَبُ تَمييزُهَا أَوْ الإِطْمِئْنَانُ إِلَى صِحَّتِهَا، وَلَكِنهَا جَمِيعًا -سواءَ مَا صَحَّ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَصَحَّ- تَعْطِينَا صُورَةً وَاضِحَةً عَنِ أَسْلُوبِ خِطَابِ الكَهْنَةِ وَتَوْضِيحِ مَلامِحِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَقَدْ أَبْطَلَ الإِسْلَامُ الكَهَانَةَ وَالعِرَافَةَ وَكُلَّ تِلْكَ العُلُومِ البَاطِلَةِ؛ حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ أَتَى عَرًّا فَأَسْأَلَهُ عَن شَيْءٍ؛ لَمْ تُقَبَّلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»؛ وَقَالَ تَعَالَى مَبْطَلًا ادْعَاءِ هَؤُلَاءِ بِعِلْمِ الغَيْبِ: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

^١ انظر: المصدر السابق (١/١٠٥).

^٢ أخرجه مسلم في صحيحه (٤/١٧٥١ برقم ٢٢٣٠).

وَالْأَرْضِ الْغَيْبِ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ^١ وعليه فقد
اختفت العرافة والكهانة مع مقدم الإسلام ولم يعد لهما أثر.

(٥) الرسائل:

كانت الرسائل موجودة في العصر الجاهلي، إلا أنها لم تكن شائعة؛ لأن العرب
كان معظمهم أميين لا يجيدون القراءة ولا الكتابة، فلم يعرفوا الكتابة إلا في
حالات نادرة؛ كبعض الآثار والنقوش على الأحجار والقبور، كما احتاجت إليها
الممالك العربية القديمة للتراسل فيما بينهما، واحتاج إليها الملوك لمراسلة قادتهم
ورجالهم، فكانت الرسائل لديهم ضرورةً لتسيير أمور الحكم، وهذا يعني أن
الرسائل كانت قاصرةً فقط على البلاط والملوك، بينما ندرَ جدًا وجودها في
البادية ومدن الصحراء.

ويصعب تتبُّع الكتابة العربية في العصر الجاهلي؛ لقلَّة ما انتهى إلينا من ناحية،
ولأن العربية ذاتها كانت لا تزال تمر بمراحل تطوُّر قبل أن تصل إلى ما وصلت
إليه من النضج في القرن الذي سبق بعثة النبي ﷺ، فلا يمكن الاستفادة منها إلا
ما كان في أواخر العصر الجاهلي؛ حيث تُقارب لغتها لغتنا؛ كرسائل المناذرة
ملوك الحيرة، وبعض الوثائق التي حُفظت عن عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ
، وأكثم بن صيفي؛ وهي تتَّصف بالإيجاز والوضوح ويظهر في عباراتها
الترادف، بالإضافة إلى وجود السجع وإن لم يكن السجع في الرسائل بنفس
الدرجة الإلزامية التي نراها في الخطب وعبارات الكهَّان.

ومن أبرز المصادر اتلي تناولت نصوصًا من النثر الجاهلي كتاب "الأمالي" لأبي
عليّ القالي؛ الذي جمع فيه قدرًا كبيرًا من الأدب القديم، مع التَّنبيه على وقوعه
في بعض الأخطاء تمَّت الإشارة إليها فيما يسبى أوهام الأمالي، بالإضافة إلى المزهر
في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي؛ وقد حوى من علوم اللغة
والنحو والأدب والحكم والأمثال قدرًا عظيمًا، وخزانة الأدب ولب لباب لسان

^١ سورة النمل: ٦٥.



العرب لعبد القادر البغدادي؛ وهو موسوعة لغوية ونحوية وأدبية جامعة؛ وقد جمع د. أحمد زكي صفوت ما وسعه من عيون النثر الجاهلي في موسوعتي "جمهرة خطب العرب" و"جمهرة رسائل العرب"، مضيئاً إلى موسوعتيه كذلك خطب ورسائل العرب في العصور الأولى التي تلت العصر الجاهلي، وهما كتابان عظيما القيمة الفنية، مع التنبيه إلى حاجتهما كذلك إلى مزيد من التحقيق.

وهذا هو خلاصة الفنون النثرية في العصر الجاهلي.

أبرز خطباء العصر الجاهلي

١ - قس بن ساعدة الإيادي

ترجمته:

كان قس أحد حكماء عصره، وكان خطيبًا وأسقفًا بنجران، وقد اختلف بشأنه؛ ف قيل: كان نصرانيًا؛ وقيل: بل كان متحنفًا؛ ولكنه في كلا الحالين كان مؤمنًا بالله، يدعو إلى الحكمة والإيمان والموعظة الحسنة، وقد وفد على سوق عكاظ فخطب واعظًا ومرشدًا، وشاهده النبي ﷺ وأثنى عليه، ويقال: كان له شقيقان يعبدان الله، فماتا ودفنهما معًا، وكان يفد على قيصر فيكرمه، وقد عاش على الكفاف متعبدًا، يدعو إلى الزهد والتقوى والتبصُر بالآخرة، ويقال: إنه أول من خطب على شرف واتكأ على سيف، وقال في خطابته: (أما بعد)؛ ويروى أنه أحد المعمرين، وقد توفي نحو سنة ٦٠٠م.

أسلوبه:

كان أسلوب قس في خطابته مسجوعًا مطبوعًا، يميل إلى التهويل وضرب الأمثال وذكر العبر، في لفظ جزل مختار، وجمل قصار، وتعبير دقيق، ونلاحظ في عباراته إيقاعًا لفظيًا موسيقيًا مؤثرًا، وكانت معانيه ذات تأثير قوي في نفوس سامعيه، على أنه لا يسعنا الاطمئنان إلى دقة كل ما انتهى إلينا من نثره؛ بسبب اضطراب الرواة.

^١ انظر: تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات (ص ٢٠).

نموذج من خطبه:

- قال في خطبة له في سوق عكاظ؛ وهي التي رواها النبي ﷺ! «أهيا الناس؛ اسمعوا وعُوا، مَنْ عاش مات، وَمَنْ مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ، ليلٌ داغٍ، ونهارٌ ساجٍ، وسماءٌ ذات أبراج، ونجومٌ تزهر، وبحارٌ تزخر، وجبالٌ مُرساةٌ، وأرضٌ مُدحاةٌ، إِنَّ في السماء لخبرًا، وَإِنَّ في الأرض لعبرًا؛ ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أَرْضُوا فأقاموا، أم تُرْشِكُوا فناموا؟! يقسم قَسُّ بالله قَسْمًا لا إثم فيه؛ إِنَّ لله دينًا هو أَرْضَى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إِنَّكُمْ لتأتون من الأمر مُنكرًا»، وفي رواية بدلًا من «يقسم قس»: «يا معشر إياي؛ أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، وأين الفراعنة الشداد؟!.. ثم قال:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأُولِيَّ	مَنْ مِنَ الثُّرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا	لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا	تَمْضِي الْأَكَابِرُ وَالْأَصَاغِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَا	(م) يَّ وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ
أَيَقْنَتُ أَنْي لَا مَحَا	لَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

- وَرَوِي أَنَّهُ وَقَدَ عَلَى قَيْصَرَ فَقَالَ لَهُ: مَا أَفْضَلُ الْعَقْلِ؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ؛ قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ الْعِلْمِ؟ قَالَ: وَقُوفُ الْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ؛ قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ الْمَرْءِ؟ قَالَ: اسْتِقْبَالُ الرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ؛ قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ الْمَالِ؟ قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ الْحَقُوقُ.

^١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/٣٨).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٣٩).



- وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ مِنَ الْحِكْمِ: "مَنْ عَيَّرَكَ شَيْئًا ففِيهِ مِثْلُهُ- مَنْ ظَلَمَكَ؛ وَجَدَ مَنْ يَظْلِمُهُ- إِذَا نَهَيْتَ عَنِ الشَّيْءِ فابْدَأْ بِنَفْسِكَ- لَا تَشَاوِرْ مَشْغُولًا وَإِنْ كَانَ حَازِمًا، وَلَا جَائِعًا وَإِنْ كَانَ فِيهِمَا، وَلَا مَدْعُورًا وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا".

^١ تاريخ الأدب العربي. أحمد حسن الزيات (ص ٢٠).

٢ - عامر بن الظرب العدواني

ترجمته:

هو عامر بن الظرب بن عمرو العدواني، كان واحداً من الرؤساء والزعماء القبليين وسيّداً في قومه، من أصحاب الحكمة والرأي، وممن يلتجأ إليهم وقت الخلافات، وقد عاصر الحارث الغساني، وهو من المعمرين، توفي نحو سنة ٥٣٥هـ، وهو من الشعراء لكنه اشتهر بالخطابة أكثر.

أسلوبه:

الأسلوبه الخطابي لعامر بن الظرب يميل إلى المزوجة بين الجمل، مع عدم إطالتها، وغلبة السجع عليها أغلب الأحيان، وهو يفيض بالحكمة والموعظة وسُمِّو المعنى.

نموذج من خطبه ووصاياها:

- خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب ابنته عمرة، فقام خطيباً! "يا صعصعة؛ إنك جئت تشتري مني كبدي، وأرحم ولدي عندي، منعتك أو بعتك، النكاح خير من الأيمة، والحسيب كفاء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك، أفِرُّ من السرِّ إلى العلانية، أفصح ابناً، وأودع ضعيفاً قوياً"، ثم التفت إلى قومه فقال: "يا معشر عدوان؛ أخرجت من بين أظهركم كريمتكم، على غير رغبة عنكم؛ ولكن من حُطَّ له شيءٌ جاءه، رُبَّ رازع لنفسه حاصدٍ سواه، ولولا قسم الحظوظ على قدر الجدود؛ ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به؛ ولكن الذي أرسل الحيا أنبت المرعى، ثم قسمه أكلاً، لكل فم بقلة، ومن الماء جرة؛ إنكم ترون ولا تعلمون، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذي قلب واعٍ،

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/١٩-٢٠).

ولكل شيء راعٍ، ولكل رزقٍ ساعٍ، إما أكيسُ وإمّا أحمقُ، وما رأيتُ شيئاً إلا سمعتُ حسّه، ووجدتُ مسّه، وما رأيتُ موضوعاً ولا مصنوعاً، وما رأيتُ جائياً ولا داعياً، ولا غانماً ولا خائباً، ولا نعمة إلا ومعها بؤس، ولو كان يُميت الناسَ الداءُ؛ لأحياهم الدَّواءُ، فهل لكم في العلم العليم؟ قيل: ما هو؟ قد قلتَ فأصبتَ، وأخبرتَ فصدقتَ؛ فقال: أموراً شتى، وشيئاً شيئاً، حتى يرجع الميت حيّاً، ويعود لا شيء شيئاً، ولذلك خلقت الأرض والسماوات؛ فتولّوا عنه راجعين، فقال: ويُلْمِها نصيحة لو كان من يقبلها".

- وقال يوصي بنيه حينما أحسَّ بدنُو أجله: "يا معشر عدوان؛ كلّتموني بغياً، إن كنتم شرّتموني فأني أريتكم ذلك من نفسي، فأني لكم مثلي!! افهموا ما أقول لكم؛ إنه من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له، وكان الباطل أولى به، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق. يا معشر عدوان: لا تشمتوا بالدلّة، ولا تفرحوا بالعزّة، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغني، ومن يرّ يوماً يرّ به، وأعدّوا لكل امرئ جوابه، إن مع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال وفيها ذمامة، ولليد العليا العاقبة، والقود راحة، لا لك ولا عليك، وإذا شئت وجدت مثلك؛ إن عليك كما أن لك، وللكثرة الرعب، وللصبر الغلبة، ومن طلب شيئاً وجدته، وإن لم يجده؛ يوشك أن يقع قريباً منه".

٣- زهير بن جناب

ترجمته:

هو زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة الكلي القضاعي؛ من اليمن، كان خطيب قضاة وشاعرها وأحد ساداتها، وكان فارساً شجاعاً كثير الغزو، التقى بأبرهة الحبشي حينما ملك اليمن، وسار إلى نجد، فأكرمه وولاه على بكر وتغلب وسائر تلك الأنحاء، فدعاهم زهير إلى طاعته وملك عليهم حيناً، وكان قاسياً عاتياً في جمع الإتاوة، حتى أصابهم القحط فلم يؤدوا له الخراج، فأبى عليهم زهير، فانقضَّ عليه أحد فُتَّاكهم فطعنه وظنَّ أنَّه قتله، فسقط زهير وتظاهر بالموت حتى ولَّوا عنه، ثم عاد وجمع جيشاً كثيفاً من اليمن فغزاهم وفعل بهم الأفاعيل وأسر كليب ومهلل ابني ربيعة بن مرة سيدهم، إلا أنهم اجتمعوا لقتاله مجدداً فهزموه واستنقذوا الأسرى والأموات، ولما مات ربيعة استمر ولده كليب في قتال قوم زهير حتى نجح في تخليص قومه من سلطة اليمن، وقد عمر طويلاً حتى مات نحو عام ٦٢ ق.هـ. (٥٦٠م)^٢

ويروى أن وقائعه قد بلغت المائتين، وله أخبار مع بعض ملوك الغساسنة، وكان يدعى بالكاهن؛ لصباب رأيه، ويقال: إن اليمن لم تعرف من هو أشجع ولا أخطب منه، ولم تجتمع قضاة إلا عليه وعلى حنَّ بن زيد العُدري، ويقال: إنه من المعمرين، وما هلك حتى ذهب عقله؛ وتزعم رواية أنه واحد من الثلاثة الذين شربوا الخمر في الجاهلية حتى صرعتهم؛ وهم: هو، وعمرو بن كلثوم وأبو براء ملاعب الأسنَّة، وقد سبق ذكر هذه الرواية، وهي رواية مضطربة؛

ويروى أن سبب موته أنه قال ذات يوم: إن الحي طاعن؛ فقال ابن أخيه عبدالله ابن عليم بن جناب: إن الحيَّ مقيم؛ فقال زهير: من هذا المخالف لي؟ قالوا: ابن

١ انظر: الأغاني، الأصبهاني (١٩/١٤).

٢ انظر ترجمة زهير بن جناب: تاريخ الأدب العربي لعمرو فروخ (١٣٢/١)

٣ انظر: الأغاني، الأصبهاني (١٩/١٨).

أخيك؟ قال: فما من أحدٍ ينهأه؟ قالوا: لا؛ فقال: أراني قد خُولفتُ!! ثم دعا بالخمير فشرب صِرْفًا حتى قتلته!

ومن نسل زهير ظهر شعراء عدّة؛ مثل مصادُ بن أسعد، وحُرَيْث بن عامر ابن الحارث، والحَزَنبَل بن سلامة بن زهير، وغزير بن أبي جابر، وعرفجة بن جُنادة والمسَيَّب بن رِفْل وغيرهم كثيرًا.

أسلوبه:

وزهير في خطابه واضح المعنى، في غاية الدقة والإيجاز، مع التزام الجُمَل المترادفة، ووجود السَّجْع في أغلب عباراته، وله كذلك شعر حسن جيد، يَبْدُ أنه اشتهر أكثر في خطابه، وهو في كلامه يجود بالحكمة النابعة من تجربته.

نموذج من كلامه:

- قال يوصي بِنِيه: "يا بَيْيَّ؛ قد كبرتُ سَيِّي، وبلغت حرسًا من دهري، فأحمتني التجارب، والأمور تجربة واختبار، فاحفظوا عني ما أقول وعُوه؛ إياكم والخور عند المصائب، والتواكل عند النوائب؛ فإنَّ ذلك داعية للغم، وشماتة للعدو، وسوء ظنٍّ بالرَّبِّ؛ وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترِّين، ولها آمنين، ومنها ساخرين؛ فإنَّه ما سخر قوم قطُّ إلا ابتلوا؛ ولكن توقَّعوها؛ فإنَّما الإنسان في الدنيا غرض تعاوره الرُّمأة؛ فمقصر دونه، ومجاورٌ لموضعه، وواقعٌ عن يمينه وشماله، ثم لا بدَّ أنَّهُ مصيبه".

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/٣٦٧-٣٦٨).

^٢ انظر: الأغاني، الأصبهاني (١٩/٢١-٢٣).

^٣ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/١٢٦).



- ومن شعره قوله يذكر امتداد العمر به!

المَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى فَلْيَهْلِكُنْ وَبِهِ بَقِيَّتُهُ
يَا مَنْ يَرَى الشَّيْخَ الْكَبِيرَ رَ يَقَادُ يُهْدَى بِالْعَشِيَّةِ
مِنْ كُلِّ مَا نَالَ الْفَتَى قَدْ نَلْتُهُ إِلَّا التَّحِيَّةُ

- وقال!

إِنَّ بَنِي مَالِكٍ تَلَقَى غَزِيَّتَهُمْ فِي الزَّادِ فَوَضَى وَعِنْدَ الْمَوْتِ إِخْوَانَا

^١ انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١ / ٣٦٧).

^٢ انظر: المصدر السابق (١ / ٣٦٩).

٤ - أكثم بن صيفي

ترجمته:

هو أكثم بن رباح بن الحارث بن محاسن بن صيفي التميمي، كان سيّد تميم وخطيبها الفذ وأحد حكماء العرب وأشهر ساداتهم، وكان الحكام والملوك يستزيرونه من أجل سماع حكمته ورأيه السديد، وكان يفد على بلاط الملوك، وله في بلاط كسرى خطبة رائدة، وكان رفيع القدر عالي المكانة في قومه، عالماً بالأنساب، معروفاً بالحكمة وسداد الرأي وقوة الحجّة، وقد عمّر طويلاً حتى أدرك الإسلام وسمع بالنبي ﷺ فهمم بالذهاب إليه لاستطلاع رأيه، فلم يُمْكِن؛ لاعتلاله وكبر سنّه، وأرسل ولده مع رجلين للاستماع إليه، فلمّا لقوه تلا عليهم رسول الله ﷺ قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}١ فرجعوا إليه وأخبروه، فمال أكثم إلى الإسلام وقال لقومه: هذا رسولٌ يأمر بمكارم الأخلاق؛ وهمم بالإسلام وأخذ يحثُّ قومه عليه، وخالفه بعضهم؛ منهم مالك بن نويرة، وما لبث أن خرج في وفدٍ من بعض قومه إلى النبي ﷺ، لكنه ما لبث أن توفّي في الطريق قبل أن يلقي رسول الله ﷺ، وبعث بإسلامه مع من أسلم؛ وقيل في التفاسير: إنه في أكثم ومَن على شاكلته قد نزلت الآية التي تقول: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً}٢ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} .

١ سورة النحل: ٩٠.

٢ سورة النساء: ١٠٠.

أسلوبه:

لم يعرف العصر الجاهلي خطيبًا مَفَوَّهاً مثل أكثم بن صيفي؛ حيث كانت البلاغة تتدفق على لسانه تدفقًا؛ فقد امتاز باختيار ألفاظه وإصابة معانيه وسبك اللفظ على المعنى، وقدرة على المزاجية بين الجمل في إيقاع جميل عذب، يؤثر في نفس سامعه فيحمله على التأثر والإقتناع، وكانت خطبه تمتلئ بالحكمة والحلم والرأي، ويكثر من ضرب الأمثال، وخطبه عبارة عن حكم متناثرة لا علاقة لبعضها ببعض ولا يربط بينها موضوع واحد، ومع هذا فقد كان يسوق تلك الحكم بأسلوب رائع بليغ؛ بعباراته المترادفة، مع سجع أنيق في بعض الأحيان، ودقة في المعنى، وكانت خطبه تدل على علم وحكمة واسعة اكتسبهما من خبرة الحياة والتجربة، وقد تجلّى هذا في كلماته وعباراته وما كان يقول من حكم ومثل، وقد حفظ التراث الجاهلي بعضًا من خطبه الرائعة، وكثيرًا ما كان يُضرب بكلامه المثل.

نموذج من كلامه:

- قال يعزّي الملك عمرو بن هند عن أخيه: "إنَّ أهل هذه الدار سَفْرُلًا يحلُّون عقد الرِّحال إلا في غيرها، وقد أتاك ليس بمردودٍ عنك، وارتحل عنك ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك، واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام؛ فأمس عظة وشاهد عدل فجعلك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمته؛ واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته، طالبت عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته؛ وغدٌ لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجدك، فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر!! وقد مضت لنا أصول نحن

^١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/٣٧).

فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟! واعلم أن أعظم المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير مُعْطِيه، وشر من الشر فاعله".

- وقال في خطبة شهيرة أمام كسرى في سياق مناظرته مع النعمان بن المنذر: وهي من عيون النثر الجاهلي: "إنَّ أفضل الأشياء أعالِمها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمُّها نفعًا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها، الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطِيٌّ، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانته؛ كان كالغاصِّ بالماء، شر البلاد بلادًا لا أمير بها، شر الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا محالة، أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل، حسبك من شرِّ سماعه، الصمت حكم وقليل فاعله، البلاغة إيجاز، من شدَّد نَفْرًا، ومن تراخى تألَّف"، وقد أعجب كسرى بكلام أكنم وبلاغته وقال: ويحك يا أكنم؛ ما أحكمك وأوثق كلامك، لولا وضْعك كلامك في غير موضعه!! فقال أكنم: الصدق بيني وبينك لا الوعيد؛ فقال كسرى: لو لم يكن العرب غيرك لكفى؛ فقال أكنم: رَبِّ قَوْلٍ أَنْفَذَ مِنْ صَوْلٍ.

- ومن وصيَّته لبنيهِ ورهطه: "يا بني تميم؛ لا يفوتنَّكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلامًا لا أجد له مواقع إلا أسمعكم، ولا مقارًا إلا قلوبكم، فتلقَّوه بأسماع مصغية، وقلوب واعية؛ تحمدوا مغبَّته؛ الهوى يقضان، والعقل راقد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، والنفس مهملة، والروية مقيدة، ومن جهة التواني وترك الروية يتلف

^١ انظر: المصدر السابق (١/٥٦).

الحزم، ولن يعدم المشاور مرشداً، والمستبد برأيه موقوف على مداحض
الزَّلَل، ومن سَمَّع سَمَّعَ به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع، ولو
اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام، وعلى الاعتبار طريق
الرشاد، ومن سلك الجدَّ أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يُتعب قلبه،
ويشغل فكره، ويؤرِّث غيظه، ولا تجاوز مضرتَه نفسه.

يا بني تميم: الصبر على جُرْع الحِلْم أعذب من جُنْي ثمر النَّدامة، ومَنْ
جعل عرضه دون ماله استهدف للذِّمِّ، وكَلَّم اللسان أنكى من كَلَّم السِّنَان،
والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإذا نجمت فهي أسد مُحَرَّب، وأنار
تلهَّب، ورأي الناصح اللبيب ديل لا يجوز، ونفاذ الرأي في الحرب، أجدى
من الطعن والضرب".

- وقال ناصحاً قومه! "أقلُّوا الخلاف على أمرائكم، واعلموا أنَّ كثرة
الصِّياح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة؛ يا قوم؛ تثبَّتوا فإن أحزم
الفريقين الرِّكين، ورُبَّ عجلةٍ تَهَبُ ريثاً، وتُزروا للحرب، وادَّرعوا اللَّيْل
فإنه أخفى للويل، ولا جماعة لمن اختلف".

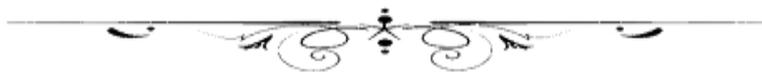
- ولما أتاه خبر النَّبي ﷺ، وكان قد بعث ولده مع رجلين إليه، فلمَّا عادوا من
لقاء النَّبي طابت نفس أكثرهم إلى الإسلام، فقام في قومه خطيباً ودعاهم إلى
الإسلام قائلاً: "لا تحضروني سفيهاً؛ فإنَّه من يَسْمَع يَخْلُ، إنَّ السَّفِيه
يُوهن مَنْ فوقه، ويُتَبَّبُ مَنْ دونه. لا خير فيمن لا عقل له. كبرتُ سنِّي
ودخلتني ذلَّة، فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه، وإن رأيتم مني غير ذلك
فقوموني أستقم. إن ابني شافَهَ هذا الرجل مشافهةً وأتاني بخبره، وكتابه
يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو
إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنَّيران، وقد عرف دُؤو
الرأي منكم أنَّ الفضل فيما يدعو إليه، وأنَّ الرأي ترك ما ينهى عنه، إنَّ

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/١٣٥).

أَحَقُّ النَّاسِ بِمَعُونَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمُسَاعَدَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ أَنْتُمْ؛ فَإِنْ يَكُنِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ حَقًّا؛ فَهُوَ لَكُمْ دُونَ النَّاسِ، وَإِنْ يَكُنِ بَاطِلًا كُنْتُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْكَفِّ عَنِّهِ وَبِالسِّتْرِ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ أَسْقَفَ نَجْرَانَ يَحْدِثُ بِصِفَتِهِ، وَكَانَ سَفِيَانُ بْنُ مَجَاشِعٍ يَحْدِثُ بِهِ قَبْلَهُ، وَسَمَّى ابْنَهُ مُحَمَّدًا، فَكَوْنُوا فِي أَمْرِهِ أَوْلَى، وَلَا تَكُونُوا آخِرًا، انْتُوا طَائِعِينَ قَبْلَ أَنْ تَأْتُوا كَارِهِينَ، إِنَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ لَوْ لَمْ يَكُنْ دِينًا؛ كَانَ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ حَسَنًا، أَطِيعُونِي وَاتَّبِعُوا أَمْرِي، أَسْأَلُ لَكُمْ أَشْيَاءَ لَا تُنَزَعُ مِنْكُمْ أَبَدًا، وَأَصْبَحْتُمْ أَعَزَّ حَيٍّ فِي الْعَرَبِ، وَأَكْثَرَهُمْ عَدَدًا، وَأَوْسَعَهُمْ دَارًا، فَإِنِّي أَرَى أَمْرًا لَا يَجْتَنِبُهُ عَزِيزٌ إِلَّا ذَلًّا، وَلَا يَلْزِمُهُ ذَلِيلٌ إِلَّا عَزًّا، إِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدْعُ لِلْآخِرِ شَيْئًا، وَهَذَا أَمْرٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ، مَنْ سَبَقَ إِلَيْهِ غَمْرُ الْمُعَالِي، وَاقْتَدَى بِهِ التَّالِي، وَالْعَزِيمَةُ حَزْمٌ، وَالِاخْتِلَافُ عَجْزٌ".

فَقَالَ مَالِكُ بْنُ نُورَةَ: قَدْ خَرَفَ شَيْخُكُمْ فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِلْبَلَاءِ؛ فَقَالَ أَكْثَمُ:
وَيْلٌ لِلشَّحِيحِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ، وَالْهَفِيِّ عَلَى أَمْرٍ لَمْ أَشْهَدْهُ وَلَمْ يَسْغُنِي!!
وَارْتَحَلْ أَكْثَمُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ؛ بِغِيَةِ الْإِسْلَامِ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ
وَقَدْ بَعَثَ بِإِسْلَامِهِ مَعَ مَنْ أَسْلَمَ؛ كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ.

^١ وفي رواية: لم يسبقني.



نماذج من النثر الجاهلي

١- مناظرة النعمان بن المنذر مع كسرى

قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين؛ فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب، وفضلهم على جميع الأمم، فأنكر كسرى عليه قائلاً: يا نعمان؛ لقد فكّرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرتُ في حالة من يقدّم عليّ من وفود الأمم، فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألفتها وعظّم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها، وأنّ لها ديناً يبيّن حلالها وحرامها، ويردّ سفهها ويقيم جاهلها، ورأيت الهند نحوًا من ذلك في حكمتها وطيبها، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها، وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها، وكثرة صناعات أيديها، وفروسيها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وأنّ لها ملكًا يجمعها، والتُّرك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس؛ لهم ملوك تضم قواصمهم، وتدبر أمرهم، ولم أر للعرب شيئًا من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوّة، ومع أن ممّا يدل على مهانتها وذلّها وصغر همّتها؛ محلّتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضًا من الحاجة، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل؛ التي يعافها كثير من السباع؛ لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وإن قرى أحدهم ضيفًا عدّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدّها غنيمة، تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التنوخية التي أسّس جدّي اجتماعها، وشدّ مملكتها، ومنعها

من عدوّها، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإنّ لها مع ذلك آثارًا ولبوسًا، وقُرئ
وحصونًا، وأمورًا تشبه بعض أمور الناس -يعني اليمن- ثم لا أراكم تستكثنون
على ما بكم من الدِّلَّة والقِلَّة والفاقة والبؤس، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا
فوق مراتب الناس!!

فقال النعمان: أصلح الله الملك. حُقَّ لأمّة الملك منها أن يسموَ فضلها، ويعظّم
خطيئها، وتعلوَ درجتها، إلّا أنّ عندي جوابًا في كل ما نطق به الملك، في غير ردِّ
عليه ولا تكذيبٍ له؛ فإنّ أمني من غضبه نطقْتُ به؛ قال كسرى: قُلْ فأنْت
أمن.

فقال النعمان: أمّا أمّتك أيها الملك؛ فليست تُتنازع في الفضل؛ لموضعها الذي
هي به؛ من عقولها وأحلامها، وبسطة محلِّها، وبُحبوحة عزِّها، وما أكرمها الله
به من ولاية أبانك وولايتك. وأمّا الأمم التي ذكرت؛ فأبيّ أمّة تُقرِّبها بالعرب إلّا
فضلتها؛ قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزّها ومنعتها وحسن وجوهها،
وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها، وأنفتها ووفائها.

فأمّا عزها ومنعتها؛ فإنها لم تزل مجاورةً لأبائك الذين دوّخوا البلاد، ووطّدا
المُلك وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم يتلهم نائل، حصونهم ظهور
خيولهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجنّتهم السيوف، وعدّتهم
الصبر، إذ غيرُها من الأمم إنما عزُّها من الحجارة والطّين وجزائر البحور.

وأما حُسن وجوها وألوانها؛ فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم؛ من الهند
المنحرفة، والصين المنحفة، والتُّرك المشوّهة، والرُّوم المشرّفة.

وأما أنسابها وأحسابها؛ فليست أمّة من الأمم إلّا وقد جهلت آباءها وأصولها
وكثيرًا من أولها، حتى إنّ أحدهم ليُسأل وراء أبيه دنيا، فلا ينسبه ولا يعرفه،
وليس أحد من العرب إلّا يُسمي آباءه أبا فأبًا، حاطوا بذلك أحسابهم،
وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه،
ولا يُدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها؛ فإنَّ أدناهم رجلاً؛ الذي تكون عنده البِكرَةُ والنَّاب، عليها بلاغه في حموله وشبَّعه وربَّه، فيطرقة الطارق؛ الذي يكتفي بالفلذة، ويجتري بالشربة، فيعقرها له ويرضَى أن يخرج عن دنياه كلِّها فيما يُكسبه حُسن الأحدثة وطيبُ الذِّكر.

وأما حكمة ألسنتهم؛ فإنَّ الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم، وحسنه ووزنه وقوافيه، ومع معرفتهم الأشياء، وضرهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات؛ ما ليس لشيءٍ من ألسنة الأجناس، ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أَعفُ النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجزع. ومطاياهم التي لا يُبلِّغ على مثلها سَفَر، ولا يُقَطِّع بمثلها بلدٌ قَفْرٌ.

وأما دينها وشريعتها؛ فإنهم متمسِّكون به، حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أنَّ لهم أشهراً حرماً، وبلداً محرماً، وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم، ويذبحون فيه ذبائحهم، فيلقَى الرجل قاتلَ أبيه أو أخيه، وهو قادر على أخذ ثأره، وإدراك رغمه منه، فيحجزه كرمه، ويمنعه دينه عن تناوُّله بأذى.

وأما وفاؤها، فإنَّ أحدهم يلحظ اللحظة، ويومئ الإيماء؛ فهي ولث وعقدة، لا يحلُّها إلا خروج نفسه، وإنَّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه، فلا يُغلق رهنه، ولا تُخفَر ذمته، وإنَّ أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يُفني تلك القبيلة التي أصابته أو تَفنى قبيلته؛ لما أخفر من جواره، وإنَّه ليلجأ إليهم المجرم المُحدِّث، من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأموالهم دون ماله.

وأما قولك أيها الملك: يئدون أولادهم؛ فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث؛ أنفةً من العار، وغيره من الأزواج.

^١ ولث: الولث هو عقد العهد. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢٠٣/٢).

وأما قولك: إِنَّ أَفْضَلَ طَعَامِهِمْ لِحُومِ الْإِبِلِ -على ما وصفت منها- فما تركوا ما دونها إلا احتقارًا لها، فعمدوا إلى أجلبها وأفضلها، فكانت مراكبهم وطعامهم، مع أنها أكثر اليهائم شحومًا، وأطيبها لحومًا، وأرقها ألبانًا، وأقلها غائلة، وأحلاها مضغًا، وإنه لا شيء من اللُّحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما تحارُّبهم وأكل بعضهم بعضًا، وتركهم الانقياد لِرَجُلٍ يسوسهم ويجمعهم؛ فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفًا، وتخوّفت نهوض عدوّها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد، يُعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزمّتهم، وأما العرب فإنّ ذلك كثيرٌ فيهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطث بالعسف.

وأما اليمَن التي وصفها الملك؛ فإنما أتى جدُّ الملك إليها الذي أتاه، عند غلبة الحبش له، على مُلْكٍ متّسق، وأمرٍ مجتمع، فأتاه مسلوبًا طريدًا مستصرخًا، ولولا ما وتُربيه من يليه من العرب؛ لمال إلى مجال، ولوجد من يجيد الطعان، ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار!

فأعجب كسرى بكلام النعمان وقال له: إنك لأهلٌ لمَوْضِعِك من الرياسة في أهل إقليمك!! ثم كساه من كسوته قبل أن يفارقه إلى الحيرة.

^١ الوطث: الضرب الشديد بالرجل على الأرض. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/٢٠١).

^٢ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/٥٤).

٢- خُطَبُ وفود العرب على كسرى

رغم نجاح النعمان في الرد على كسرى بما وصف به العرب، وانصرافه مُعَزَّزًا من بلاطه إلى الحيرة؛ فإنه بقي في نفسه شيء من مقالة كسرى، فاستقدم إلى بلاطه عددًا من أعلام العرب ووجهائهم؛ من بينهم أكثم بن صيفي وحاجب ابن زرارة من تميم والحارث بن عباد البكري وقيس بن مسعود الشيباني وخالد ابن جعفر، وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين، وعمرو بن الشريد السلمي والحارث بن ظالم المري وعمر بن معدي كرب؛ فأخبرهم الخبر، فقالوا: أيها الملك؛ وَفَّقَكَ اللهُ، ما أحسن ما رددتَ، وأبلغ ما حججته به، فمُرْنَا بِأَمْرِكَ، وادعنا لما شئتَ؛ فقال النعمان: إنما أنا رجلٌ منكم، وإنما ملكتُ وعززتُ بمكانكم، وما يتخوَّف من ناحيتكم، وليس شيء أحب إليَّ مما سدَّد اللهُ به أَمْرَكُمْ، وأصلح به شأنكم، وأدام به عزَّكم، والرَّأْي أَن تسيروا بجماعتكم أيها الرَّهْط، وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم؛ نطق كل رجل منكم بما حضره؛ ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ أو حدَّثته نفسه، ولا ينطق رجل منكم بما يُغْضِبُهُ؛ فإنه ملكٌ عظيم السلطان، كثير الأعوان، متَّزن، معجَب بنفسه، ولا تتخزلوا له انخزال الخاضع الذليل، وليكن أمرٌ بين ذلك، تظهر به وثاقة حلومكم، وفضل منزلتكم، وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها؛ فإنما دعاني إلى التَّقْدِمة إليكم عَلَيَّ بِمَيْل كل رجل منكم إلى التَّقْدُم قبل صاحبه، فلا يكونَنَّ ذلك منكم؛ فيَجِدَ في آدابكم مطعنا؛ فإنه ملكٌ مُتَرْفٌ، وقادرٌ مُسَلِّطٌ.

ثم ما لبث النعمان أن أوفدهم إلى بلاط كسرى، بعدما أغدق عليهم من خزائنه؛ حتى يكونوا في أبهة حسنة، وكتب معهم إلى كسرى كتابًا يُوصي بهم ويقدمهم له، فلمَّا انهموا إلى بلاط كسرى؛ قرأ كتاب النعمان ثم استقبلهم وأجلسهم، وقد أعدَّ

ترجمانه ليترجم له كلامهم، فخطب أمامه أكثم بن صيفي خطبته الشهيرة، وقد أوردناها في ترجمته، وقد أعجب به كسرى قائلاً: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى.

- ثم قام حاجب بن زرارة فقال: "وَرَى زَنْدُكَ، وَعَلَّتْ يَدُكَ، وَهَيْبَ سُلْطَانِكَ، إِنْ الْعَرَبُ أُمَّةٌ قَدْ غَلْظَتْ أَكْبَادَهَا، وَاسْتَحْصَدَتْ مِرَّتَهَا، وَمُنِعَتْ دِرَّتَهَا، وَهِيَ لَكَ وَامِقَةٌ مَا تَأَلَّفَهَا، مَسْتَرْسَلَةٌ مَا لَا يَنْتَهَى، سَامِعَةٌ مَا سَامَحْتَهَا، وَهِيَ الْعَلْقَمُ مَرَارَةٌ، وَالصَّبَّابُ غَضَابَةٌ، وَالْعَسَلُ حَلَاوَةٌ، وَالْمَاءُ الزَّلَالُ سَلَاةٌ، نَحْنُ وَفُودُهَا إِلَيْكَ، وَالسَّنْتَةُ لَدَيْكَ، ذِمَّتُنَا مَحْفُوظَةٌ، وَأَحْسَابُنَا مَمْنُوعَةٌ، وَعِشَائِرُنَا فِينَا سَامِعَةٌ مَطِيْعَةٌ، إِنْ نُؤَبُّ لَكَ حَامِدِينَ خَيْرًا؛ فَلَكَ بِذَلِكَ عَمُومٌ مَحْمَدَاتِنَا، وَإِنْ نَذَمَّ لَمْ نَخْصَّ بِالذَّمِّ دُونَهَا"، فقال كسرى: ما أشبهه حجر التلال بألوان صخرها!! قال حاجب: بل زئير الأسد بصولتها؛ قال كسرى: وذلك.

- ثم خطب الحارث بن عباد قائلاً: "دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها، وعلو سنائها، من طال رشأؤه؛ كثر متعه؛ ومن ذهب ماله؛ قل منحه. تناقل الأقاويل يعرف اللب، وهذا مقام سيوجف بما ينطق به الركب، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب، ونحن جيرانك الأدنون، وأعوانك المعينون، خيولنا جمّة، وجيوشنا فخمة، إن استنجدتنا فغير رُبُض، وإن استطردتنا فغير جُهض، وإن طلبتنا فغير غُمُض، لا ننثني لِدُعْرِ، ولا نتنكر لدهر، رماحنا طوال، وأعمارنا قصار".

- قال كسرى: أنفُسُ عَزِيْزَةٌ وَأُمَّةٌ ضَعِيْفَةٌ؛ قال الحارث: أيها الملك؛ وأتَى يَكُونُ لَضَعِيْفٍ عَزَّةٌ أَوْ لَصَغِيْرٍ مِرَّةٌ؟! قال كسرى: لو قَصُرَ عَمْرُكَ؛ لَمْ تَسْتَوِلْ عَلَى لِسَانِكَ نَفْسُكَ؛ قال الحارث: أيها الملك؛ إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرراً بنفسه على الموت؛ فهي منيئة استقبالها، وجنان استدبرها، والعرب تعلم أنني أبعث الحرب قُدماً، وأحبسها وهي تصرف بها، حتى إذا

^١ المتخ: نزع الماء من البدر. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥٨٨/٢).

جاشت نارها، وسعرت لظاها، وكشفت عن ساقها؛ جعلت مقادها
 رُمحي، وبرقها سيفي، ورعدتها زئيري، ولم أقصر عن خوص خضخاضها،
 حتى أنغمس في غمرات لججها، وأكون فلگًا لفرساني إلى بحبوحة كبشها،
 فأستمطرها دمًا، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم!!؛ فقال
 كسرى لمن حوله: أكذاك هو؟ قالوا: فعاله أنطق من لسانه؛ فقال كسرى:
 ما رأيت كالיום وفدًا أحشد، ولا شهودًا أوفد.

- ثم خطب عمرو بن الشريد قائلاً: "أيها الملك؛ نعم بالک، ودام في السرور
 حالک؛ إن عاقبة الكلام متدبرة، وأشكال الأمور معتبرة، وفي كثير ثقله،
 وفي قليل بلغة، وفي الملوك سورة العز، وهذا منطلق له ما بعده، شرف
 فيه من شرف، وخمل فيه من خمل، لم نأت لضييمك، ولم نغد
 لسخطك، ولم نتعرض لرفدك؛ إن في أموالنا منتقداً، وعلى عزنا
 معتمداً، إن أوزننا نازراً أثقبننا، وإن أود دهرنا بنا اعتدلنا، إلا أنا مع هذا
 لجوارك حافظون، ولئن رامك كافحون، حتى يحمّد الصدر ويستطاب
 الخبر".

- قال كسرى: ما يقوم قصد منطقك بإفراطك، ولا مدحك بذمك؛ قال عمرو:
 كفى بقليل قصدي هادياً، وبأيسر إفراطي مخبراً، ولم يلم من غربت نفسه
 عما يعلم، ورصي من القصد بما بلغ؛ قال كسرى: ما كل ما يعرف المرء ينطق
 به؛ اجلس.

- ثم خطب خالد بن جعفر الكلابي قائلاً: "أحضر الله الملك إسعاداً، وأرشدته
 إرشاداً، إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غصّة، وعي المنطق أشد من
 عي السكوت، وعثار القول أنكأ من عبار الوعث! وما فرصة المنطق
 عندنا إلا بما تهوى، وغصّة المنطق بما لا تهوى غير مستساغة، وتركي ما
 أعلم من نفسي، ويعلم من سمعي أنني مطيق؛ أحب إلي من تكلفي ما
 أتخوف ويتخوف مني، وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان، وهولك من خير

^١ الوعث: المكان السهل. انظر: المصدر السابق (٢/٢٠١).



الأعوان، ونعم حامل المعروف والإحسان، أنفُسنا بالطاعة لك باخعة،
ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة"؛ فقال له كسرى:
نطقت بعقل، وسموت بفضل، وعلوت بئبل.

- ثم قال علقمة بن علاثة العامري: "نَهَجْتَ لك سبيل الرشاد، وخضعت لك
رقاب العباد، إِنَّ للأقويل مناهج، وللآراء موالج وللعويص مخارج، وخير
القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه، إِنَّا وإن كانت المحبة أحضرتنا،
والوفادة قَرَّبَتنا؛ فليس من حضرك مِنَّا بأفضلَ ممَّن عَزَبَ عنك؛ بل لو
قِسْتَ كُلَّ رجلٍ منهم، وعلمتَ منهم ما علمنا؛ لوجدت له في آبائه دنيا،
أندادا وأكفاء، كلُّهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدد موصوف،
وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف، يحيي حماه، ويروي نداماه،
ويذود أعداه، لا تخمد ناره، ولا يحترز منه جاره؛ أيها الملك؛ مَن يَبْلُ العُرب
يعرف فضلهم، فاصطنعِ العُرب؛ فإنها الجبال الرواسي عزًّا، والبحور
الزواخر طمئياً، والنجوم الزواهر شرقاً، والحصى عدداً، فإن تعرف لهم
فضلهم يُعزُّوك، وإن تستصرخهم لا يخذلوك"؛ فقال كسرى -وخشي أن
يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه:- حسبك؛ أبلغت وأحسنْتَ.

- ثم خطب قيس بن مسعود الشيباني فقال: "أطاب الله بك المرشد،
وجنَّبك المصائب، ووقاك مكروه الشصائب؛ ما أحقنا -إذ أتيناك-
بإسماعك ما لا يحنق صدرك، ولا يزرع لنا حقداً في قلبك، لم نقدم أيها
الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة؛ ولكن لتعلم أنت ورعيَّتُك ومَن
حضركَ مِن وفود الأمم؛ أَنَّا في المنطق غير محجمين، وفي الناس غير
مُقصرين، إن جورينا فغير مسبوقين، وإن سُومينا فغير مغلوبين"؛ قال
كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين (وهو يعرِّض به في تركه الوفاء
بضمانه السواد)؛ قال قيس: أيها الملك؛ ما كنتُ في ذلك إلا كوافٍ غُدِربه،
أو كخافرٍ أخفِرَ بدمتَه؛ قال كسرى: ما يكون لضعيفِ ضمان، ولا لذلِيلِ

١ الشصائب: الشدائد. انظر المصدر السابق (١/٤٩٥).

خفارة، قال قيس: أيها الملك؛ ما أنا فيما أخفر من ذمّي أحق بالزامي العار منك فيما قُتِل من رعيتك وانتهك من حُرمتك؛ قال كسرى: ذلك لأن من اتّمن الخانة، واستنجد الأئمة؛ ناله من الخطأ ما نالني، وليس كل الناس سواء، كيف رأيت حاجب بن زرارة، لم يُحكّم قُواه فيُبرم، ويعهد فيُوفي، ويعِد فينجز؟ فقال قيس: وما أحقّه بذلك، وما رأيتَه إلا لي؟ قال كسرى: القوم بزلٌّ فأفضلها أشدّها.

- ثم قام عامر بن الطفيل العامري فخطب قائلاً: "كثُر فنون المنطق، ولبس القول أعمى من حندس الظلماء، وإنما الفخر في الفعال، والعجز في النجدة، والسُّودد مطاوعة القدرة، وما أعلمك بقُدْرنا، وأبصرَك بفضلنا، وبالحرّي إن أدالت الأيام وثابت الأحلام أن تَحَدث لنا أمورًا لها أعلام".

قال كسرى: وما تلك الأعلام؟ فقال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر، على أمرٍ يُذكَر؛ قال كسرى: وما الأمر الذي يُذكَر؟ قال: ما لي علمٌ بأكثر مما خبرتني به مخبر؛ قال كسرى: متى تكاهنت يا بن الطفيل؟ قال: لست بكاهن؛ ولكني بالرمح طاعن؛ فقال كسرى: فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء؛ ما أنت صانع؟ قال: ما هيبتي في قفائي بدون هيبتي في وجهي، وما أذهب عيني عيب؛ ولكن مطاوعة العيب.

- ثم قام عمرو بن معدي كرب الزبيدي فقال: "إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فبلاغ المنطق الصواب، وملاك النجعة الارتياح، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة، فاجتنب طاعتنا بلفظك، واكتظم بادرتنا بجلّمك، وألن لنا كنفك؛ يسلس لك قيادنا، فإننا أناسٌ لم يُوقَّس صفاتنا قراع مناقير من أراد لنا قضماً، ولكن منَعنا جمانا من كلِّ من رام لنا هضمًا".

- ثم خطب الحارث بن ظالم المري قائلاً: "إنَّ من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق الملق، ومن خطل الرأي خفة الملك المُسلِّط، فإن أعلمناك أنَّ

مُواجَعَتَنَا لكَ عَنِ الْإِثْتِلافِ، وَانْقِيادَنَا لَكَ عَنِ تَصَافٍ؛ فَمَا أَنْتَ لِقَبُولِ
ذَلِكَ مِنَّا بِخَلِيقٍ، وَلَا لِلْاعْتِمادِ عَلَيْهِ بِحَقِيقٍ؛ وَلَكِنَّ الْوَفاءَ بِالْعَهودِ،
وَإِحْكامِ وَلِثِ الْعُقودِ، وَالْأَمْرِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَعْتَدِلٍ؛ مَا لَمْ يَأْتِ مِنْ قِبَلِكَ مِيلٌ
أَوْزَلُّ"

فَقَالَ كَسْرَى: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: الْحارِثُ بْنُ ظالِمٍ؛ قَالَ: إِنَّ فِي أَسْماءِ آبائِكَ لَدَلِيلًا
عَلَى قِلَّةِ وَفائِكَ، وَأَنْ تَكُونَ أَوْلَى بِالْقَدْرِ، وَأَقْرَبَ مِنَ الْوِزْرِ؛ قَالَ الْحارِثُ: إِنَّ فِي
الْحَقِّ مَغْضِبَةً، وَالسُّرُوِّ التَّغافلَ، وَلَنْ يَسْتَوْجِبَ أَحَدُ الْجِلْمِ إِلَّا مَعَ الْقَدْرَةِ،
فَلْتَشْبِهْ أَفعالَكَ مَجْلِسَكَ؛ قَالَ كَسْرَى: هَذَا فَتَى الْقَوْمِ.

وَقَدْ أَعْجَبَ كَسْرَى بِالْبِلاغَةِ الَّتِي رَأاهَا تَتَدَفَّقُ مِنْ خُطباءِ الْعَرَبِ وَوَجْهائِهِمُ الَّذِينَ
بَعَثَ بِهِمُ النِّعْمانُ فَقَالَ لَهُمُ: قَدْ فَهِمْتُ ما نَطَقْتُ بِهِ خُطباؤُكُمْ، وَتَفَنَّ فِيهِ
مَتَكَلِّمُكُمْ، وَلَوْلَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الْأَدبَ لَمْ يُثَقِّفْ أَوْدُكُمْ، وَلَمْ يُحْكَمْ أَمْرُكُمْ، وَأَنَّهُ
لَيْسَ لَكُمْ مَلِكٌ يَجْمَعُكُمْ، فَتَنْطِقُونَ عِنْدَهُ مِنْطِقَ الرِّعِيَّةِ الْخاضِعَةِ الْباخِعَةِ،
فَنْطَقْتُمْ بِما اسْتَوْلَى عَلَيَّ أَلْسِنَتُكُمْ، وَغَلَبَ عَلَيَّ طَباعُكُمْ؛ لَمْ أُجْزِ لَكُمْ كَبِيرًا مِمَّا
تَكَلَّمْتُمْ بِهِ، وَإِنِّي لِأُكْرَهُ أَنْ أُجِبَّهُ وَفُودِي، أَوْ أَحْنِقَ صَدورَهُمْ، وَالَّذِي أَحَبُّ مِنْ
إِصْلاحِ مَدْبِرِكُمْ، وَتَأَلَّفِ شِواذِكُمْ، وَالإِعْذارِ إِلَى اللَّهِ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَقَدْ قَبِلْتُ
ما كانَ فِي مَنْطِقِكُمْ مِنْ صِوابٍ، وَصَفَحْتُ عَمَّا كانَ فِيهِ مِنْ خَللٍ؛ فَانصَرَفُوا إِلَى
مَلِكِكُمْ، فَأَحْسَنُوا مِوازرتَهُ، وَالتَّزَمُوا طاعَتَهُ، وَارْدَعُوا سَفْهائَكُمْ وَأَقِيمُوا أَوْدَهُمْ،
وَأَحْسَنُوا أَدَبَهُمْ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ صِلاحَ الْعامَّةِ!

^١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/٦٣-٦٤).

٣- خطب الإصلاح

كان مرثد الخير بن ينكف، من سادة قومه، محبباً لصلاحهم، وكان سبيع ابن الحرث وميثم بن مثوب بن ذي رعين تنازعا الشرف، حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بين حبيئهما شر، فبعث إليهما مرثد فأحضرهما ليصلح بينهما، فقال لهما: إن التَّخْبُطَ وامتطاء الهجاج واستحقاب اللجاج، سيقفكما على شفا هوة، في توردها بوار الأصلحة وانقطاع الوسيلة، فتلافياً أمركما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشئت الألفة، وتباين السهمة، وأنتما في فسحة رافهة، وقدم واطدة، والمودة مثرية، والبُقىا معرضة؛ فقد عرفتم أبناء من كان قبلكم من العرب، ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع؛ ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيورأمورهم؛ فتلافوا القرحة قبل تفاقم الثأبي واستفحال الداء، وإعواز الدواء؛ فإنه إذا سُفكت الدماء؛ استحكمت الشَّحناء، وإذا استحكمت الشَّحناء؛ تقضبت عرى الإبقاء، وشمل البلاء!!

فقال سبيع: أيها الملك؛ إن عداوة بني العلات لا تبرئها الأساءة، ولا تشفيها الرقاة، ولا تستقل بها الكفاء، والحسد الكامن هو الداء الباطن، وقد علم بنو أبينا هؤلاء، أنا لهم رداء إذا رهبوا، وغيث إذا أجذبوا، وعضد إذا حاربوا، ومفزع إذا نكبوا، وأنا وإيَّاهم كما قال الأول:

إذا ما علوا قالوا أبونا وأمنا وليس لهم عالين أم ولا أب

فقال ميثم: أيها الملك؛ إن من نفس على ابن أبيه الزعامة، وجدَّ به في المقامة، واستكثر له قليل الكرامة؛ كان قرفاً بالملامة، ومؤنباً على ترك الاستقامة، وأنا -والله- لا نعتدُّ لهم بيدي إلا وقد نالهم منَّا كفاؤها، ولا نذكر لهم حسنة إلا وقد تطلع منا إليهم جزاؤها، ولا يتفياً لهم علينا ظلُّ نعمة إلا وقد قوبلوا بشرواها، ونحن بنو فحلٍ مُقرم، لم تقعد بنا الأمهات ولا بهم، ولم تزعنا

أعراق السوء ولا إيّاهم؛ فعلام مطّ الخدود، وخزر العيون، والجخيف
 والتصعّر، والبأ والتكبر؛ الكثرة عدد، أم لفضل جلد، أم لطول
 مُعتقد؟! وإنا وإيّاهم لكما قال الأول:
 لاه ابن عمك، لا أفضلت في حسب عني، ولا أنت ديانني فتخزوني

ومقاطع الأمور ثلاثة: حرب مبيرة، أو سلم قريرة، أو مداجاة وغفيرة.
 فقال الملك: لا تُنشطوا عقل الشوارد، ولا تلقحوا العون القواعد، ولا تؤرثوا
 نيران الأحقاد؛ ففيها المتلفة المستأصلة، والجائحة والأليلة، وعقوا بالحلم
 أبلاد الكلم، وأنبيوا إلى السبيل الأرشد، والمنهج الأqvسد؛ فإن الحرب تُقبلُ
 بزنج الغرور، وتدبر بالويل والثبور.. ثم قال الملك:

ألا هل أتى الأقوام بذلي نصيحة	حَبَوْتُ بِهَا مَنِّي سُبَيْعًا وَمِيثَمَا
وقلتُ علماً أنّ التدابير غادرت	عواقبهُ للذُّلِّ والقِلِّ جُرْهُمَا
فلا تقدحاً زئد العُقوقِ وأبقيا	على العِزَّةِ القَعَساءِ أن تتهدّما
ولا تجنيا حرباً تجرُّ عليكما	عواقبها يوماً من الشرِّ أشأما
فإنّ جناة الحربِ للحينِ عُرْضَةٌ	تُفُوقُهُمْ مِنْهَا الدُّعافُ المَقْشَّمَا
حذارِ؛ فلا تستنبئوها؛ فإنها	تُغادِرُ والأنفُ الأشمُّ مُكْشَّمَا

فقالا: لا أيها الملك؛ بل نقبل نُصْحَكَ، ونطيع أَمْرَكَ، ونطفئ النَّائِرَةَ، ونحلُّ
 الضَّغائن، ونثوب إلى السّلم!

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١٢/١-١٣).

٤- من خُطْبِ قريش

- يُرَوَى أَنَّهُ مَرَّةً خَطَبَ كَعْبُ بْنُ لُؤَيٍّ -الجدُّ السَّابِعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ- يَنْصَحُ قَوْمَهُ قَائِلًا: "اسْمَعُوا وَعُودُوا، وَتَعَلَّمُوا تَعَلَّمُوا، وَتَفَهَّمُوا تَفَهَّمُوا، لَيْلَ سَاجٍ، وَنَهَارِ ضَاجٍ، وَالْأَرْضِ مَهَادٍ، وَالْجِبَالِ أَوْتَادٍ، وَالْأَوْلَادِ كَالْآخِرِينَ؛ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى بَلَاءٍ، فَصَلُّوا أَرْحَامَكُمْ، وَأَصْلِحُوا أحوَالَكُمْ؛ فَهَلْ رَأَيْتُمْ مَنْ هَلَكَ رَجَعًا، أَوْ مَيِّتًا نُشِرَ؟! الدَّارُ أَمَامَكُمْ، وَالظَّنُّ خِلَافٌ مَا تَقُولُونَ، زَيْنُوا حَرَمَكُمْ وَعَظَّمُوا، وَتَمَسَّكُوا بِهِ وَلَا تُفَارِقُوهُ؛ فَسَيَأْتِي لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، وَسَيُخْرِجُ مِنْهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ".

- وَرَوَى أَنَّ هَاشِمَ بْنَ عَبْدِ مَنَاةٍ -الجدَّ الثَّانِي لِلنَّبِيِّ ﷺ- خَطَبَ قَوْمَهُ يَحْتَمُّهُمْ عَلَى إِكْرَامِ زُورِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ؛ أَنْتُمْ سَادَةُ الْعَرَبِ، أَحْسَنُهَا وَجُوهًا، وَأَعْظَمُهَا أَحْلَامًا، وَأَوْسَطُهَا أَنْسَابًا، وَأَقْرَبُهَا أَرْحَامًا، يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ؛ أَنْتُمْ جِيرَانُ بَيْتِ اللَّهِ، أَكْرَمَكُمْ بِوِلَايَتِهِ، وَخَصَّكُمْ بِجَوَارِهِ دُونَ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَحَفِظَ مِنْكُمْ أَحْسَنَ مَا حَفِظَ جَارٌ مِنْ جَارِهِ، فَأَكْرَمُوا ضَيْفَهُ وَزُورَ بَيْتِهِ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكُمْ شُعْنًا غُيْرًا مِنْ كُلِّ بَلَدٍ، فَوَرَبِّ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ؛ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ يَحْمِلُ ذَلِكَ لَكَفَيْتُكُمْوه، أَلَا وَإِنِّي مُخْرَجٌ مِنْ طَيْبِ مَالِي وَحَلَالِهِ مَا لَمْ يُقْطَعْ فِيهِ رَحِمٌ، وَلَمْ يُؤْخَذْ بِظُلْمٍ، وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ حَرَامٌ، فَوَاضِعُهُ، فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَسْأَلُكُمْ بِحُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَلَّا يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْ مَالِهِ لِكِرَامَةِ زُورِ بَيْتِ اللَّهِ وَمَعُونَتِهِمْ، إِلَّا طَيْبًا لَمْ يُؤْخَذْ ظَلْمًا، وَلَمْ يُقْطَعْ فِيهِ رَحِمٌ، وَلَمْ يُغْتَصَبْ".

^١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/٧٣).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٧٤).

- وَرُوِيَ عَنْ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ أَيْضًا أَنَّهُ قَدْ تَنَافَرَتْ إِلَيْهِ قَرِيشٌ وَخَزَاعَةٌ، فَخَطَبَ فَمِهِمْ بِمَا أَدْعَنَ لَهَا الْفَرِيقَانِ بِالطَّاعَةِ، وَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ؛ نَحْنُ آلُ إِبْرَاهِيمَ، وَذُرِّيَّةُ إِسْمَاعِيلَ، وَبَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ وَبَنُو قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، وَأَرْبَابُ مَكَّةَ، وَسَكَّانُ الْحَرَمِ، لَنَا ذُرُوعُ الْحَسَبِ، وَمَعْدَنُ الْمَجْدِ، وَلِكُلِّ فِي كُلِّ حِلْفٍ يَجِبُ عَلَيْهِ نَصْرَتُهُ، وَإِجَابَةُ دَعْوَتِهِ؛ إِلَّا مَا دَعَا إِلَى عَقُوقِ عَشِيرَتِهِ، وَقَطْعِ رَحِمٍ، يَا بَنِي قُصَيِّ؛ أَنْتُمْ كَغُصْنِي شَجْرَةَ؛ أَيُّهُمَا كُسِرَ؛ أَوْحَشَ صَاحِبُهُ، وَالسَّيْفُ لَا يُصَانُ إِلَّا بِغَمْدِهِ، وَرَامِي الْعَشِيرَةِ يَصِيبُهُ سَهْمُهُ، وَمَنْ أَمَحَكَه اللَّجَاجُ؛ أَخْرَجْهُ إِلَى الْبَغِيِّ.

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحِلْمُ شَرَفٌ، وَالصَّبْرُ ظَفَرٌ، وَالْمَعْرُوفُ كَنْزٌ، وَالْجُودُ سُودُدٌ، وَالْجَهْلُ سَفَهٌ، وَالْأَيَّامُ دَوْلٌ، وَالذَّهْرُ غَيْرٌ، وَالْمَرْءُ مَنْسُوبٌ إِلَى فِعْلِهِ، وَمَأْخُودٌ بِعَمَلِهِ، فَاصْطَبِعُوا الْمَعْرُوفَ تَكْسِبُوا الْحَمْدَ، وَدَعُوا الْفُضُولَ تَجَانِبَكُمْ السَّفَهَاءَ، وَأَكْرِمُوا الْجَلِيسَ يَعْزُرُنَا دِيَكُمْ، وَحَامُوا الْخَلِيطَ يَرْغَبُ فِي جَوَارِكُمْ، وَأَنْصِفُوا مِنْ أَنْفُسِكُمْ يُوثِقُ بِكُمْ، وَعَلَيْكُمْ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَإِنَّهَا رَفْعَةٌ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأَخْلَاقَ الدَّنِيَّةَ فَإِنَّهَا تَضَعُ الشَّرْفَ، وَتَهْدِمُ الْمَجْدَ، وَإِنْ نَهَمَ الْجَاهِلُ أَهُونَ مِنْ جَرِيرَتِهِ، وَرَأْسُ الْعَشِيرَةِ يَحْمِلُ أَثْقَالَهَا، وَمَقَامُ الْحَلِيمِ عِظَةٌ لِمَنْ انْتَفَعَ بِهِ".

فَقَالَتْ قَرِيشٌ: رَضِينَا بِكَ يَا أَبَا نَضْلَةَ.

- وَمَنْ خُطِبَ النِّكَاحُ وَالْمُنَاسِبَاتُ مَا خَطَبَ أَبُو طَالِبٍ بِنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ زَوَّجَ النَّبِيَّ ﷺ مِنَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ زُرْعِ إِبْرَاهِيمَ، وَذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، وَجَعَلَ لَنَا بَلَدًا حَرَامًا، وَبَيْتًا مَحْجُوجًا، وَجَعَلَنَا الْحَاكِمَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدًا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ أَخِي مِنْ لَأِ يُوَازِنُ بِهِ فَتَى مِنْ قَرِيشٍ إِلَّا رَجَحَ عَلَيْهِ بَرًّا

^١ انظر: المصدر السابق (٧٥/١).

^٢ أمحكه: من المَحْكُ وهو المشارة والمنازعة في الكلام. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/٤٨٦).

^٣ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/٧٧).

وفضلاً، وكرماً وعقلاً، ومجداً ونُبلاً، وإن كان في المال قُلٌّ؛ فإنما المال ظلٌّ زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصَّدَاقِ فعَلَيَّْ".

- وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبِ الْوَفَاةَ؛ جَمَعَ إِلَيْهِ وَجُوهُ قُرَيْشٍ فَأَوْصَاهُمْ فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ أَنْتُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَقَلْبُ الْعَرَبِ، فِيكُمْ السَّيِّدُ الْمَطَاعُ، وَفِيكُمْ الْمَقْدَامُ الشَّجَاعُ، الْوَاسِعُ الْبَاعُ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَمْ تَتْرَكُوا لِلْعَرَبِ فِي الْمَآثِرِ نَصِيبًا إِلَّا أَحْرَزْتُمُوهُ، وَلَا شَرَفًا إِلَّا أُدْرِكْتُمُوهُ؛ فَلَكُمْ بِذَلِكَ عَلَى النَّاسِ الْفَضِيلَةُ، وَلَهُمْ بِهِ إِلَيْكُمْ الْوَسِيلَةُ، وَالنَّاسُ لَكُمْ حَرْبٌ وَعَلَى حَرْبِكُمْ إِبْطٌ، وَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَعْظِيمِ هَذِهِ الْبُنْيَةِ -يَعْنِي الْكَعْبَةَ- فَإِنَّ فِيهَا مَرْضَاةً لِلرَّبِّ، وَقَوَامًا لِلْمَعِاشِ، وَثِبَاتًا لِلْوَطَاءِ، صِلُوا أَرْحَامَكُمْ وَلَا تَقْطَعُوهَا؛ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ، وَزِيَادَةٌ فِي الْعَدَدِ، وَاتْرَكُوا الْبَغْيَ وَالْعُقُوقَ فَفِيهِمَا هَلَكْتَ الْقُرُونُ قَبْلَكُمْ، أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَأَعْطُوا السَّائِلَ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا شَرَفَ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ، وَعَلَيْكُمْ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا مَحَبَّةً فِي الْخَاصِّ، وَمَكْرَمَةً فِي الْعَامِّ. وَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِمَحَمَّدٍ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُ الْأَمِينُ فِي قُرَيْشٍ، وَالصِّدِّيقُ فِي الْعَرَبِ، وَهُوَ الْجَامِعُ لِكُلِّ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ، وَقَدْ جَاءَنَا بِأَمْرِ قَبِيلَةِ الْجَنَانِ، وَأَنْكَرَهُ اللِّسَانُ؛ مَخَافَةَ الشَّنَّانِ، أَيْمَ اللَّهِ؛ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى صَعَالِكِ الْعَرَبِ وَأَهْلِ الْأَطْرَافِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ النَّاسِ قَدْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَعَظَّمُوا أَمْرَهُ، فَخَاضَ بِهِمْ غَمْرَاتِ الْمَوْتِ، وَصَارَتْ رُؤْسَاءُ قُرَيْشٍ وَصِنَادِيدُهَا أَذْنَابًا، وَدُورُهَا خِرَابًا، وَضِعْفَاؤُهَا أَرْبَابًا، وَإِذَا أَعْظَمَهُمْ عَلَيْهِ أَحْوَجُهُمْ إِلَيْهِ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ أَحْظَاهُمْ عِنْدَهُ، قَدْ مَحَضَّتْهُ الْعَرَبُ وَدَادَهَا، وَأَصْفَتْ لَهُ فُؤَادَهَا، وَأَعْطَتْهُ قِيَادَهَا، دُونَكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ ابْنِ أَبِيكُمْ؛ كُونُوا لَهُ وِلَاةً، وَلِحَزْبِهِ حِمَاةً، وَاللَّهُ لَا يَسْلُكُ أَحَدَ سَبِيلِهِ إِلَّا رَشَدًا، وَلَا يَأْخُذُ

١ انظر: المصدر السابق (١/١٦١).



أحد بهديه إلا سَعِد، ولو كان لنفسي مدّة، وفي أجلي تأخير؛ لكففت عنه
الهزاهز، ولدافعت عنه الدّواهي".

٥- من خطب الوفود

- خطب عبد المطلب بن هاشم -جدُّ النَّبِيِّ ﷺ- يهَيِّئُ الْمَلِكُ سَيْفَ بِنِ ذِي يَزْنَ الْحَمِيرِي عَلَى اسْتِعَادَةِ مَلِكِهِ مِنَ الْأَحْبَاشِ قَائِلًا: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمَلِكُ- أَحَلَّكَ مَحَلًّا رَفِيعًا، صَعْبًا مَنِيْعًا، بَادِخًا شَامِخًا، وَأَنْبَتَكَ مَنبِتًا طَابَتْ أُرُومَتُهُ، وَعَزَّتْ جَرثُومَتُهُ، وَثَبَّتْ أَصْلَهُ، وَبَسَقَ فِرْعَهُ، فِي أَكْرَمِ مَعْدِنٍ، وَأَطْيَبِ مَوْطِنٍ؛ فَأَنْتَ -أَبِيْتُ اللَّعْنِ- رَأْسُ الْعَرَبِ وَرَبِيعِهَا الَّذِي بِهِ تُخَصِّبُ، وَمَلِكِهَا الَّذِي بِهِ تَنْقَادُ، وَعَمُودِهَا الَّذِي عَلَيْهِ الْعِمَادُ، وَمَعْقَلِهَا الَّذِي إِلَيْهِ يَلْجَأُ الْعِبَادُ، سَلْفِكَ خَيْرٌ سَلْفٍ، وَأَنْتَ لَنَا بَعْدَهُمْ خَيْرٌ خَلْفٍ، وَلَنْ يَهْلِكَ مِنْ أَنْتَ خَلْفُهُ، وَلَنْ يَخْمَلَ مِنْ أَنْتَ سَلْفُهُ، نَحْنُ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ وَذِمَّتِهِ، وَسَدْنَةُ بَيْتِهِ، أَشْخَصْنَا إِلَيْكَ الَّذِي أَبْهَجَكَ بِكَشْفِ الْكَرْبِ الَّذِي فَجَعْنَا، فَنَحْنُ وَفَدُ التَّهْنِئَةِ، لَا وَفَدُ الْمُرْزُؤَةِ."

- وَرُؤِي أَنْ أَفْضَلَ خُطْبِ الْوَفُودِ مَا قَالَهُ حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ أَمَامَ كَسْرِي مُؤَفِّدًا مِنْ قَبْلِ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ قَائِلًا: "قَدْ عَلِمْتُ الْعَرَبَ أَنَّ فِينَا الشَّرْفَ الْأَقْدَمَ، وَالْعِزَّ الْأَعْظَمَ، وَمَأْتِرَةَ لِلصَّنِيْعِ الْأَكْرَمِ؛ فَقَالَ مَنْ حَوْلَهُ: وَلِمَ ذَاكَ أَخَا فِرَازَةَ؟ فَقَالَ: أَلَسْنَا الدَّعَائِمُ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْعِزُّ الَّذِي لَا يُضَامُ؟! قِيلَ: صَدَقْتَ،

- وَرُؤِي عَنِ الْأَشْعَثِ الْكَنْدِيِّ مَقَالَتَهُ أَمَامَ كَسْرِي: "قَدْ عَلِمْتُ الْعَرَبَ أَنَّ نَقَاتِلَ عَدِيدِهَا الْأَكْثَرَ، وَزُخْفَهَا الْأَكْبَرَ، وَإِنَّا لَعَيَاثُ الْكِرْبَاتِ، وَمَعْدِنُ الْمَكْرَمَاتِ؛ قَالُوا: وَلِمَ يَا أَخَا كَنْدَةَ؟ قَالَ: لِأَنَّ وَرَثَنَا مُلُوكَ كَنْدَةَ، فَاسْتِظَلَّلْنَا بِأَفْيَائِهِ وَتَقَلَّدْنَا مِنْكِبِهِ الْأَعْظَمِ، وَتَوَسَّطْنَا بِحُبُوحِهِ الْأَكْرَمِ."

^١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (٧٦-٧٧).

^٢ انظر: المصدر السابق (٤٦/١).

^٣ انظر: المصدر السابق (٤٧/١).



- وَرُوِيَ عَنْ حَاجِبِ بْنِ زُرَّارَةَ مُوفِّدًا أَمَامَ كَسْرَى؛ قَدْ عَلِمْتَ مَعَدُّ أَنَا فِرْعَ
دَعَامَتَهَا، وَقَادَةَ زَحْفَهَا؛ قَالُوا: وَلِمَ ذَاكَ يَا أَخَا بَنِي تَمِيمٍ؟ قَالَ: لِأَنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ عَدِيدًا، وَأَنْجَهُمْ طَرًّا وَلِيدًا، وَأَنَا أَعْطَاهُمْ لِلْجَزِيلِ، وَأَحْمَلُهُمْ
لِلثَّقِيلِ".

^١ انظر: المصدر السابق (١/٤٨).

٦- من الخطب الحماسية

- قال هاني بن قبيصة يحرض قومه يوم ذي قار! "يا معشر بكر؛ هالكٌ معذورٌ؛ خيرٌ من ناجٍ فرورٍ، إنَّ الحذرَ لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر؛ قاتلوا فما للمنايا بُدٌ".

^١ انظر: المصدر السابق (٣٧/١).

٧- من خُطَب المفاخرات والمنافرات

(١) منافرة طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان!

اجتمع طريف بن العاصي الدوسي، والحارث بن ذبيان -وهو أحد المعمرين- عند بعض مقالٍ حمير، فتفاخرا، فقال الملك للحارث: يا حارث! ألا تخبرني بالسبب الذي أخرجكم عن قومكم حتى لحقتم بالنمر بن عثمان؟ فقال: أخبرك أيها الملك؛ خرج هجينان منّا يرعيان غنمًا لهما؛ فتشاولا بسيفيهما، فأصاب صاحبه عقب صاحبا، فعاث فيه السيف، فنزف، فمات، فسألونا أخذ دية صاحبا دية الهجين وهي نصف دية الصريح، فأبى قومي، وكان لنا رباء علمهم، فأبينا إدا دية الصريح، وأبوا إدا دية الهجين، فكان اسم هجيننا ذهين ابن زبراء، واسم صاحبه عنقش بن مهيبة، وهي سوداء أيضًا، فتفاقم الأمرين الحيين، فقال رجل منّا:

حُلُومُكُمْ يَا قَوْمُ لَا تُغْرِبُنَّهَا وَلَا تَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ بِالتَّادِئِ
وَأَدُّوا إِلَى الْأَقْوَامِ عَقْلَ ابْنِ عَمِّهِمْ وَلَا تُرْهِقُوهُمْ سَبْئَةَ فِي الْعَشَائِرِ
فَإِنَّ ابْنَ زِبْرَاءَ الَّذِي فَادَ لَمْ يَكُنْ بِدُونِ خُلَيْفٍ أَوْ أُسَيْدِ بْنِ جَابِرِ
فَإِنْ لَمْ تُعَاطُوا الْحَقَّ فَالْسَّيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، وَالسَّيْفُ أَجُورِ جَائِرُ

فتظافروا علينا حسدًا، فأجمع ذوو الحجي منّا أن نلحق بأمنع بطنٍ من الأزدي، فلجئنا بالنمر بن عثمان، فوالله ما فتّ في أعضادنا، فأبنا عنهم، ولقد أثارنا صاحبا وهم راغمون.

فوثب طريف بن العاصي من مجلسه، فجلس بإزاء الحرث، ثم قال:

^١ انظر: المصدر السابق (١٣/١-١٦).

^٢ تشاولا: تضاربا. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣٧٧/١١).

تالله ما سمعتُ كالיום قولاً أبعدَ من صوابٍ، ولا أقربَ من خطيِّ، ولا أجلبَ
لقدع من قول هذا، والله أيها الملك ما قتلوا بهجيتهم بذجاً، ولا رقوا به درجاً،
ولا أنطوا به عقلاً، ولا اجتفتوا به خشلاً؛ ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم،
وأجلاهم عن محلهم، حتى استلانوا خشونة الإزعاج، ولجؤوا إلى أضييق
الولاج قلاً وذللاً.

فقال الحارث: أسمع يا طريف؟ إني -والله- ما إخالك كأفاً غرب لسانك، ولا
منهنها شرة نروانك، حتى أسطو بك سطوة تكف طماحك، وترد جماحك،
وتكبت تترعك، وتقمع تسرعك.

فقال طريف: مهلاً يا حارث، لا تعرض لطحمة استناني، وذرب سناني، وغرب
شبابي، وميسم سبابي، فتكون كالأظل الموطوء، والعجب الموجوء.

فقال الحارث: إياي تخاطب مثل هذا القول؟! فوالله لو ووطنك لأسختك، ولو
وهصتك لأوهطتك، ولو نفتحك لأفدتك.

فقال طريف متمثلاً:

وإنّ كلام المرء في غير كنهه لكانتبل تهوي ليس فيها نصالها

أما والأصنام المحجوبة، والأنصاب المنصوبة، لئن لم تربع على ظلعك، وتقف
عند قدرك؛ لأدعن حزنك سهلاً، وعمرك ضحلاً، وصفاك وحلاً.

فقال الحارث: أما -والله- لو رمت ذلك لمرغت بالحضيض، وأغصبت
بالجريض، وضافت عليك الرحاب، وتقطعت بك الأسباب، ولألفيت لقي
تهاداه الرواس. بالسهب الطامس.

فقال طريف: دون ما ناجتك به نفسك مقارعة أبطال، وحياض أهوال،
وحفزة إعجال، يمنع معه تطامن الإمهال.

فقال الملك: إيها عنكما! فما رأيت كالיום مقال رجلين لم يقصبا، ولم
يثلبا، ولم يلصوا، ولم يقفوا.

١ خشلاً: المقل اليابس. انظر المصدر السابق (٦/٢٦٨).

(٢) منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل!

لما أسنَّ أبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسنَّة؛ تنازع على رياسة بني عامر كلُّ من علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريَّين، فقال علقمة: "كانت لجدي الأحوص، وإنَّما صارت لعمك بسببه، وقد قعد عمك عنها، وأنا استرجعتها فأنا أولى بها منك!! فشري الشر بينهما، وصار إلى المنافرة، فقال علقمة: إن شئتُ نافرتك؛ فقال عامر: قد شئتُ، واللهِ إني لأكرم منك حسبًا، وأثبت منك نسبًا، وأطول منك قصبًا.

فقال علقمة: واللهِ لأنا خير منك ليلاً ونهارًا؛ فقال عامر: واللهِ لأنا أحب إلى نساءك أن أصبحَ فيهنَّ منك، أنا أنحر منك للِّقاح، وخيرُ منك في الصِّباح، وأطعمُ منك في السنَّة الشِّياح.

فقال علقمة: أنا خير منك أثرًا، وأحدُّ منك بصرًا، وأعرُّ منك نفرًا، وأشرف منك ذكراً؛ فقال عامر: ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك في العدد، وبصري ناقص، وبصرك صحيح، ولكني أنافرك، إني أسى منك سمَّة، وأطول منك قمَّة، وأحسن منك لمَّة، وأجد منك جمَّة، وأسرع منك رحمة، وأبعد منك همَّة؛ فقال علقمة: أنت رجل جسيم؛ فقال عامر: أبأوك أعمامي، ولم أكن لأنافرك بهم لكني أنافرك، أنا خير منك عقبًا، وأطعم منك جدبًا؛ فقال علقمة: قد علمت أن لك عقبًا، وقد أطعمت طيبًا، ولكن أنافرك، إني خير منك، وأولى بالخيرات منك.

فخرجت أم عامر -وكانت تسمع كلامهما- فقالت: يا عامر؛ نافره أيكما أولى الخيرات؛ قال عامر: إني -والله- لأركبُ منك في الحماة، وأقتلُ منك للكماة، وخير منك لمولى ولمولاة؛ فقال له علقمة: واللهِ إني لبرؤ إنك لفاجر، وإني لولود وإنك لعافر، وإني لعفُّ وإنك لعاهر، وإني لوفِيُّ وإنك لغادر، ففيم تفاخرني يا عامر؟ فقال عامر: واللهِ إني لأنزلُ منك للقفرة، وأنحر منك للبكرة، وأطعم

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/٤١-٤٥).

منك للهبرة، وأطعن منك للثغرة؛ فقال علقمة: والله إنك لكليل البصر، نكد النظر، وثَّاب على جاراتك بالسَّحَر.

فقال بنو خالد بن جعفر -وكانوا يدًا مع بني الأحوص على بني مالك بن جعفر:-
لن تطيق عامرًا، ولكن قلْ له: أنافرك و أقرينا إلى الخيرات؛ فقال له علقمة
هذا القول، فقال عامر: عَيْرُوتيس، وتيس وعنز؛ فذهبت مثلاً.

وخرج علقمة ومن معه من بني خالد، وخرج عامر فيمن معه من بني مالك،
وجعلا منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية، وكان العرب إذا تنافر فيهم
رجلان؛ احتكما إلى قريش، فأبى أبو سفيان أن يحكم بينهما، ثم ساروا إلى أبي
جهل عمرو بن هشام، فأبى كذلك، ثم أتيا كلاً من عيينة بن حصن بن حذيفة
وغيلان بن سلمة الثقفي وحرملة بن الأشعر المري، فأبوا جميعاً الحكم بينهما،
حتى أتيا هريم بن قطبة بن سنان الفزاري ممدوح زهير، فانطلقا حتى نزلا به،
فقال هريم: لعمري لأحكمنَّ بينكما ثم لأفضلنَّ، فأعطياني موثقاً أطمئنُّ إليه
أن ترضيا بما أقول، وتُسليما لما قضيتُ بينكما؛ وأمرهما بالانصراف وواعدهما
ذلك اليوم من قابلٍ، فانصرفا، حتى إذا بلغ الأجل؛ خرجا إليه، وأقام القوم
عنده أياماً.

فأرسل هريم إلى عامر فاتاه سرّاً لا يعلم به علقمة، فقال: يا عامر؛ قد كنتُ أرى
لك رأياً، وأنَّ فيك خيراً، وما حبستُك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك،
أتنافر رجلاً لا تفخر أنت وقومك إلا بأباهه؟! فما الذي أنت به خير منه؟ فقال
عامر: نشدتك الله والرحم ألا تفضِّل عليَّ علقمة؛ فوالله لئن فعلت؛ لا أفلح
بعدها أبداً، هذه ناصيتي فاجزرها واحتكم في مالي، فإن كنت لا بدَّ فاعلاً فسوّ
بيني وبينه؛ قال: انصرف فسوف أرى رأيي؛ فخرج عامر وهو لا يشكُّ أنه يُنقِر
صاحبه عليه، ثم أرسل إلى علقمة سرّاً لا يعلم به عامر، فاتاه، وقال له مثل ما
قال لعامر، فردَّ عليه علقمة بما ردَّ به عامر، وانصرف وهو لا يشكُّ أنه
سيفضِّل عليه عامرًا، ثم إن هريماً أرسل إلى بنيه وبني أبيه وقال: إني قائل غداً
بين هذين الرَجُلَيْنِ مقالة، فإذا فعلتُ فليطرُدْ بعضكم عشر جزائر فينحرها عن

علقمة، ويطرد بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر، وفرّقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة، وأصبح هرم فجلس مجلسه، وأقبل الناس، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا، فقام هرم فقال: يا بني جعفر؛ قد تحاكمتُما عندي، وأنتمُما كركبتي البعير الأدرم، تقعان إلى الأرض معاً، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس بصاحبه، وكلاكما سيد كريم؛ وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم، وفرّقوا الناس، ولم يفضل هرم أحداً منهما على صاحبه، وكره أن يفعل هذا بين ابني عمّ فتقع بينهما العداوة.

(٣) بين مُرّة بن ذهل البكري والتغليبين!

لما قتل جساس بن مُرّة بن ذهل؛ كليب بن ربيعة التغليبي؛ الذي كان ملكاً على بكر وتغلب معاً، مما أدّى إلى حرب البسوس التي ذكرناها من قبل؛ تاهّب أخوه المهلهل بن ربيعة المعروف بالزير سالم لقتل بني بكر ثأراً لأخيه، وأرسل وفداً إلى والد جساس وزعيم البكرين وقتها فقالوا له: إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليبًا بنابٍ من الإبل، فقطعتم الرّحم، وانتهكتم الحرمة، وإنّا كرهنّا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم، ونحن نعرض عليكم خلالاً أربعاً، لكم فيها مخرج، ولنا فيها مَنع؛ فقال مرة: وما هي؟ قالوا: تحيي لنا كليبًا، أو تدفع إلينا جساسًا قاتله فنقتله به، أو همامًا فإنه كفاء له، أو تمكّتنا من نفسك فإنّ فيك وفاء من دمه؛ فقال: أمّا إحيائي كليبًا فهذا ما لا يكون، وأمّا جساس فإنه غلام طعن طعنةً على عجلٍ ثم ركب فرسه فلا أدري أي البلاد احتوى عليه، وأمّا همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة؛ كلهم فرسان قومهم، فلن يُسلموه لي فأدفعه إليكم يُقتل بجريرة غيره. وأمّا أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غدًا فأكون أول قتيل بينهما؟! فما أتعجل الموت؛ ولكن لكم

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٤٠-٤١).

^٢ همام بن مرة أخو جساس، قُتل في حرب البسوس.

عندي خصلتان؛ أما إحداهما فهؤلاء بنيّ الباقون، فعَلِّقُوا فِي عُنُقِ آبَائِهِمْ شَتْمَ
نَسْعَةَ فَاَنْطَلِقُوا بِهِ إِلَى رِحَالِكُمْ فَادْبَحُوهُ ذَبْحَ الْجَزُورِ، وَإِلَّا فَأَلْفَ نَاقَةَ سُودِ
الْحَدَقِ، حَمْرَ الْوَبْرِ، أَقِيمْ لَكُمْ بِهَا كَفِيلاً مِنْ بَنِي وَائِلٍ؛ فَغَضِبَ الْقَوْمُ وَقَالُوا:
لَقَدْ أَسَأْتَ، تَبَدَّلْ لَنَا وَلَدَكَ، وَتَسْؤِمُنَا اللَّبْنَ مِنْ دَمِ كَلِيبٍ؟! وَنَشَبَتِ الْحَرْبُ
بَيْنَهُمْ.

٨- من الوصايا

١ - لما احتضر ذو الإصبع؛ دعا ابنه أسيّدًا وأوصاه قائلاً: " يا بُني؛ إنّ أباك قد فَنِيَّ وهو حيٌّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته؛ بلَغْتَ في قومك ما بلغتُه، فاحفظ عني؛ ألنّ جانبك لقومك يحبُّوك، وتواضع لهم يرفعُوك، وابتسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيءٍ يُسودُّوك، وأكرم صغارهم كما تُكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودّتك صغارهم، واسمح بمالك، وارحم حريمك، وأعزّز جارك، وأعِن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ فإنّ لك أجلاً لا يعدُّوك، وصنّ وجهك عن مسألة أحدٍ شيئاً، فبذلك يتمّ سؤدّدك".

٢ - ورؤي عن النعمان بن ثواب العبدي يُوصي بنيه الثلاثة؛ وهم: سعد وسعيد وساعدة، وكان سيّدًا في قومه؛ قال أوّلًا لولده سعد وكان صاحب حرب؛ "يا بني؛ إن الصارم ينبو، والجواد يكبو، والأثريعفو، فإذا شهدت حربًا، فرأيت نارها تستعر، وبطلها يخطر، وبحرها يزخر، وضعيفها ينصر، وجبانها يجسر؛ فأقلل المكث والانتظار؛ فإنّ الفرار غير عارٍ، إذا لم تكن طالب ثارٍ؛ فإنما يُنصرون هم، وإياك أن تكون صيد رماحها، ونطيح نطاحها".

وقال لابنه سعيد وكان صاحب جود: "يا بني؛ لا يبخل الجواد، فابذل الطارف والتلاد، وأقلل التلاح؛ تُذكر عند السماح، وابلّ إخوانك فإنّ وفيمهم قليل، واصنع المعروف عند محتمله".

١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ١٢٠).

٢ انظر: المصدر السابق (١/ ١٢٦-١٢٧).

وقال لابنه ساعدة وكان مسرفاً في الشراب: "با بني؛ إن كثرة الشراب تفسد القلب، وتقلل الكسب، وتُجِدِّ اللعب، فأبصر نديمك، واحم حريمك، وأعن غريمك، واعلم أنّ الظمأ القامح خير من الرّيِّ الفاضح، وعليك بالقصد فإن فيه بلاغاً".

- وقالت عصام الكندية تصف امرأة اسمها أم إياس؛ أراد الحارث بن عمر ملك كندة خطبها: "رأيتُ جبهة كالمراة الصقيلة، يزيها شعر حالك كأذنا ب الخيل المصفورة، إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت: عناقيد كرم جلاها الوابل، وحاجبين كأنهما خطاً بقلم، أو سوداً بحمم، قد تقوَّسا على عيني الطبية العبهرة؛ التي لم يرعها قانص، ولم يذعرها قسورة، بينهما أنف كحدِّ السيف المصقول، لم يخنس به قصر، ولم يَمْضِ به طول، حفَّتْ به وجنتان كالأرجوان، في بياض محض كالجمان، سُقِّ فيهِ فمٌّ كالخاتم، لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غر، ذوات أشر، وأسنان تبدو كالدرر، وريق كالخمر له نشر الروض بالسَّحَر، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان.....".

فلمَّا حُمِلت إلى زوجها؛ أوصتها أمها أمامة بنت الحارث قائلة: "أي بنية؛ إن الوصية لو تُرِكَت لفضل أدب؛ تُرِكَت لذلك منك؛ ولكمها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لِغنى أبويها، وشدة حاجتها إليها؛ كنت أغنى الناس عنه؛ ولكنَّ النساء للرجال خُلُقن، ولهنَّ خُلُق الرِّجال.

أي بنية؛ إنك فارقت الجوّ الذي منه خرجت، وخلفت العُشَّ الذي فيه درجت، إلى وكرٍ لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً؛ فكوني له أمةً يكن لك عبداً وشيكاً، يا بنية؛ احلمي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرًا: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن

١ الظمأ القامح: العطش الشديد. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥٦٦/٢).

٢ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١٤٥/١-١٤٦).

السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضوع أنفه؛ فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مَغْضَبَةٌ؛ والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير، ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سرّه؛ لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره؛ أو غرت صدره؛ ثم اتقي من ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكْتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكُونِي أَشَدَّ ما تكونين له إعظامًا؛ يكن أَشَدَّ ما يكون لك إكرامًا، وأَشَدَّ ما تكونين له موافقة؛ يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تُحِبِّين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك؛ فيما أحببت وكرهت، والله يخبرك".

- ورُوِيَ عن قيس بن زهير العبسي يوصي الثَّمَر بن قاسط حينما همَّ بمغادرتهم: "إِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ حَقًّا، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَوْصِيَكُمْ، وَأَمْرُكُمْ بِخِصَالٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ خِصَالٍ؛ عَلَيْكُمْ بِالْأَنَاةِ؛ فَإِنَّ بِهَا تُدْرِكُ الْحَاجَةَ، وَتُنَالُ الْقَرْضِيَّةُ، وَتَسْوَدُ مَنْ لَا تَعَاوَنَ بِتَسْوِيدِهِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْوَفَاءِ؛ فَإِنْ بِهِ يَعِيشُ النَّاسُ، وَبِإِعْطَاءِ مَنْ يَرِيدُونَ إِعْطَاءَهُ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ، وَمَنْعِ مَنْ يَرِيدُونَ مَنْعَهُ قَبْلَ الْإِلْحَاحِ، وَإِجَارَةِ الْجَارِ عَلَى الدَّهْرِ، وَتَنْفِيسِ الْمَنَازِلِ عَنِ بِيوتِ الْيَتَامَى، وَخُلْطِ الضَّيْفِ بِالْعِيَالِ.

وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْغَدْرِ؛ فَإِنَّهُ عَارُ الدَّهْرِ، وَعَنِ الرَّهَانِ؛ فَإِنِّي بِهِ تُكَلِّتُ مَالَكَا أَخِي، وَعَنِ الْبَغْيِ؛ فَإِنَّهُ قَتْلُ زُهَيْرًا أَبِي، وَعَنِ الْإِعْطَاءِ فِي الْفَضُولِ؛ فَتَعْجَزُوا عَنِ الْحَقُوقِ، وَعَنِ السَّرْفِ فِي الدَّمَاءِ؛ فَإِنَّ يَوْمَ الْهَبَاءَةِ أَلْزَمَنِي الْعَارُ، وَمَنْعُ الْحَرَمِ إِلَّا مِنَ الْأَكْفَاءِ، فَإِنْ لَمْ تَصِيبُوا لَهُنَّ الْأَكْفَاءَ فَإِنَّ خَيْرَ مَنَازِلِهَا

١ يوم الهباءة إحدى الوقائع بين العرب.

القبور.. واعلموا أني كنت ظالماً مظلوماً؛ ظلمني بنو بدر بقتلهم مالكاً
أخي، وظلمتهم بأن قتلْتُ من لا ذنب له".

- ومن الوصايا ما رُوِيَ عن أَكْثَمِ بنِ صَيْفِي يَرُدُّ على كِتَابٍ وردّه من النعمان
ابن خميصه الباروقي، جاء فيه: "مِثْلُ لَنَا مِثْلًا نَأْخُذُ بِهِ"، فكتب أَكْثَمُ
قائلاً: "لَقَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ، فَعَرَفْتُ حَلْوَهُ وَمَرَّهُ، عَيْنَ عَرَفْتُ
فَذَرَفْتُ، إِنْ أَمَامِي مَا لَا أَسَامِي. رَبِّ سَامِعٍ بِخَبْرٍ لَمْ يَسْمَعْ بِعَذْرِي. كُلُّ زَمَانٍ
لَمِنْ فِيهِ. فِي كُلِّ يَوْمٍ مَا يُكْرَهُ. كُلُّ ذِي نَصْرَةٍ سَيُخَذَلُ. تَبَارَؤُا فَإِنَّ الْبِرَّ يَنْبَغِي
عَلَيْهِ الْعَدَدُ، وَكَفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ فَإِنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَيْهِ، إِنَّ قَوْلَ الْحَقِّ
لَمْ يَدَعْ لِي صَدِيقًا. لَا يَنْفَعُ مَعَ الْجَزَعِ التَّبَيُّقِيُّ. وَلَا يَنْفَعُ مِمَّا هُوَ وَاوَقِعُ التَّوَقُّيُّ،
سَتُسَاقُ إِلَى مَا أَنْتَ لَاقٍ. فِي طَلْبِ الْمَعَالِي يَكُونُ الْعِزُّ. الْاِقْتِصَادُ فِي السَّعْيِ
أَبْقَى لِلْجَمَامِ. مَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى مَا فَاتَهُ؛ وَدَّعَ بَدَنَهُ، وَمَنْ قَنَعَ بِمَا هُوَ فِيهِ؛
قَرَّتْ عَيْنَهُ. أَصْبِحْ عِنْدَ رَأْسِ الْأَمْرِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُصْبِحَ عِنْدَ ذَنْبِهِ، لَمْ يَهْلِكْ
مِنْ مَالِكَ مَا وَعْظُكَ، وَيَلْ لِعَالِمٍ أَمْرٌ مِنْ جَاهِلِهِ، الْوَحْشَةُ ذَهَابُ الْأَعْلَامِ،
الْبَطْرُ عِنْدَ الرَّجَاءِ حَمَقٌ. لَا تَغْضَبُوا مِنَ الْيَسِيرِ؛ فَرُبَّمَا جَنَى الْكَثِيرُ. لَا
تَضْحَكُوا مِمَّا لَا يُضْحَكُ مِنْهُ. حِيلَةٌ مِنْ لَا حِيلَةَ لَهُ الصَّبْرُ. كُونُوا جَمِيعًا
فَإِنَّ الْجَمِيعَ غَالِبٌ، تَثَبَّتُوا وَلَا تَسَارَعُوا فَإِنْ أَحْزَمَ الْفَرِيقَيْنِ الرَّكِيْنُ، رَبِّ
عَجَلَةٍ تَهَبُ رِيئًا، أَدْرِعُوا اللَّيْلَ وَأَتَّخِذُوهُ جَمَلًا؛ فَإِنَّ اللَّيْلَ أَخْفَى لِلْوَيْلِ، وَلَا
جَمَاعَةَ لِمَنْ اخْتَلَفَ، قَدْ أَقْرَّ صَامِتٌ، الْمَكْثَارُ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ، مَنْ أَكْثَرَ
أَسْقَطَ، لَا تَفَرَّقُوا فِي الْقِبَائِلِ؛ فَإِنَّ الْغَرِيبَ بِكُلِّ مَكَانٍ مَظْلُومٌ، عَاقِدُوا
الثَّرْوَةَ وَإِيَّاكُمْ وَالْوَشَائِظَ فَإِنَّ مَعَ الْقِلَّةِ الدَّلَّةَ، لَوْ سُلِّتِ الْعَارِيَةُ قَالَتْ:
أَبْغِي لِأَهْلِي ذَلًّا. الرَّسُولُ مَبْلَغٌ غَيْرُ مَلُومٌ، مَنْ فَسَدَتْ بَطَانَتُهُ؛ غَصَّ بِالْمَاءِ.
أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ إِجَابَةً، الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعِلُهُ، إِنْ الْمَسْأَلَةُ مِنْ
أَضْعَفِ الْمَسْكَنَةِ. قَدْ تَجَوَّعَ الْحَرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيِهَا. لَمْ يَجْزُ سَالِكُ الْقَصْدِ،

١ انظر: جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري (١/٤٩٣).

٢ الوشائظ: الدُّخلاء. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٧/٤٦٥).

ولم يَعْمَ قاصد الحق، من شَدَد نَفَر، ومن تراخَى تألَّف. الشرف التغافل، أوفَى القول أوجزُه. أصوبُ الأمور تركُ الفضول، التغرير مفتاح البؤس. التواني والعجز ينتجان الهلكة، لكل شيء ضراوة. أحوج الناس إلى الغنى من لا يصلحه إلا الغنى وهم المملوك. حب المدح رأس الضياع، رضا الناس غاية لا تُبَلِّغ، فلا تركه سخط من رضاه الجور، معالجة العفاف مشقة فتعوذ بالصبر. اقصر لسانك على الخير وأخر الغضب؛ فإن القدرة من ورائك، من قدر أزمع، الأم أعمال المقتدرين الانتقام، جاز بالحسنة ولا تكافئ بالسيئة، أغنى الناس عن الحقد من عظم عن المجازاة. من حسد من دونه قلَّ عُذره، من جعل لحسن الظن نصيباً؛ رُوح عن قلبه، عي الصمت أحمد من عي المنطق، الناس رجالان: مُحترس ومُحترس منه، كثير النصح يهجم على كثير الظنَّة، ومن ألحَّ في المسألة أبرم، خير السخاء ما وافق الحاجة، الصمت يُكسب المحبة، لن يغلب الكذب شيئاً إلا غلب عليه، الصديق من الصديق، القلب قد يُتهم وإن صدق اللسان، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، وتقريبهم مكسبة لقرين السوء، فكن من الناس بين القرب والبعد؛ فإن خير الأمور أوساطها، فسؤلة الوزراء أضرم بعض الأعداء، خير القرناء المرأة الصالحة، عند الخوف حسن العمل، من لم يكن له من نفسه زاجر؛ لم يكن له من غيره واعظ، وتمكَّن منه عدوُّه على أسوأ عمله، لن يهلك امرؤ حتى يملك الناس عتيد فعله، ويشتدَّ على قومه، ويُعجب بما يُظهر من مروءته، ويفتَرِّ بقوَّته، والأمريأتيه من فوقه، ليس للمختال في حسن الثناء نصيب، لا نماء مع العُجب، إنه من أتى المكروه إلى أحد بدأ بنفسه. العيُّ أن تتكلم فوق ما تسدُّ به حاجتك، لا ينبغي لعاقل أن يثق بإخاء من تضطره إلى إخوانه حاجة، أقل الناس راحة الحقوق، من تعمَّد الذنب لا تحل رحمته دون عقوبته؛ فإن الأدب رفق، والرفق يُمن."



- وقال عمرو بن كلثوم في النصح: "فإنَّه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه نفسه، ولا يعبر عنه في تزكية أصحابه أصدق من اعتماده إياهم برغبته، وائتمانه على حرمة".

^١ انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت (١/٣٧).

٩- من القصص

- روى المفضل الضبي في كتابه أمثال العرب قائلاً: "زعموا أن المنذر بن ماء السماء لما هلك؛ ترك عمرًا وقابوسًا وحسانًا؛ وأمهم هند بنت الحارث ابن آكل المزار الكندي، والأسود بن المنذر وأمّه امرأة من تيم الرباب، وعمرًا الأصغر وأمّه أمانة، وبَيْنَ غيرهم لِعَلَاتٍ، وَأَنَّ عَمْرًا مَلَكَ بَعْدَ أَبِيهِ الْمَنْذِرَ؛ وكان عمرو يُدْعَى مَحْرَقًا؛ لأنه أحرق اليمامة، فاستعمل عمرو أخاه قابوسًا على ما بدا له من عمله، وكان له الرِّيف سواد العراق، فغضب عمرو ابن أمانة فلحق باليمن، يريد أن يستنصرهم على أخيه عمرو ويغزو بهم، فقال عمرو بن أمانة في ذلك:

أَلِابْنِ أَمِّكَ مَا بَدَا وَلَكَ الْخَوَزَنِيُّ وَالسَّيْدِيُّ
فَلَأْمَنَعَنَّ مَنَابِتَ الضُّ مَرَانٍ إِذْ مَنَعَ الْقُصُورُ
بِكَتَائِبٍ تَزِيدِي كَمَا تَزِيدِي إِلَى الْجَيْفِ النَّشُورُ
إِنَّا بَنِي الْعَلَاتِ ثَقُّ ضَى دُونَ شَاهِدِنَا الْأُمُورُ

فنزّل عمرو في مراد، فملّكوه وعظّموه، فتغطرس وجعل يريد أن يستعبدهم، فقتلوه؛ قتله ابن الجعيد المرادي، فقال في ذلك طرفة بن العبد:

أَعْمَرُو بَنَ هِنْدٍ مَا تَرَى رَأْيِي مَعَشِرٍ أَفَاتُوا أَبَا حَسَّانَ جَارًا مُجَاوِرًا
دَعَا دَعْوَةً إِذْ شَكَّتِ النَّبْلُ صَدْرَهُ أَمَامَةً وَاسْتَعْدَى بِذَلِكَ مَعَاشِرًا

فغزاهم عمرو بن هند حين بلغه قتل عمرو ابن أمانة، فظفر بهم فقتل فيهم وأكثر، وأتى بابن الجعيد سالمًا، فلما رآه؛ قال: (بسلاح ما يقتلن القتيل) فأرسلها مثلًا، ثم أمر به فضرب بالعمد حتى مات".

^١ انظر: أمثال العرب، المفضل الضبي (ص ١٠٤).

^٢ المشهور أن عمر بن هند ملك بعد أخيه المنذر بن المنذر.

- رُوِيَ عن المفضل الضبي كذلك أنه قال! "زعموا أنّ أخوين كانا فيما مضى في إبلٍ لهما؛ فأجدبتُ بلادهما، وكان قريبًا منهما وادٍ فيه حيّة، قد حمّته من كلّ أحد؛ فقال أحدهما للآخر: يا فلان؛ لو أني أتيت هذا الوادي فرعيت فيه إبلي وأصلحتها!! فقال له أخوه: إنّي أخاف عليك الحيّة، ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته! قال: فوالله لأهبطن؛ فهبط ذلك الوادي، فرعى إبله به زمانًا، ثم إن الحيّة لدغته، فقتلته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبنّ الحيّة فأقتلها أو لأتبعنّ أخي؛ فهبط ذلك الوادي، فطلب الحيّة ليقتلها، فقالت: ألسّت ترى أني قتلتُ أخاك؟! فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي، فتكون به، وأعطيك ما بقيت دينارًا في كل يوم؟ قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم؛ قال: فإني أفعل؛ فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضيرها. وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثُر ماله ونمت إبله، حتى كان من أحسن الناس حالًا، ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟! فعمد إلى فأس فأحدّها، ثم قعد لها، فمرّت به، فتبّعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، فرمى الفأس بالجبل، فوقع فوق جحرها فأثر فيه، فلمّا رأت ما فعل؛ قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، ولمّا رأى ذلك؛ تخوّف شرّها وندم فقال لها: هل لك في أن نتواثق -نتعاهد- ونعود إلى ما كنّا عليه؟ فقالت: كيف أعاهد وهذا أثر فأسك وأنت فاجر لا تبالي العهد؟!، فكان حديث الحيّة والفأس مثلًا مشهورًا، وفي ذلك رُوي عن النابغة الذبياني يعاتب بها بني مرة:

أَكَبَّ عَلَى فَأْسٍ يُحَدِّ غُرَابَهَا	مُذَكَّرَةٌ مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَةٌ
فَقَامَ لَهَا مِنْ فَوْقِ جُحْرِ مُشَيِّدٍ	لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُخْطِئَ الْكَفَّ بَادِرَةٌ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةً فَأَسِهُ	وَالْبِرِّ عَيْنٌ لَا تُغَمِّضُ نَاطِرَةٌ
فَقَالَ تَعَالَى نَجْعَلِ اللَّهُ بَيْنَنَا	عَلَى مَا لَنَا أَوْ تُنْجِزِي لِي آخِرَةٌ

١ انظر: أمثال العرب، المفضل الضبي (ص ١٢٤-١٢٦).

فَقَالَتْ يَمِينَ اللهُ أَفْعَلُ إِنِّي رَأَيْتُكَ مَسْحُورًا يَمِينُكَ فَاجِرَةٌ

- وَرُوِيَ عَنِ الْمَفْضَلِ الضَّبِّيِّ: "كَانَ امْرُؤُ الْقَيْسِ بْنِ حَجْرٍ الْكَنْدِيُّ الشَّاعِرَ رَجُلًا مَفْرَكًا؛ لَا تَحِبُّهُ النِّسَاءُ، وَلَا تَكَادُ امْرَأَةٌ تَصْبِرُ مَعَهُ، فَتَزَوِّجُ امْرَأَةً مِنْ طَيْئٍ، فَابْتَنَى بِهَا، فَأَبْغَضْتَهُ مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِهِ، فَكَرِهَتْ مَكَانَهُ، فَجَعَلَتْ تَقُولُ: يَا خَيْرَ الْفَتَيَانِ؛ أَصْبَحْتَ، أَصْبَحْتَ؛ فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَرَى اللَّيْلَ كَمَا هُوَ، فَيَقُولُ: أَصْبَحَ لَيْلٌ؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ؛ قَالَ لَهَا: قَدْ رَأَيْتَ مَا صَنَعْتَ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مَا صَنَعْتَ ذَلِكَ مِنْ كِرَاهِيَةِ مَكَانِي فِي نَفْسِكَ، فَمَا الَّذِي كَرِهْتَ مِنِّي؟ قَالَتْ: مَا كَرِهْتِكَ؛ فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى قَالَتْ: كَرِهْتُ مِنْكَ أَنَّكَ خَفِيفُ الْعِجْزَةِ، ثَقِيلُ الصَّدْرَةِ، سَرِيعُ الْإِرَاقَةِ، بَطِيءُ الْإِفَاقَةِ؛ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهَا قَالَ لَهَا هُوَ: إِنَّكَ لِحَدِيدَةِ الرِّكْبَةِ، سَلْسَةُ النَّقْبَةِ، سَرِيعَةُ الْوَثْبَةِ؛ وَطَلَّقَهَا، وَذَهَبَ قَوْلُهُ "أَصْبَحَ لَيْلٌ" مَثَلًا.

- وَمِنَ الْقِصَصِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنَ الْأَعَاجِيبِ، وَأَكْثَرُ مِنْ رَوَايَتِهَا عَرَبُ الصَّحْرَاءِ: قِصَّةُ أَبْنَاءِ نَزَارِ بْنِ مَعَدٍ مَعَ الْأَفْعَى الْجَرَهْمِيِّ؛ وَنَزَارِ بْنِ مَعَدٍ هُوَ جَدُّ الْبَطْنِ الْأَعْظَمِ مِنَ الْعَرَبِ الْعَدْنَانِيَّةِ، وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَبْنَاءٍ؛ هُمْ: مَضْرُ وَرَبِيعَةُ وَهُمَا مِنْ كَثْرِ النَّسْلِ فِيهِمْ، فَانْحَدَرَ مِنْهُمُ أَغْلَبُ الْعَرَبِ الْعَدْنَانِيَّةِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى إِيَادَ وَأَنْمَارَ.

ومفاد القصة أنه "لمَّا حضرت نزارًا الوفاة؛ دعا إيادًا وعنده جارئة شمطاء، وقال: هذه الجارية الشمطاء وما أشبهها لك؛ ودعا أنمارًا وهو في مجلس له وقال: هذه البدرة والمجلس وما أشبههما لك؛ ودعا ربِيعَةَ وأعطاه جيبًا سودًا من شعر، وقال: هذه وما أشبهها لك؛ وأعطى مضر قبَّة حمراء، وقال: هذه وما أشبهها لك؛ ثم قال: وإن أشكل عليكم شيء؛ فأتوا الأفعى بن الأفعى الجرهمي - وكان ملك نجران.

١ انظر: أمثال العرب، المفضل الضبي (ص ٨٢).

فلَمَّا مات نزار؛ ركبوا رواحلهم قاصدين الأفعى؛ تنفيذاً لوصية والدهم،
فلَمَّا كانوا من نجران على مسافة يومٍ إذا هم بأثر بغير، فقال إياد: إنه
أعور؛ فقال أنمار: وإنه لأبتر؛ فقال ربيعة: وإنه لأزور؛ وقال مضر:
وإنه لشارد لا يستقر!! فلم يلبثوا حتى جاءهم راكب، فلَمَّا وصلهم قال:
هل رأيتم بغيراً ضالاً؟ فوصفوه له كما تقدّم، فقال الراكب: إنَّ هذه
لصفته عيناً، فأين بغيري؟ قالوا: ما رأينا؛ فقال: أنتم أصحاب بغيري،
وما أخطأتم من نعتِه شيئاً!!.

فلَمَّا أناخوا بباب الأفعى واستأذنوه، وأذن لهم؛ صاح الرجل بالباب،
فدعا به الأفعى، وقال له: ما تقول؟ قال: أيها الملك؛ ذهب هؤلاء ببغيري؛
فسألهم الأفعى عن شأنه، فأخبروه، فقال لإياد: ما يدريك أنه أعور؟
قال: رأيته قد لحس الكلاً من شِقِّ والشِقُّ الآخر وافر؛ وقال أنمار: رأيته
يرمي بعره مجتمعاً، ولو كان أهلب لمصع به، فعلمت أنه أبتر؛ وقال ربيعة:
أثرٌ إحدى يديه ثابت، أما الآخر فاسد، فعلمت أنه أزور؛ وقال مضر: رأيته
يرعى الشقّة من الأرض ثم يتعدّها فيمر بالكلاً الغضّ فلا ينهش منه
شيئاً، فعلمت أنّه شرود؛ فقال الأفعى: صدقتم، وليسوا بأصحابك،
فالتمس بغيرك.

ثم سألهم الأفعى عن نسيم فأخبروه، فرحّب بهم وحيّاهم،
ثم قصّوا عليه قصة أبيهم، فقال لهم: كيف تحتاجون إليّ وأنتم على ما
أرى؟! قالوا: أمرنا بذلك أبونا، فأمر خادم دار ضيافته أن يحسن
ضيافتهم ويكثر مثواهم، وأمر وصيفا له أن يلتزمهم ويحفظ كلامهم،
فأتاهم القهرمان بشهدٍ فأكلوه، فقالوا: ما رأينا شهيداً أطيب ولا أعذب
منه، فقال إياد: صدقتم لولا أنّ نحله في هامة جبّار؛ ثم جاءهم بشاة
مشويّة، فأكلوها واستطابوها، فقال أنمار: صدقتم لولا أنها غدّيت بلبن
كلبة؛ ثم جاءهم بالشراب فاستحسنوه، فقال ربيعة: لولا أنّ كرمته نبتت

^١ أزور: هو المائل المعوج صدره. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/٣٣٤).

على قبر؛ ثم قالوا: ما رأينا منزلًا أكرم قِرَى ولا أخصب رَحْلًا من هذا الملك، فقال مضر: صدقتم؛ لولا أنه لغير أبيه!!

فذهب الغلام الى الأفعى فأخبره بكل ما سمع مما دار بينهم، فدخل الأفعى على أمه فقال: أقسمتُ عليك إلا أن تخبريني من أبي؟ قالت: أنت الأفعى ابن الملك الأكبر؛ قال: حقًا لتصدُقيني؛ فلما ألحَّ عليها قالت: أي بني؛ إن الأفعى كان شيخًا قد أثقل، فخشيت أن يخرج هذا الأمر عن أهل هذا البيت، وكان عندنا شابٌّ من أبناء الملوك، اشتملتُ عليك منه.

ثم بعث إلى القهرمان فقال: أخبرني عن الشَّهد الذي قدَّمته إلى هؤلاء النفر ما خطُّبه؟ قال: طلبت من صاحب المزرعة أن يأتيني بأطيب عسل عنده، فدار جميع المناحل فلم يجد أطيَّب من هذا العسل، إلا أنَّ النحل وضعه في جمجمة في كهف، فوجدته لم يُر مثله قطُّ، فقدَّمته لهم؛ فقال: وما هذه الشاة؟ قال: إني بعثت إلى الراعي بأن يأتيني بأسمن شاة عنده، فبعث بها، وسألته عنها فقال: إنها أول ما وُلدت من غني فماتت أمها، وأنست بجراء الكلبة ترضع معهم، فلم أجد في غني مثلها فبعثتُ بها!! ثم بعث إلى صاحب الشراب وسأله عن شأن الخمر، فقال: هي كرمة غرستها على قبر أبيك، فليس في بلاد العرب مثل شرابها؛ فعجب الأفعى من القوم وقال: ما هم إلا شياطين!! ثم أحضرهم وسألهم عن وصية أبيهم؛ فقال إياد: جعل لي خادمة شمطاء وما أشبهها؛ فقال الأفعى: إنه ترك غنمًا برشاء^١ فهي لك ورعاؤها من الخدم؛ وقال أنمار: جعل لي بكرة ومجلسه وما أشبههما؛ فقال: لك ما ترك من الرقة والأرض؛ وقال ربيعة: جعل لي حبالًا سودًا وما أشبهها؛ قال: ترك أبوك خيالًا دُهمًا وسلاحًا فهي لك وما معها من موالى؛ فقيل: ربيعةُ الفَرَس؛ وقال مضر: جعل لي قبة حمراء وما أشبهها؛ قال: إنَّ أباك ترك إبلًا حمراء فهي لك؛ فقيل: مضر الحمراء.

^١ برشاء: في لونها نقط مختلفة. انظر المصدر السابق (٦/٢٦٤).

هذه هي القصة، وتكشف لنا جانبًا عظيمًا من الفراسة والذكاء والفتنة التي امتاز بها عرب الجاهلية منذ القدم، ولا ندري أهي حقيقية أم أسطورية أم ربما كان لها أصل في الحقيقة ثم بالغ الرواة في الإضافة والحذف فحُرِفَتْ، ولكنَّها على كل حالٍ تعتبر من أشهر القصص التي كان يتناقلها العرب في الجاهلية.

وكتب الأدب حافلة بالكثير من هذه القصص، مع الإشارة إلى أننا لا يسعنا التأكيد من مدى دقَّتْها ولا من صحَّة ما ورد فيها من شعر قد يكون أصابه التَّحريف وما جرى عليها من انتحال، ومع هذا فهي بشكلٍ عامٍّ تعبِّر عن ملامح النَّثر الجاهلي وسماته، وتعبِّر عن طبيعة الحياة في الصحراء والبادية.

١٠- من الحكم والأمثال

(١) يداك أوكتا وفوك نفخ (يضرِب لمن يقع في سوء فعله).

وأصله أنّ رجلاً كان في جزيرة من جزر البحر أراد أن يعبر على زقّ، فنفخ فيه ولكن لم يحسن إحكامه، حتى إذا توسّط البحر؛ خرج منه الهواء، فغرق، فلمّا غشيه الموت استغاث برجل، فقال له: يداك أوكتا وفوك نفخ؛ يعني: أنت من جلب هذا على نفسك؛ لسوء فعلك وعدم إتقان عملك.. فذهبتُ مثلاً!

(٢) يا عاقدُ اذكرُ حلاً (يُضْرَبُ مثلاً للنظر في العواقب).

ويُروى كذلك "يا حامل"، وقصّته أن رجلاً من طيِّهم أن يغدر بامرئ القيس بن حجر، فأتى الجبل وقال: ألا إن فلاناً غدر؛ فأجابه الصدى بمثل ما قال، فقال: ما أقبحَ تا!! ثم قال: ألا إن فلاناً وقي؛ فأجابه الصدى بمثل ذلك، فقال ما أحسنَ تا!! وفي النهاية وفي لامرئ القيس ولم يغدر به.^٢

(٣) يا بعضي دع بعضاً (يُضْرَبُ مثلاً في تعاطف ذوي الأرحام).

أول من قاله زرارة بن عدس التميمي؛ وذلك أن ابنته كانت امرأةً سُويد ابن ربيعة ولها منه تسعة بنين، وإنّ سُويداً قتل أخاً لعمرو بن هند ملك الحيرة وهو صغير، فهرب، وطلبه ابن هند فلم يعثر عليه فأرسل إلى زرارة

^١ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (٢/ ٤١٤)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة: دار المعرفة، بيروت- لبنان.

^٢ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (٢/ ٤١١).

قائلاً: ائتني بولده من ابنتك؛ فجاء بهم، ثم أمر عمرو بن هند بقتلهم، فتعلّقوا بجديهم زرارة، فقال: يا بعضي دع بعضي؛ فذهبت مثلاً؛ وأراد بقوله "يا بعضي" أنهم أجزاء من ابنته، وأراد بقوله: دَعُوا بعضًا ممّا أشرف على الهلاك؛ يعني أنه معرّض لمثل مصيرهم!

(٤) الصَّيْفَ ضَيَّعَتِ اللَّبْنَ (يُضْرَبُ مَثَلًا لِمَنْ يَفْرِطُ فِي الْأَمْرِ ثُمَّ يَنْدَمُ
ويريد استداركه).

وقصّته أن عمرو بن عدس تزوّج بنت عمّه دختنوس بنت لقيط بن زرارة، وكان شيخًا مُسنًّا هريمًا وذا مال، فأخذت تعيّرهُ لشيخوخته حتى طلقها، وتزوّجت شابًا جميلًا من آل زرارة، حتى غزتهم بكر بن وائل، فقتل زوجها وأخذت سبيّة، لكن أدركها بعض قومها فقتلوا بعضًا منهم واستنقذوها، وتزوّجت بعده شابًا فقيرًا، فمَرَّتْ بها إبل لزوجها الأول عمرو بن عدس، فقالت لخادمتها: قولي له: ليسقينا من اللبن؛ فأتته، فقال: قولي لها: الصَّيْفَ ضَيَّعَتِ اللَّبْنَ؛ فضربت يدها على كتف زوجها وقالت: هذا ومدقّةٌ خيرٌ.. فذهبت العبّارتان مثلاً.

ومن الطريف أن هذا المثل يُروى كما هو نصًّا بكسر التاء في "ضَيَّعَتِ" سواء أكان المخاطب مذكرًا أم مؤنثًا، مثني أم جمعًا!

(٥) الصمت حكمٌ وقليلٌ فاعله (يقال عن استعمال الصمت).

ويقال: إن لقمان الحكيم دخل على داود -عليه السلام- وهو يصنع درعًا، فهمّ لقمان أن يسأله عما يصنع، ثم أمسك ولم يسأل حتى تمّم

^١ انظر: المصدر السابق (٢/ ٤١٠).

^٢ انظر: جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري (٧/١)، طبعة: دار الفكر، بيروت.

داود صُنِعَهُ، وقد قرأ في عينيه سؤاله، فقال له: نعم أداة حرب؛ فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله^١.

(٦) رَبِّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمَّكَ (يُضْرَبُ مَثَلًا فِي مَوَاقِفِ الشَّهَامَةِ وَالْمُؤَاوِزَةِ).

ويُروى هذا المثل عن لقمان بن عاد؛ إذ أصابه العطش فاستسقى امرأة، فقالت: اللَّبَنُ تبغي أم الماء؟ فقال: أيُّهما كان ولا عداء؛ فذهبت عبارته مَثَلًا، فقالت المرأة: أَمَا اللَّبَنُ فخلفك وأَمَا الماء فأمامك؛ فقال لقمان: المنع كان أوجز؛ فذهبت مَثَلًا، فبينما هو كذلك إذ أبصر صبيًّا يبكي ولا يُكْتَرِثُ له، يَسْتَسْقِي فلا يجيبه أحد، فقال: إن لم يكن لكم في هذا الصَّبِيِّ حاجة؛ دفعتموه إليَّ فكفلته؟ فقالت المرأة: ذاك إلى هاني -زوجها- فقال: وهاني من العدد؟ فذهبت مَثَلًا؛ ثم قال لها: هذا الشاب إلى جنبك، فقد علمته ليس ببعلك؟ قالت: هذا أخي؛ فقال: رَبِّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمَّكَ؛ فذهبت مَثَلًا؛ ثم نظر إلى أثر زوجها فعلم أنه أعسر، فقال: ثكلتِ الأَعْيَسِرَ أُمَّه، لو يعلم العِلْمُ لَطال غمُّه؛ فذهبت مَثَلًا؛ ثم أبى الطعام والشراب ومضى، حتى لَقِيَ رَجُلًا يسوق إبله، فعرف لقمان من صوته دون أن يراه أنه هو هاني، فقال: يا هاني، يا هاني؛ فقال: ما بالك؟ فخطبه وقال له: عليَّ التَّنْوِيرُ وعليك التَّغْيِيرُ، إن كان عندك نكير، كل امرئ في بيته أمير؛ فذهب كلامه مَثَلًا؛ ثم قال: إني مررت وبي أوام، فدفعت إلى بيت، فإذا أنا بامرأتك تغازل رجلاً، فسألتهما عنه، فزعمته أخاها، ولو كان أخاها لجلَّى عن نفسه وكفاها الكلام؛ فقال هاني: وكيف علمت المنزل منزلي والمرأة امرأتي؟ قال: عرقت عقائق هذه النُّوقِ في البناء، وبوهدة الخلية في الفناء، وسقب هذا النَّاب، وأثر يدك في

^١ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (١/٤٠٢).

الإطناب؛ قال: صدقتني فداك أبي وأمي، وكذبتني نفسي، فما الرأي؟ قال: هل لك علم؟ قال: نعم بشأني؛ فقال لقمان: كل امرئ بشأنه عليم؛ فذهبت مثلاً؛ فقال هاني: هل بقيت بعد هذه؟ قال لقمان: نعم؛ فقال: وما هو؟ قال لقمان: تحمي نفسك، وتحفظ عرسك؛ فقال هاني: أفعل؛ فقال لقمان: من يفعل الخير يجد الخير؛ فذهبت مثلاً؛ ثم قال: الرأي أن تقلب الظهر بطنًا والبطن ظهرًا؛ حتى يستبين لك الأمر أمرًا؛ قال: فلا أعاجلها بكية توردها المنية؛ فقال لقمان: آخر الدواء الكي؛ فذهبت مثلاً؛ فانطلق الرجل حتى أتى امرأته فقصَّ عليها القصة حتى بردت!

(٧) جزاء سنمار (يضرب للمحسن الذي كوفئ على إحسانه شراً).

وقصته أن بناءً روميًا ماهرًا يدعى سنمار؛ بنى قصرًا فخماً للملك النعمان ابن امرئ القيس، وقد أحسن البناء، فلما أتمَّ بناءه وفرغ منه؛ ألقاه النعمان من أعلاه، فخرَّ ميتًا؛ وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره! وهناك رواية أخرى تقول: إنه بعدما فرغ في بنائه قال للنعمان: إني لأعرف في القصر لبنة لو زالت لسقط القصر كله؛ فقال له النعمان: وهل يعرفها أحد سواك؟ فقال سنمار: لا؛ فأمر به النعمان فألقي من فوق القصر فمات، وقال النعمان: إذا لن يعرفها أحد بعد اليوم؛ فضرب به المثل فيمن يصنع معروفًا ثم يُجازى شراً.

(٨) رُبَّ رميةٍ من غير رامٍ.

قالها الحكم بن عبد يغوث، وكان أرمى أهل زمانه، وقد آلى يمينًا ليذبحنَّ على الغبغب مهاة، فحمل قوسه وكنانته، فلم يصنع شيئًا، فرجع حزينًا

^١ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (٢٩١/١).

^٢ انظر: جمهرة الأمثال للعسكري (٣٠٥-٣٠٦)؛ مجمع الأمثال، الميداني (١٥٩/١).

مكتئبًا، فقال لقومه: ما أنتم صانعون بي؟ فإني قاتل نفسي أسفًا إن لم أذبحها اليوم!! فقال أخوه الحصين: يا أخي؛ ضع مكانها عشرًا من الإبل ولا تقتل نفسك؛ فأبى، ثم قال له ولده المطعم: يا أبت؛ احملني معك أرفدك؛ فقال أبوه: وما أحمل من رعرش وهل، جبان فَشِل؛ فضحك الغلام وقال: إن لم ترَ أوداجها تخالط أمشاجها فاجلعي وداجها؛ فانطلقا، فإذا هما بمهاة فرماها الحكم مرتين فأخطأها، فقال ولده: يا أبت؛ أعطني القوس؛ فأعطاه، فرماها فلم يخطئها؛ فقال أبوه: رُبَّ رميةٍ من غير رام؛ فذهبت مثلًا!

(٩) رُبَّ ساعٍ لقاعدٍ.

وأول من قاله النابغة الذبياني، وكان قد وفد على النعمان بن المنذر في عدّة وفود، كان من بينها رجل من عبس يقال له: شقيق؛ فمات عنده، فلمّا حبا النعمان الوفود؛ بعث إلى أهل شقيق بمثل حباء الوفد، فقال النابغة: رُبَّ ساعٍ لقاعدٍ؛ فذهبت مثلًا!

(١٠) إنّ الحديث ذو شجونٍ.

قيل: إنّ ضبّة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن معد؛ كان له ابنان: سعد وسعيد، وقد نفرت إبله تحت الليل وهما معها، فخرجا يطلبانها، فوجدها سعد فجاء بها، وأما سعيد فذهب ولم يرجع، فجعل ضبّة يقول بعدها إذا رأى تحت الليل سوادًا مقبلًا: "أسعدُ أم سعيد؟" فذهبت مثلًا؛ ثم ذهب بعدها ليلقى رجلًا اسمه الحارث بن كعب في الأشهر الحُرْم، فقال له: أترى هذا المكان؟ فإني

^١ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (١/٢٩٩).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٢٩٩).

لقيت فيه شاباً فقتلته وأخذت بُردًا كان عليه وسيفًا.. ثم وصف له صفة سعيد، فشكَّ ضبَّةً وقال له: ما صفة السيف؟ فقال: ها هو ذا عليٌّ؟ قال: فأرنيه؛ فإذا هو سيف ولده سعيد، فعرف أنه قاتله فقال: إن الحديث لذو شجون.. فضربه حتى قتله!

(١١) سبق السيف العذل (يُضْرَبُ لمن يتعجل في فعل أمرٍ ثم يندم عليه بعد فوات الآوان).

قاله ضبَّةُ بن أد حينما لامه الناس على قتله قاتلٍ ولده في الحرم، ويعني أنه لم يُعَدِّ النَّدم ممكنًا، فهو يُضْرَبُ لما لا يمكن الرجوع عنه؛ ويقال: بل قاله خزيمة ابن نوفل الهمداني^٢.

(١٢) إنَّ غداً لناظره قريب.

يروي المفضل أن أوَّل من قالها قُرَاد بن أجدع؛ إذ خرج النعمان بن المنذر يتصيّد على فرسه اليعموم، فأجراه على أثر عيرٍ، فذهب الفرس في الأرض ولم يُقدِّر عليه، وانفرد عنه أصحابه فصار وحيدًا، فالتمس مأوى يلجأ إليه، فاستقبله رجل من طيئٍ يقال له حنظلة، فذبح شاته الوحيدة وأكرمه فأطعمه وسقاه وأحسن ضيافته وهو لا يعرفه، حتى ركب النعمان فذهب بعدما أخبره أنه الملك ثم انصرف عنه، وبعدها بمدَّةٍ أصابت الطائي نكبة، فالتمس مساعدة النعمان وذهب إليه في الحيرة، وتصادف أنه ذهب إليه ولقيه في يوم بؤسه؛ وهو اليوم الذي رُوِيَ أن النعمان كان يقتل فيه أول من يَفِدُ إليه، في قصة الغريين التي أوردناها سلفًا، وأراد النعمان أن يَفِيَّ بقسمه ويقتله، وقال له: والله لو سح

^١ انظر: المصدر السابق (١/١٩٧).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٣٢٨).

لي قابوس ابني؛ لم أجد بدءاً من قتله، فاطلب حاجتك من الدنيا وسل ما بدا لك فإنك مقتول؛ قال: أبيت اللعن، وما أصنع بالدنيا بعد موتي؟! فقال: إنه لا سبيل إليها؛ فقال: فإن كان لا بدءاً فأجلني حتى ألبس بأهلي فأوصي إليهم وأهبي حالهم ثم أنصرف إليك؛ فقال النعمان: فأقم لي كفيلاً بموافقتك؛ فكفله قراد بن أجدع وضمه، ثم أمر النعمان للطائي بخمسمائة ناقة، وأخر قتله سنة، حتى إذا حال عليه الحول ولم يبق غير يوم؛ قال النعمان لقراد: ما أراك إلا هالكاً؛ فقال قراد: إن غداً لناظره قريب؛ فذهبت مثلاً؛ فلما أصبح النعمان في اليوم التالي تأهب لقتل قراد نيابة عن الطائي، فطلب منه وزراؤه أن يصبر حتى تغرب الشمس ويستوفي يومه، وكان النعمان يشتهي قتله ليفلت الطائي، فلما أوشكت الشمس على المغيب وهمم بقتله؛ إذا بالطائي يقبل عليه، فلما رآه النعمان؛ شقَّ عليه مجيئه وقال: ما حملك على الرجوع بعد إفلاتك من القتل؟! قال: الوفاء؛ قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: ديني. قال: وما دينك؟ قال: النصرانية؛ فما لبث أن تنصَّر النعمان وترك الوثنية وترك سنة القتل تلك وأمر بهدم الغريين، وقال: والله ما أدري أيهما أوفى وأكرم؛ أهذا الذي نجا من القتل فعاد أم هذا الذي ضمنه!! ثم عفا عن الطائي!

والأرجح أن تلك القصة إن صحَّت فهي عن المنذر بن ماء السماء وليس النعمان؛ إذ إن قصة الغريين ويومي النعيم والبؤس كانت على عهد المنذر، وقد صحَّ تاريخياً أن المنذر بن ماء السماء أول من تنصَّر من ملوك المناذرة لا النعمان.

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٧٠-٧١).

(١٣) جَوَّعَ كَلْبِكَ يَتَّبِعُكَ.

يُنْسَبُ هَذَا الْمَثَلُ لِلْمَلِكِ مِنْ مَلُوكِ جَمِيرٍ، كَانَ عَنِيفًا يَسْلُبُ أَمْوَالَهُمْ وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَكَانَتْ الْكَهْنَةُ تَخْبِرُهُ بِأَنَّهُمْ يَقْتُلُونَهُ، فَلَا يَأْبَهُ لَذَلِكَ، وَإِنَّ أَمْرَاتِهِ سَمِعَتْ أَصْوَاتَ السُّؤَالِ فَقَالَتْ: إِنِّي لِأَرْحَمُ هَؤُلَاءِ لِمَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْجَهْدِ وَنَحْنُ فِي الْعَيْشِ الرَّغْدِ، وَإِنِّي لِأَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ يَصِيرُوا سِبَاعًا وَقَدْ كَانُوا لَكَ أَتْبَاعًا؛ فَقَالَ لَهَا: جَوَّعَ كَلْبِكَ يَتَّبِعُكَ؛ وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَغْزَاهُمْ فَعَادُوا مَظْفَرِينَ بِالْغَنَائِمِ، فَلَمْ يَقْسَمْ لَهُمْ، فَذَهَبُوا إِلَى أَخِيهِ -وَكَانَ أَمِيرَهُمْ- فَأَغْرَوْهُ بِقَتْلِ أَخِيهِ الْمَلِكِ حَتَّى يَجْلِسَ مَحَلَّهُ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَمَا لَبِثُوا أَنْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ، فَمَرَّ بِهِ عَامِرُ بْنُ جَذِيمَةَ وَكَانَ قَدْ سَمِعَهُ مَقَالَتَهُ (جَوَّعَ كَلْبِكَ يَتَّبِعُكَ)، فَقَالَ: رَبِّمَا أَكَلِ الْكَلْبُ مَوْدَبَهُ إِذْ لَمْ يَنْلِ شَعْبَهُ؛ فَصَارَتْ مَثَلًا!

(١٤) أَجْنَاؤُهَا أَبْنَاؤُهَا.

وَقِصَّةُ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ مَلِكًا مِنْ مَلُوكِ الْيَمَنِ غَزَا وَخَلَّفَ ابْنَةً لَهُ، فَأَحْدَثَتْ بَعْدَهُ بِنِيَانًا كَانَ أَبُوهَا يَكْرَهُهُ؛ وَإِنَّمَا فَعَلَتْ ذَلِكَ بِمَشُورَةِ بَعْضِ مَنْ أَهْلَ مَمْلَكَتِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ الْمَلِكُ مِنَ الْغَزْوِ سَاءَ ذَلِكَ الْبِنَاءُ، فَأَمَرَ بِهَدْمِهِ وَقَالَ: أَجْنَاؤُهَا أَبْنَاؤُهَا؛ وَهُوَ مِثْلُ يُضْرَبُ فِي سُوءِ الْمَشُورَةِ وَعَمَلِ الرَّجُلِ بَغَيْرِ رُوِيَّةٍ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى نَقْضِ عَمَلِهِ!

(١٥) أَتَتَكَ بِحَائِنٍ رِجْلَاهُ.

وَقِصَّةُ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ عَفِيفِ الْعَبْدِيِّ قَدْ هَجَا الْحَارِثَ الْأَعْرَجَ بْنَ جَبَلَةَ مَلِكِ الْغَسَّاسِنَةِ، وَاشْتَرَكَ مَعَ خَصْمِهِ الْمَنْدَرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ فِي الْوَقَائِعِ الَّتِي كَانَتْ

^١ انظر: المصدر السابق (١/١٦٥).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/١٦٧).

بينهما، فقتل المنذر وأسر العبيدي، فلما رآه الحارث قال: أتنك بحائني رجلاه؛ يعني مسيره مع المنذر، فضربه ضربة دقت منكبه وأصابه منها خبل. وقيل في رواية أخرى: إن من قاله هو عبيد بن الأبرص حينما أتى المنذر بن ماء السماء في يوم بؤسه، وكان قصده أن يمدحه، فلما قال له: ما جاء بك يا عبيد؟ قال: أتنك بحائني رجلاه؛ ثم أخذ وقتل^١

(١٦) إليك يساق الحديد.

يقال: يعود هذا المثل إلى قصة مع عامر بن صعصعة: إذ جمع بنيه يوصيهم، فمكث طويلاً صامتاً، فاستحثه بعضهم، فقيل له: إليك يساق الحديد؛ وقيل: بل إن رجلاً خطب امرأة، فأنعظ^٢ وهي تكلمه، فجعل يستحي من أهلها واضعاً يده قائلاً: إليك يساق الحديد^٣.

(١٧) إياك أعني واسمعي يا جارة.

يقال: إن أول من قاله سهل بن مالك الفزاري؛ إذ خرج يريد النعمان فمر ببعض أحياء طيئ ونزل عند أخت حارثة بن لأم سيد الحي فأكرمته ولأطفته، ثم خرجت من خبائها، فرأى حسنهما ووقعت في نفسه، وأخذ يترقبها، فجلس في فناء الحي يوماً وهي تسمعه، فأنشد قائلاً:

يَا أُخْتِ خَيْرِ الْبَدْوِ وَالْحَضَارَةِ كَيْفَ تَرَيْنَ فَتَى فِيزَارَةِ
أَصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهُ إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢١).. وقد نسب الميداني القصة إلى النعمان، فصححنا المعلومة بذكر جدّه المنذر بن ماء السماء.

^٢ أنعظ: انتصب عضوه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥/ ٢٠٩).

^٣ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (١/ ٤٨).

فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَعْنِيهَا فَقَالَتْ لَهُ: مَاذَا بَقَوْلِ ذِي عَقْلِ أَرِيْبٍ، وَلَا رَأْيٍ مُصِيبٍ، وَلَا أَنْفٍ نَجِيْبٍ، فَأَقِمْ مَا أَقَمْتَ مَكْرَمًا، ثُمَّ ارْتَحِلْ مَتَى شِئْتَ مَسْلَمًا؛ فَاسْتَحْيَا الْفَتَى وَقَالَ: مَا أَرَدْتُ مَنَكْرًا وَاسْوَأَتَاهُ!! فَشَعَرْتُ بِتَعَجُّلِهَا وَنَدِمْتُ ثُمَّ قَالَتْ: صَدَقْتَ؛ وَمَا لِيثُ أَنْ ارْتَحِلَ إِلَى النِّعْمَانِ، فَحِبَاهُ وَأَكْرَمَهُ، ثُمَّ رَجِعْ، فَزَلْ لَدَى أَحْيَاهَا، فَتَطَلَّعْتُ إِلَيْهِ وَكَانَ جَمِيْلًا، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ أَنْ اخْطُبْنِي إِنْ كَانَ لَكَ حَاجَةٌ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، فَيَأْتِي سَرِيْعَةً إِلَى مَا تَرِيدُ؛ فَخَطَبَهَا وَتَزَوَّجَهَا وَسَارَ بِهَا إِلَى قَوْمِهِ، وَذَهَبَ بَيْتَ شَعْرِهِ مِثْلًا!

(١٨) إِيَّاكَ وَصَحْرَاءَ الْإِهَالَةِ.

يُقَالُ: إِنَّهُ أَصْلُهُ أَنَّ كَسْرَى قَدْ أَرْسَلَ جَيْشًا لَغَزْوِ قَبِيْلَةِ إِيَادٍ، وَكَانَ مَعَهُمْ لَقِيْطُ ابْنِ يَعْمَرَ الْإِيَادِي دَلِيْلًا لَهُمْ، فَأَخَذَ يَضِلُّ لَهُمْ، ثُمَّ تَوَهَّم فِي الصَّحْرَاءِ، فَهَلَكُوا جَمِيْعًا، فَقِيْلَ: إِيَّاكَ وَصَحْرَاءَ الْإِهَالَةِ!

(١٩) رَمْتَنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلَّتْ.

يُرْوَى أَنَّ هَذَا الْمِثْلَ لِقِصَّةٍ عَنْ رَهْمِ بِنْتِ الْخَزْرَجِ بْنِ تَيْمِ اللَّهِ؛ امْرَأَةٌ سَعْدِ بْنِ مَنَاةَ، مَعَ إِحْدَى ضُرَائِهَا، وَكَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ، فَوُلِدَتْ لَهُ مَالِكًا وَعَوْفًا، وَكَانَتْ ضُرَائِهَا إِذَا سَابَّهَا يَقْلُنُ: يَا عَفْلَاءُ! فَقَالَتْ لَهَا أُمُّهَا: إِذَا سَابَّكَ فَاْبِدْئِيَنَّ

^١ انظر: المصدر السابق (١/٤٩).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٧٦).

^٣ عفلاء: غليظة الرِّجْم. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١/٤٥٧).

بِعَفَالٍ؛ فَسَبَّهَا امْرَأَةٌ مِنْ ضُرَائِهَا فَقَالَتْ: يَا عَفْلَاءُ؛ فَقَالَتْ ضُرَّتْهَا: رَمْتَنِي بِدَائِهَا
وَانْسَلَّتْ!

(٢٠) رَبِّ أَكَلَةٍ تَمْنَعُ أَكَلَاتٍ.

يُضْرَبُ فِي ذِمِّ الْحَرَصِ عَلَى الطَّعَامِ، وَيُرْوَى أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَهُ هُوَ عَامِرُ بْنُ الظَّرْبِ
الْعَدَوَانِي، وَكَانَ يَدْفَعُ النَّاسَ بِالْحَجِّ، فَرَأَاهُ مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ غَسَّانٍ فَقَالَ: لَا أَتْرُكُ
هَذَا الْعَدَوَانِي أَوْ أَذِلَّهُ!! فَلَمَّا رَجَعَ الْمَلِكُ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ دَعَاهُ إِلَى الزِّيَارَةِ، فَاتَاهُ وَقَوْمُهُ،
وَأَكْرَمَهُ أَوَّلًا، ثُمَّ انْكَشَفَتْ لَهُ غَايَةُ الْمَلِكِ، فَجَمَعَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: الرَّأْيُ نَائِمٌ
وَالهَوَى يَقْضَانُ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ يَغْلِبُ الهَوَى الرَّأْيَ، عَجَلْتُ حِينَ عَجَلْتُمْ، وَلَنْ
أَعُودَ بَعْدَهَا، إِنَّا قَدْ تَوَرَّدْنَا بِبِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ، فَلَا تَسْبِقُونِي بِرَيْثِ أَمْرِ أَقِيمَ عَلَيْهِ، وَلَا
بِعَجَلَةِ رَأْيٍ أَخْفُ مَعَهُ؛ فَإِنَّ رَأْيِي لَكُمْ؛ فَقَالَ قَوْمُهُ: قَدْ أَكْرَمْنَا كَمَا تَرَى، وَبَعْدَ هَذَا
مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؛ قَالَ: لَا تَعْجَلُوا فَإِنَّ لِكُلِّ عَامٍ طَعَامًا، وَرَبِّ أَكَلَةٍ تَمْنَعُ أَكَلَاتٍ؛ ثُمَّ
أَقَامَ أَيَّامًا، وَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: قَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أَجْعَلُكَ النَّازِرَ فِي أُمُورِي؛ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي لِي
كَنَزٌ عِلْمٍ لَسْتُ أَعْلَمُ إِلَّا بِهِ، تَرَكْتُهُ فِي الْحِجِيِّ مَدْفُونًا، وَإِنْ قَوْمِي أَضْنَاءُ بِي، فَارْتَحِلْ
لِي سَجَلًا بِجَبَايَةِ الطَّرِيقِ، فَيَرَى قَوْمِي طَمَعًا تَطْيِبُ لَهُ أَنْفُسَهُمْ، فَاسْتَخْرَجَ كَنْزِي
وَأَرْجَعُ إِلَيْكَ وَافِرًا؛ فَكَتَبَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَا سَأَلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ عَامِرٌ، فَلَامَهُ قَوْمُهُ قَائِلِينَ:
لَمْ يَزْ كَالْيَوْمِ قَطُّ وَافِدٌ قَوْمٍ أَقْلَ وَلَا أَبْعَدَ نَوَالًا مِنْكَ!! فَقَالَ لَهُمْ: مَهْلًا؛ فَلَيْسَ عَلَى
الرِّزْقِ الْفُوتُ، وَغَنَمٌ مِنْ نَجَا مِنَ الْمَوْتِ، وَمَنْ لَا يَرِبَاطُنَا يَعِشُ وَاهِنًا، فَلَمَّا رَجَعَ
أَقَامَ فِي قَوْمِهِ وَلَمْ يَعُدْ، وَنَجَا مِنْ تِلْكَ الْمَكِيدَةِ! وَذَهَبَتْ عِبَارَاتُهُ مَثَلًا.

^١ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (١/٢٨٦).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/٢٩٧).

(٢١) سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلُكَ.

زعموا أن رجلاً من طسم كان له كلب يسقيه اللبن ويُطعمه اللحم كي يسَمِّنَه؛ يرجو أن يصيد به أو يحرس غنمه، فجاع الكلب يوماً ووثب على صاحبه فقتله، ف قيل: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلُكَ!

(٢٢) أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ.

هو رجل من إياد، بلغ من العيِّ أنه اشترى ظبيًا بأحد عشر درهماً، فلقيه بعض قومه فسألوه: بكم اشتريت الظبي؟ فمدَّ يديه ودلَّع لسانه؛ يريد: أحد عشر؛ فشرد الظبي وهرب - وكان تحت إبطه - ف قيل: أَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ! وعلى وزن هذا المثل يقال: أجود من حاتم، أعدى من الشنفرى، أعدى من السُّلَيْك، أعز من كليبٍ وائل، أعز من الزبياء.

(٢٣) عِشْ رَجَبًا تَرَّعَجَبًا.

زعموا أن الحارث بن عباد قد طَلَّقَ بعض نساءه بعدما أَسَنَّ، فخلف عليها من بعده رجل، كانت تظهر له من الوجد ما لم تكن تظهره للحارث، فلما لقيه زوجها وأخبره بمنزلته منها؛ قال الحارث: عِشْ رَجَبًا تَرَّعَجَبًا؛ يعني: عِشْ رَجَبًا بَعْدَ رَجَبٍ؛ كناية عن السَّنة وتعبيراً عن طول العمر؛ فذهبت مثلاً^١.

(٢٤) رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا، وَرُبَّ غَيْثٍ لَمْ يَكُنْ غَيْثًا.

يُنسَبُ هذا المثل لمالك بن عوف الشيباني، ويُضرب للرجل إذا اشتدَّ حرصه على حاجة وتعجَّلَ فيها فلم يدركها حتى تذهب كلُّها، ويُرَوَى أن مالك بن عوف قد خرج مع أخته خماعة بنت عوف وزوجها وابن عمهما ليث بن عمرو بن أبي

١ انظر: أمثال العرب، المفضل الضبي (ص ١١١).

٢ انظر: مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني، دار الكتب العلمية، (٥٠/٢).

٣ انظر: المصدر السابق، (٢٠/٢).

عمرو! فتتبع ليث سحابةً، فقال له مالك: أين تظعن يا أخي؟ قال: أطلب موقع سحابة؛ فهنا خشيةٌ عليه، فلم ينتصح ومضى في إثر تلك السحابة، فاعترضه مروان القرظ بن زباع بن حذيفة العبسي فأخذ ماله وامراته، فلمَّا رجع؛ قال له مالك: ما فعلتُ أختي؟ قال: نفّتي عنها الرماح؛ فقال مالك: ربَّ عجلةٍ تهبُّ ريثًا، وربَّ فرُوقَةٍ^٢ يدعى ليثًا، وربَّ غيبثٍ لم يكنْ غيثًا؛ فذهبت كلماته أمثالًا^٣.

(٢٥) على أهلها تجني براقش.

قيل: إنَّ براقش كانت كلبة لقوم من العرب، أُغِيرَ عليهم فهربوا ومعهم براقش، فتعقَّبهم الغزاة بنُّباح براقش فهجموا عليهم وقتلوهم.
وقيل: بل هي امرأةٌ لملكٍ استخلفها وسافر، فحدث شغب من بعض جواربها، فأمرت بعض أتباعها فبنَّوا بناءً دون دارها، فلمَّا جاء الملك؛ أخبروه بالخبر فقال: على أهلها تجني براقش؛ فصارت مثلاً.

وقيل: بل إنها امرأةٌ لقمان بن عاد، كان قومها قد أكرموه ونحروا له، فاستلذَّ طعم الجزور، فلمَّا أخبرته براقش بطيب لحم إبلها وإبل قومها -وكانت أكثر قومها إبلًا- عمد لقمان إلى إبلها وإبل قومها فنحرها، فقيل: على أهلها جنت براقش؛ وضربت مثلاً لمن يعمل عملاً يرجع بالضرر على أهله ونفسه؛

وبعد؛ هذا قبس يسير من الأمثال التي كانت العرب ترددها وتتناقلها في الجاهلية، مع ما ورد بشأن مناسباتها من قصص، وهي قصص لا نعول كثيرًا على مدى دقَّتْها أو صحَّتْها؛ إذ هي بين الوهم والخيال، أو ربما كانت حقيقية لكنها لم تسلم من التحريف والتبديل، فاختلط فيها الواقع بالأسطورة، فنرى للمثل الواحد أكثر من رواية وأكثر من قائل؛ ممَّا يدل على اضطراب ما نقله الرواة،

^١ هذا الاسم وفق رواية الضبي، وقيل في مجمع الأمثال: سنان بن مالك.

^٢ فرُوقة: شديد الفَرْق والفرع والخوف. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣٠٤/١٠).

^٣ انظر: أمثال العرب، المفضل الضبي (ص ٩٤)؛ مجمع الأمثال، الميداني (١/٢٩٤).

^٤ انظر: مجمع الأمثال، الميداني (١٤/٢).



ولكنها بلا شك تصوّر جانبًا من التراث الأدبي الجاهلي الذي يتّضح فيه ما كان
للعرب من شغفٍ بالقصص والروايات، وتعلّقهم بالأمثال والحكم، وما اتّصفوا
به من سرعة بديهية وذاكرة قويّة.

١١ - من الرسائل

- رُوي أن المنذر بن ماء السماء قد أهدى جارية لكسرى أنوشروان، كان قد أصابها في بعض حروبه، فأرسلها إليه وكتب يصفها في رسالة هي من عيون النثر الجاهلي: "إني قد وجهتُ إلى الملك جاريةً معتدلةَ الخلق، نقيّةَ اللون والثَّغر، بيضاءَ قمراء، وطُفَاءَ كحلاء، دَعْجَاءَ حَوْرَاءَ عَيْنَاء، قَنَوَاءَ شَمَاء، بَرَجَاءَ زَجَاء، أَسِيلَةَ الخَدِّ، شَهِيَّةَ المَقْبِل، جَنَلَةَ الشَّعْر، عَظِيمَةَ الهَامَةِ، بَعِيدَةَ مَهْوَى القَرْط، عَيْطَاءَ عَرِيضَةَ الصِّدْر، كَاعِبَ الثَّدْي، ضَخْمَةَ مُشَاشِ المُنْكَبِ والعَضُد، حَسَنَةَ المِعْصَم، لَطِيفَةَ الكَفِّ، سَبِيحَةَ البَنَان، ضَامِرَةَ البَطْن، خَمِيصَةَ الخَصْرِ، غَرَّتِي الوِشَاح، رَدَاحَ الأَقْبَال، رَابِيَةَ الكَفْلِ، لَفَاءَ الفَخِذَيْن، رَبَّآ الرِّوَادِف، ضَخْمَةَ المَأْكَمَتَيْن، عَظِيمَةَ الرَكْبَةِ، مُفْعَمَةَ السَّاق، مُشْبَعَةَ الخَلْخَال، لَطِيفَةَ الكَعْبِ والقَدَم، قَطُوفَ المِشْي، مَكْسَالِ الضُّحَى، بَضَّةَ المُنْجَرِد، سَمُوعًا لَلسَّيِّد، لَيْسَتْ بِخُنْسَاءَ وَلَا سَعْفَاءَ، رَقِيقَةَ الأنْف، عَزِيزَةَ النَفْس، لَمْ تُغْدَ فِي بؤْس، حَيِيَّةَ حَصِينَةَ رَزِينَةَ، حَلِيمَةَ رَكِينَةَ، كَرِيمَةَ الخَال، تَقْتَصِرُ عَلَي نَسَبِ أَبِيهَا دُونَ فَصِيلَتِهَا، وَتَسْتَعْنِي بِفَصِيلَتِهَا دُونَ جَمَاعِ قَبِيلَتِهَا، قَدْ أَحْكَمْتُمَا الأُمُورَ فِي الأَدَبِ، فَرَأَيْهَا رَأْيِي أَهْلَ الشَّرْفِ، وَعَمَلُهَا عَمَلُ أَهْلِ الحَاجَةِ، صَنَاعَ الكَفِّين، قَطِيعَةَ اللِّسَان، رَهْوَةَ الصَّوْتِ سَاكِنَتَهُ، تَزِينُ الوَلِيَّ، وَتَشِينُ العَدُوَّ، إِنْ أَرَدْتُمَا اشْتَبَهْتُمْ، وَإِنْ تَرَكْتُمَا انْتَهتْ، تُحَمِّقُ عَيْنَاهَا، وَتَحْمَرُّ وَجْنَتَاهَا، وَتَذْبُذِبُ شَفَتَاهَا، وَتَبَادِرُكُ الوَثْبَةَ إِذَا قَمَتْ، وَلَا تَجْلِسُ إِلا بِأَمْرِك إِذَا جَلَسَتْ".

وهذه الرسالة من عيون النثر الجاهلي ومن أروع ما قيل في الغزل، وتمتاز بعمقها وقوة أثرها؛ لما فيها من إسهاب ودقة متناهية في الوصف، وإطناب في الغزل، وإغراق في التفاصيل إلى درجة تسترعي الدهشة والانتباه.

^١ انظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت (١/ ١٠-١٢)، طبعة: المكتبة العلمية، بيروت-لبنان.

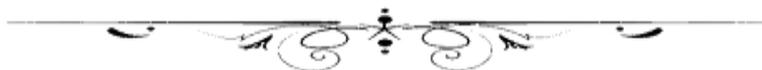
- وكان النعمان بن المنذر قد ندم على قتله عديَّ بنَ زيد العبادي حينما أطاع فيه الوشاة، وعرف أنه قد احتيل عليه، وذات يوم خرج للصيد فلقى ولده زيد بن عدي بن زيد، وكان غلامًا صغيرًا، ففرح به فرحًا شديدًا، فقرَّبَه وأكرمه ووصله واعتذر له عن مقتل أبيه، وبعث به إلى كسرى حتى يعمل في بلاطه محلَّ أبيه، وكتب إليه في رسالة يُوصي به: "إِنَّ عَدِيًّا كَانَ مَمَّنْ أُعِينَ بِهِ الْمَلِكُ فِي نَصْحِهِ وَلُبِّهِ، فَأَصَابَهُ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ، وَانْقَطَعَتْ مَدَّتُهُ، وَانْقَضَى أَجَلُهُ، وَلَمْ يُصَبِّ بِهِ أَحَدٌ أَشَدَّ مِنْ مُصِيبَتِي، وَأَمَّا الْمَلِكُ فَلَمْ يَكُنْ لِيُفْقِدَ رَجُلًا إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْهُ خَلْفًا؛ لِمَا عَظَّمَ اللَّهُ مِنْ مَلِكِهِ وَشَأْنِهِ، وَقَدْ بَلَغَ ابْنُ لَهُ لَيْسَ بِدُونِهِ، رَأَيْتَهُ يَصْلِحُ لَخِدْمَةِ الْمَلِكِ فَسَرَّحْتَهُ إِلَيْهِ، فَإِنْ رَأَى الْمَلِكُ أَنْ يَجْعَلَهُ مَكَانَ أَبِيهِ فَلْيَفْعَلْ، وَلْيَصْرِفْ عَمَّهُ عَنِ ذَلِكَ إِلَى عَمَلٍ آخَرَ"، فلمَّا وفد الغلام على كسرى؛ قرَّبَه وجعله مكان أبيه، وصرف عمه أبا إلى عمل آخر، غير أن زيد بن عدي لم ينسَ ثأر أبيه، فلم يزل بكسرى حتى استعداه على النعمان، فكان هذا سببًا لمقتل النعمان وما كان من أمر ذي قار كما أسلفنا.

- وكتب النعمان إلى كسرى في إطار المناظرة التي كانت بينهما وقد أرسل إلى بلاطه وفدًا من سادة العرب ووجهائهم، فقال: "أما بعد؛ فإن الملك ألقى إليَّ من أمر العرب ما قد علم، وأجبتُه بما قد فهم، ممَّا أحببتُ أن يكون منه على عِلْمٍ، ولا يتلجج في نفسه أن أُمَّةً من الأمم التي احتجرت دونه بمملكتهما، وحمتم ما يليها بفضل قوتها؛ تبلغها في شيءٍ من الأمور التي يتعزَّز بها ذُوو الحزم والقوة والتدابير والمكيدة، وقد أوفدتُ أيها الملك رهطًا من العرب، لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وأدايهم،

^١ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٠).

^٢ انظر: المصدر السابق (١/ ٢٠-٢١).

فليسمع الملك، وليغمض عن جفاءٍ إن ظهر من منطقتهم، وليكرمني
بإكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى
عشائهم".



الخاتمة

وبهذا نكون قد انتهينا من الجزء الأول من كتابنا "تاريخ الآداب العربية" الذي عنيينا فيه بتاريخ الأدب في المدّة التي سبقت البعثة النبويّة بقرن أو قرن ونصف من الزمن؛ والمسماة بعصر الجاهلية، وبعدهما قدّمنا كتابنا بمقدّمة موجزة عن تاريخ العرب ونشأتهم وأنسابهم وفروعهم وتاريخ اللغة العربية ومراحل تطورها ونشأتها، بالإضافة إلى الأدب العربي وأقسامه وفروعه وأركانه.

وقد اختصنا الباب الأول من كتابنا بالتفصيل عن تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، مفتتحين حديثنا عنه بمقدّمة عن العصر الجاهلي وتعريفه وبعض خصائصه وملامحه، ونبذة عن طبيعته الجغرافية وأحواله السياسية والاقتصادية وبعض الجوانب الاجتماعية والأخلاقية؛ حتى نربط كل تلك المعطيات التي تفرض نفسها على الشعراء والخطباء والبلغاء وتشكّل عاملاً مؤثراً على حالة الأدب العربي الجاهلي.

ثم انتقلنا بالحديث عن الشعر؛ متحدّثين فيما قيل عن نشأته وكيفية تطوره، منبّهين على عدم دقة كثير ممّا انتهى إلينا من أخبار عن نشأة الشعر وقديم عصوره وكيفية تطوّره، ثم قمنا بشرح تفاصيل أغراضه من فخر وحماسة ومديح ووصف وغزل ورناء وهجاء وخمر، مستشهدين بنماذج من عيون الشعر الجاهلي أدنى كل غرض؛ للاستدلال على صحة ما أوردناه، وحتى يسهل على القارئ الربط بين الشعر الجاهلي من جهة وبين كلامنا عن الجوانب الفنية التي تخص بعض ملامحه من خصائص معنوية ولفظية.

والحق أننا بعد انتهائنا من فصل الشعر؛ اكتشفنا أنّنا لم نأت على كل الجوانب في أغراض الأدب الجاهلي؛ نظراً إلى أنّ الأدب الجاهلي واسع بعلمومه ومعارفه

وشعره وأدبه؛ مما يستحيل معه الإحاطة بكل جوانبه إحاطة تامة؛ ولكننا -على الأقل- أعطينا فكرة عامة وصورة واضحة عن عموم الأدب الجاهلي وأبرز خصائصه وصفاته.

وقد عينا كل العناية بذكر أكبر قدر ممكن من أسماء شعراء تلك الحقبة، وهذا هو الفارق بيننا وبين الكتب الأدبية التي تحدّثت عن تاريخ أدبنا العربي؛ حيث لم تهتم بعض تلك الكتب بذكر كل ما انتهى إلينا ذكره من شعراء، ومنهم من أورد عددًا منهم دون الخوض في الملامح الفنية للشعر الجاهلي، ولم يكن هذا نقصًا في تلك الكتب العملاقة؛ ولكن لأن هذا قد يكون خارج نطاق بحثها ودراستها؛ وقد رأينا أن نذكر أكبر عدد ممكن من الشعراء الجاهليين ممن جادت بهم كتب الرواة القديمة؛ كالمفضليات والأصمعيات ومنتهى الطلب وحماسة أبي تمام والحماسة البصرية والشعر والشعراء لابن قتيبة؛ إذ إن من الشعراء العظام والفحول في الجاهلية ممن كانوا جزءًا أصيلًا من هذا التراث أغفل ذكرهم لدى بعض كتب تاريخ الأدب؛ لأسباب مختلفة، وقد ذكرنا هؤلاء الشعراء ابتداءً بشعراء المعلّقات العشر؛ باعتبارهم أشهر شعراء الجاهلية وأكثرهم خبرًا، مع ذكر تراجمهم وأخبارهم وخصائص أشعارهم الفنية، ومعلقة كل شاعر منهم بمقدمتها ومناسبتها، مع نماذج مختلفة من شعرهم، ثم مررنا بعد ذلك بسائر الشعراء، مقسمين وفق ظروفهم الجغرافية والحياتية؛ وهم: الشعراء الفرسان، وشعراء الطبيعة البدوية، وشعراء البلاط، والشعراء الصعاليك، والشعراء العشاق، وشعراء الكرم والحكمة، وشعراء القرى، وشعراء المذاهب الدينية؛ ومن لم نجد له ترجمة كافية؛ ذكرنا نماذجهم في آخر الفصل، ومنهم من اكتفينا بإيراد نماذج لهم في إطار حديثنا عن الشعر الجاهلي وخصائصه.

وانتقلنا بعد ذلك إلى عالم النثر، مفتتحين حديثنا عنه بأقسامه وفنونه؛ من خطابة ووصايا وقصص وحكم وأمثال وأقوال الكهّان ومناظرات، وبعض خصائصه، ثم أردفنا حديثنا عن النثر الجاهلي بإيراد نماذج عديدة منه في الخطب والمنافرات والوصايا والقصص المشهورة التي تناقلها العرب، بالإضافة إلى الحكم والأمثال وما انتهى إلينا من رسائل كتابية.

وقد عينا في هذا الكتاب قدر الإمكان بالتدقيق في اختياراتنا ونماذجنا؛ تفادياً لخطأ الوقوع في إيراد أشعار منحوّلة نُسبت إلى شعراء جاهليين، واعتمدنا في سبيل ذلك على مصادر موثوقة؛ مثل كتاب المفضّليات؛ الذي كان أبرز مصادرنا في الحديث عن أغراض الشعر الجاهلي، معتمدين على الفهرس الفني الذي أضيف إليه في النسخة المطبوعة من دار المعارف، كذلك اعتمدنا على الأصمعيّات وجمهرة أشعار العرب ومنتهى الطلب من أشعار العرب وحماسة أبي تمام والطبعة المنقحة من الحماسة البصرية وما رواه الأعمم الشنتمري في دواوين الشعراء السيّئة، بالإضافة إلى ما ورد من أشعار في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري؛ الذي كان مرجعاً لأغلب الأخبار التي أوردنا للشعراء في هذا الكتاب، فضلاً عما جاء به من شعر، ولم نعتد على الدواوين المفردة لغير الشنتمري للشعراء إلا نادراً؛ وهي دواوين الأعشى والخنساء والخرنق بنت بدر؛ وذلك نظراً إلى افتقارها إلى التدقيق، وعدم خلوّها من المنحول.

وقد حاولنا تجنّب كل ما فيه شك أو خلاف ولم نبلغ منه اليقين من بعض الأشعار التي أتت في بعض تلك المصادر، وما اضطررنا إليه فقد أوردناه بشيء من التنبيه على محل الخلاف؛ مثل لامية السموأل الشهيرة التي قيل: إنها لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، وقصيدة الأعشى في مدح الرسول ﷺ، وكذلك لامية الشنفرى التي لم تسلم من عبث الرواة، وقيل: بل هي من انتحال خلف الأحمر؛ وذكرنا أيضاً شكوك بعض النقاد في أشعار عدي بن زيد العبادي وأمية

ابن أبي الصلت وآخرين، وكل هذه نماذج أوردناها مع التنبيه على ما ورد بشأنها من خلاف.

وكما كانت الحال في الأشعار؛ فقد ذكرنا ما انتهى إلينا من أخبار وروايات، وينبغي التنبيه على اختلاط الواقع فيها بالأسطورة، واضطراب الرواة بشأنها، وإنكار بعض المحدثين لها؛ مثل قصة وفاء السموأل، والشنفرى، وأخبار السليك بن السُلَكة، وبعض ما ورد من القصص ومناسبات الأمثال، وأسجاع الكهان وما ورد فيها من شعر، وقد ذكرناها على ما مسَّها من اضطراب روايتها وما صار فيها من حذف وإضافة وعدم بُعدها عن عبث الانتحال؛ بسبب أنها على كل حال غدت جزءاً من التراث الجاهلي، فلا يسعنا الحديث عن الأدب الجاهلي دون المرور عليها، وهي أيضاً توضِّح بشكل عام طبيعة الأدب الجاهلي وإن افتقرت إلى الدِقَّة.

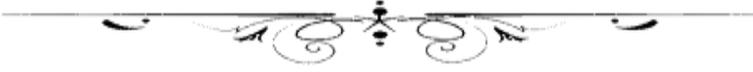
ولم نُقحم أنفسنا في هذا الكتاب حول القضايا الخلافية؛ مثل الخلاف حول تسمية المعلقات وقصة الأعشى مع مدح النبي ﷺ، واعتراض البعض على قصة وفاء السموأل، وما ذُكر من اضطراب في أخبار امرئ القيس وقصة النابغة الذبياني، واختلاف الرواة حول لبيد بن ربيعة إن كان كفاً عن الشعر بعد الإسلام أم لم يَكُفَّ، مكتفين فقط بذكر مواضع الاختلاف وآراء المختلطين دون ترجيح أحد الآراء على الآخر، تاركين هذا لفطنة واجتهاد القارئ وعمل النقاد المختصين.

وقد حاولنا إيراد أكبر قدرٍ من الأشعار كي تستتم الصورة، بشرط أن تكون من مصادر موثوقة، وهو ما لم يتوفَّر في كتب سابقة تحدَّثت عن نفس الموضوع؛ وذلك حتى لا يكون كتابنا مجرد تأريخ أو سرد؛ كي تتفق للقاري القدرة على تذوق نماذج الشعر والنثر أثناء قراءته لتاريخه، وأوردنا كذلك قسماً من النثر



الجاهلي، معتمدين على كتابي "جمهرة خطب العرب" و"جمهرة رسائل العرب" لأحمد زكي صفوت، مع التنبيه كذلك على عدم دقة ما ورد إلينا من نصوص نثرية لم تكن بمأمن من يد العبث والانتحال، فذكرناها مع مواضع التنبيه.

وهذا تكتمل الحلقة الأولى من تاريخ الآداب العربية؛ التي اختصت بالعصر الجاهلي، بعدما ألمنا بشكل عام بالأدب الجاهلي وخصائصه وسماته وفنونه، وأحوال وحياة العرب فيه، وما ورد من شعر وأخبار وتواريخ.



تم بحمد الله
الجزء الأول من كتاب
"تاريخ الآداب العربية"
الخاص
بالعصر الجاهلي

ملحق بمعاني المفردات الغريبة

ص	المعاني
٦٣	يفاع: مرتفع. مقرورين: جمع مقرور وهو من أصابه البرد والقر. أسحم داج: ليل أسود مظلم. الهندواني: السيف. القذع: العنيف في الهجاء. القبطية: الثياب. الودك: الدسم.
٦٧	انتدوا: بدؤوا. الخنا: الفحش. الأحفاض: أمتعة البيت. الترة: الثأر.
٦٨	كامد: أسود. الأرومة: الحسب والنسب. يفاع: مرتفع. المواجد: العظيمة. لداته: أتراهه الذين من سنه. وقع القنا: طعن الرماح. تترزون: تثبون. الجنادب: الجراد. المشيح: المُجْدُّ في الأمر. جشأت وجاشت: ارتفعت ونهضت من خوف وفضع.
٦٩	القنا: الرماح. الريب: القطيع من الظباء. اللزيات: الشدائد.
٧٠	المشرفي: السيف. الصبوح: ما حلب من اللبن في الصباح. ساعرا: حارا. تزجون: تُدفعون. مناكرا: جمع منكر. ناجوا: تأمروا. التوى: الهلاك.
٧١	القنا: الرماح. القد: السير من الجلد (ما يستعمل في صناعة السياط). وضم: هي خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم. مختتنا: أنوفنا
٧٢	ربئة: طليعة. مشيحا: حذرا. محقوقف الصلب: محدودب الظهر (يعني الفرس). ملبد: تلبد الروث والبول من جانبي فخذه من ضرب ذنبه (كناية عن طول امتطائه في الأسفار والحروب). فروحا: كثير الفرح. الحوازي: الكواهن. إلهة: الموضع الذي يموت فيه. اللمة: الشعر المجاور لشحمة الأذن. خضبهما: لَوْنَتْها. أقحوان: نبات له زهر أبيض
٧٥	المدانِب: جمع مَذْنِب: مسيل الماء.
٧٦	الهبزاهر: جمع هزهزة. وهب تحريك البلايا والحروب الناس.
٧٧	يربع: يقيم. اللوى: منعرج الرمل. تصدفت: أعرضت وانحرفت. استبتك: غلبتك. أتلع: طويل العنق. مكرع: ما يرتشف من ريقها.
٧٨	ترفل: تتهادى. دمقس: هو الحرير الأبيض. القطاة: من الطيور. الظبي المهير: الذي تتابع أنفاسه. شف: أنك.
٧٩	عفاها: محاها. هطّال: اسم مبالغ من هطل، المطر الغزير. السحيق: الثوب الخلق. اليمنة: البرد اليماني. السربال: القميص. اللمة: شعر الرأس. جسرة: الناقة القوية. العلاة: السندان. القين: الحداد. شمالال: سريع. عبلة: المرأة الحسنة.
٨٠	الخرق: الفلاة تنخرق فيها الريح. الجتنان: الجنّ: متغورات: قائلات نصف النهار. أدرعت: لبست. اليلمع: السراب. إكام: جمع أكمة: وهو التل. الجرد: الخيل قصيرة الشعر. السمهري: الرمح. المشرفي: السيف. المصبصم: الذي يمضي في صميم العظم ويبريه. المسوم: المعلم بعلمة للحرب. أجرد: الفرس القصير الشعر. السرحان. السيد: الذئب. شقّاء: الطويلة. صلدم: صلب. الخبار: الأرض اللينة فيها جحور.
٨١	الجسرة: الناقة القوية. عيرانة: نشطة كالبعير. الفنيق: الفحل الغليظ. المكدم: المعوض.

	عريفهم: رئيسهم. الأثافي: الحجارة.
٨٢	قرار: صغار الغنم. نفاذته: صغر حجمه. الواف: التام. مجلوم: المجزور.
٨٣	الثلعة: مجرى الماء إلى الروضة. المنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.
٨٤	غواذي: السحاب. نطف: جمع نطفة وهي القرط. أغن: الذي يخرج صوته من خياشيمه. منطق: غلام عليه نطاق. دراهم الإسجاد: دراهم الأكاسرة. صهباء: حمراء. ناجود: الإناء الذي يُجعل فيه الشراب. تقدح: تُغرف بالقدح. رنم: المترنم. خرطوم: أول ما ينزل منها صافية. صالها: وجع الرأس. التدويم: الدوار. مفدّم: مُعظّم ومكرم. المرثوم: الدامي.
٩٢	دمنة: آثار الناس والديار. عفت: دَرَسَتْ. تأبد: توحش. الصحن: القدح الكبير. الثواء: الإقامة. وباقي الأسماء الواردة في تلك الأبيات هي أسماء لمواضع مختلفة
٩٣	أقوى: خلت. وسائر الأسماء التي وردت هي أسماء مواضع مختلفة.
١٠٠	القباب الحمر: كناية عن أنهم سادة. المؤبل: المقتنى. أمه: عيب. العاني: الأسير. زقاء: التصويت. هامه: طائر يقول العرب أنه يخرج من رأس الميت مطالباً بالثأر.
١٠٤	سمرات: أشجار. ناقف حنظل: مستخرج حب الحنظل والحنظل له حرارة تدمع العين.
١٠٥	المتبذل: الباذل نفسه سخاء وكرما. المفتل: المفتول. دمقس: هو الحرير الأبيض. مرجلي: تاركي أمشي راجلة. الغبيط: اليهودج. جنالك المعلل: ما يجتنى: منها من القبل واللمس وغير ذلك. بيضة خدر: المرأة المصونة. مهفهفة: ضامرة البطن. غير مفاضة: غير مسترخية اللحم. سجنجل: المرأه. أردف أعجازا: ازدادت ما أخيره امتدادا وتطاولا. الكلكل: الصدر. مغار: محكم شديد الفتل.
١٠٦	منجرد: الفرس القصير الشعر. الأوايد: الوحوش النافرة. قيد الأوايد كناية عن السرعة. الهيكل: الضخم. الأيطل: الخاصرة. السرحان: الذئب. التقريب: وضع الرجلين واليدين في العدو. أسحم: السحاب الأسود. طلا: ولد الظبية. ذبال: جمع ذبالة وهي الفتيلة. اللبة: موضع القلاده على الصدر. مصطل: مستدفئ بالنار. غضى: شجر خشبه صلب. أجذال: جمع جذل وهو أصل الشجرة. الصوا: جمع صوة وتعني الأماكن التي يختلف فيها هبوب الريح. قفال: أي القافل هو العائد من سفر. هونه: لينة. مجبال: غليط. وفي رواية "غير معطال" أي لا حلي علمها.
١٠٧	الفرانق: الأسد. لبيانات: حاجات. مخيب: مفسد.
١٠٨	جريضا: صفر الوطاب: خلاء الجسم من الروح. غير مستحقب: غير حامل.
١٠٩	يداجون: يداورون وبعالجون. النشاج: زق الخمر. المترع: الممتلئ. بلقعا: القفر الخالي. الخود: المرأة الشابة الحسنة. الديمة: المطر. الوطف: مذل الهدب يتدل وهو من علامات قوة المطر. الود: الوتد. أشجدت: سكن مطرها. تشتكر: تحتفل ويشند مطرها. الشجرا: جمع شجرة. شؤبوب: طيش. ثج الماء: انصبّ وتدقق. عرض: ناحية
١١٣	محروب: مسلوب.
١١٤	سروب: سرع الجريان. شعيب: بال. فلج: النهر الصغير. قسيب: صوت جري الماء. بدئي: المبتدأ. المحل والجدوب: القحط. مخلوس: مسلوب. تلغيب: ضعف. التليبب: من اللب أي العقل.
١١٥	بسابس: جمع بسبس وهو المكان القفر الخالي. العوازف: الحيوانات المصوتة. العرار: صياح

	الظليم. غياهب: ظلمات. مرقال: سريعة. قطت: أغلظت.
١١٦	الثقاف: آلة تقوم علمها الرماح. النجار: كرم الأصل. بوتاك: قواطع. السنابك: جمع سنبك وهو مقدم الحافر.
١١٨	الكشخ: ما بين الخاصرة إلى الضلع.
١٢٢	أحوى: سمرة بشفتيه. المرد: ثمر الأراك. سمطي: خيطي. القطيع من الظباء. خميلة: الشجر المتلف. البرير: المدرك من ثمر الأراك. الهوجاء: الناقة لا تستقيم بسيرها. مرقال: كثرة السير. أمون: المأمونة العثار. الإران: تابوت الموتى. نسأتها: ضربتها بالعصا. لاحب: طريق. البرجد: كساء مخطط. أجذمت: أسرع. خب: ارتفع. الأل: ما يكون في أول النهار ويرفع الشخص. الأمعز: مكان يخالط ترابه الحجارة. ثنياه: طرفاه. خشاش: صغير الرأس.
١٢٣	أجنا: متغير الطعم والرائحة. الذعاف: السم القاتل. يقشب: يخلط. قراف: مخالطة. يغول: يهلك. يمان: ثوب يمان: وشته: زينته. أربت: لظمت وأقامت. ناجة: شديدة الصوت. وكاف: كثير القطر.
١٢٤	الحلول: النازلون. الجفن: غمد السيف. ساج: ساكن. تواغله: تسارقه.
١٢٥	يعفور: نوع من الظباء تعلقه حمرة. بزغز: ولد البقرة. آدم: أبيض البطن أسود الظهر. الكشخ: ما بين الخاصرة إلى الضلع.
١٢٩	الرقمتان: تثنية الرقمة وهي مجتمع الماء في الوادي. مراجيع وشم: الوشم المجدد. تواشر: عروق. العين: البقر واسعات العيون. الأرام: الظباء. خلفه: خلف بعضها. أطلاؤعا: أولادها. أثافي: حجارة توضع عليها القدر. سفعا: سودا. معرس مرجل: المكان الذي يكون فيه والمرجل قدير من الخوف. نؤيا: نُهير. جذم الحوض: أصله. تيزل: تقطر بالدم. ساعيا غيظ بن مرة: يعني الحارث وهم من نسل غيظ بن مرة.
١٣٠	سحيل: ضعيف. مبرم: قوي. يفره: يحفظه ويصونه.
١٣١	قلة: أعلى الجبل. الحزن: الأرض الغليظة. سوايغ: جمع سايغة وهي الواسعة. عصل: اعوج.
١٣٢	الشهباء: البيضاء. قطينا: ساكنين. يستخلبوا: يستعروا.
١٣٣	دوايرها: حوافرها. القد: ما قطع من الجلد. الأبقا: شبه الكتان. أبت: عادت. خدجا: التي تلقي أولادها بغير تمام. بدنا: جمع بادن وهي الضخمة السمينة. العقق: جمع عقوق وهي التي استبان حملها. جنبوها: قادوها. العوج: التي هزلت فاعوجت. الأنساء: جمع نسا وهو عرق في الفخذ. الصفقا: جمع صفاق هو الجلد دون الجلد الأعلى. العناة: جمع عان وهو الأسير. التزق: الذي يبطن بعد الجري.
١٣٤	العلق: الدم.
١٣٧	الحص: الزعفران. سخينا: قيل من السخاء وقيل من السخونة. اللبانة: الحاجة. اللحز: ضيق الصدر سيئ الخلق.
١٣٨	حمولها: إبلها. اشمخرت: ارتفعت. السقب: ولد الناقة.
١٤٠	قراع: مضارب. راح: الأرض لا بناء فيها ولا عمران. الأراك والأثل: أنواع من الشجيرات والنباتات.

ملمال: من المال. الجذم: الأصل. أدواد: جمع ذود وهو ما يقع على ما دون العشرة. محذفة: مقطوعة.	
الشول: بقية اللبن في الضرع. وبقية الماء في الإناء.	١٤٦
المتردم: الدار المهدامة أصابها الوهن. الهزير الضيغم: الأسد شديد الافتراس.	١٥١
زمت: شُدَّت. تغدفي: ترخي. الهواجر: جمع هاجرة: أشد الأوقات حرا. المشوف: الدينار المجلو. المعلم: الذي فيه كتابة ونقش. يكلم: يُجرح بعيب. مثقف: الرمح المستقيم. صدق الكعوب: قوي العقد. مقوم: غير الأعوج. مخدم: قاطع.	١٥٢
أشطان: جمع شطن وهو حبل البئر. لبان: صدر. الأدهم: الفرس الأسود. مسوّر: موضع السوار من الزند. المسوم: المطلق. غواشيا: أي غشيت أو هاجمت البيوت. العوالي: الرماح. أستاها: أديار. رمة: الجسم البالي.	١٥٣
غبية: الدفعة الشديدة من المطر. مُسِيل: مُسْكِب. الودق: المطر. مزعف: قاتل. خرصان: رماح السميري. السيف المثقف: المستقيم. علالتنا: بفية ما عندنا من القتال. يتقرف: يبرأ. عرصاتها: ساحاتها. الرامسات: الرياح. جون: السحاب الأسود. الأيكة: الشجرة. المحمل: علاقة السيف. لم ينجل: لم يشحد أي لم يخرج بعد من غمده. الوشيح الذبل: الرماح الدقيقة.	١٥٤
المنصل: السيف. الرعيل: جماعة الخيل والناس. الأبقع: الذي فيه سواد وبياض. خرق الجناح: شديد الصوت. وبالهاء: أي يتناثر ريشه. جلمان: مثنى جلم وهو المقراص. شهباء: بيضاء للمعان الرماح والسيوف. الكماة: الشجعان. أجرد: فرس قليل الشعر. نجبية: فرس ضامر لحم أحشائها.	١٥٥
المستلثمين: لابسى الدروع. قودا: جمع أقود أي الذليل المنقاد. أئنها: ضعفها. جاحم: الجمر شديد الاشتعال. تشتجر: تتداخل.	١٥٦
هزيع: جزء.	١٥٨
مستجيب: العود آلة الطرب. القينة الفضل: القينة التي على مياذنها.	١٦٠
غراء: بيضاء. فرعاء: طويلة الشعر. العوارض: ما يبدو من الإنسان. الوحي: الحافي. الوحل: الذي يتوحد في الطين. صفر الوشاح: خميصة البطن. مليء الدرع: ضخم الأرداف. بهكنة: الشابة الغضة. الرداف: السحاب التابع للسحاب الأول. الجوز: الوسط. مفأم: ممتلئ. عمل: دائم. سجال: جمع سجل وهو الدلو. شيموا: انظروا. مألكة: رسالة. تأتكل: تحتك من الغيظ. نحن أثلتنا: الطعن في أصلنا. أطت الإبل: أنتت من التعب والحنين.	١٦٣
السموط: جمع سمط وهو الخيط. عاكفة: مستديرة. زلال: ماء عذب.	١٦٤
كبا الوجه: تغير لونه من الفزع. العذرة: المعذرة. الأريحي: الذي يرتاح للندى. الجلة: كبار الإبل. الجراجر: الضخام. دردق: صغار. بقر: المتحيز. السلف: الهائم على وجهه. القنيان: جمع المال والثروة. يطرف: يكتسب عزا جديدا. الخصف جمع الخصفة أي القفة البيت تصنع من جريد النخل. الزغف: الدرغ الواسعة اللينة.	١٦٥
الغمرة: الشدة والزحام. شمطاء: عجوز اختلط سواد شعرها ببياضه. لاقح: شديدة عظيمة.	١٦٦

عوان: حرب مريرة. همزها: ضغطها. بذخ: تكبّر وعلا. استحثت نساؤهم: أخذن سبائيا. شف: أضناه. الحيازيم: جمع حيزوم أي الصدر أو موضع الحزام. أغادي: أباكر صباحا. طرقه: ضربه بالمطرقة والمعنى أن مصائب الدهر لا تفرقتي	
النجد: البطل ذو النجدة.	١٦٨
أصيد: الذي يرفع رأسه ترفعا. الصقيل: المصقول. الكوم: القطيع من الإبل. الصبا: الريح الباردة. تجاوب: تردّد. عبشي: نسبة إلى عبد شمس.	١٦٩
عفت: درست أثارها. تأبد: توخّش. منى وغوبها ورجامها: أسماء جبال ومواضع. مدافع: جمع مدفع أي مجرى الماء. الوحي: جمع وحي أي الكتاب. السلام: الحجارة. تجرم: مضى. الحجج: السنين. العين: جمع عيناء أي البقرة. العوذ: الحديثة النتائج. بهام: أولاد الضأن. زُبر: جمع زبور أي الكتاب. اللبانة: الحاجة. تعرض: تغير. الخلة: المودة المتناهية. أحب: أعط. المجامل: المصانع. ظلعت: مالت مودته عنك. زاغ: مال. قوامها: ملاكها. الطليح: الناقة المعيبة. أحنق: ضمير. صليها: ظهرها. تغالى: ذهب وارتفع من الهزال. تحسرت: تقطعت. الكلال: الإعياء. الخدام: سيور تربط في نعال الإبل.	١٧٢
هباب: نشاط. الجهام: السحاب الممطر. الدواير: مآخير الحوافر. السفا: الشوك. المصاييف: جمع مصيف أي الراعي وقت الصيف. سومها: حرها. السهام: وهج وحرارة الصيف. سبط: ممتد ومنتشر. تسب ضرماها: تشتعل نارها. الأزلام: القوائم. الغضف: الكلب المسترخي الأذنين. الدواجن: جمع داجن: المتعود الصيد. القافل: اليايس. أعصام: جمع عصم وهو الحبل في عنق الكلب. المرتقب: المكان العالي. الهبوة: الغبار. الأعلام: الجبال: القتام: الغبار. المجامع: جماعات القبائل. لزلز: من لَزَّ به أي قُرِن. جشامها: متكلفها. الهضم: الظلم. المغافر: جمع مغفر أي زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة. أفضعت: أصيبت بأمر فظيع.	١٧٣
المرمات: اللاتي نفذ زادهن. المصانع: المياني أو القصور. جار مضنة: أي جار يضمن به ويحرص عليه. يتبر: يهدم. القين: الحداد. النصل: السيف.	١٧٤
الحبائل: المصائد.	١٧٥
الدهماخ: جبال عظام ومفردها دمخ. حجن: جمع أحجن أي معوج.	١٧٩
عوجوا: قفوا. الدمنة: أثر الديار. النؤي: حفرة. تجعل الخباء لمنع المطر. أقوى: خلا. هوج: جمع أهوج يعني الريح العاصفة. هابي التراب: سافيه. موار: يجيئ ويذهب.	١٨١
السند: ما يقابلها من الوادي. أقوت: هُجرت. أصيلانا: من الأصيل. عيئت: عجزت. الربيع: المنزل. الأتي: السيل. السجفين: مثنى سجفان وهو ستار مدخل البيت. التضد: المتاع. أحنى عليها: بدّل أحوالها. ليد: اسم نسر. للقمان بن عاد زعموا أنه عاش طويلا.	١٨٢
كَلَّاب: صاحب الكلاب. الشوامت: القوائم. الصرد: شدة البرد. صمع الكعوب: ضامر المفاصل. الحرد: استرخاء أعصاب البعير. ضمران: اسم كلب. النجد: الشجاع. شك الفريضة بالمدري: أي نفذ قرن الثور في كتف أو خاصرة الكلب. المبيطر: طبيب الحيوانات. العضد: داء يصيب الجمال. الفند: الباطل. خيس: ذلل. الصفاح: حجارة عريضة. ضمد: الذل والغيط. هريق:	١٨٣

	أريق. الأنصاب: الأوتان. تأففك: صاروا حولك كالأنثافي. الرغد: العطاء.
١٨٤	الغوارب: الأمواج. العبرين: الناحيتين. الزبد: ما يطرحه الوادي. الصفد: العطاء. الشغاف: حجاب القلب. كهمه: حقيقته. الضواجع: منحى الوادي. ضئيلة: أفعى دقيقة السم. الرقش: جمع رقشاء وهي التي فيها نقاط بيض وسود. قعاقع: أصوات. تستك: تضيق.
١٨٥	المأبر: النمام. المفارقا: جمع فقر. يُقشب: يجدد. مستراد: إقبال وإدبار. القار: القطران. سورة: المنزلة. الشعث: الفساد والتفرق.
١٨٦	عازب: غائب. عقارب النعمة: تكديرها بالمن والأذى. غير مثنوية: لا استثناء فيها. أشائب اي أخلاط. خزرا: أي ضبقات العيون. مرانب: جمع مرنباني أي الثوب المبطن بفراء الأرنب. العجاج: الغبار. الأكوار: جمع قادمة وهي مقدمة الرجل.
١٨٧	أصفار: قيل جمع شهر صفر. وقيل بلة حين يصفر الماء ويرد الهواء آخر الصيف. ربريا: قطع البقر. حورا: واضحات البياض. النعاج: إناث البقر. دوار: صنم من أصنام العرب. شزرا: النظر بمؤخر العين. الرز: الصوت. البرم: الذي لا يدخل في أقذاح الشتاء بخلا ولؤما. الأمحال: الجذب. الأدم: السحاب الأحمر وهو علامة الجذب. اللأواء: الشدة. تصابي: حن إلى الشباب من بعد شيخوخة. الساريات: السحب الآتية. حباؤك: هبتك. العيس: الإبل البيض. العتاق: الرائعة. هجان المها: بيضها. تحدى: تساق.
١٩١	الوسوق: جمع وسق أي الحمل.
١٩٢	الكنه: الحقيقة. الضنك: الضيق. تخريق الريح: هبوبها بشدة. خريق: الريح الشديدة. الصيلم الخنفيق: الداهية.
١٩٤	المنيح: قذح تكثر به القداح. المشهر: أي المشهور. يوم المشقر اسم الموقعة. القلحة: صفرة تعلق الأسنان. الملا وعوارض ولابة صرغد: أسماء مواضع.
١٩٥	القصيد: كسر القنا. الحدأ: جمع حدأة وهو الطائر المعروف. الأقصد: الأكثر استقامة. فرغ: رأس عال في الشرف. لم يقصد: لم يقتل. ثووا: أقاموا. فيئي: أرجعي. الأحم: الفرس لونه بين الكميت والأدهم. نهد: الضخم المرتفع. السايح: الذي يسبح في سيره من السرعة. الأسمر: الريح مذود: الريح لأنه يُذاد به أي يُدفع.
١٩٦	الملا: الصحراء. الكتيبة الشهباء: الكتيبة كثيرة السلاح. الضراء: ما وارك من شجر. نشاص: سحاب مرتفع بعضه فوق بعض. الهر: صوت الكلب دون نباحه. معلوب: الطريق المعبد. عكوب: هو الغبار. لحنوهم: أخذنا جميع مالهم. آلة: حالة. الحريب: من سلب ماله. إدام: اسم امرأة. الرمام: الخلق البالي.
١٩٧	الخليط: الحبيب. الطعانن: جمع ظاعن أي المغادر. انجحار: الاختباء في حجر. قراضبة: المحتاجون. السلع والقار: من الشجر المر. صلغن: ضربن. القنا: الرماح. مقوم: مقوى.
١٩٨	فوافية: يريد الرماح الطويلة. قوانس: جمع قونس وهو عظم بين أذني الفرس. مكر: المعركة. الألف: البطيء. الجفار: اسم موقعة ضد تميم. السמידع: الشجاع. نجيب: كريم. عرد: أحجم وفر. تحنى عليه الأصابع: يعني الأصدقاء والأعوان. القماح: التي ترفع رؤوسها وتغض أبصارها

	عند الحوض فلا تشرب الماء.
١٩٩	لغابا: الريش الرديء. القارظ العززي: هو رجل من عنز خرج يطلب القرظ فمات وأخذ مثالا.
٢٠٠	طل: سفك دمه هدرًا. أبأته: قتلت به شسع: طرف النعل.
٢٠١	ذؤابتي: ناصيتي.
٢٠٢	الفلس: جمع قلوب يعني منزلة الفتاة من النساء. الثغف: جزء من الجبل. الرغابا: الكثير. أذواد: جمع ذود يعني من كانوا في حماه. ذوا الحيات: السيف. لا تجتويه: لا يوافقها.
٢٠٤	شماليا: شمالي. نهدة: المرتفعة الحلق. الحو: الحضرة. الذمار: ما يجب حفظه. النسعة: قطعة جلد يشد بها اللسان. أسججوا: يسروا. تحربوني: تطلبوني. المعزب: المنتحي بإبله. المتاليا: الإبل. عبشمية: نسبة إلى عبد شمس. عرسي: زوجتي. شمصها: نفرها. اللبق: الرفق والحذق. سوم الجراد: انتشاره في طلب المرعى. وزعتها: كفتها. أنحوا إلي: وجهوا إلي. كرى: اهجمي. نَفسي: انفري. اسبأ الزق: اشترى الخمر. أيسار: الذين يضربون القداح.
٢٠٦	جذع: صغير السن. الخيب والوضع: ضربان من سير الإبل. الزمع: الشعر فوق مريط قيدها. صدع: وسط بين الحقيب والعظيم.
٢٠٧	مئشير: من الأشر أي المرح. الفحج: جمع أفحج من الفحج وهو تباعد ما بين الفخذين. السي: الفلاة. ممطور: كثير السيوك طيب النكهة. مقتور: مقدر. المذاكير: جمع ذكر. النضي: نصل السهم.
٢٠٨	زور: جمع أزور أي الجيش. العوارير: الجبان. سوام: الإبل. الضاحية: من الضحى. الجرد: جمع أجرد وهو الفارس القصير الشعر. الشعث: جمع أشعث وهو المغبر رأسه. قب: جمع أقب وهو الخيل الدقيق الخضر ضامر البطن. محاضير: سريعة. ميل: جمع أميل وهو الذي لا سيف معه. العور: جمع أعور يعني الضعيف الجبان. الوجناء: الناقة الغليظة اللحم. الأظل: الإبل باطن المنسم. سبساب: القفر. البرد: ثوب مخطط. وزع: كف. هيكل: الفرس الطويل. نهد الجزيرة: يريد غلظة يديه ورجليه. النهد: الضخم. الجزيرة: قوائم البعير. مرمد: سريع السير. القواري: جمع قارية أي طائر قصير الرجلين طويل المنقار. الوسمي: مطر الربيع الأول. حوا: اخضرار الأرض. تلاعه: جمع تلة وهي مجرى الماء من أعلى الوادي. البز: السلاح. نهدة: الفرس الضخم. الشراسيف: أطرف أضلاع الصدر. القسب: التمر اليابس. الظرب: الحجارة. الأبرام: جمع برم وهو الذي يدخل مع القوم في الميسر. جمادي: يعني شدة البرد والقحط. حز: قطع اللحم. نهس: نهس اللحم أي انتزعه بالثنايا للأكل.
٢١٢	شط ولها: بعد عهدٍ قريبا. العوادي: الموانع. الكلكل: الصدر. القصريان: ضلعان بعد الترقوتين. وجيف: مضطرب. الفرقدان: نجمتان مقتربتان. لاحب: طريق واضح. أصواء المتان: الأراضي المرتفعة الصلبة. علوب: الغليظ من الرجال.
٢١٣	مشكوم: مغطى. مزمووم: مأخوذ بزمامه إلى الرحيل. التزيدات: ثياب تجلب بها الهودج. معكوم: ما يوضع فيه المتاع. الأجواف: الجثث. مدموم: مطلي بالدم. أترجة: فاكهة طيبة (يريد المرأة الحسناء). النضخ: اللبل. فارة المسك: وعاؤه. مفارقها: رأسها. الباسط: المتناول. المتعاطي:

	<p>المتناول لينال شيئا. الغرب: الدلو. دهماء: الناقة السوداء. حاركها: ملتقى الكتفين. القتب: الرُّحْل. مخزوم: مشدود. عريت: تركت. استطف: ارتفع وكبر. الكتر: السنام. القين: الحداد. خطى: نبات. المشفر: من البعير كالشفة في الإنسان. اللحي: عظم الحنك الذي عليه الأسنان. تلغيم: من اللغام وهو زيد تخلطه خضرة. العر: الجرب. الصرف: الخالص. التدسيم: أثر طلاء الناقة. المذانب: مسایل الماء إلى الروض. العصيفة: الورق المجتمع الذي يكون فيه السنبل. الحدود: ما انحدر من الأرض. مطموم: مملوء بالماء.</p>
٢١٤	<p>صفر الوشاحين: ضامرة البطن. خزعية: ناعمة.. وامق: محب. الدرّة: الحركة. الأخرج: صفة الظليم. مهذب: سريع العدو. المتحلب: المتساقط مطره. الستار: جبال بالحجاز. غرب: موضع تلقائه.</p>
٢١٥	<p>عرقوب: رجل من العمالقة. ضرب به المثل. تدرّب: تمل. المخضب: المدهون بالحناء. الأدم: جمع آدماء وهو العلاج. مغزل: لها غزال. الحلب: نوع من الشجر. المخيب: الخداع. أعتدي: أسرع. وكناها: أعشاشها. المذنب: مسيل الماء إلى الرياض. منجرد: فرس قصير الشعر. الأوبد: بقر الوحوش. الهوادي: أوائل الوحوش. الشأو: الشوط. مغرب: أي البعيد. غوج اللبان: واسع الصدر. نفث راق: التيممة التي يُنفخ فيها. مجلب: كثير النفث. الممرّد: الشديد الفتل. الأندري: جبل المضفور (نسبة إلى قرية بالشام). حرتان: أذنان. ريرب: جماعة من البقر الوحشي. متن: الظهر أو الهضبة. الخلقاء: الملساء. زلوق: موضع أملس يتزلقون عليه. القطاة: عظام الفخذ. كردوس: عظام المفصل. الغبيط: اليهودج. المذأب: الموسع. الغلب: غلاظ الأعناق. مضيف: المضيف هو كل لحم على عظم. الشظى: عظم لاصق بالذراع. سمر: حوافر. يفلقن: يقطعن. الظراب: الحجارة. غيل: النهر. وراسات بطحلب: مصفرات بطحلب.</p>
٢١٦	<p>صليب: الجلد على المصائب. جلبة: قحط. الجرائيم: جمع جرثومة أي الأصل. الغبوق: شرب العشي. صرفا: ما لم يمزج. الحانون: جمع حان وهو الخمار. الخرطوم: أول ما ينزل من الدن. الفغو: هو المص. يبتار: يختبر ويمتحن. التراجيم: خدم الخمّارين. شمالال: سريعة. الاديمومة: القفر. مهمه: القفر. الخروق: جمع خرق وهي الفلاة تتخرق فيها الرياح. الضوايح: الثعالب. الأصداء: جمع صدى وهو ذكر البوم. غيرها: أي الركب.</p>
٢١٧	<p>خروبا: نبات معروف. الصعافق: جمع صعفق وهو الرجل الذي يشهد الأسواق بلا رأس مال. ذواقن: جمع ذاقنة وهي طرف الحلقوم الناتئ. لبانة: حاجة.</p>
٢١٨	<p>وامق: محب. حلولا: مقيمون. فلج: النهر الكبير. الغوج: الواسع الجلد. النبع: الشجر.</p>
٢١٩	<p>القلع: إناء من آدم يجعل فيه الشحم.</p>
٢٢٠	<p>ربعا: الذي ينتج في الربيع. المسف: الداني من الأرض. الهيدب: ما تدلى من السحاب. الداخي: اللعاب. بالمدحاة وهي حشبة تجرف ما أمامها. النجوة: ما ارتفع من الأرض. قرواح: الأرض المستوية.</p>
٢٢٢	<p>استحشن: استدق. سماهيج: اسم جزيرة. أطام: حصون.</p>
٢٢٣	<p>شريم: مشقوق. قتلاء: مفتولة الذراعين. ذريعة: كثيرة الأخذ في الأرض. يغول: يذهب في البلاد.</p>

السوم: السير السريع الدائم. يريد لها: شدة وسرعة السير. صفنتي: شيء من الجلد. القتود: خشب الرحل. عرست: نزول في آخر الليل. الثففات: ما مس الأرض من قوائم البعير. الجران: جلد باطن العنق. توازي: تحاذي وتقابل. شريح: خليج. الجنيب: الدابة.	
الخنأ: الفحش. التراقي: جمع ترقوة وهي العظمة بين النحر والعانق. اليعاقيب: جمع يعقوب وهو ذكر الحجل عرف بالسرعة. تأويب: سير يوم إلى الليل. الكسس: ما تحت الأسنان. السنابل: مقاديم الجوافر.	٢٢٤
أسابي: الطرائق. ترجيب: تعظيم. مهنها: كُفها. جعابيب: ضعفاء. الثقاف: خشبة في وسطها ثقب يُقوم به الرمح. مثقفة: مقومة. اليعاسيب: الرؤساء. مواتح البئر: حباله. الأشطان: الجبال الطوال. مطلوب: اسم بئر بين الشام والمدينة. كحل: السنة المجدية. قرضوب: فقير. الصليب ومطرق: موضعان. المرشق: الحظة في ظهر الحمار تخالف لونه وقد أطلقه على الطيبة.	٢٢٥
ضح: ارتفاع الشمس للشروق. يسرت: أخذت اليسار.	٢٢٦
الشول: بقية اللبن في الضرع. وبقية الماء في الإناء.	٢٢٧
عكنة: سمنة. العفل: شحم خصي الكباش وما حوله.	٢٢٨
التبل: الهيام والفرقة. البرد: أراد أسنانها. الطحل: الأحمر الداكن وأراد لثتها. الربع: السراب. السحب: ثوب لم يبرم غزله. العقم: الثياب الحمر. الرقم: ضرب مخطط من الوشي. الخمل: الأهداب المتدللية. المقلية: البغض. بأصلي: خد ناعم حسن. يراع: القصب. صوب غادية: ماء سحابة. أزهر: أبيض. بزيل: ما ثقب إناؤه. السيع: الطين. رواع: من الروعة.	٢٢٩
الأذي: الموج أو السيل. الدوالي: جمع دالية وهي آلة السقي. المخدر: الأسد الذي اتخذ الأجمة خدرا. لوعواع: الجلبة والصباح. الكاشحون: المبغضون. المعابل: النصال. منروبة: محددة. القطاع: جمع قطع أي نصل عريض قصير. القارح: حصان انتهت أسنانه. الغرايبات: نسبة إلى جواد اسمه الغراب. الجراء: الجري. المسح: السريع. الإجفيل: النفور.	٢٣٠
عوارير: جمع عوار العين. وهو يعني الجبان سريع الفرار.	٢٣١
قلص الخصى: نزع خصي الرجل. يعني حالة الروع والفرع.	٢٣٢
الكنه: الحقيقة. ثنى: متكرر. رائم: مريد. طارف: جديد. متلد: قديم موروث. تشعبه: تهلكه. ملحد: مدفون.	٢٣٥
توقل: صعد. الوبار: الجمال وذوات الوبر. دمي: الجميلات.	٢٣٦
الصاب: نبت شديد المرارة. السلغ: شجر مر ينبت في اليمن. الشرز: القتل. القحم: مبير السن. ضرعا: الرضيع.	٢٣٨
الحياء: العطاء. العافي: طالب الرزق. الرمس: الدفن.	٢٣٩
العيس: الإبل. الذرى: أعلى الجبل. العلم: الجبل. الأمون: الناقة القوية. ذات معجمة: ذات صبر واحتمال. الكلكل: الصدر. الثواء: الإقامة. كيسوا: كونوا فطنا. تساط: تُخلط. يصلما: يُجدع.	٢٤٠
العيد: ما اعتاد من حزن وشوق. الإبراق: من الأرق. الخلة: الصداقة. أحذاقا: متقطعا. الخبت:	٢٤٣

اللين من الأرض. أرواقي: بذلت مجهودي في العدو. حثحثوا: حركوا. القوادم: ما ولي الرأس من ريشة الجناح. حصا: جمع الحص وهو ما تنثر ريشه وتكاثر. الخشف: ولد الطيبة. الشث والطباق: أسماء نباتات. الريد: الشمراخ الأعلى من الجبل. الشد القبيض: الجري السريع. خلة انصرفت: صداقة قُطعت. تسعسا: ذهب وولّى.	
استقلت: ارتحلت. الغيقوق: ما يشرب بالعشي.	٢٤٥
نسي: الشيء المفقود. تقصه: تتبعه. تبلت: لا تطيل كلامها. نثاها: حديثها. أنكي: أصيب. أوتحت: أعطت. أزلت: قدمت.	٢٤٦
لحي: قبَّح ولعن. المشاش: رؤوس العظام اللينة. العاقي: الطالب للرزق.	٢٤٧
حسك الصدور: شوكتها.	٢٤٨
الضبوء: الاختفاء. المنسر: كوكبة من الخيل. يعني يختفي بالنهار ويسري بالليل. مستسبت: القاعد عن الغارات. الصرماء: الناقة القوية. سوداء المحاجر: مكحلة العيون. أهدج: أمشي رويدا في ضعف. الرأل: ولد النعام.	٢٤٩
البيض أمها: السيف وجلدتها. الرواجب: مفاصل أصول الأصابع. الكراديس: القطع العظيمة من الخيل.	٢٥٠
أم: جمع أمة. الذود: القطع العظيمة من الخيل.	٢٥١
المقمور: المغلوب في القمار. الجفن: الغمد.	٢٥٣
ذو الأرضى: موضع ينبت فيه. جم التراقي: لا حجم لعظامها وقد غمرها اللحم. الأرام: الظباء. المجاسد: جمع مجسد وهو الثوب المشيع بالزعفران. بسابس: جمع بسبس وهو المكان القفر الخالي. الوجيف: السريع إبساس: دون الوجيف. النقر والهزة: فوق الوجيف. العيس: الإبل. حادس: من الحدس أي الظن. دوية: القفر. الورد: الإبل. تزقاء: صياح.	٢٥٥
العائف: الذي يزرع الطير. العلالة: ما يتعلل به ويتلئ. القرون: الضفائر. رنذ: اضطراب. النواصف: الخدم. الدوم: الإبل. تمف: تبرق. فرع ضالة: القوس. الخوص: الإبل الغائرة العيون جهدا.	٢٥٦
خنس: القصيرة الأنف. السخال: أولاد الشاة الصغار. الجأذر: جمع جؤذر وهو ولد البقر الوحشي. الورد: الأحمر. الأصبح: الأشد حمرا. زور: الزائر. تدلج: تسير ليلا.	٢٥٧
تلعا: تكذبا. جفرة: أولاد الغنم. ملامور: من الأمور. الشكة: السلاح. أفوا: أفاها: الأفواق جمع فوق أي موضع الوتر من السهم. أحم الفيتان: الريش الأسود. ممنون: مقطوع.	٢٥٩
مرملي الزاد: من نفذ زادهم.	٢٦٠
مضطمر الحشا: جائع. أتضلعا: امتلئ شبعاً. الأشمط: الذي خالط البياض سواد شعره. البرما: اللثيم. ذي أرل: جبل معروف. الصراد: السحاب البارد. الصرم: جماعة السحاب حشرجت: رددت الصوت والنفس عند الموت.	٢٦١
العنان: سير اللجام. الهبر: قطع اللحم. كعوية: عقدة. نوى القسب: نوع من التمر.	٢٦٢
خيم: طبيعة.	٢٦٣

٢٦٥	الأواسي: النساء المداويات للجراح.
٢٦٦	بيضا: سيوف. خاضبات: مخضبة بالدماء. الرشاش: ما ترشش من المطر.
٢٦٧	اللعبوب: الرشيقة المغناجة. العروب: الضاحكة. شكول: أنواع. قصد: عدل. جبلة: ضخمة. قصف: نحيلة اللحم.
٢٦٨	الخننا: الكلام الرديء. غول: ما اغتال الأشياء وذهب بها. جعجاج: المكان الضيق الخشن. فضفاضة: واسعة. عرائين: رؤساء. موضونة: التي نسجت حلقتين حلقتين.
٢٦٩	الشول: النياق التي تشول بأذنانها للقاح. تحيل: لا تحمل. الفصيل: ولد الناقة الذي فصل عن أمه. ذمر السقب: جسّ مدمره أي عنقه. المقييل: الموت. أنجية: جمع نجي أي السريع. الحفول: المجتمعون. العوان: الكبرى. رهج: الشغب. المحتد: الأصل. يكف: يقطر.
٢٧٤	الململة: الرياح الهوجاء. الأري: محل تحبس بها الخيل. المرتدات: من ردت الخيل رجمت بالأرض حوافرها. الصفون: الوقوف على ثلاثة قوائم. افتلين: قُطمن.
٢٧٥	خضارم: حدائق. جرد: الخيل قصير الشعر. لهاميم: الجواد كثير الجري. الماضي: الدرع اللينة. أشطان: كثير الجري. العقنقل: الوادي العظيم المتسع. أشطان: الحبال. الركايا: الأبار. ججاج: أسياذ.
٢٧٨	الحجال: الخلاخيل.
٢٨٢	النخبات: الجبناء. البروك: الخبيص. المزهري: العود الذي يضرب به.
٢٨٣	قحم: عظيم القدر. أشاط: أحرقه. يريش النيل: نحتها.
٢٨٥	الزرائب: الحظائر. يغبقن: من الغبوق أي شراب العشي. أحلابا: جمع حليب. التعداد: العدو. الفب: الضوامر الحواضر. شوازب: الضوامر. الكماة: الشجعان. أشائب: أخلاط. الكبش: رئيس القوم وحاميم. السبائب: الطرائق. الجأواء: الكتيبة كثيرة الدرور. وضبح البيض: ما وضح منها. سوقة: من سوى الملك. العصائب: الجماعات. الذوائب: الرؤساء. فُرت: كشفت عن أنيابها. الروق: طول الأسنان. غب صادقة: بعد نظرة صادقة. المفاريق: مفارق الطرق.
٢٨٦	غوائل: جمع غائلة أي عاقبة شر. متثلم: أي القاطع يعني السيف. المخارم: جمع مخرم أي الطرق بين الجبال. رجراجة: الكتيبة تموج من كثرتها. متمرة: صلبة. الطرف: البصر. الموضونة: الدرع المنسوجة نسجا مقاربا. متمرة: لقب ملك كان يحرق بالنار. الدخيل: الضيف. تحفى: تُكرم. تُغبق: تُسقى شراب العشي. المضرحي: سنان الرمح. المذلق: المحدد. جزع البتيل: منحى وادٍ لجبل بنجد. عنن: جمع عنه أي الغرفة. الأواصر: جمع أصرة أي الحبال. فيد وساجر: موضعان.
٢٨٧	عيس: الإبل. موقفة: في قوائمها خطوط سود. أرساغ: جمع رسغ وهو مفصل بين الساعد والكتف والساق والقدم. الخدام: جمع خدمة وهو الخلاخال. الوجناء: الناقة عظيمة الوجنتين. جبلة: ضخمة. النسع: سير تشد به الرحال. بغام: صوت الطيبة. النوط: ما عُلق. الجمل الرداح: الثقيل الأوراك التام الخلق. الأحمررة: جمع حمار وهو العير الوحشي. الفرق: الطائفة. الشحاح: جمع شحيح أي البخيل. الكفل: العجز. المطهمة: المُقرّبة المُكرّمة. الوقاح: الصلبة الحافر.

محتبل: الذي وقع في المصيدة. البراح: الأرض المتسعة. تناذروني: خوَّف بعضهم بعضا مي. صدعت: كسرت. الجوانف: المائل أحد شقيها على الآخر. الأعنة: جمع عنان. السراح: السهولة. الثواء: الإقامة. ليانة: حاجة.	
الخود: الفتاة الحسنة. النيم: لين العيش. تعديني: تخلييني.	٢٨٨
العفاء: الهلاك. القب: الضوامر البطون. الشواذب: اليابسة الهزيلة. الكمي: الشجاع. الملكما: المجروح. نصولها: خروجها من موضعها. الطروقة: الناقة. هجانا: الخالص الكريم النسب. الحاصن: الكرمة العفيفة. شارف: كبير. السلة: السرقة.	٢٨٩
الثواء: الإقامة. الوجناء: الناقة الغليظة. الردافي: جمع رديف أي الراكب خلف آخر على الدابة. السبب: القفر لا تبت فيها. السيلحين: موضع قرب الحيرة. العض: العلف. النجاء: السرعة. تحلبت: سالت يعني كأنها السيل في سرعتها. اللوى: ما انعطف من الرمال. خاضب: ظليم. الشقاء: الطويلة. النفتقة: النعامة. الغمب: الأسود. الصرمة: القطعة من الإبل. العزب: المتنحية. العرض: الناحية. مفاضة: درع. الأجرد: القصير الشعر. العسيب: جريدة النخل. مشدبا: المنتقي. رتاعا: أمنة ترعى. يعدنني: تزاورني. المطلق: المددوغ تأتيه الألام.	٢٩٠
تربت يدالك: كلمة توبيخ تعني أفقرك الله. أكفى: أكثر كفاءة. خصاصه: جمع خصاصة. وهي فتحة في الجدار. ذراه: ربوعه المحمية.	٢٩١
مغشم: من الغشم أي الظلم. غير مثقل: حسن القبول. الحيك: الطرائق. النطاق: ما تشد المرأة في حقوها. المهيل: المعتوه. غير الحيض: بقاياها. الزأذ: الذعر. مبطنا: خميص البطن. طمور: الوثب. الأخيل: الشاهين. الراتب: القائم. الزميل: الضعيف. المحمل: حمالة السيف. الفجاج: الطرق الواسعة. مخارم: جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل. الأجدل: الصقر.	٢٩٢
يمع: يدمع. الطليحة: المجهددة.	٢٩٣
الصقعاء: الشمس. بقعاء: اسم ماء. نفر: حكم الغلبة. الربرب: القطيع من بقر الوحوش.	٣٠٥
مدحاة: ميسوطة.	٣١٠
الأيمة: التي لا زوج لها. الحيا: المطر. أكلا: ما يؤكل.	٣١٢
يلمها: يأكلها.	٣١٣
اللحاجة: التردد. الحيزوم: وسط الصدر وما يضم عليه الحزام. معقول: محبوس.	٣١٩
مداحض: المزلات. الجدد: الأرض المستوية. يؤرث: يوقد.	٣٢٠
دنيا: لحما.	٣٢٤
الناب: الناقة المسنة. البلاغ: الكفاية. الجمول جمع حمل. الفلذة: القطعة من الشيء.	٣٢٥
ورى: خرجت ناره. درتها: اللبن كالدر. وامقة: محبة. الصاب: عصارة الشجر المر. الزلالة: سريع المرارة في الحلق بارد عذب صافٍ سهل. ربض: متقاعسين. استطرقتنا: استعنت بنا. جهض: التعب. غمض: النوم.	٣٢٨
خضخاضها: الكثيرة الماء. كبشها: سيد القوم. قشعم: مسن. سورة العز: علامته. الرغد: العطاء. منتقدا: انتقد الدراهم قبضها. أورينا: أوقدنا. أود: اعوجاج.	٣٢٩

٣٣٠	باخعة: حاضعة. نهجت: وضحت. موالج: مداخل.
٣٣١	الغانة: الخونة. بزل: الجمل في سته التاسعة أو الرجل الكامل. حندس: الليل المظلم. حرى: خليق وجدير. النجعة: طلب الكلاً من موضعه. اجتبد: اجتذب. التوقيس: الإجراب. مناقير: جمع منقار وهو حديدة كالفأس ينقر بها.
٣٣٢	السرو: المرؤة والشرف.
٣٣٣	امتطى الهجاج: ركب رأسه. استحقاب: كلمة استفعال من الحقيبة. التورد: الإشراف على الماء. السهمة: القرابة. رافهة: ناعمة. مثرية: متصلة. معرضة: ممكنة. صبور: عاقبة. تقضبت: تقطعت. العلات: جمع علة أي الضرر. الآساءة: الأطباء. وجد به: عابه. المقامة: المجلس. قرفا: خليقا. شرواها: مثلها. مكرم: السيد.
٣٣٤	مط: مد. خزر: نظر الرجل إلى أحد عرضيه. الجخيف: التكبر. التصعر: الإعراض. الأليلة: الثكل. القعساء: الثابتة. الذعاف: السم القاتل. مكشما: مقطوعا. النائرة: الشحناء.
٣٣٥	ساج: ساكن دائم. ضاج: من الضجيج. شعئا: ملبدو الشعر. غربا: على وجوههم الغبار من أثر السفر.
٣٣٨	الزهائر: تحريك البلايا والحروب الناس.
٣٣٩	بسق: علا وطل. المرزئة: المصيبة.
٣٤٢	المقاول: السيد دون الملك. تشاولا: تضاريا. رباء: زيادة. اثارنا: أدركنا ثأرنا.
٣٤٣	بذجا: خروفا. أنطوا: أعطوا. اجتفؤوا: صرعوا. خشلا: نوع من الشجر. ولاح: النواحي والأرقة. غرب الشيء: حده. متهنا: من نهته: أي كف وزجر. تترعك: التسرع إلى الشر. طحمة: السيل. ذرب: حدة. ميسم: المكواة. الأظل: أسفل خف البعير. الموجه: المدقوق. أسختك: جعلتك تفوص. وهصتك: كسرتك. أوهصتك: صرعتك. نفحتك: تناولتك. تريع: تكف. ظلمك: ظلمك. صفا: حجر جلد صلد. وحلا: طينا. الجريض: أي الغصبة من الجرض تعني الريق. اللقى: الملقى المطروح. الروامس: الرياح. السهب الطامس: المستوي من الأرض. الحفزة: الدفع. إيهما: حسبك. يقصبان: يشتمان. يثلبان: يعيبان. يلصوا: يقذفان. يقفوا: يقذفان بأمر عظيم.
٣٤٤	اللقاح: الإبل. الشياح: القحط. لمة: الشعر المجاور للأذن. جمه: مجتمع شعر الرأس. الكماء جمع كهي أي الشجاع. الفقرة: القفر. البكرة: الفتية من الإبل.
٣٤٥	الهبرة: قطعة اللحم.
٣٤٦	ناب من الإبل: الناقة المسنة.
٣٤٧	سود الحدق: سوداء العيون. حمر الوبر: يعني لحمها.
٣٤٨	ابل: اختبر.
٣٤٩	الوابل: المطر الشديد. العمرة: الرقيقة ناصعة البياض. القسورة: الرماه الصيادون. الخنس: ارتفاع قليل في أرنبة الأنف. الأرجوان: صبغ أحمر. أشر الأسنان: التحزير الذي فيها.
٣٥١	حاطب: الذي يجمع الحطب بالليل يعني المخلط في كلامه.
٣٥٢	فسولة: انعدام المروءة.

٣٥٤	الخورنق: قصر في الحيرة.
٣٦٣	غبغب: اسم صنم تعبدته قضاة.
٣٧٤	وطفاء: كثرة شعر الحاجبين والأهداب. كحلاء: من الكحل وهو سواد يعلو الجفون. دعجاء: من الدعج أي سواد العين. حوراء عيناء: من الحور أي شدة سواد مقلة العين مع بياضها. قنواء: من القنوا أي ارتفاع أرنبة الأنف. شماء: من الشمم أي ارتفاع قصبه الأنف. برجاء: من البرج أي تباعد ما بين الحاجبين. زجاء: من الزجاج أي دقه الحاجبين في طول. أسيلة الخلد: أي الطويل المسترسل. جثلة الشعر: أي الكثيف الملتف. بعيدة مهوى القرط: طويلة العنق. مشاش: ما أشرف من عظمة المنكب. سبطة البنان: طويلة. خميضة الخصر: ضامرة. غرثى الوشاح: خميضة البطن دقيقة الخصر. رداح: ثقيلة الأوراك تامة الخلق. القطوف: التي تمشي ببطء. مكسال الضحى: كناية عن المتنعم. بضة المتجرد: رقيقة الجسم. سعفاء: من السعف أي سواد في جبين المرأة الشاحبة. الخنساء: من الخنس أي تأخر الأنف عن الوجه وارتفاع أرنبته قليلا. صناع الكفين: ماهرة حاذفة. قطيعة اللسان: تكف لسانها. تحملق: تنظر بشدة.

تم أخذ معاني الكلمات الغريبة من هوامش المصادر المأخوذة منها تلك القصائد والمقطوعات النثرية ومن الدواوين الفردية للشعراء أصحاب تلك القصائد.

المصادر والمراجع

- أشعار الشعراء الستة الجاهليين، الشنتمري، كتاب إلكتروني؛ طبعة دار الفكر.
- «الأصمعيات»، الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب، تحقيق: أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة ١٩٩٣م.
- «الأغاني»، الأصبهاني أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ؛ وطبعة دار صادر، بيروت.
- «أمثال العرب»، الضبي المفضل بن محمد بن يعلى، تحقيق: إحسان عباس، طبعة: دار الرائد العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- «البيان والتبيين»، الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، طبعة: دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ.
- «تاريخ آداب العرب»، الرافعي مصطفى صادق بن عبد الرزاق، طبعة دار الكتاب العربي؛ وطبعة: دار الكتب العلمية.
- تاريخ الأدب العربي، الزيات؛ أحمد حسن، طبعة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة؛ وطبعة: دار المعرفة، بيروت.
- تاريخ الأدب العربي. حنا الفاخوري، دار التقوى، القاهرة.
- تاريخ آداب اللغة العربية، زيدان؛ جرجي، طبعة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٣م؛ وطبعة دار الفكر.

- 
- «تاريخ الأدب العربي- العصر الجاهلي»، ضيف: أحمد شوقي عبد السلام، طبعة دار المعارف.
 - تاريخ الأدب العربي، فروخ؛ عمر، طبعة: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م.
 - «التعريفات»، الجرجاني علي بن محمد بن علي، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
 - «الجامع المسند الصحيح المختصر»، البخاري أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل، في صحيحه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، طبعة: دار طوق النجاة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
 - «جمهرة أشعار العرب»، القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، طبعة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع؛ وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
 - «جمهرة الأمثال»، العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، طبعة: دار الفكر، بيروت- لبنان
 - جمهرة خطب العرب، صفوت؛ أحمد زكي، طبعة: المكتبة العلمية، بيروت- لبنان.
 - جمهرة رسائل العرب، صفوت؛ أحمد زكي، طبعة: المكتبة العلمية، بيروت- لبنان،
 - «جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب»، الهاشمي أحمد ابن إبراهيم بن مصطفى، طبعة مؤسسة المعارف، بيروت.

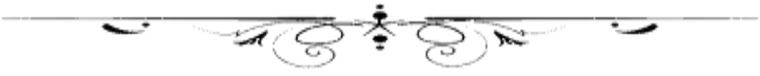
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، الهاشمي؛ أحمد، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، طبعة: المكتبة العصرية، بيروت.
- الحماسة البصرية، أبو الحسن علي بن أبي الفرج، تحقيق: مختار الدين أحمد، طبعة: عالم الكتب، بيروت.
- «الخصائص»، الموصلي أبو الفتح عثمان بن جني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة.
- ديوان الخطيئة برواية وشرح ابن السكيت، دار الكتب العلمية، بيروت
- ديوان الخنساء، شرح: حمدو طمّاس. دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، د.ب.
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، طبعة دار الكتاب العربي.
- «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، الإشبيلي ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، تحقيق: خليل شحادة، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- الرسائل، الجاحظ؛ أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، طبعة: مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
- سبائك الذهب في معرفة أنساب العرب، السويدي؛ أبو الفوز البغدادي.
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، يموت؛ بشير، طبعة: المكتبة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ- ١٩٣٤م.
- «شرح ديوان الحماسة لأبي تمام»، الخطيب التبريزي، وضع فهارسه العامة: أحمد شمس الدين طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

- (٤٠١) -----
- «شرح ديوان الحماسة لأبي تمام»، المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد ابن الحسن، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، طبعة: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
 - «الشعر والشعراء»، الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، طبعة: دار الحديث، القاهرة ١٤٢٣هـ، وطبعة: دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
 - «الصناعتين»، العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، تحقيق: علي محمد البجاوي- محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٩هـ.
 - «طبقات فحول الشعراء»، الجمعي أبو عبد الله محمد بن سلام، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة: دار المدني، جدة.
 - «الفاضل»، المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، طبعة: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ.
 - «الفن ومذاهبه في النثر العربي»، ضيف؛ أحمد شوقي عبد السلام، طبعة: دار المعارف، الطبعة الثالثة عشرة.
 - القبائل العربية وأنسابها، الحارثي؛ علي حسين.
 - القرآن الكريم يحدد ماهية الأدب، الحضري؛ حسن عبد الفتاح، طبعة: مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.
 - «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٧م؛ وطبعة بيت الأفكار الدولية.

- 
- «لسان العرب»، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، طبعة: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.
 - «مجمع الأمثال»، الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة: دار المعرفة، بيروت- لبنان. طبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
 - «مختارات شعراء العرب»، ابن الشجري ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، ضبطها وشرحها: محمود حسن زناتي، طبعة: مطبعة الاعتماد، مصر، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ- ١٩٢٥م.
 - «المسند الصحيح المختصر»، القشيري أبو الحسن مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - «المفضليات»، الضبي المفضل بن محمد بن يعلى، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر- عبد السلام محمد هارون، طبعة: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة.
 - منتهى الطلب في أشعار العرب، ابن ميمون، كتاب إلكتروني؛ وطبعة دار الكتب العلمية.

المحتوى

٧	تمهيد
٧	مفهوم الأدب وتاريخ اللغة العربية
٨	العرب
٨	الساميون:
١٠	العرب:
١٣	موطن العرب:
١٩	تاريخ اللغة العربية
١٩	تعريف ونشأة اللغة:
٢٠	نبذة عن اللغات القديمة:
٢٢	نشأة اللغة العربية:
٢٣	أقسام اللغة العربية:
٢٥	مراحل تهذيب اللغة العربية:
٣٠	مميزات وخصائص اللغة العربية:
٣٢	الكتابة العربية:
٣٢	علاقة اللغة العربية باللغات الأخرى:
٣٤	الأدب العربي
٣٤	المقصود بالأدب:
٣٥	تعريف البلاغة وعلومها:
٣٥	الغرض من دراسة الأدب:

- 
- ٣٦..... عناصر الأدب:
- ٣٧..... مذاهب الأدب:
- ٣٩..... أوزان الشعر وعروضه:
- ٤١..... تاريخ الأدب العربي وعصوره:
- ٤٣..... عناصر البلاغة الأدبية:
- ٤٣..... الفصاحة:
- ٤٣..... عناصر علم البيان:
- ٤٤..... المحسنات البديعية:
- ٤٦..... خاتمة الباب:
- ٤٧..... **الباب الأول**
- ٤٧..... **الأدب في العصر الجاهلي**
- ٤٨..... العصر الجاهلي
- ٤٨..... التعريف بالعصر الجاهلي:
- ٤٨..... البيئة الجغرافية:
- ٤٩..... الأحوال السياسية:
- ٥١..... أيام العرب وحروبهم
- ٥٤..... الأحوال الدينية:
- ٥٥..... الأحوال الاجتماعية والأخلاقية:
- ٥٧..... الأحوال الاقتصادية:



- ٥٧.....الجانب العقلي والعلي:
- ٥٩.....أسواق العرب:
- ٦٢.....الشعر في العصر الجاهلي
- ٦٢.....منزلته ومكانته:
- ٦٤.....نشأته وتاريخه:
- ٦٦.....أغراضه وموضوعاته:
- ٨٥.....الخصائص الفنية للشعر الجاهلي:
- ٨٨.....طبقات الشعراء الجاهليين:
- ٩٠.....المعلقات:
- ٩٣.....رواية الشعر الجاهلي ومصادره:
- ٩٩.....شعراء المعلقات
- ٩٩.....١- امرؤ القيس
- ١١١.....٢- عبيد بن الأبرص
- ١١٨.....٣- طرفة بن العبد
- ١٢٦.....٤- زهير بن أبي سلمى
- ١٣٥.....٥- عمرو بن كلثوم
- ١٤١.....٦- الحارث بن حلزة
- ١٤٧.....٧- عنتره بن شداد
- ١٥٧.....٨- الأعشى
- ١٦٧.....٩- لبيد بن ربيعة

- ١٧٦ ١٠- النَّابِغَةُ الدُّبْيَانِي
- ١٨٩ طوائف من الشعراء
- ١٨٩ أولاً: الشعراء الفرسان
- (المهلهل- عامر بن الطفيل- بشر بن أبي خازم- الحارث بن عباد- الحارث بن ظالم-
عبد يغوث الحارثي- دريد بن الصمة) ١٨٩
- ٢١٠ ثانياً: شعراء الطبيعة البدوية
- (علقمة الفحل- الأسود المهشلي- بشامة بن الغدير- أوس بن حجر- أبو دؤاد
الإيادي- المثقّب العبدي- سلامة بن جندل- الأفوه الأودي- سنان بن أبي حارثة
المري- خدّاش بن زهير- المسيب بن علس- طفيل الغنوي) ٢١٠
- ٢٣٣ ثالثاً: شعراء البلاط
- (عدي بن زيد العبادي- لقيط بن يعمر الإيادي- المتلمّس) ٢٣٣
- ٢٤١ رابعاً: الشعراء الصعاليك
- (تأبّط شراً- الشنفرى- عروة بن الورد- السُّليك بن السُّلكة) ٢٤١
- ٢٥٣ خامساً: الشعراء العُشّاق
- (المرقّش الأكبر- المرقّش الأصغر) ٢٥٣
- ٢٥٨ سادساً: شعراء الكرم والحكمة
- (ذو الإصبع العدواني- حاتم الطائي) ٢٥٨
- ٢٦٤ سابعاً: شعراء القرى
- (قيس بن الخطيم- أبو قيس بن الأسلت- أحيحة بن الجلاح- مالك ابن
عجلان) ٢٦٤
- ٢٧٠ ثامناً: شعراء المذاهب الدينية



- (السموأل- أمية بن أبي الصلت) ٢٧٠
- تاسعًا: شاعرات الجاهلية ٢٧٦
- (صفية بنت ثعلبة- هند بنت النعمان- الخرنق بنت بدر- ٢٧٦
- الجليلة بنت مرة) ٢٧٦
- نماذج من الشعر الجاهلي ٢٨٥
- النثر في العصر الجاهلي ٢٩٥
- نظرة عامة: ٢٩٥
- خصائص النثر الجاهلي: ٢٩٦
- فنون النثر الجاهلي: ٢٩٧
- أبرز خطباء العصر الجاهلي ٣٠٩
- ١- قس بن ساعدة الإيادي ٣٠٩
- ٢- عامر بن الظرب العدواني ٣١٢
- ٣- زهير بن جناب ٣١٤
- ٤- أكثم بن صيفي ٣١٧
- نماذج من النثر الجاهلي ٣٢٣
- ١- مناظرة النعمان بن المنذر مع كسرى ٣٢٣
- ٢- حُطَب وفود العرب على كسرى ٣٢٧
- ٤- من حُطَب قريش ٣٣٥
- ٥- من حُطَب الوفود ٣٣٩
- ٦- من الخطب الحماسية ٣٤١



- ٣٤٢..... من خُطَب المفاخرات والمنافرات -٧
- ٣٤٨..... من الوصايا -٨
- ٣٥٤..... من القصص -٩
- ٣٦٠..... من الحكم والأمثال -١٠
- ٣٧٤..... من الرسائل -١١
- ٣٧٨ الخاتمة

